

مباحث في علوم القرآن

تأليف
عبدالله صالح عماره

الجزء الأول

دار المجة البيضاء

جمعية المحفوظات
الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بتاية رمال

ص.ب. ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٢٨٧١٧٩ / ٠٣ - ٥٤١٢١١ / ٠١

تلفاكس: ٥٥٢٨٤٧ / ٠١ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



المقدمة

بسمه تعالى وبه نستعين وبعد:

كلمة القرآن لا أغنى منها ولا أسمى ولا أغلى. هي الإحياء الحي والعلى امتداد، وهي الإعجاز المطلق ولا شبهة فيه ولا ارتياب، إن في الزمان وإن في المكان "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

حسبه أن يكون كلمة الله العليا، والتي جمعت فأوعت واغتنت فأغنت. إنه يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء. إنه يغني عن جملة الرسائل السماوية أو الإلهية، ولا تغني عنه رسالة.

بهذا المنظار أو الميزان هو الخاتم الأبدي والذي ذكره دواء، وعطاؤه غنى وشفاء ونماء. دراسته دائما مع الكبار الكبار من ذوي الفكر النير، والعلم الجامع، والتعبير القويم لكنها تنقلب قاصرة مقصرة.

الجديد دائم ومستمر في عطائه، واشمولية بعض مناحيه في مفهوم العلم، وتذكر العقل، وخزانة القلب، وهوية الروح.

فكما كان هناك في الماضي هو المعلم الأغنى والأوحد والمحيط، فهو هنا وفي المستقبل الأبدي عطاؤه الراشد وهدايته النور بدون حساب.

علومه الشاملة والمنزهة هي من ذاته وبذاته ولا تحويل لها ولا تبديل. إنها علوم تراعي الإنسان في جملة حاجاته وإمكانياته، في هوية زمانه ومكانه إن في حاضر هذا الإنسان وإن في مستقبله. هذا القرآن هو الأزلي الأبدي لأنه من ذات الله إن لم يكن ذات الله.

العلوم القرآنية الرائدة هي على أنواع وأنواع، وغايتها رسالية ليكون الإنسان على وعي لماهية القرآن عملياً ونظرياً، حسياً وعقلياً.

فكما المؤمن والفاقد لا يستويان فالعالم والجاهل لا يستويان في مدرسة القرآن، لذلك فأينات القرآن علم وتعليم، رشد وإرشاد، هداية وإشراق.

لقد نهض الرسول المختار (ص) والأئمة الأطهار سلام الله عليهم برسالة التبليغ للحاسم والجازم، والتعليم المرشد والراشد، كما قام العلماء القادة والأبرار بدراسة القرآن على ما تيسر لهم فإذا بنا إزاء علوم قرآنية متعددة الجوانب، غنية الموارد والمحتنب، فالإعجاب (التقريط) والشكل (الحركات) اللذان هما من صناعة الخليل بن أحمد، والإعراب (النحو) الذي هو من صناعة أمير المؤمنين (ع) وأبي الأسود الدؤلي هي علوم علماؤها نابيهون، ولها مهمة التي تحدد الحرف والكلمة بالتقريط والحركة لتعلن كيفية ارتباط الكلمة بالكلمة، والآية بالآية فعلاً وفاعلاً ومفعولاً، مبتدأ وخبراً وحالاً وتأكيذاً، جرأً ونصباً ورفعاً.....

أما علم التفسير فهمته توضيح ما التبس، وغايته بيان ما تشابه وشرح ما غمض وحل ما أشكل وإظهار ما خفي، وتعليم الإنسان ما يحتاجه أو يجهله.

لقد كان للتفسير مذاهبه وقواعده، أصوله ومهماته، أغراضه ومقدماته، فروعده واستنتاجاته، أنواعه وحاجاته وعلماءه.

من أنواع التفسير:

التفسير التوجيهي والعلمي، السنيسي والكلامي، الصوفي والأدبي، القصصي والعدي الغيبي والإذاعي الميسر والإعرابي.

في التفسير ظهر الإعجاز القرآني المطلق والدائم فإذا بالقرآن علوم هي على ألوان كالطب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والكيمياء والفيزياء والأحياء والفلك والسياسة والتشريع والأخلاق.

إنها علوم استنباط وإحاطة وكاشفة ورائدة بالتفسير. ظهر الإعجاز القرآني بلاغة وفصاحة ليبدو القرآن في الفصاحة لا يجاري، وفي البلاغة لا يباري. آية واحدة بل آية آية تتحدى ببلاغتها وفصاحتها كل الآثار اللغوية والأدبية.

هذا الإعجاز مسيرته مع كل الناس، ومع كل العصور ولا استثناء. ياله من إعجاز يبدو في الحروف القرآنية في إيحائها وروحانياتها ودلالاتها وفي كونها أعداداً كما هو آخر الاكتشافات القرآنية. بهذا وبغير هذا يستمر القرآن معجزة تتحدى الإنسان في مختلف إمكانياته على جملة العصور.

معجزة القرآن ليست حسية مادية كما كانت مع سائر الأنبياء، إنما هي روحانية عقلية أدبية تخاطب الناس بما يفهمون، وهوبة فهم المعجزة أيام النبوة المحمدية وما بعدها ليست مادية إنما هي عقلية. لولا القرآن وقوله بالمعجزات المتبقية لما كان الإيمان به. أشهر المفسرين الرسول (ص) والأنمة (ع) والطبرسي في مجمع البيان، والزمخشري في الكشاف والطباطبائي في الميزان، والخوئي في البيان، وسيد قطب في ظلال القرآن.

من علوم القرآن بيان منزلته وأسمائه وبيان ماهية لفظه وفنونه من عقيدة وأخلاق وكون ومعاد.

من علوم القرآن أيضاً مسألة الشفاعة وصحتها، والترغيب في تلاوة القرآن وحسن التدبر فيه ومسألة جمعه وترتيب سورته وآياته وظاهرة وحيه، وصدقية مسألة العصمة للأنبياء قبل البعثة وبعدها.

من علوم القرآن مسألة نزوله وكيفيته هل هي منجمة أو دفعة واحدة، وما كان من القرآن من مكّي ومدني، وكيف كان جمعه، وما كان للصحابه من مصاحف، ونجاته من التحريف إن بالزيادة وإن بالنقصان.

من علوم القرآن مسألة العقل فيه، ودراسة تجويده وقراءته، وبراهينه على وجود الله، ودراسة ما لُتير حوله من شبهات وخاصة في أوروبا والردّة عليها، وما كان من تشكيك في صدقه ومصدره جهلاً أو تجاهلاً، تمصّباً أو افتراءً.

لقد كان للنبي كُتّاب رسائل ووحى بسبب أميّته، منهم أمير المؤمنين علي (ع) وزيد بن ثابت. وكما كان القرآن للسطور فقد كان للصدور حفظاً وذكرًا "إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون" فالقرآن هو هو لا تحريف فيه ولا تبديل ولا تحويل، القرآن هو المعجزة الدائمة أو الأبدية بينما المعجزة قبله كانت خارج الكتب السماوية المتألفة.

معجزات السابقين من الأنبياء والرسل كانت ماديّة حسيّة كما في نار إبراهيم، وطوفان نوح، وعصا موسى، وطبّة عيسى ومائدته، حيث إنسان أياهم لا سبيل لفهمه وإدراكه وإمكانياته للأخذ بأسباب العقليّات ومعجزاتها، بينما قرآن محمد يأخذ بهذه المعجزات لكنه يتجاوزها إلى العقليّات التي منها الأدبيّات كما في الفصاحة والبلاغة والتي منها العلميّات كما في الطبّ والفلكيّات والرياضيّات.

اللافت اللافت أن حروف القرآن التي منها تتكوّن اللغة العربيّة هي معجزات علميّة بذاتها، ومن هنا كان الإعجاز القرآني، حروفه ذات الدلالة العددية أو هي أرقام عددية حسابيّة ممّا يشير بالمطلق إلى أن القرآن وحده النّخر الزاخر وحده المرجع الملائم والقادر، وحده المعلّم المحيط، بل هو مدرسة المدارس لتعلّم الإنسان ما لا يعلمه الإنسان على مدى الزّمان، وسعة المكان.

إذن: مع القرآن لا يكون انتهاء في العطاء والتّقنول، بل الابتداء وإن فسي كل العصور، وعلى مدى الزمان ووجود الإنسان.

للقرآن المعجزة أساليب ووسائل تعليمية في الميدان التربوي تعتبر من أرقى الأساليب وأكثرها تأثيراً من الناحية النفسيّة والتعليمية، حيث تبعث في الإنسان روح التحقيق والبحث العلمي.

من هذه الأساليب والوسائل القرآنية أسلوب الخطاب المباشر الذي يخاطب العقل والإرادة والقلب كما في الخطاب الإلهي المباشر " يا أيها الناس اتقوا ربكم " وكما في الأسلوب القصصي " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن " وكما في الأمثال لتقريب الأفكار وإرشاد الناس إلى الحقائق " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " وكما في البيان العلمي كما في قصة ابنى آدم (ع)، وكما في العبرة والموعظة " يا أيها الناس قد جاعتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ورحمة للمؤمنين " وكما في القدوة والاقتداء كوسائل تربوية " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " وكما في الحوار التربوي والإصلاحي ليكون الرد على شبهات المحاورين " وجادلهم بالتي هي أحسن " وكما في المراسلة كقصة النبي سليمان ومملكة سبأ، وكما في الرحلات التعليمية " قلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا لعلهم يحذرون " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " وكما في التجربة العملية لإيصال التجربة، وإيصال الحقائق والمفاهيم العظيمة " وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم " .

ألا يتبين لنا من هذه الأساليب القرآنية الغنية والمتنوعة بأنها سبقت تلك الحداثة في الأساليب العلمية والتعليمية في هذا الزمن ؟

ألا تكون هذه الأساليب رداً على أولئك الذين يدعون الحداثة ؟

ألا يشير ذلك على أنهم جهلوا القرآن الكريم بأساليبه ومعطياته المعجزة ؟

أيها القرآن الإلهي القويم، أيها الإمام الأعظم، يا إمام الأئمة إن في الدنيا وإن في الآخرة، عذراً عذراً لقصورى وتقصيري، فما أنت بالمحاط، ولا أنا فيك

بالمحيط، ومن البداهة أن تكون معجزة المعجزات، وأن أكون التلميذ الصغير الصغير في مدرستك الكبرى التي لا بداية لها ولا نهاية، والتي هي دائماً فوق.

لأنت المنقذ من ويلات الوسواس الخناس، وأنت الآيات الكبرى، والنبا العظيم. هنيئاً لمن ألمّ بآياتك، واهتدى بهديك.

"اللهم ارحمني بالقرآن، واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة.....".

اللهم ذكرني منه ما نسيته، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله لي حجة يا رب العالمين".

حسين حمادة

٢٠٠٤/١١/٦

العلم

ماهية لفظة العلم "والقرآن" وأسمائه

أولاً ، العلم

العلم لغة :

يقال علم علماً - بفتحة وكسرة - أي حصلت له حقيقة العلم .
يقال علم الشيء : أي عرفه وتيقنه وأدركه .
يقال : أعلمه الأمر ، وبالأمر ، أي أطلعه عليه .

فيكون العلم : الحقيقة ، المعرفة ، اليقين ، الإدراك ، ولهذا قيل : إن العلم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع أو هو إدراك الشيء بحقيقته .
والعلم مطلقاً هو مطلق الإدراك الذي يشمل للتصور والتصديق . وقال الحكماء : العلم هو حصول صورة الشيء في العقل .

العلم اصطلاحاً :

تطلق كلمة العلم ويصطلح بها على أحد المعاني التالية :

- ١ . الموضوع ذاته : فيقال علم الفلك ، وعلم الطب ، وعلم النفس ، وعلم التفسير ، وعلم الكلام وهكذا ، ويراد به موضوعات هذه العلوم ، ومسائلها .
- ٢ . معرفة الموضوع : فيقال : فلان علم بموضوع النجوم ، أو علم بالأنساب أو علم بالأنواء الجوية ، أي لديه إلمام ومعرفة بمسائل وقواعد هذه العلوم .
- ٣ . القدرة على معرفة الموضوع : وهي للمعرفة بالقوة ، أي القدرة على معرفة مسائل وقواعد الموضوع وإن لم تكن لها صلة بالفعل .

وأقرب معاني هذه المصطلحات صحة بالنسبة لموضوعنا الذي نبحث فيه هو
المصطلح الأول .
قال الله تعالى :

﴿ ... كِتَابٌ فَصَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت : الآية- ٣ .
﴿ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴾ القيامة : الآية- ١٧ .
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ... ﴾ الفرقان : الآية- ١ .
﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ... ﴾ الطارق : الآية- ١٣ .

ثانياً : القرآن

القرآن في الاصطلاح

- القرآن الكريم أسمى من أن يعرف . لم يستطع العلماء من تعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً :
١. القرآن هو الوحي المنزل من عند الله على رسوله محمد ﷺ والمنقول عنه نقلاً متواتراً^١ نظاماً ومعنى .
 ٢. "هو الكلام القائم بذات الله تعالى ، وما نقل إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً" .
للغزالي ، المستصفى ، ج ١/١٥ .
 ٣. "إن القرآن الذي في المصاحف بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فما بين ذلك ، من أول أم القرآن إلى آخر المعونتين ، كلام الله عز وجل ، ووحيه ، أنزله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وآله ، ومن كفر بحرف منه فهو كافر " . معجم فقه ابن حزم :
مجلد ، ٨٣٢/٢ .
 ٤. "القرآن هو الكتاب المنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا شبهة" أصول اليزيدي ، ج ١/٢١-٢٣ .
 ٥. "القرآن هو كتاب الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله ، والمدون بين دفتي المصحف ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختم بسورة الناس " . عبد القادر عودة : التشريع الجنائي ج ١/١٦٥ .
 ٦. "اللفظ العربي المنزل على محمد ﷺ المنقول إلينا بالتواتر " شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٩٩ .

^١ "التواتر : هو أن يتلقى الكلام جماعة عن الرسول لا تتواطأ على الكذب ثم تنقل هذا الكلام جماعة أخرى ، وهكذا جماعة عن جماعة حتى يصل الكلام إليها دون زيادة أو نقصان أو تحريف .

٧. ويمكن تعريفه بأنه : وحي الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله لفظاً ومعنى وأسلوباً ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر .

القرآن في اللغة :

١. أما تحديد لفظة القرآن في اللغة فقد ذهب الباحثون فيه مذاهب :
 ١. هو اسم غير مشتق من شيء إنه اسم خاص بكلام الله .
 ٢. مأخوذ من القرأ وهو الجمع ، ومنه قرئت الماء في الحوض أي جمعت^١ .
 ٣. لا يقال لكل جمع قرآن ولا لجمع كل كلام قرآن ، ولعل مراده بذلك في العرف والاستعمال لا أصل للغة .
 ٤. كل شيء جمعته قرأته .
 ٥. سمي القرآن قرآناً لأنه جمع السور بعضها إلى بعض .
 ٦. سمي قرآناً لجمعه ثمرات الكتب المنزلة السابقة .
 ٧. لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعنى ﴿ مَا فَزَّعْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام : الآية- ٣٨ .
٨. وقال بعض المتأخرين : " لا يكون القرآن وقرأ" مائته بمعنى جمع لقوله تعالى : ﴿ إِنِ
 عَلَيْنَا جُمُوعُ وَقْرَانِهِ ﴾ القيامة : الآية- ١٧ . فغاير بينهما ، وإنما مائته "قرأ" بمعنى
 أظهر وبيّن ، والقارئ يظهر القرآن ويخرجه . والقرء : الدم لظهوره وخروجه ، والقراء :
 الوقت ، فلان التوقيت لا يكون إلا بما يظهر " .
٩. سمي قرآناً لأن القراءة عنه والتلاوة منه ، وقد قرئت بعضها عن بعض^٢ .
١٠. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن لفظة القرآن مأخوذة من لفظة "قرأ" الآرامية كما
 أخذت لفظة "كتب" من لفظة "كتابه" . لأن هؤلاء المستشرقين يرون أن اللهجات
 الآرامية المختلفة كانت تسود كل بلاد فلسطين وسوريا وما بين النهرين . كما يرون
 بأن حوار العرب لليهود الذين كانت لغتهم الدينية الآرامية قد عجل في انتشار كثير من
 الألفاظ الدينية الآرامية . لقد نقل المستشرق بلاشير طائفة من الكلمات الدينية الآرامية
 والسريانية والعبرية مؤكداً استعمال العرب لها بأسباب الجوار مع اليهود وسواهم من
 أصحاب الملل ، من هذه الألفاظ : قرأ ، كتب ، تفسير ، فرقان ، قيوم ، زنتيق^٣ .

^١ - قال بذلك المحمدي وغيره ، أنظر في لسان العرب مادة : قرأ .

^٢ - راجع كل هذه المقادير في كتاب " علوم القرآن لمرزكشي " جزء ١ ص ٢٧٧ .

^٣ - انظر : مباحث في علوم القرآن للشيخ الصالح ص ١٩ .

ليس عجيباً أن يسمّى الإسلام كتابه بهذه التسمية بعد أن رأينا العرب يتداولون لفظ "قرأ" الأرامي الأصل بمعنى "نلا" حتى أصبحت لديهم وكأنها من صميم اللغة أو كأنها ليست غريبة عنهم في شيء . واللغة تنمو وتستفيد بأسباب التوليد الذاتي والاشتقاق والنحت . وما النحت إلا إدخال لفظة أجنبية إلى اللغة مع مراعاة الصبغة في هذه اللغة . واللغة تنهض بذلك تلبية حاجة وأخذاً بأسباب حركة الحياة .

وكما اختلف العلماء في تحديد المفهوم اللغوي للقرآن فقد تباينت بهم الآراء من جانب آخر حول كونه مهموزاً أو غير مهموز .

إن لفظ القرآن المعرب ليس مشتقاً ولا مهموزاً بل ارتجل ووضع عَملاً على الكلام المنزل على النبي ﷺ . إنه لم يؤخذ من قرأت ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قراناً . ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل^١ . إنه مشتق من قرن الشيء بالشيء إذا ضمّه إليه لأن السور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض^٢ .

وقال الواحدي : كان أين كثير يقرأ بغير همز لأن القرآن اسم علم غير مشتق^٣ . وقال القرطبي : "القرآن غير مهموز لأنه مأخوذ من القرائن ولأن الآيات منها ما يصنق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً فهي حينئذ قرائن"^٤ .

وكيفما انقلب الأمر فإن القول بعدم الهمز يشير إلى أن لفظ القرآن لا يخضع لمادة الاشتقاق . أما الزجاج والنحوياني فهما من الذين قالوا بالهمز .

فلزجاج يذهب إلى أن لفظ القرآن مهموز وهو مشتق من القراء بمعنى الجمع لأنه جمع ثمرات الكتب السابقة ، ومنه قرأ الماء في الحوض إذا جمعه^٥ .

^١ - تاريخ بغداد للحطاب ١٦٢/٢ .

^٢ - التوحد ٢٧٨/١ .

^٣ - المصدر نفسه ٢٧٨/١ .

^٤ - المصدر نفسه ٢٧٨/١ .

^٥ - المصدر نفسه ٢٧٨/١ . والزجاج هو إيراهيم السري ويكنى أبا إسحق صاحب كتاب "مع القرآن" توفى سنة ٣١١ . أنظر أباد الرواق ١٦٣/١ .

أما الليحاني فيقول بأنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، مشتق من قرأ بمعنى تلا^١ .

وأسماء القرآن تتوزع على الآتي^٢ :

كتاب : ﴿ حم (١) وَلِكِتَابٍ الْمُبِينِ ﴾ الدخان : الآية-١-٢ .

إن الكتاب هو مصدر كتب يكتب ككتابة أصلها الجمع . وسميت الكتابة كتابة لجمعها للحروف . في هذه التسمية إشارة إلى جمعه في السطور لأن الكتاب جمع للحروف ورسم للألفاظ . كما أن تسميته بالقرآن إيماءة إلى حفظه في الصدور . وكما أن لفظ " قرأ " مأخوذ من الأرامية فكذلك لفظ " كتب " .

وفي القراءة والكتابة توفر للقرآن ما لا يتوفر لسواه من كتب السماء من الحفظ ومن الصيانة ومن الرعاية . ولطالما الأمور بأسبابها ، ولكل علة معلولها فإن هذه الكتابة والقراءة عملنا على تحقيق الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية-٩٠ .

- فرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ الفرقان : الآية-١ .

ولفظ الفرقان في الأصل الأرامي تفيد مادته معنى التفرقة وفي ذلك إشارة إلى تفرقه بين الحق والباطل .

- كلام : ﴿ ... حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ... ﴾ التوبة : الآية-٦ .

الكلام مشتق من التأثير . يقال كلمه إذا أثر فيه بالجرح ، فسمي الكلام كلاماً لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة لم تكن متوفرة لديه .

- نور : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ النساء : الآية-١٧٤ .

- هدى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ لقمان : الآية-٣ .

- رحمة : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ يونس : الآية-٥٨ .

- شفاء : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ الإسراء : الآية-٨٢ .

- موعظة : ﴿ فَذُجِّعْنَكُمْ مَوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يونس : الآية-٥٧ .

- ذكر : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ الأنبياء : الآية-٥٠ .

- كريم : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ الواقعة : الآية-٧٧ .

- علي : ﴿ وَإِنَّ فِي أَمِّ لِّكِتَابٍ لَّنَبَأً لَّعَلِّيَّ حَكِيمٌ ﴾ الزخرف : الآية-٤ .

- حكمة : ﴿ حِكْمَةً بَّالِغَةً فَمَا تَغْنِ النَّزْرُ ﴾ القمر : الآية-٥ .

^١ اللسان ١/ ٢٨٧ ، والليحاني هو أبو الحسن عبي بن حارم القفري المشهور المتوفى سنة ٢١٥ .

^٢ - قال القاضي أبو المعالي عزم بن عبد الملك بأن الله قد سمي القرآن خمسة وخمسين اسماً .

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾	يونس : الآية- ١ .	- حكيم :
﴿مُصَنَّفًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾	المائدة: الآية-٤٨.	- مهيم :
﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾	ص : الآية- ٢٩ .	- مبارك :
﴿وَاتَّخِصَّمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾	آل عمران : الآية-١٠٣ .	- حبل :
﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾	الأنعام : الآية- ١٥٣ .	- صراط مستقيم :
﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا﴾	الكهف : الآية-١- ٢ .	- القيم :
﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنْ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾	النبا : الآية-١- ٢ .	- نبأ عظيم :
﴿إِنِّهَ يَقُولُ فَصَلْ﴾	الطارق : الآية- ١٣ .	- فصل :
﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْخَبِيثِ﴾	الزمر : الآية- ٢٣ .	- أحسن الخبيث :
﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	الشعراء : الآية- ١٩٢ .	- تنزيل :
﴿وَكَذَلِكَ لَوْحَتًا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾	الشورى : الآية- ٥٢ .	- روح :
﴿إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِقُوحِي﴾	الأنبياء : الآية- ٤٥ .	- وحي :
﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي﴾	الحجر : الآية- ٨٧ .	- المتاني :
﴿قُرْآنًا غَرْبِيًّا﴾	الزمر : الآية- ٢٨ .	- عربي :
﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾	القصص : الآية- ٥١ .	- قول :
﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾	الجالية : الآية- ٢٠ .	- بصائر :
﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾	آل عمران : الآية- ١٣٨ .	- بيان :
﴿وَلَكِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾	الزهد : الآية- ٣٧ .	- علم :
﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾	آل عمران : الآية- ٦٢ .	- حق :
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾	الإسراء : الآية- ٩ .	- الهادي :
﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي﴾	الجن : الآية-١- ٢ .	- عجب :
﴿إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾	المدثر : الآية- ٥٤ .	- تذكرة :
﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾	لقمان : الآية- ٢٢ .	- للعروة الوثقى :
﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾	الزمر : الآية- ٢٣ .	- متشابه :
﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾	الزمر : الآية- ٣٣ .	- صدق :
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾	الأنعام : الآية- ١١٥ .	- عدل :
﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾	آل عمران : الآية- ١٩٣ .	- إيمان :
﴿تِلْكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾	الطلاق : الآية- ٥ .	- أمر :

- بشرى : ﴿ هَذَى وَيُذْرى ﴾ النمل : الآية-٢ .
- مجيد : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ البروج : الآية-٢١ .
- زبور : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الانبياء : الآية-١٠٥ .
- مبین : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يوسف : الآية-١ .
- بشير ونذير : ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ ﴾ فصلت : الآية-٤ .
- عزيز : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ فصلت : الآية-٤١ .
- بلاغ : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ ابراهيم : الآية-٥٢ .
- قصص : ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يوسف : الآية-٣ .

ولربما اجتمع في الآية الواحدة للقرآن أربعة من الأسماء :

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ عبس : الآيات-١٣-١٤ .

ومما ينبغي ملاحظته أن القرآن بعد أن تمّ جمعه أيام أبي بكر أشار بعضهم على أن يسمى إنجيلاً وأشار آخرون على أن يسمى السفر لكن أين مسعود قال : رأيت للحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسوّه به ^١ .

هذه الأسماء المختلفة لكتاب الله وهذه الصفات الغنية الشاملة للقرآن إنما هي المؤشر على أن هذا الكتاب هو دستور الحياة ، هو وحده القادر على تربية الإنسان في شأن قلبه وعقله . هذه الأسماء تنير في نفوسنا الالتفات إلى أن القرآن هو الحكمة والنور والهداية ، هو الفرقان والبصائر والحق ، هو البشير والنذير والذكر والموعظة ، هو كل شيء يلبي حاجة الحياة ويجعل الإنسان خليفة الله في الأرض .

^١ - المظفر في تاريخه هو القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن أبي الدم الحنفي المتوفى سنة ٦٢٢ وتاريخه مختصر بالنسبة للإسلامية " كشف الطلوع " مطبع الزركشي " حره ١٢٨١/١ .

قال تعالى :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : الآية-١٣٨ .
 ﴿ لَا يَأْتِيهِ لِبَاطِلٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ فصلت : الآية-٤٢ .
 ﴿ كِتَابٌ أُنزِلْنَا بِهِ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ إبراهيم : الآية-١ .
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ النساء :
 الآية-١١٦ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ مَسْوُوفٌ يُّؤَسَفُ بِهِمْ أَخْوَرُهُمْ ﴾ النساء : الآية-١٥٢ .
 ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الأنفال : الآية-
 ١٢ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ الطارق : الآيات-٥-٧ . الترائب : هي عظام ما بين المنكبين والصدر .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ نَسَاهَا ﴾ الشمس : الآية-٩ .
 ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس : الآية-١٠١ .
 ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يوسف : الآية-٣ .

﴿ وَعَذَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ النور : الآية-٥٥ .

﴿ بَلَّغْ حُدُودَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ النساء : الآية-١٣ .
 ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة : الآية-
 ١٧٩ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ البقرة : الآية- ١٨٣ .

إنَّ القرآن آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض به سماء ، والسماء منه كواكب .
القرآن كتاب هو محيط المحيط ، يغني عن كل كتاب حق ولا يغني عنه كتاب ، هو كتاب
عبادة ، دستور حياة ، منهج أخلاق ، سبيل نجاة "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " ،
هو كتاب جمع فأوعى ، يختصر الكتب السماوية ويفيض ليزيد ، تعاليمه مسامية ، توجهياتها
راشدة مرشدة ، أحكامه واثقة موثوقة ، قوله الفصل ، وحكمه العدل ، وما هو بالهزل ، بيانه
نور على نور وتدبره عصمة وإيمان ، وإهماله خسران وضوح ، من يغفل أمره ، ويهمل
شأنه يرتكس في ضلال ، ويغرق في اللجج الطامي من الضياع والأهواء : 'كتاب أنزلناه إليك
لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ' ، إن الكلمة إزاء وصفه نخجول ، وإن العبارة إزاء
بيانه لزامرة ، ليس من الغضاضة في شيء أن يعترف لقوله بالعجز عن ولوج بيانه وأن
يتصاغر أمام الباهر والساحر من بيانه .

أليس القرآن وحى التنزيل ، ومعجزة النبوة ؟

أليس هو خاتمة الوحي ليكون وحده للهداية للبشر ، ويكون وحده الضمانة لخير الناس
في شؤونهم على مدى الزمان والمكان ، ويكون وحده الكفالة في تحقيق السعادة القصوى ،
والعناية الخيرة في العاجلة والأجلة ' وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في
الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى وليبيننهم من بعد خوفهم
أمناً " ؟

- لقد كان في فضائل القرآن مصنفات قديمة وحديثة كلها عن وصف للقرآن تدق ،
وكلها تعترف بالعجز عن الإحاطة والشمول ، وهل يصف المحدود إلا محدوداً ،
والقرآن وراء المحدود وخلف النهائية ؟

وصح في فضل القرآن أحاديث نبوة ، وأقوال أئمة باعتبار الجملة وفي بعض من السور
تحديداً .

إن المفسرين الذين كان من شأنهم أن يذكروا فضائل القرآن كانوا يذكرونها في أول
كل سورة لما في ذلك من حلاوة الترغيب وطلاوة التذكير والتحبيب ، وجذبة البحث على

التدبر والقراءة والحفظ والاستلهام ، لقد سئل الزمخشري الذي كان وحده يذكر هذه الفضائل في أواخر السور عن العلة في ذلك فقال: " لأنها صفات والصفة تستدعي التقديم الموصوف".

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: " فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه" ، " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " .

فالقرآن بهذا التحديد النبوي هو أعظم مدرسة للإنسان ، فالخير الخير أن يتعلم هذا الإنسان ويعلمه ليكون الأخذ الأكبر والمعطي الأكبر ، وعطاء القرآن كالسحاب المنهمر أو كالنهر ولا حساب لجريانه إن في ليل وإن في نهار .
وإن القرآن في شمولية نظريته ، وغزارة مآثيه ، وبعد مغازيه ، ودقة معانيه لا يستطيع أن يتناوله بإحاطة تأويل إلا الله و الراسخون في العلم ، والرسول صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى هو الأعلّم بمنزلته وأحكامه وتعاليمه ، وهو الذي صدع به وكان له قريناً في الفضل ، وشريكاً في الهداية ونظيراً في المنزلة .

وقال صلى الله عليه وآله يوماً :

" إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنيما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض " .

هؤلاء العترة وبشهادة النبوة الأمانة -هم الراسخون في العلم- ، وهم القادرون في القرآن على ولوج بابه والخوض في عبابه ، وهم الحافظة لآيه ، والأدلة على المحكم منه والمتشابه ، وإذا كلن لنا أن نتدبر بعض شؤونه ، ونتعرف على شيء من حقائقه ، وموجباته فعلينا بالتحويل إلى مدائن هؤلاء العترة العلمية القرآنية لننسقط بعض الحروف من كتاب فضائل القرآن .

روى الحارث الهمداني قال :

" دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث فدخلت على عليّ فقلت : ألا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد ؟ فقال : قد فعلوها ؟ قلت نعم ، قال : أما إنني قد

١ - البرزقني ج ١ ص ١٣٢ .

٢ - نزار الأيوبي ج ١٩ ص ٦ ، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١١ ص ٤٧ أبواب فضائل القرآن .

٣ - الحارثي .

٤ - الترمذي ج ١٣ ص ٢٠٠ سلفب أهل البيت .

ت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ستكون فتن . قلت وما المخرج منه .
 ب الله ، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس
 ليهزل . هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، فهو
 حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ،
 ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ،
 وهو الذي لم ينزهه الجبر إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا نَمْنَعُ قُرْآنًا ضَجْبًا ﴾ ، هو الذي من قال
 به صديق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم^١ .

ألا تجد في هذا الحديث الشريف الإشارة تلو الإشارة وكل منها موحية معبرة إلى مسا
 للقرآن من منزلة سامية وفوائد غنية وشاملة ؟

حسبنا عبارة " فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم " وما تثيره من اللفتات إلى قسمة
 الأخرى بجزائها ثواباً وعقاباً ، وما تحتمله من إشارة إلى المغيبات التي أنبا عنها القرآن مما
 يقع في الأجيال المقبلة ، وما يمكن أن توحيه معانيها من أن حوادث الأمم السابقة قد تتأني
 معادة ، وتجري بينها في هذه الأمة على مدى زمانها ومكانها لم يقل صلى الله عليه وآله :
 لتركن سنن من قبلكم^٢ .

من الحديث ندرك أن القرآن لا تزيغ به الأهواء ولا تمتد إليه يد التحريف وأنه
 مضمون الحفظ ولصيانة تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ ﴾
 الحجر : الآية - ٩ .

إن في هذا الحديث لوصية وأعية ، ونصيحة ذاخرة بأن النجاة لمن تكون لما في عقائدنا
 وخصوصياتنا وأعمالنا إلا إذا جعلنا من القرآن الحكم الفصل ، والمرجع الأصل ﴿ فَلَا وَزَرَكَ ﴾
 لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿ النساء : الآية - ٦٥ .

والحق الحق نقول : إن القرآن هو المعصمة والنجاة ، لو أقننا حدوده ، وسلكتا دروبه
 واستضاءنا بأنوار هدايته ومعرفته لأمنا الزكال ، وأخذنا بأسباب الحق ، وتحولنا خير أمت
 أخرجت للناس في العلم والخلق والقوة تأمر بالمعروف ونهت عن المنكر .

^١ - بخار الأنوار ج ٩ ص ٧ عن تفسير المنهاشي .

^٢ - هذه التلميح في كلم العتاق ج ٦ ص ١٠ من حديث سهل بن سعد .

وهل غشية العمياء ، وسواد الضلالة ؟ هل الضعف المتأكل ، والفرقة المعطلة ؟
هل الأمواء للمجنونة ، والأباطيل الشيطانية المرذولة إلّا بأسباب خفة الميزان القرآني فسي
قلوبنا وعقولنا ؟

وقال أمير المؤمنين (ع) يصف القرآن :

"..... ثم أنزل الكتب نوراً لا تطفأ مصابيحها ، ومراجاً يخبو توقده وبحراً لا يدرك
قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوءه وفرقناً لا يخذل برهانه ، وتبياناً لا
تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزاً لا تهزم أنصاره ، وحقاً لا تخذل أحواله ، فهو
معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم ، وبحوره ، ورياض العدل وغدراة ، وأثافي الإسلام
وبنيانه ، وأدوية الحق وغيظاته ، وبحر لا ينتزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الحاكمون ،
ومناهل لا يفيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها
الساثرون ، وأكنم لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله رياءً لمعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب
اللفقهاء ، ومحاج لطرق العلماء ، ونواء ليس بعده داء ، ونوراً ليس معه ظلمة ، وحبلاً وثيقاً
عروته ، ومعقلاً منيعاً لزوته ، وعزاً لمن تولاّه ، وسلماً لمن دخله ، وهدي لمن اتسم به ،
وعزراً لمن انتحلّه ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم ، وقلجاً لمن حاج به ، وحاملاً
لمن حملة ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استألم ، وعلماً لمن وعى ،
وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى" ^١ .

بلاغة علوية وكأنها من وحي التنزيل ، ويصدق فيها قول الشريف الرضي "كلام هو
دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق" ، هو كلام في البلاغة لا يبارى ، وفي الفصاحة لا
يجارى ، إنه يغزو للقلوب والعقول في آن .

واستطاع الكلام العلوي أن يستطق القرآن ويستلهمه ليغنيها بلا إيجاز عن التفصيل ،
وإذا بالعبارات العناوين تفصح عن المكنون للقرآني بكل خيراته وما أغنى هذه الخيرات وما
استأخاها ١

فالقرآن في هذه المعجالة العلوية هو نور لا يخبو ، وبحر لا قاع له ، ومنهاج لا يضل ،
وفرقان هو للفصل ، وشفاء من كل اعتلال ، وعز في كل مقام وحال ، إنه ينبوع العلم ومعدن

^١ فتح بلاغة سي إدري الحبيب .

الإيمان وميزان العدل . إنه للعلماء الرِّيِّ ، وللفقهاء الربيع ، وللصلحاء المحجة ، وللضالين الهداية . إنه غرض الإلهاب ، مكتنز المعاني ، متجاوز الزمان والمكان ، وفي هذا المنحى يقول أبو عبد الله عليه السلام :

" إن القرآن حيٌّ لم يمت ، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا " .

لطالما القرآن لمعته الزمان والمكان ، لطالما لا تنقضي له عجائب ، ولا تنطوي له غرائب ، ولطالما هو مسحة إلهية فإن تلاوته تسبيح ، وقراءته تنزيه ، والعيش معه ذكر عابد ، ومنحى عاصم ، وقيام خاشع يقول الإمام الصادق (ع) :

" القرآن عهد الله إلى خلقه ، عليكم بتلاوته ، فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن ، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية رقي درجة ... من قرأ القرآن في المصحف منع ببصره ، وخفف عن والديه وإن كانا كافرين " ^١ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

" إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله تعالى فيه تكثر بركته ، وتحضره الملائكة ، وتهجره الشياطين ، ويضيء لأهل السماء كما يضيء للكوكب النزي لأهل الأرض " ^٢ .
ليس من البهامة أن نتعجب للقرآن شأناً ، وأن نستوحيه إيماناً وعلماً وكشفاً ؟

إن الذين لا يتفكرون في معاني القرآن ولا في مقاصده ، ويقرؤونه قراءة لسان لا قراءة فكر أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، أولئك لهم آذان ولكن لا يسمعون بها ، ولهم عيون ولكن لا يبصرون بها ، ولهم قلوب ولكن لا يفقهون بها ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْئَالًا ﴾ محمد : الآية - ٢٤ . يقول علي بن الحسين عليهما السلام : " آيات القرآن خزائن فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنتظر ما فيها " ^٣ .

إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع آخرين ، يرفع أهل تدبره بمقولهم ، وأهل تذكره بقلوبهم ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم : " أهل القرآن هم أهل الله وخاصته " كما يضع القرآن أولئك

^١ - أصول مكاني : كتاب فضل القرآن .

^٢ - المصدر نفسه : كتاب فضل القرآن .

^٣ - أصول مكاني : كتاب فضل القرآن .

المستخفين بميزانه ، أولئك الذين ليست قراعتهم له واعية ولا خالصة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا
التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ الجمعة : الآية- ٥ .

ليس أغنى من القرآن الكريم ، عناوينه موجية ، مشتملاته خصبة ، مضامينه حية ،
أفكاره توقظ غفلة ، وترشد من ضلالة ، فيه دواء ينعش وحيوية تثير ، حسمه الإقناع
والإثارة ، والترهيب والترغيب لينعش حليف القلب والعقل ويلون شروط ، احتوى بين دفتيه
روحاً تتجند بحيويتها ونضارتها ، انطوى على قوانين وأنظمة ترسم للإنسان طريق رشده ،
وتخط له دروب خلاصه وأمنه ، قوانين تعيش مع الإنسان لتربطه بشبكة متواصلة مستوددة
تصله بربه وللناس ، وتنفعه صلاحاً مع الله ونفسه والحياة ، وتتركه مصلحاً مع الآخرين يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر .

للقرآن موضوعات وقضايا وفنون يتوزع بعضها على الآتي :

١ . العقيدة :

وعنى القرآن بالعقيدة ورعاها حق رعايتها ، والعقيدة في مدرسته جذر وأصل ، ركن
وقاعدة ، والرسالات السماوية كلها تنبع منها العقيدة هذا الموقع ، لقد أراد القرآن العقيدة
على سلامة وحفظ وقوة ، وأكد عليها بحرص ، ووثقها ببراهين ، وألح بها على مداة .
قيم الإنسان من زوايتها ، بمقدار ما تتأصل العقيدة المؤمنة للصحيحة في أعماق الإنسان
بمقدار ما يصلح سلوكه ، وتسمو قيمته ، وتستقيم أموره في مفهوم القرآن .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء :

الآية- ١١٦ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ أَخْبٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ

أُجُورَهُمْ﴾ للنساء : الآية- ١٥٢ .

فالعقيدة في القرآن قلب مؤمن ، ولسان مصدق ، ويد عاملة منفذة .

- إيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لا كفؤ له ولا ولد .
- إيمان بالرسول وتصديق برسالاتهم وكتبهم وأنها خارجة عن ذواتهم لا من ذواتهم .
- إيمان بالملائكة وأنهم خلق مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
- إيمان باليوم الآخر وأنه الحصاد لموسم الأعمال ، وأنه من أهم أصول الإيمان .

إيمان بالعدالة الإلهية المطلقة التي لا شبهة فيها :

- ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَسَمْتَ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ الانفال : الآية- ٥١ .
﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ غافر : الآية- ٣١ .
﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ النحل : الآية- ١١٨ .

٢ . الأخلاق :

إن الإنسان بأخلاقه ، وإن قيمته بملوكه ، والحامة الخلقية هي انبعاث داخلي فطري ، والقانون الأخلاقي مطبوع في النفس الإنسانية منذ نشأتها : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ الشمس : الآية-٧-٨ .

ولكن الأخلاقية المطبوعة يعتمدها النقص العاجز لا لأن المادة والبيئة والمصالح المباشرة تلقي صنوفاً من الظلال على نور بصيرتنا الفطرية بل الضمير إذا اقتصر على مصالده الفطرية وحدها ألم به عجز عن تقديم قاعدة عامة تستأثر باعتراف الجميع .

لهذا ولغير هذا ، أرسل الله رسله بالوحي لإيقاظ الضمائر ، وإزالة الغشاوة عن اللور الفطري المكنون فينا .

لا مكانة للأخلاق كاملة بدون عقيدة ، لأن المؤمن يتعرف في هذا النداء الداخلي على صوت معبوده ليستمد منه القوة والنور ويشعر بأنه يرتبط بهذا المعبود أي ارتباط ، لذلك فهو حين يتوقف أو يسقط لا يستلذ سجن اليأس ، إنه سيعاود الوقوف على قدميه ومتابعة المسيرة ، فالأخلاق لا تجد لها مكاناً أكثر خصوصية تزدهر فيه من ضمير المؤمن وقلوب المؤمنين .
إن الخضوع المطلق يعتبر نفيًا للحرية بل هو نفي للأخلاق ذاتها ، فالأخلاقية القرآنية تستبعد للخضوع المطلق مثلما تستبعد الحرية للفوضى واللامسؤولية .

إن الأخلاقية الحقيقية هي التي تضع الضمير الإنساني في موقع يتوسط المثالية والواقعية وتجعله يجمع بينهما ، وباحتكاك القاعدة المثالية بالحقيقة الحسية يحدث التعديل بالمثالية لتلائم الواقع .

والإلزام الخلقي في القرآن تندرج عليه مسؤولية وشروط الشريعة في المسؤول هي البلوغ والعقل ليكون واعياً اشتكاف خلال ممارسته ، إنه مسؤول عن أفعاله ، ولا تحويل

لثواب العمل أو عقابه من إنسان إلى آخر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام : الآية- ١٦٤ .

إن مسؤولية الإنسان تمتد إلى الحالة التي يترك فيها الشرور تنتشر دون أن يتدخل مائعاً أو فاضحاً ، لأن " السكت عن الحق شيطان أخرس "١ .
فالمسؤولية من إزامها القدرة على التحكم في الفعل أو الامتناع عنه لأن المسؤولية هي تأكيد الحرية . قد تكون رغبة أو مصلحة أو إحصاءات تحرك الإرادة لكنها لا تنتج القرار لأن القرار النهائي هو للإرادة وحدها بعد أن تكون قد استجفت إلى رغائب الحواس ، ويواعث الخارج من ناحية وإلى نداء الضمير من ناحية أخرى .

إن العمل في القرآن ميزان النية : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " .

من الخلط الضائع ، والظلم المخالف لشريعة الجود ألا يتبع العمل جزاؤه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والجزاء القرآني إما إصلاحي يتجسد بانتوبة الصدق ، وإعادة الحقوق إلى أصحابها ، وإما استحقاقي يعادل أعمالنا إن في الثواب وإن في العقاب ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ سورة الزلزلة : الآية-٧-٨ ، وهل قانون الطبيعة يوزع " بزاء على التفضيلة والرديلة على غير هذا الخط الملائم والعادل ؟ لكن مما يثير الانتباه هو أن هذا الجزاء الديوي من آياته النقص وعدم الشمول فتكفلت العدالة الإلهية بإزالة هذا النقص في محكمة الآخرة .

حين يكون الله هو لغاية الأخيرة في نوايانا وأعمالنا نكون في قمة الظهور ، وجلوة الصلاح .

كل حضارة تمتاز بطابعها في تعريف الإنسان الأخلاقي .

فالمادية تقصر الوجود على الظاهر المحسوس فلا تصل الإنسان بالقيبيات والمجردات . والدين من مبادئ الإيمان بالروح والجسد ، والاعتقاد بالطبيعة وما وراءها ويذهب إلى أن الإنسان يسئل بالله لتتربأ أمام هذا الاتصال ظاهرة أخلاقية هي نتاج هذا الاعتقاد .

فالمذاهب الهندية وما شاكلها تعزف عن المادة ورغائب الجسد . وتقنع الشهوات ، وتنشد الخلاص من لعنة الولادة والموت .

١ ... حديث شريف .

وحضارة الصين تميز الإنسان بالمعرفة كما كانت الفلسفة الإغريقية التي تجد بالمعرفة خلاصه ، ومرآته الخلقية .

هناك من يعتقد بأن الفضيلة إنما تكون بالقوة والبأس والسيادة ، وهناك من يجدها بطلب الأمن والدعة .

إن الأخلاقية اللادينية تقيم الإنسان من خلال المكاسب العاجلة التي انقلبَت أساس المجتمع المدني .

أما الأخلاق الدينية فتحترم المنافع الشخصية ولكنها ترعى منافع الآخرين لتدفع الفرد إلى نشدان ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائزته . من أجل هذا الثواب المميز صاغت التوراة الميثاق الخلقي الأول للإنسانية في وصاياها العشر وساق الإنجيل توجيهاته في عظة المسيح على الجبل ، ولكنها أخلاقية سلبية سواء في التوراة وسواء في الإنجيل .

أما القرآن فينهض مبداءه على الموقف السلبي الأمر والنهي وعلى الموقف الإيجابي المقتل .

فالإنسان في القرآن قوامه روح وجسد والأمر بينهما اعتدال ، إن الإنسان ليس جسداً محضاً وإلا كان شيطاناً أو حيواناً ، وليس روحاً صرفاً وإلا كان ملاكاً . فالإنسان في القرآن هو الإنسان بالروح والجسد .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾
الأعراف : الآية-٣١-٣٢ .

تربية النفس هي لئق تربية لأنها أحوج ما تحتاج إلى معرفة الذات بفطرتها الأصلية، لأنها متداخلة العواطف ومتشاحنة المشاعر .

لئن كان من إنجاز العلم المعاصر الآلة ، فإن من منجزات الإسلام الإنسان في عقله وقلبه وجسده .

يقول غوستاف لوبون لفرنسي :

"إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها".

يقول صلى الله عليه وآله وسلم مبرراً الغاية النهائية لبعثته :

" إنما بعثت لأتكم مكارم الأخلاق " .

إن الأخلاقية القرآنية كانت مثار إعجاب الكبار من غير الهيئة الإسلامية لأنها منهج يعتبر نسخة مفردة في تاريخ الإنسانية ، منهج سوي يخرج الإنسان المتفوق .

فالمذاهب التربوية مجالها صنع المواطن الصالح ، لكن القرآن وحده يكفل إنتاج الإنسان الصالح ، وكما من الفرق بين المواطن والإنسان في الاتساع والشمول والعمق !
لعل ميزة القرآن في التربية كونه يتناول الكائن البشري في مجموعه لينفذ إليه من منافذه الطبيعية ، يحرك كل أوتار حسه ونفسه . يوقّع على أوتار الحب والكراهة ، الخوف والرجاء ، الواقع والخيال ، والحسنة والمعنوية ، الفردية والجماعية ، السلبية والإيجابية .

إنه يربي الإنسان بالقدوة للصالحة ، والموعظة الحسنة ، والقصة الحية . كما يربي به بالعبرة المحمودة والأحداث العملية ، والتجارب الصادقة .

إن القرآن بمنهجه الأخلاقي الرائد ترك الأمة العجيبة . ولئن شهد الزمن تناسل هذه الأمة مرقاً فليس إلا للتكرار الوقح للمنهج القرآني للفريد :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الرعد : الآية - ١١ .

يمكن القول : إن المسلم يجد في القرآن الكريم في الحقول الأخلاقية نظرياً وعملياً ، ويمكنك إضافة القول : بأن الإنسانية كلها وعلى مداها في الزمان والمكان ، وعلى ما قد ينتابها من تغيرات صيقة في الوجود سوف تجد في القرآن دائماً القواعد التي تنظم نشاطها الأخلاقي ، وسوف تجد فيه الحوافز المثيرة لوجودها ، والأمثلة العليا التي تهتدي بها في دروب حياتها .

لما للقضايا القرآنية في الأخلاق العملية فتتوزع في دراستنا كالآتي :

أ. الأخلاق الفردية :

صفاء الروح ، الاستقامة ، العفة ، السيطرة على الشهوات ، لجم الغضب وكظم الغيظ ، الإخلاص ، الوداعة ، التواضع ، التحفظ في إصدار الأحكام ، الامتناع عند الشك ، المثابرة ، التحمل ، الاقتداء بكطيب من الأمثل .

بـ التحريمات :

الانتحار ، بتر الاعضاء ، تشويه الجسم ، الكذب ، النفاق ، البخل ، الإسراف ،
التفاخر ، الحسد ، الفسق ، الحرص على متاع الدنيا ... الخ .

جـ الأخلاق العائلية :

الواجبات نحو الأبناء والزوجة والأرحام .

دـ الاخلاق الاجتماعية :

تحريم القتل ، السرقة ، تبديد أموال اليتامى ، الخيانة ، ردّ الوديعة ، كتابة الوديعة ،
مراعاة اليهود ، شهادة للصدق ، إقرار الوثام بين الناس ، التعاطف ، الاحسان ،
تحرير الرقيق ... الخ .

هـ قواعد للتائب :

الاستئذان قبل الدخول ، خفض للصوت ، المبادرة بالتحية ، الرد على التحية بأحسن
منها ، للقول الحسن ، حسن الهندام .

وـ الأخلاق السياسية :

العلاقة بين الحاكم والحكوم ، أخلاقية العلاقات الخارجية .

زـ الأخلاق الدينية :

واجبات الانسان نحو الله .

٣ . الكون :

ولكم كان للقرآن من وقفات متمهلات إزاء الكون !
لكم كانت له من دعوات للإنسان لينفكر في خلق السماوات والأرض مستقراً
الأسرار ، متأملاً الغرائب والمجانب من خلق الله ، متعرفاً على مواطن البقّة وروائع
الاتساق والانسجام في الكون العظيم ليطل على عظمة الخلق من خلال المخلوق .

بهذا التوجيه السامي لعقل الانسان يكون الكشف المبدع للجاهل ، والتمدد الواسع في
المعرفة ، والسبيل الناجح لتعمير الأرض ، واستقلال هذا الكون ، والتعرف على الله تعزّياً

بقيتاً يعتمد الاقتناع والاطمئنان لا التخمين والظن لا الاتقياد والتقليد . وإيمان الاهتساع في القرآن خير من إيمان التقليد ، والقرآن هاجم العقائد المقلدة لأن التقليد في الإيمان والاعتقاد مرفوض حسب الميزان القرآني ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس : الآية- ١٠١ .
﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف : الآية- ٢٣ .

إن هذه الدعوة الملحة الواعية كانت جذيرة بأن تجعل من المسلمين رواد الكون والفضاء ، وفرسان الكشف والفكر والعلم والحضارة في العصر الحديث كما كانوا في عصورهم للذهبية الخالية لأن هذه الدعوة لا تتخلف عن واجبها مع أي عقل وأي زمان ، والرائع فيها طاقاتها الفريدة التي تنتقل على أكتاف الأجيال من جزية إلى كلية ، ومن خاص إلى عام ، ومن حاضر إلى مستقبل . هذه الدعوة تلح على دراسة السماء بأفلاكها وموازينها كما لا تتخلف عن دراسة الأرض ببحرها وبرها ، بحيواناتها ونباتاتها ولسانها ، برياحها وتكوينها ونوازمها .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرَةِ كَيْفَ خَلَقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الغاشية : الآية- ١٧-١٩ .
﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السُّرُورُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ الطارق : الآية- ٥ .
﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ الأنبياء : الآية- ٣٠ .
﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ الأنبياء : الآية- ٣٠ .

٤ . الأمثال والتقصص :

- القصة القرآنية جليلة النفع رائعة المشهد .
- إنها إطلالة الحاضر على الماضي للعيش مع أشرف شخصيات العصور الماضية.
- إنها استعراض الماضي بدلهاء العريضة وما فيها من حياة غنية ، وما يكتنفها من مشاهد ملونة وموحية وسخية .

حببت القصة القرآنية من شرف أنها تعرفنا على صفوة خلق الله ، أولئك هم الراشدون المرشدون الذين خاضوا المعركة العبقريّة بالإيمان لا بالسنن ، تلك القوة الغدّة المتحدية التي كانت تهباً بجبروت الشر وطاغوت الباطل .

لظالما كانت تتألب على النبوة عناصر الجحود والعناد وتبقى النبوة بإرادتها إيماناً وتلتزم طريقها حركة وحسباناً !

كيف تتراجع بالنبوة الخطي ، وتتوقف معها الحركة ، وإن كانت دربها مزروعة بالاشواك والعساوير وكل وسائل التخويف والإرهاب .

فالأنبياء هم الذين ارتضوا أن يتحملوا مسؤولية النبوة وما أُنشئها من مسؤولية !

عن أي الأنبياء تحدثكم قصة القرآن ؟

كلهم مع العبقريّة المفردة - وإن كانت الأميّة - على لقاء حميم .

لئن ساقطنا القصة القرآنية إلى إبراهيم (ع) فلنأثر في برد وسلام أمام إيمان !

ولئن تحوّل بنا إلى نوح (ع) فالجهد الصابر قد تمدّ عمره ألفاً من السنين أو يزيد !

قد تتطّلق القصة بنا إلى موسى (ع) وفرعون مثاله ، وبحره مفرّج : هناك نجد عقيدة

موسى لا تتأل منها الأهوال وإن كانت مزلزلة ، ولا يخيفها طاغوت وإن كان عاصفة

مزمجرة !

وقد تأخذ هذه القصة بأبيدنا إلى عيسى (ع) ، وقطاع الطريق ويخاذ الآفاق يحاسرون

قتله وما كان لهم أن يدالوا منه لا صلياً ولا قتلاً !

وقد نرسل القصة القرآنية نظرة متمهّلة إلى محمد صلى الله عليه وآله وهو طريد

تقيف ، وشريد قريش ، وجريح أحد ، وسجين الشعب ، ولسانه يتحدّى بكبرياء المبدأ ، وسمو

العقيدة ، وعمق الإيمان قائلاً :

" فوالذي نفسي بيده لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بيساري على أن أترك هذا

الأمر ما تركته لو أهلك دونه " .

إن القصة القرآنية هي تاريخ طويل للفضال الصعب ، يعرض على شريطه ألوان

الإنسانية بنماذجها للرائدة مع الأنبياء ، وأصنافها المنحطّة والشريرة مع أهل الغباء والفساد !

وإن القصة القرآنية هي سلاسل حافلة بالتجارب الواعظة ، والحكم البالغة ، إنها تقود

الإنسان إلى رشد ، وتفعه عن شيء ، وتنبهه إلى سواء السبيل .

إذن في القرآن قصص وأمثال تروي لنا أعظم أحداث الإنسانية بمساق مثير ، وسرد حي ، وتصوير كأن اللوحة في اللوحة ، والمشهد في المشهد :

- ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يوسف : الآية- ٣ .
﴿ فَأَقْصَصُ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف : الآية- ١٧٦ .
﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ آل عمران : الآية- ٦٢ .
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف : الآية- ١١١ .
﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبُتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ هود : الآية- ١٢٠ .

فالقصة القرآنية هي تاريخ الحياة الماضية بخيرها وشرها ، خيرها للتشجيع ، وشرها للعبرة والموعظة .

إن الأمثال للقرآنية هي حكمة هذه القصة ومغزاها ، فالقصة القرآنية صححت التاريخ والمعائد ، والمثل القرآني جاء دراسة صادقة محكمة لهذه القصة .

لكم هي كثيرة القصص والأمثال للقرآنية !
لقد بلغت هذه القصة من الصنق والثقة مبلغاً لا ترقى إليه قصة أو حكمة أو مثل أو موعظة أو صورة .
قصة هي من الفرائض التي لا يطمع فيها بليغ .

وإن الأنبياء والرسل كثيرون لا تحيط بهم حصراً وعداً لاتحة الإحصاء :
﴿ ... مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ شافى : الآية- ٧٨ .
هذه القصة وأمثالها التعليمية الواعظة هل حملت العربية وغير العربية في صحتها أدق وأروع منها في تصوير الكثرة المجتمعة أجسادهم ، والمترقصة قلوبهم ، ولرواحهم ومشاعرهم؟

﴿ تَخْشِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ الحشر : الآية- ١٤ .

وهل يجد المرء أبلي أدباً وأسمى حكمة من قوله تعالى :
﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِالْمَغْرِبِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ الفرقان : الآية- ٧٢ .

أو أشدّ تصويراً للطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم ، وفرصهم بما لديهم
من هذه الآية :

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَئِنِهِمْ فَرِخُونَ ﴾ الروم : الآية- ٣٢ .

لعل الكتب المؤلفة في سير الأنبياء الأظهر ورسله الأبرار كثيرة كثيرة ولكن حفظها
في ميزان التحقيق يخف ، وفي منهاج الامتحان يسقط .

إن مؤلفي القصص النبوية كثيراً ما يجمعون بين الحق والباطل ، وكثيراً ما يقرنون
الصواب إلى الخطأ ، وينظمون المقود من الدرّ والخزف ، وينقلب نتائجهم جملة من الواقع
والخيال ، الواقع والخرافة حيث لا يعمتون التحقيق الباحث ، ولا الدراسة الموثقة للمسندة
ومما ينبغي ملاحظته أن للمفسرين مناهج ثلاثة في فهم القصص القرآني :

أولاً : المنهج التأويلي :

والتأويل هو إخراج اللفظ من دلالاته الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل
ذلك بكلام العرب من حيث تسمية الشيء بإسم سببه أو شبيهه ، وبتعبير آخر : إن التأويل هو
صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر .

إن صاحب التأويل قد يحكم فيه مجرد الاستبعاد لما يؤديه من المعنى الظاهر . وكثيراً
ما يقصده بعض الباحثين دفعاً لما يثيره خصوم القرآن في القرآن . يدخل في هذا المنهج
تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى (ع) ، بإحياء الرّوحى ، وحمل النمل في قصة سليمان
على أنه قبيلة ضعيفة ، وما نقله البيضاوي عن بعض الصوفية ، في معنى المائدة التي أنزلها
الله بأنّها حقائق المعارف التي هي غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن .

هذا المنهج التأويلي وضع أسسه الباطنيون في القرآن وتمادوا فيه وجنحوا ، وهذا
المنهج يلقي عندنا من القبول بمقدار ما يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبّر تعبيراً صادقاً
شريطة أن تسمح للغة بذلك دون نقضاء على أصل ديني ودون النيل من عقيدة ثابتة وإذا لم
يكن أمر هذا المنهج كذلك فهو المرفوض المردود .

ثانياً : المنهج التخيلي :

الذي يتفق مع المنهج التأويلي ويختلف في أن . فهو في صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية يلتقي معه ، وهو في تخيل ما ليس واقعاً يختلف معه .

إن هذا المنهج لا يقول بلزوم الصدق والحدوث للخبر القرآني إنما هو ضرب من القول يشبه بوجه من الوجوه حكايات مخترعة تدور حول أشخاص خياليين مخترعين أو تأتي على أسنة البهائم والطير للإيحاء فقط بحكمة الحكايات ومغزاها من حث على فضيلة أو تنفير من رذيلة.

ألا ترون بأن القرآن إذا انقلب فهمنا له على هذا النحو من الخلط والخيوط والادعاء بأنه قد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن التقوى روعة الحق فيه ، وتزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار ؟

ثالثاً: المنهج المسرف :

في قبول الروايات والقائم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة في فهم لقصة القرآنية واعتبار ما ورد متصلاً بالقصة بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن ، كما اتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بياناً أو تفصيلاً أو إكمالاً لما ورد من أحكام ، وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدراً ثانياً للتشريع ، اعتبر هؤلاء الروايات الواردة في القصة مصدراً ثانياً للقصة بعد القرآن الكريم .

ولئن اتخذت الأحاديث التشريعية مصدراً ثانياً للأحكام فما ذلك إلا لأن العلماء مخصوصوا وميزوا بين صحيحها وضعيفها خلافاً للروايات فإنها لم تمتد إليها يد التمهيص والتحقيق. إن هذا المنهج مصاب بداء الإفراط المتوافر في كثير من كتب التفسير فيما ينصل بقصص الأنبياء مع أمهم كما هو الشأن في قصة بني إسرائيل في التيه وكما هو الحال في وصف للمائدة التي أنزلها الله .

أما منهجنا الذي نختار ومن أجله نرفض هذه المناهج الثلاثة المترددة بين الإفراط والتفريط في شأن القصص القرآني فهو الذي يمكنه أن يحقق للغاية المرجاه من القصة بعبرتها وعظمتها وسماتها للحق للمطابق للواقع الذي لا مزية فيه ولا تزيد ولا تخيل .

منهجنا غاية الوقوف على ما ورد في القرآن مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هي تعبير دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتماداً على روايات لا سند

لها ودون تحييف لمعانيها باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن واقع ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى من غير صlarف يمنع إجراء الكلام على ظاهره كما فعل أهل التأويل الذين حرّقوا كثيراً من القرآن عن مواضعه وخرقوا قانون العربية التي نزل بها^١.

لامنوحة للباحث من اتباع قواعد في البحث ثابتة ، ولا بدّ للقصاص من منهجية وخطة تصلان به إلى النتائج التي لا لبس فيها ولا إربتياب .

على القصاص القرآني أن يتبع منهجه الخطوات أو المراحل الآتية ليكون عمله مأموناً وموثوقاً:

١. إن العقل هو ركن المعتقدات الأول فما أرجبه كان واجباً ، وما أحاله كان محالاً ، وما أجازاه كان جائزاً .
٢. إن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قضي الثبوت والدلالة فهو حجة حاسمة وقاطعة على ما تضمنته : وذلك يشمل شيتين : الكتب الكريم والخبر المتواتر عن السنة والأئمة .
٣. إذا عارض الخبر العقل وجب تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض .
٤. الخبر إذا كان رواه أحاداً فلا يصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقائية لأن الأمور الاعتقائية غايتها القطع ، أما الخبر الظني والاحتمالي الثبوت أو الدلالة فلا يفيد القطع .
٥. ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريقة الأحاد وبلغ حد الشهرة أولاً فإنه مردود ومرفوض لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء .
٦. ما نقل مما يشعر بكذب أحد الأنبياء أو معصيته وكان النقل متواتراً ، فما يمكن صرفه عن ظاهره صرف إن أمكن وإلا فهو غير مقبول .
٧. المعجزات لا تثبت بخبر الأحاد لأن المطلوب فيها اليقين وخبر الأحاد لا يقين فيه .
٨. إنكار المعجزة الثابتة بنص قطعي الثبوت والدلالة كفر .
٩. الإسرائيليات لا حرج في مخالفتها ولا في إنكارها بالجملة والتفصيل .

^١ - راجع تفسير شتوت ص ٤١ .

١٠. كتب العهد القديم والجديد ، ما كان منها موافقاً للقرآن فهو حق ، وما كان فيها مخالفاً للقرآن فهو باطل ، وما كان القرآن ساكتاً عنه فلا تقطع بصدقه وكذبه ، ويجوز نقله والاستئناس به .
١١. أقوال المضمرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه^١ .

هذا هو مختصر الحديث في القصة القرآنية المعلمة ، وأبطالها الأنبياء الذين هم كبار وكبار في الصلاح والإصلاح ، أولئك الذين أعطوا الإنسانية مجدها ، ورفعوا عنها كوابيس الأوهام ، وأزَلُّوا صدا الإهمال ، وشرور الشياطين ، وكشفوا غشاوات الباطل وسواد الفجور لتعود إلى فطرتها أصيلة تخلو من الأدران والشوائب وترتع في ربيع البهجة والسلامة .

إن شريط دراستهم هو ملادة مشتتة أينما وقعت عليها يدك فإنها لا تقع إلا على خير كثير . إن قصتهم هي أم المدارس للمؤمنين وغير المؤمنين.

٥. الوعد والوعيد " المعاد " .

- هناك في القرآن ترغيب وترهيب ، وعد ووعيد ، وفي جملة هذه الجوانب نقرأ البراعة للغة التي تسيطر على الإنسان في حسنه ووعيه .

في الترغيب أمر مشتبه بفعل فعل السحر .

وفي الترهيب إفزاز يأخذ الإنسان من أقطاره .

من ذا يرد السيل إذا انهمر ، والموج إذا هدر ، أو حُمَّ القضاء ونزل القدر ؟ هو ذا القرآن المفزع ؟

ومن ذا الذي يترك اللوحة المتزاوجة المتفاعلة بعد أن يسكب فيها حيوية الحسن ، وعبقري الذوق ، ونضارة الجمال .

هو ذا ليس شيئاً مذكوراً إزاء اللوحة القرآنية التي هي نسخة مفردة .

في الحياة حلوة الإيمان ومرارة الكفر ، معادة الصالحين المصلحين ، وشقوة الفاسدين المفسدين .

^١ - راجع كتاب "تفسير الأنبياء" : عبد الوهاب الحار .

في الآخرة الجنة النعيم ، والجحيم المقيم . الجنة عالية ، قطوفها دانية ، لا تسمع فيها
لاغية ، فيها عين جارية وفي الآخرة النار السعير ، عليها ملائكة شداد لا
تُقي ولا تذر ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّلُمِ (٤٢) طَعَامُ الْإِثْمِ (٤٤) كَلَّاهِلٍ يُغْنِي فِي النَّبُتُونَ (٤٥) كَفَّاهِلِ
الْحُمِيمِ ﴾ الدخان : الآية-٤٣ .

❖ الموت :

الحياة زوال ، والدنيا فناء ، والموت حق ، بين المهد واللحد كلمح بالبصر .
أرأيت للظل الزائل ، والسحابة المسرعة نحو التبدد والتواري ؟
أشاهدت الشريط السينمائي الذي يتحرك بمشاهده التي لا تعود ؟
هكذا الزمن ودورته ، وهكذا العمر وأطواره ورحلته .

سيدنا الأمير (ع) يقول :

"ما أسرع الساعات بالأيام ، والأيام بالشهور ، والشهور بالسنين ، والسنين بالعمر ؟"
لاتجاء في الأمر ولا التجاء إلى أمر ، فالوقت وموعده والعمر وأجله .
أيهم فلتت وإن كانت البروج المشيدة والحصون المدرعة ؟
﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ الجمعة : الآية-٨ .
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت : الآية-٨٧ .

الله وحده القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، هو الأول والآخر ، هو الذي خلق الموت
والحياة ، منه للمبتدأ ، وإليه المنتهى .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن : الآية-
٣٦ .

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْرِفِينَ ﴾ الواقعة : الآية-٦٠ .

❖ المعاد :

هو اليوم الآخر الذي يعيد الله فيه البشر إلى الحياة في عالم آخر غير عالمنا ، بعد أن
يأتي الفناء على الكون والإنسان ، فيحاسب الله فيه الناس بما عملوا في حياتهم لهذا الدنيا ،
إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وإن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث للحياة جديد وحساب على الأعمال دقيق ، هو واحد من الأعمدة الثلاثة للعقيدة الإسلامية . إن هذا المعتقد هو الذي يمدّ الإيمان بأشء ويرسّله بالحياة ويعمّقه في الضمائر والمشارع ، لترتبط به جملة الآثار الدينية في الحقل العملي من ملوك الإنسان وممارساته .

وهل الإنسان أي إنسان أن تكون دوافع عمله ونشاطه إلا الرغبة أو الرهبة ، اللهم وكثيرون يمتّهم طائف من العذاب المدمر إزاء فكرة الموت ؟

معظم الناس يستمرّسون مشاكليين :

لماذا المجيء إلى هذه الدنيا ولماذا الذهاب ؟

ليس في ذلك اللغو العابت ؟

ولماذا القليل والأكل في الطبائع ؟ ولماذا القبح النافر والمرض الجارح ؟

ما حاجتنا إلى ولادة يتبعها موت وما بينهما وحدها الشقوة ؟

أولئك المتشاكليون الذين يحملون دائماً العلم الأسود ويعبون عند متنفّس الصباح ، وينفخون سواد الليل في وجه الفجر ، أولئك الفلاسفة المتشاكليون المضطربون كثيراً ما طوّقت أعناقهم فكرة الانتحار خلاصاً من اللاجدوى في الحياة ، وهروباً من أباطيل القدر وعيبتيته . يقول بولدير للفرنسي : " أخطأ عدم فكّن الوجود " . ويقول المعري :

حياة ضنى ، وموت عنا فليت بعيد حمام دنا

هؤلاء الذين يجنون التغاها في الحياة ، والعبثية في القدر ، واللاجدوى في كل شيء ، ويمتلك أمرهم الخوف من الموت ، هؤلاء يعيشون في الأفق الفكري الضيق والقشري للمانيّة حيث يرتعشون فرعاً وهنأ من الموت لأنه لا تجد فيه نظريتهم إلا عدم .

هؤلاء الذين يمضّهم العذاب من تحطيم الجسم لأن الجسم في اعتقادهم الملاذي الخاطي هو كل حقيقة الإنسان .

أما الذين اطلعوا على حقيقة اللؤلؤة المكنونة في أعناق الجسم الإنساني فيعتبرون أنفسهم حكماء العصور لأنهم يجنون في مغادرة الجسم الأمر اللاذ ، والملكة اليسيرة .

ألم يقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :
"كما تقامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون" *

ألم يجد فيه أمير المؤمنين (ع) الفوز المنتظر ، والنصر المبين ، ولذّة الغامرة حين
قال بعد الجرح القاتل ، والضرية الغائرة عمقاً في الجبين " فزت ورب الكعبة " ؟

وقال أحد العرفانيين : " لا تخف من مرارة الموت فإنّ مرارته تكمن في الخوف منه " .
وتبعه آخر بقوله " نحن نعتبر الحكيم حكيماً حتى يستطيع بإرادته أن يخلع بدنه " .

ولماذا نتوجّس من الموت خيفة؟
هل لأنه قوة طاغية تُنْطَلُ الحياة والأحياء ، ونرى الحياة إلى جانبه ضئيلة واجفة مذعورة ؟

قليل قليل من التفكير يجعلنا نرى الموت قوة هاشمية ضئيلة ، وكسيرة حميرة إزاء
قوى الحياة الزاخرة للطائرة الغامرة ، وما يكاد يصنع شيئاً إلّا أن يلتقط الفتات الساقط التافه
من مائدة الحياة ليقفّات !

لن مدّ الحياة الزاخر هو ذا يمجّج من حولنا .
كل شيء إلى نماء وتدفق وازدهار .

الأمّهات تحمل وتضع والناس والحيوان في ذلك سواء ، الطيور والأسماك والحشرات
تدفع بالبيض للمفتّح عن حياة وأحياء ، الأرض تتفجر بالنبات المشرق بالأزهار والثمار .
السماء تتدفّق بالمطر وتبحار تضجّ بالأمواج ، ما على هذه الأرض ينمو ويزداد .

بين الحين والحين يندفع الموت فينهش نهشة ويمضي ، والحياة ماضية فسي مسيلها
متدفقة فوّارة ، لا تكاد تحسن بالموت .

لقد تصرخ الحياة مرّة من الألم حين ينهش الموت من جسمها نهشة ، ولكن الجرح
سرعان ما يندمل ، وصرخة الألم سرعان ما تستحيل مراحاً ... ويندفع النسل والحيوان ،

* - ويقول الخيام : قال من أعيش في صبح سجن الوحدة ؟ نبي وجدت طرفي إلى عدم ! .

* - هو للفيلسوف الإلهي "كبير" "مزدما" .

* - هو للفيلسوف الإنساني الإسلامي السهروردي .

الطير والأسماء ، العشب والأشجار تنمو وجه الأرض بالحياة العامرة الغامرة ، والأحياء
لزارعين الحاصدين ، كل شيء إلى نماء في العدد والنوع ، في الكم والكيف .

لو كان الموت يصنع شيئاً لتوقف مد الحياة .

من قوة الله الحي تنبثق الحياة وتقوم .

إن المؤمن لا يفزع الموت لأنه أعطى الكثير وفرح العطاء عنده يستوي وفرح الذين
أخذوا .

ولئن مات المؤمن دون أن ينتهي مطاف عمله ودون أن يتمكن في بنائه من وضع
الحجر الفقل فلن تأكل قلبه الحسرة ، لأن آخرين سوف يتابعون ويكملون ، ولأن موكب الحياة
مستمر في مسيرته ، ولأن العناية التي تلحظ هذا الوجود لن تدع فكرة صالحة تبور ، ولا
عمالاً حيّاً يموت .

اللهم إلا الذين اصطفاهم الله واجتباهم ، وما كل الناس بعلي (ع) للقتال :

" إلهي ، ما عبيتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك "
ويقول :

لئن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة
التجار ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار * .

قضية المعاد تفهم من خلال أصليين اثنين هما : الإيمان المطلق بوجود الله الخالق
المدير الحكيم الحي المريد ، والإيمان بصدق النبوة المحمدية وتعاليمها . من ينكر هذين
الأساسين ينكر ما يتفرع عنهما ، ويرتبط بهما ، ويدور في فلكهما ، ألا وهو المعاد .
في الموت مذهب لكلمة الوحي ومعها كلمة العقل المؤمن النير ، وفي الموت مذهب
للكلمة الملحدة الجاحدة والعاينة .

فالوحي والعقل معنا يذهبان في الموت على أنه ليس إعداماً ولانهاية لجولة الحياة
والإنسانية ولكنه جسر للعبور ، وقنطرة للمرور من دار إلى دار ومن عالم إلى عالم ، فإما
رشك وإما شقوة كما في شاعرية المعري وكما هو المنطق والوحي ^١ .

^١ - يقول المعري : إنا تنقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد .

أما لغة الملائكة المعطلة فلا ترى بوجود حياة بعد هذه الحياة ، وجاء على يد أحد أساتذتها الأول أبيقور :

"ما دمنا أحياء فلا موت ، وإذا متنا فلا حياة " .

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَافًا لَّئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ الإسراء : الآية - ٤٩ .

إن مصدر الخلاف بين المذهبين أمران :

أ . إيمان بالوَهة قادرة خالقة لكل شيء وإيمان بالزواج الإنسان وتركيبه من روح وجسد .

ب . إنكار للتجريد وما يتبعه من الوَهة وروح لا موجود إلا المادة ، ولا كائن إلا المحسوسات المشخصة .

ويترتب على هذين المذهبين نتائج مختلفة في العقيدة والأخلاق .

ليس النزاع الحاد بين لغة الإيمان ولغة الإلحاد وحوّل حقيقة الإنسان وتركيبه جديداً إنما هو مع التاريخ في كل لحظاته . وهل الناس إلا بين مؤمن وجاحد ، بين خير وشرير ، بين عالم وجاهل على شريط الإنسانية الطويل ؟

❖ مسألة المعاد للبعث في معتقدات الشعوب :

إن عقيدة الحياة بعد الموت ليست قصراً على الديانات السماوية إنما تتعداها إلى جملة من العقائد غير التوحيدية وغير السماوية .

إذهب معنا إلى أعماق التاريخ فليس إلا أن تستوقفك عقيدة الحياة بعد الموت بارزة لدى المجوس الزرادشتيين والمصريين القدميين وغيرهم .

لقد برزت هذه العقيدة لدى بعض الشعوب والديانات بصورة التقمص الأبدي الذي يعني دورة لانهائية من الولادات والموت في جسم إنساني .

هناك التناسخ الذي يقضي بخلع الروح للجسد فتحلّ هذه الروح جسداً آخر من إنسان أو حيوان أو نبات صعوداً وهبوطاً عند بعض الشعوب .

والروح عند آخرين تتحول بعد الموت إلى نور يكون به نعيمها أو إلى ظلمة يكون به عذابها .

١- قيل للإمام زين العابدين (ع) : ما الموت ؟ قال :

للمؤمن كنز ثياب وسخة وفك قيود وأغلال إلى أفخر الشباب ، وأنس المنازل ، وللكاثر كخلع ثياب فاخرة إلى أومعها وأخشنها ، ومن المنازل الأنيسة إلى أوحشها وأعظم العذاب .

٢- وقيل لأبي ذر : ما لنا نكره الموت ؟ قال :

لأنكم عمرتم الدنيا ، وخرّبتُم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب .

٣- وقال رجل للإمام الصادق (ع) :

لصحيح من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، ومن أبغض لقاء الله أبغض لقاء الله ؟ قال نعم . قال الرجل : والله إننا لنكره الموت ! قال الإمام (ع) : ليس ذلك حيث تذهب : إن المؤمن حين الفزع يرى ما أعد له من الثواب فيحب أن يقدم عليه ، وغير المؤمن يرى ما يكره من العذاب فيبغض لقاء الله .

٤- وقيل : هو أشد من المناشير ، والقرص بالمقاريض .

٥- وقيل : لا شيء أهون منه ، فإنه كنسمة الصبح ينس الإنسان لرقعتها وطيبها .

وهناك شعوب تقول بتجرّد الروح بعد الموت من المادة حيث تختزن لذتها فيكون بذلك نعيمها لو تختزن ألامها فيكون بذلك شقاؤها الأبدى .

ديانات قديمة تذهب إلى أن الروح تتعلّق بأجسام أثرية شفافة غير مرئية بعد مفارقة الجسد .

استعرض الآثار المصرية وغيرها من النواويس وما فيها من جثث محنطة وأموال وذخائر ، لتستخلص أن القدماء كانوا يتوقعون قيامة الحياة بعد الموت !

لماذا إقامة التماثيل للعظماء ؟

ولماذا لا يستطيع الناس إلاّ الانحناء أمامها وإعظامها ؟

لماذا وضع أكاليل للزهود على الأضرحة ؟

ألا يمكننا إزاء هذا- ملاحظة توافق البشرية على الاعتقاد بحياة ثانية بعد الموت من

القديم ؟

ألا نجد في ذلك أن هذه الظاهرة هي أصيلة في فطرة الإنسان ووعيه ، وأنها ليست طارئة على عقائد الشعوب ، إنما لها عمق في وجدان البشر وشعورهم السدين بالخلود والبقاء ، وأعمالهم وأنارهم التي تشير إلى إعتقادهم في الحياة بعد الموت .

لو قرأت العهد القديم "التوراة" لوجنت أشياء يصف يوم الرضوان في الإصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول :

" يضع رب الجنود لجميع الشعب في هذا الجيل وليمة سمانن . وليمة خمر " ^١ .
وفي (دانيال ١٢ : ١-٤) :

" وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار للآلرداء الأبدية " ^٢ .

وفي العهد الجديد " الانجيل " تعابير عن النعيم المادي والعذاب المحموس :

" هذه الدنيوية جهنم " ^٣ .
" والنار الأبدية " ^٤ .
" وقيامه للدنيوية والحياة " ^٥ .

" وفي نقصاء العالم يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ويطرحونهم في أتون النار " ^٦ .

" وأن الصالحين أصحاب اليمين يرثون الملكوت المعد لهم منذ تأسيس العالم ، وأصحاب الشمال الملاعين يذهبون إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملأكته " ^٧ .

وفي القرآن إشارات جازمة قاطعة إلى حصول الحياة والبعث بعد الموت :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ للفجر: الآية-

.٢٧

^١ - انظر العليقة القرآنية للعقائد ص ٢٦٥ .

^٢ - كتاب عقائدنا للصادق ص ٢٣٧ .

^٣ - متى - ١٢ : ٣٤ .

^٤ - متى - ٢٥ : ٤١ .

^٥ - يوحنا - ٢٨ : ٢٩ .

^٦ - متى - ١٣ : ٤٩ و ٥٠ .

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكُمْ حَسْرَةً عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ق : الآية- ٤٤ .

أما المادية الجديدة فلم يكن منها إلا رفض هذه الظاهرة بأصولها ولوازمها حيث تقول :
" إن عقيدة الأخيرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم حرّ مستقل عن حدود هذا العالم وعن مشكلاته ، منيء بالأفراح ، وأنّ الذي يدفعه إلى هذا أمله في الحصول على حياته المفصلة ، التي لا جهد فيها ولا كدح ، وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسان إلى عالم مثالي وخيالي ، حيث علم بأنه سوف يظفر به بعد الموت ، ولكن الحقيقة أنّ لا وجود لشيء كهذا للعالم في الأمر الواقع " .^١

❖ الشخصية - الأنا - النفس :

إن شخصية الإنسان من خصائصها الاتصاف بالعلم والإرادة والعقل وتحمل التبعات ومسؤولية الأعمال .

لكن ما هي هذه الشخصية ؟

هذه هي هذا البدن المادي المحسوس ليكون الإنسان قصراً على المادة أو هي هذه الثنائية المؤلفة من روح هي وراء الحس وهي الفاعلة المدركة التي تتحمل نتائج أفعالها ومن جسم هو الأداة والآلة لصنع أفعالها وتنعكس عليها إرادتها وأفكارها .

إن المادية من تعاليمها أنّ الإنسان مادة وليس مزدوجاً ، فالعقل والحب والخوف والكره والتصور إنما هي عوارض طارئة وموجودات حادثة تتبع الجسم وجوداً وهدماً ، ضعفاً وقوة . إن مصدرها الجسم لأن المادة هي العلة الأولى لذاتها . وهي نقطة البدء في ظواهر الطبيعة . أما الروح فهي صنعة الوهم الضائع ، والخيال الشارد ، والخرافة الساذجة .

المادة هي الإله وهي القديمة والأزلية وعنها ينعكس الحسن ، ويصدر للوجدان ، وينبعث التفكير .

لا علاقة للمادة بعالم الغيب إنها خالقة وليست مخلوقة ، صانعة وليست مصنوعة .
لا موجود إلا المادة ، ولا حقيقة إلا المحسوسات . يقول هوبس وهيوم وغيرهما من فرسان المادية :

^١ - راجع : كتاب الإسلام يتحدث عن ٩١ .

"إن الإدراك ينشأ من حركة الذرات في الجسم".

وتذهب المادية إلى أن ذرات المخ وإفرازه والجهاز العصبي وتركيبه هم الذين يولدون
الفكرة ويصنعون الحس. فالإنسان مادة خالصة. قال فوريباخ:
"إن إله الإنسان هو الإنسان".

وترى المادية بأن الخلفية الحية المنشئة عن المادة إنما تترقى بالتطور والتركيب على
سبيل التدرج والتواصل والتلاصق حتى تكتسب خصائص الحياة الكاملة.

يترقى التركيب بالمادة إلى مرتبة النبات فالحويان، فالإنسان العاقل.

لكن المادية عجزت عن تقديم دليل واحد على حدوث الحياة بمثل هذا النحو وهذا
التركيب، وعجزت عن ذكر سبب مادي مقبول يشير إلى أن المادة التزمت سلم النشوء
والارتفاع طبقة فوق طبقة منذ الأزل الذي لا يعرف ابتداء.

فالمادية أعلنت أن الروح ومظاهرها من الشعور والإدراك والعلم غير موجودة
كظاهرة متميزة أو منفصلة عن جسم الإنسان المادي، وإنما هي في ذاتها وظيفة لذلك الجسم
ونتيجة لعلاقته بالعالم الخارجي، فالمعاملات المادية هي المنتجة للأفكار والرغائب كما تنتج
الحرارة عن احتكاك قطعتين من الحديد. فالوعي بمختلف مظاهره ما هو إلا نتاج مادة عالية
التنظيم، نتاج نشاط الدماغ، بل هو وظيفة الدماغ^١.

فالإنسان في هذا المذهب ما هو إلا جسده وجميع مظاهره ليست إلا ردود أفعال
لمواقف ظرفية وحاجات مادية وحوافز حياتية من جوع وعطش وجنس. إن كل ما هو
روحي هو وظيفة للمادة في أعلى أشكالها العضوية نتيجة النشاط العملي الاجتماعي وليس
شيئاً قائماً بذاته، مستقلاً عن المادة^٢.

لا روح، لا خالق، لا يوم آخر، لا غيبات ولا وجود لكانن غير مادي.

^١ - عرض موضح للمادية الماركسيكية ص ٦٠.

^٢ - الموسوعة الفلسفية ص ٦١٣.

هذه هي المادية ومبيلها في هذا الصدد وهذه هي تفسيراتها الغارقة في مواد الظلمة وضبابية الغموض .

لما التجريدية المؤمنة فتلتل نقلاً وعقلاً بأن النفس قائمة بذاتها ، مجردة عن الجسم ، ليست من مواليد ، ولا من طينته .

إن فكرة استقلالية النفس عن الجسم لها جذورها في الديانات السماوية وخاصة الإسلامية . هناك مسألة البرزخ وأسئلة القبر وغيرها مما يعسر فهمه دون اعتبار أن النفس موجودة ومبرأة من المادة ومستمرة بعد الموت .

قد تصدّى للفلاسفة المسلمون لهذه المسألة وكانت لهم مباحثهم المطوَّنة والمستفيضة في هذا الشأن من حيث المناقشات والافتراضات والتدليلات . ولكن حظ النجاح لديهم لم يكن موفوراً ولا أنلتهم أحياناً مقنعة ، بأسباب تجرد النفس وغيبها عن دائرة الحواس والتجارب . مما قرزته المذاهب المؤمنة أن كلمة "أنا" أو "أنت" لا يقصد بها الجسم إنما يقصد بها وجود هو وراء الأعضاء .

ليس كل إنسان قادراً على الإدراك والإحساس ، فالجمعية قاصرة وعاجزة .
إن إرجاع كل شيء إلى سببه وعلة هو إدراك فكري لا مادي .

فالمادة ليس لها فكر ولا إرادة :

" لا يجوز أن تكون قوة جسمية تدرك صورة عقلية ، فإن كل قوة تكون ذاتها جسمانية تكون أفعالها وانفعالاتها أيضاً جسمانية " .

لا يصدر عن الجماد حياة ولا عن المادة إرادة وشعور .

إن العلم الراقي بين مختبرات العصر يعترف بعجزه عن خلق إنسان سوي ، وإذا كان العقل باهراً والعلم الحديث معصوماً في موقف الجيل فلماذا تأخذ هذا الجيل الغفلة عن جانب الإيمان في نظرية العلم والحديث ؟

لماذا يشيح الجيل بوجهه عن تعاليم تجريبية لا تعمل إلا بالمادة وتحليلها وتركيبها ؟

" ولماذا لا نصرح بصوت جهوري إن هذا العلم الذي نفخر به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتنفلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وإن

- انفسوف الاسلامي الكرم صفر الثالين : أنظر كتاب فلسفة الفيلسوف الشهيد باقر الصدر .

الطبيعة الحقيقية للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلمّ بها عقولنا .
فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متوازناً وجريئاً في آن واحد ، متوازناً لأن علومنا
ضئيلة، وجريئاً لأن مجال العوالم مفتوح أمامه " ^١ .

إن هذه القولة المتواضعة الجريئة الواثقة تقرر معتقداً الإسلامى في المعرفة والمادة
ويبدو من خلال هذا كله أن في الجسم شيئاً يبعث الحياة والحركة والشعور والإرادة والتفكير
هو أولى من الجسم بالخلود والبقاء لأنه سبب جماله وحركته ونموه . إنه لا يرى ولا يلمس
ولا يوزن ولا تعرف ماهيته ولا حقيقته . وإذا كانت المادة لا تتعلم في مفهوم العلم الحديث بل
تتحول من شكل إلى شكل ومن حال إلى حال ، وإذا كان الجسم لا يغنى بل يصير إلى ترابه
بأشكال متغيرة متباينة فأولى بهذا للخلود أن يكون للعالم الذي يبعث في الحياة والحركة التي
يسمّيها القرآن بالروح .

إن القرآن قرّر الحقيقة التي تحث عنها العالم الفرنسي بقوله:
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء :
الآية- ٨٥) .

أية ذرة لو جزئية ليس لها فكر !
أي اتحاد للعناصر لا يتولد عنه رأي !
لكن كائنات حية معينة خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تستظم شيئاً
تطعيه جزئيات المادة .

ما هو هذا الكائن الحي ؟
هل هو ذرات وجزئيات ؟
إنه شيء غير ملموس ولا محسوس ، هو أعلى من المادة ، ويسيطر عليها ويسيرها .
إنه شفاف لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم ليست له قوانين تسمّيه . إنها
روح الإنسان التي هي سيّدة مصيره . إنها تحمّل المادة فتدبّ فيها الحياة ، إنها تحل في الجسم
فيتملّ ويفكر ، وتفرقه فيكون مادة جامدة " ^٢ .

^١ - عن مقدّمة كتبها العالم الفرنسي شارل ريشيه عضو المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا في جامعة الطب الفرنسية للكتاب :

"الفنولوجيا العلمية" تأليف "ماكسويل" الناشر العام في بوردو بفرنسا .

^٢ - انظر كتاب : الإنسان لا يقوم وحده ص ٢٠١ ، العلّامة كرمي موريسون .

لنا أن نأخذ بهذه الأقوال التي يقول بها علماء محدثون ، أقوال تقضي بأن الجسم لا ينشئ الحياة ، وأن الطاقة للمادة لا تولد القوة الحَيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها وتهيأت لخدمتها. إن المادة ليست صانعة للحياة ولكنها تصلح لاستقبالها وتلبية توجهاتها ورغائبها حين تستكمل تركيبها على النحو المعروف في الرحم .

فالجهاز الذي يصلح بالتركيب لاستقبال الكهرباء لا يصلح وأجزاؤه متفرقة أو مجتمعة على نحو لا يصلح أن يكون موطناً لهذا الاستقبال.

ولعل الفيلسوف الإسلامي المتأخر صدر المتألهين الشيرازي قد أصابه نجاح أكثر من سواء حين قال بالحركة الجوهرية التي هي الجسر بين المادة والروح .

فالمادة عند فيلسوفنا تتكامل في وجودها وتستمر في ارتقائها حتى تتجرد من مائيتها ضمن شروط معينة وتصبح كلئناً روحياً لا مائياً ولكن لا فواصل بينهما . فالفرق بين المادية والروحانية هو فرق درجة واحدة كالفرق بين الحرارة الشديدة والحرارة الأقل منها درجة . فالروح ليست نتاج المادة إنما هي صنعة الحركة الجوهرية لأن هذه الحركة هي الجسر بين المادية والروحانية .

لأسباب كهذه تتقلب العلاقة بين الروح والجسم وثيقة مشدودة ، كل منهما يؤثر في الآخر إنها متممات لهذا الكائن بالتعاون والتساند لا بالتدابير والتنافر خلافاً لكثير من المذاهب الدينية ، سملوية كانت أم غير سملوية فإنها تقول بالتناقض الخالص بينهما ^١ .

وكيفما انقلب الأمر فإن حديثنا ينتهي إلى أن مسألة الروح شائكة وعسيرة ومعقدة سواء فهمناها جوهرًا مجردًا ينهض بحياة الأجساد لم فهمناها ظاهرة مائية .

قال أحد الماتيين :

" الخير ألا نفكر في نفوسنا إطلائاً تقادياً للإصطلاحات " .

ورغم أن للنفس غائبة عن حواسنا وغير خاضعة للتطبيق التجريبي ، ورغم أن تفسيرات الفلاسفة غير مقنعة في شأنها أحياناً فإن أعمالاً تصدر عن الإنسان محال أن تكون

^١ - راجع كتاب شمسنا لإمام الشهيد السيد باقر الصدر ص ٢٧٠ .

مادية أو خاضعة لقانون المادة إنما هي نتاج أمور لا تلتقي مع الجسمية في شيء ، ولا تحمل من المادة أية خصيصة . يمكننا أن نتحدث في هذا الشأن عن قضايا منها:

﴿ أولاً :

إن ما يقال له "الشخصية" أو "الأنا" لا تتصل بالبدن وليست منه بسبب ، فلو كان الإنسان منهمكاً في أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى أنه يقول : فعلت كذا وفي مثل هذه الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه. وقد يقول : أنا مشيت أو أنا نمتُ دون أن يخطر بباله عند ذلك حركة رجله أو إنسان عينه إنما يشير بذلك إلى نفسه .

إن لمزاج الإنسان أحوالاً تتبدل وتباليين ، وقد تذهب أحياناً إلى درجة التناقض فيما بينها. وهذا التناقض يميل بالكيان الإنساني إلى التفتك. من هنا نشأت الضرورة في وجود قوة تصهر كل المتناظر من أحوال المزاج الإنساني وتقرب ما بين الشيء ونقيضه ، حتى تجنس كيان المرء كل تحلل . هذه القوة الجامعة الموحدة المنظمة في "الأنا" هي النفس .

ومن جانب آخر لو قطعت أذن الإنسان أو اقتلعت عينه ، أو بترت رجله أو يده ، فإن شخصية هذا الإنسان لا يطرأ عليها تغيير . كل ذلك يشير إلى أن "الأنا" هي شيء آخر مستقل عن البدن ويرتبط به سلوكه وأعماله وحركاته ومسؤولياته ^١ .

وإن "الأنا" "الشخصية" تلعب دوراً هاماً في علم النفس الحديث ، ويرد بعض علماء النفس أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلاً تعتمد عليه هو النفس ، وإن ضعف هذه الوحدة أو انعدامها لا يقضي إلا بضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها ^٢ .

^١ - راجع ابن سينا في كتابه : الشفاء، والشفاء والإشارات في حديثه عن النفس والتدليل على وجودها .

^٢ - أنوال فديمة في الروح :

- الروح هي أجسام لطيفة سارية في فين سريان ماء مورد ، هائلة من أول البشر إلى آخره .
- هي حرة لا يتجزأ من القلب .
- هي جسم هوائي في القلب أو هي جسم هوائي في الدماغ .
- قوة في الدماغ وهي مبدأ الحس والحركة .
- أجزاء باردة وهي المنسابة بالحرارة الغريبة .
- جسم غازي يتكون من لطافة الأحلاط وبخاريتها .
- هي جوهر مجرد يتفاوت في التبرّد والصفاء فهو في المفارفين الخالصين أصفى منه في غيرهم من ذوى الأرواح .

﴿ ثانياً :

إن الإنسان قد يعفو عَنْ ظلمه ويعطي من حرمه ، قد يضحي بماله ونفسه في سبيل الحرية والحق والعدل والكرامة متجاوزاً حوافز الجوع ، ودوافع الجنس أخذاً بأسباب غايات تجريدية لا تدخل في دائرة المادة .

﴿ ثالثاً :

الإنسان في حاضره يتذكر أحوال ماضيه ، فهو مستمر ثابت لا تتبدل معارفه ولا مشاعره ولا أفكاره ، إنه ذات واحدة وحاضره هو استمرار لماضيه . يقول وسيم جيمس وهنري برغسون بأن الحياة النفسية تيار متصل لا انقسام فيه ولا انفصام لا في النوم ولا في اليقظة ، أما البدن فإنه في تحلل دائم . خلية منه تفتى وخلية أخرى توجد وتنمو للتعويض .

رابعاً :

بين الإنسان والحيوان أوجه خلاف :

فالإنسان يختص بالتفكير والتذكر والتطلع نحو المستقبل ، والتطور في أعماله وسلوكه ومعارفه وحوافزه نحو الغد الأفضل ، وكل ما ليس من شأنه أن يكون من صنائع كيانه للمادي.

أما الحيوان فإن أعماله أليفة ، ونشاطاته رتيبة ، إنها على طريقة واحدة ونمط واحد ، ولا يذهبن بك الظن إلى أن تطوراً أو تغييراً بطراً على سلوكه وطريقة حياته ، وأنه منذ آلاف السنين كان أقل دقة وضبطاً منه في أماننا الراهنة .

خامساً :

لا فرق بين الإنسان والحيوان لا في التركيب العضوي والمادي ولا في الخلايا الحية لكن الإنسان رغم ذلك يتفرد بالتفكير الواعي والأمني الرغبة ، والشعور بالواجب وعقدة الإثم كما يتفرد بالأفعال الوجدانية كالتعجب الذي يتبعه الضحك والضحك الذي يتبعه البكاء ، واللجل الذي يتبعه حمرة الخد ، كما يمتاز بالعمليات العقلية السامية كإدراك المعاني المجردة من الأمثلة الحسية والانتقال من المعلوم إلى المجهول ، والتفرقة بين الخير والشر ، والحسن والقبح .

هذا لا يمكننا تفسيره إلا إذا فرضنا وجود النفس في الإنسان .

٢- سلاسل:

لماذا نحكم على الناس بالسجن أحياناً على من اعتدى على آخرين بالضرب أو بالاهانة؟

ولماذا نحكم بإعدام القاتل الذي تمت جريمته بيده التي هي بعض جسمه لا كل جسمه؟
لو كان الإنسان معتبراً جسماً فحسب لكان من مقتضيات العدل أن يكون الإعدام للعضو الذي باشر الجريمة ، لكن شيئاً آخر غير اليد كان هو المحرك وكان هو السداع لمباشرة هذه الجريمة واقترافها فكان الحكم بإعدام الكل لا الجزء ، لذلك فإن ذات الإنسان لا يعتبرها هذا التعامل كتلة مادية فحسب إنما يتعدى ذلك إلى ما هو وراء المادة^١ .

سابعاً :

ألا يدرك الإنسان ذاته مباشرة ويدرك بدون آلة وبدون واسطة أنه موجود لو تم عزله عن العالم الخارجي بحيث لا يتحرك ولا يسمع ولا يبصر ؟ وإذا كان له هذا الإدراك ألا يدلل على أن الإنسان هو كائن مفكر ، ومشهورة عبارة ديكارت القائلة : "أنا أفكر فأنا موجود"^٢ .

ثامناً :

إن النفس القرآنية لا يراد بها إلا الذات أو الشخص أو الواحد من الإنسان .

- ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة : الآية- ٢٨٦ .
- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ آل عمران : الآية- ٣٠ .
- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ آل عمران : الآية- ١٨٥ .
- ﴿ وَمَا يُرِىْ نَفْسِي إِنْ لِلنَّفْسِ لَآمِرَةٌ بِالْمُوءِ ﴾ يوسف : الآية- ٥٣ .
- ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ البقرة : الآية- ٢٣٥ .
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... ﴾ الفجر : الآية- ٢٠٤ .

إن النفس المكلفة والنفس العاملة ، والنفس الذائقة للموت ، والنفس الأملرة بالسموء ، والأنفس التي يعلم الله ما يتغلغل في أعماقها ، والنفس المطمئنة ، هذه الأنفس لا يراد بها قرآنيّاً إلا الذات أو للشخصية البشرية التي هي وراء الجسم وأبعد عنه .

^١ - راجع كتاب "مفاتيح" لمشيخ عبد الله في ٣١٨ .

^٢ - راجع برهان الرحيل لمطائر أو برهان فرضي للمطائر في "نفسه" لابن سينا . عفاً عما مضى في ٢٣٧ : دأبال ١٢ : ٤١ .

والمسلمون لم يعرفوا " النفس " على أنها " جوهر " يحلّ في البدن وأنّ البدن من أعراضها إلا بعد أن وفد عليهم الفكر الإغريقي إلى المسلمين بعد مائة من السنين على قيام المجتمع الإسلامي ، ونال منهم الإعجاب والإعظام فحاولوا لذلك الملاءمة بينه وبين المفاهيم والمبادئ الإسلامية.

وإذا كانت للقرآن رغبة في التحدّث عن النفس وعن الجزء الأهم فيها كذات أو كشخص فإنما يتحدّث عن القلب .

﴿ وَكَوْنَتْ قُضَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفُسُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران : الآية-١٥٩ .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الأعراف : الآية-١٧٩ .

البعث واجب وقوعه شرعاً وممكن وجداناً وعقلاً :

﴿ أولاً :

إن الموت ليس إعداداً للحياة إنما هو طريق وتحول إلى قلب آخر ، إنما هو جسر عبور إلى ضفة عالم غير عالمنا .

إن وحدة الظاهرة النبوية هي من أظهر الأثلة على صدقها ، وإن وحدة المعتقدات للديانات السماوية باليوم الآخر هي من أوضح البراهين على وجوب وقوعه . لقد جاء في العهد القديم :

" وكثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء في الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار للزبداء الأبدية " ^١ .

وجاء في العهد الجديد :

" وفي انقضاء العالم يخرج للملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ويطرحونهم في أتون للنار " .

وللبعث في الجانب القرآني خصوصية ، هذه الخصوصية تتصل بحكم العقل غير المباشر الذي يعتمد على قضية سابقة مسلمة نؤمن بصدقها ونطمئن إلى صحتها على ضوء العقل وأثلته ، وعلى هدي الوجدان وفطرته .

^١ - متى - ١٣ : ٤٩ و ٤٥ ، انظر الصائدي ص ٢٤١ .

إن الإيمان باليوم الآخر يرتبط أئماً ارتباطاً بالمسألة الأصل التي هي الإيمان بـالله الخالق للحكيم المذير وهي أيضاً الإيمان بالنبوة المحمدية وتصديقها وحياً إلهياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن القرآن لا ينطق في جملة آياته وكل تعاليمه عن الهوى إن هو إلا وحي يسوحي . كل القرآن تنزيل ، وكل ما إلى ذلك معصوم عن الكذب والاختلاق ، إن القرآن من مبدئه إلى خبره ، في كل حروف أبجديته هو على مستوى واحد من الصدق والحق ولا تقربق .

ألست مسألة اليوم الآخر من قضايا الوحي للقرآني ؟
ألست في هذا الاعتبار جزءاً من كل والجزء ينسحب عليه حكم للكل ؟

إن إنكار مسألة الآخرة متهافت المنطق ، ضائع التصور لأنه حكم يتناقض مع عصمة الوحي وصدق الرسالة وقد سبق الإيمان بهما .

إن العقل ليس بإمكانه إنكار اليوم الآخر وما فيه من جزاء بعد أن آمن هذا العقل بـالله الخالق وبعد أن صدق الرسالة المحمدية وعصمتها ، والرسالة قد حفلت في موطن كثيرة منها بالإخبار عن هذا اليوم ، من اللبادة ألا يكون الله القادر ووصيه المعصوم على تناقضات وتمقيدات .

إن الإيمان بالبعث من الكتاب والكفر بالبعث الآخر هو الكفر بكل الكتاب .
﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ... ﴾ البقرة : الآية ٨٥ .

ثانياً :

إن وقوع اليوم الآخر هو من مقتضيات الحكمة الإلهية في خلق الإنسان وتكليفه .
تظنون أن هذا الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه والذي هو أكرم خلقه قد خلقه الله عبثاً ، وكلفه باطلاً ؟

إن الغنى على إطلاقه هو لله وحده ، ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ محمد : الآية-٣٢ ، وإن الكمال الذي لا تعقيب عليه ليس هو إلا الله ﴿ وَكَانَ الْمَلَكُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الروم : الآية-٢٧ ، لا لغو ولا عبث في أمر الله وخلقته .
وما خلق الإنسان إلا لحكمة لا شبهة فيها ، وما خلقه إلا لمصلحته إن في كماله الإنساني وإن في صفاته الروحي ، والسلوكي ، وإن في تدبره الفكري : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ... ﴾ ص : الآية-٢٧ .

لماذا كانت النبوة ضرورة الضرورات ؟ أليس لأن الفطرة البشرية قد سمعها غبار
وصداً وتحتاج إلى جلاء وتطهير وهداية لتحقيق أقصى غايات الصلاح والسعادة ؟

إن إفساد الفطرة البشرية كان عنه الظالم والمظلوم ، الحارم والمحروم ، وكان عنه
المأسى التي غرق الأكثرون في آلامها وفظائعها شريداً واضطهاداً وسحقاً تحت أقدام الطغاة
والجبارين .

حسبنا من ذلك ما كان للحرب اللبنانية القفرة من سمل الأعين ، وقطع الأطراف ،
والإبادة الجماعية ، والرقص والمردة والغناء على الأشلاء والجثث ، وانتهاك المقدسات
والأعراض ، وتشريد المئات من الألوف ، وإعلان للفزع والهلع ، ونشر الخراب والدمار .

هل خلق الله الحكيم هذه الدنيا لتكون فرصة الأشرار ومسرحة المأسى ولعبة الشياطين
ولتكون التفاهة في خلقها لينقلب العدم خيراً من الوجود كما في دعوى التشاؤميين الذين
يعيشون اختناق المادة وسجنها ؟

إن الدنيا ليست للأشرار أصلاً إنما هي للأخيار الصالحين ، والرسالات السماوية
للهداية المصلحة هي المؤشر على ذلك : ﴿ لَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ الأنبياء :
الآية- ١٠٥ .

ولئن كانت شيطانية السلوك ، ولئن كان الظلم والفقر والغبن فلا بد من محكمة العدل
لتقضي بالحق .

ولئن توارت هذه المحكمة في قاعة هذه الدنيا فكيف تتحقق حكمة الله في خلقه ؟
وكيف يقام ميزان العدل بين الظالم والمظلوم حتى لا يكون أمر الله باطلاً عابثاً يخلو من
الحكمة ؟

لقد أخبر الله تعالى في قرآنه بوقوع النشأة الآخرة لإقامة محكمته الفصل والعدل في
عباده ، ولا خلف له في وعده ووعيده :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران :
الآية- ٩ .

﴿ وَيَسْمَعُ لَوْلَاكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ الحج : الآية ٤٧ .

وكان الوعد والوعيد وكان للترغيب والترهيب من الله لعباده ، فالوعد للطائع بالثواب العظيم ، والوعيد للمقيم ، أما للوعيد فهو للعاصي والجاحد والكافر بالعذاب الشديد ، والنار السعير والجحيم .

﴿ إِنَّمَا كَانَ وَعدُهُ مَأْتِيًا ﴾ مريم : الآية-٦١ .
﴿ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْثًا يَوْمَ الْوَعْدِ ﴾ ق : الآية-٢٠ .

لا خلف في وعد الله ووعيده لأن الله ليس إلى عجز ولا إلى جهل ولا إلى عبث وليس إلى ظلم لبتساوى في ميزانه الظالم والمظلوم ، المؤمن والكافر .

ولعل إخلاص الله لوعده ووعيده ينتهي إلى ترك الدنيا فرصة للأشرار الذين يستمتعون على حساب الأخيار !

﴿ أَفَجَعَلُ الْمُؤْمِنِينَ كَآلِ الْخَمْرِيِّينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ لقلم : الآيات-٣٥-٣٦ .
﴿ أَمِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ السجدة : الآية-١٨ .

من المحدثين فيلسوف العقل " كانت " الذي انتهى به مذهبه إلى أن الجزاء العدل لا يتم في حظوظ هذه الحياة كما أن في الإنسان قانوناً فطرياً يؤدي إلى فهم الواجب ، فالمنطق والعدل يقضيان بأن تكون للإنسان نهاية سعيدة لمن ينهض بهذا الواجب ، وشقية لمن يهمله لأن الحياة قد تغبن وقد تظلم .

ثالثاً :

إن الحياة بعد الموت ممكنة بذاتها وليس للعقل أن يحكم باستحالتها لأن هذه الظاهرة لا تخالف قضية عقلية بديهية ولا يجتمع فيها نقيضان .

الم يوجد الإنسان نشأة أولى ؟

الم توجد الحياة من لا حياة ؟

إن البديهية ليس لها إلا أن ترسل حكمها الحاكم بأن إعادة الحياة أقرب منالاً وأوفر فرصة في معنى الإمكان ، إن النشأة الثانية أشد يسراً وأكثر سهولة من النشأة الأولى في منطق العقل وميزان الإيمان بالله القادر على كل شيء والذي إذا قال لشيء كن فيكون .

إن النشأة الثانية ليست من العدم كما كانت النشأة الأولى .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الروم : الآية- ٢٧ .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَتَذَرُنِي أَمْ مَتَّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٦١) أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ

قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ﴿ مريم : الآية- ٦٦-٦٧ .

* إن وجود الإنسان حياً أولاً ثم وجوده كذلك ثانياً بعد موته هما وجودان متمثلان دون فرق بينهما إلا في التقدم والتأخر ، والأول منهما ممكن حتماً ولذلك وجد ، إذ لو كان مستحيلًا لما وجد ، وإذا كان أحد المتمثلين ممكنًا كان الوجود الآخر ممكنًا بحكم تماثلهما ، إنه كما قال بعض المفكرين إنه لا شيء عداء للمنطق والعقل الإنساني من أن نسلّم بوقوع حادث في الحال ونكره في المستقبل " ١ .

لقد أصبح يقيناً ثلثاً في نتائج العلم الاختباري والتجريبي أن الموت لا يعدم الجسم كلياً ولا يأتي على كل خلاياه ، فكيف بالروح وهي الجوهر المستقل عن البدن والجوهر بسيط لا يتغير ولا يفتنى ولا يقبل تجزئاً ولا تقسيماً ولا انحلالاً ، الروح جوهر الحياة ، ما هو حياة لا يعود إلى ما لا حياة ، إن الموت لا يلغي بعض خلايا الجسد والحياة تبقى مستقرة في أعماقها وإن بنت أمانر الموت على محيائها .

لو نظرت إلى البذرة الجافة ، وإلى النواة المهترئة ، وإلى حبة الحنطة اليابسة لما توهمت إلا أن الموت قد أعدمها الحياة ، وبالزرع والسقي والرعاية تدب فيها الحياة النضرة البهيجة من جديد .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْبِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصلت : الآية- ٣٩ .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ق : الآية- ١١ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغُبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْخَيْ مِنَ الْمَيْتِ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْخَيْ ذَلِكَُمُ اللَّهُ فَالِي تَوْفَكُونَ ﴾ الأنعام : الآية- ٩٥ .

لقد أجرى طبيب الماني يدعي " أرفين سانتو " بعضاً من التجارب في هذا الحقل . فإذا به يستخرج بعضاً من البكتريا من جسم مضت على موته ثلاثة آلاف وخمسمائة من

١ - كتاب غلبتنا الشبح ص ٣١٥ .

السنين ثم تحوّل بعدها إلى تلك البكتيريا ليضعها في محاليل غذائية خاصة " لليتوم " لمدة استغرقت سبع عشرة ساعة وبعد أن سلّط عليها المجهر وجد أنها تحمل بذور الحياة وأنها على تحرك لتستمرّ بها الحياة والحركة بعد ذلك لفترة .

وفي عام ١٩٥١ أعلنت عالمة روسية تدعى (البكتشاي) أن بعض الخلايا يمكن إحيائها من جديد ؟

ألا يمكننا القول بأن الموت لم بلغ الحياة في هذه الخلايا ؟

ألا يجوز أن تكون الحياة كائنة متحفزة في هذه الخلايا ، فإذا توفرت لها الظروف الملائمة ، والمناخات المواتية ، والأحوال المماثلة لظروف وجودها الأول ، وبنفس المستوى لكان لنا أن نسلم بإمكان حدوثها ووقوعها من جديد ؟

إن هذه الإمكانية ليس للطعماء الطبيعيين الذين يفسرون حدوث الحياة والإنسان بأسباب مادية أن ينكروها أو يرفضوها !

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ آل عمران: الآية- ٢٧ .

« رابعاً :

إن الإنسان وحده يفكر في الموت ويخافه لأنه يتشوّف إلى المستقبل ويطمح إلى البقاء فيه وينشد ربيع الخلود ، أما الحيوان فلا مبدل له إلى هذا التفكير ولا إلى هذه الرغائب الأملّة ، ليس للحيوان إلا غريزة الفرار من الخطر الداهم ، والرغبة الجارحة في الحفاظ على الحياة الراهنة .

وهل الفرار من الخطر سوى رد فعل أني لدفع عانية هذا الخطر ؟

أما الإنسان الذي يختص به الأمل فإنه يتجاوز هذا الفرار إلى تصوّر المستقبل ، وما الأمل في الخلود سوى فرع لفكرة الأبدية !

إن المخافة من الموت هي نتاج الرغبة في الخلود ، لتقلب الرغبة دليلاً على هذا الخلود المستمرّ بعد الموت لأنه لا رغبة في الطبيعة التي لا تهدف !

من الأدلة على انتفاء العدم مخافتنا من العدم .

- أنظر كتاب عقيدتنا للشخ نسخة من ٢١٦ .

ليس الشعور بالجوع والعطش دليلاً على وجود الطعام والماء ؟

ليست الرغبة بتحقيق الكمال دليلاً على وجود الكمال ؟

وإذا كانت للرؤى في النوم لها علاقتها بما في اليقظة ، ولها دلالتها على مشاهد اليقظة فإن الأكمل تجاه الموت ، وإن الأمل بالخلود إنما هما تجليان لواقعنا الخالد ، وهما تجليان حقيقة رفضنا المطلق للعدم .

خامساً :

إن الموت هو تطور وتحول ، إنه انتهاء وابتداء لنشأة .

الموت ليس هو العدم على إطلاقه إنما هو اكتساب حالة مستجدة .

إن للمادة لا تقضى ولكنها تتحول إلى ظاهرة أخرى ، قد تأخذ طريقها في تحولها إلى طاقة والطاقة إلى حركة ميكانيكية^١ فلماذا نخاف من النقصان في الموت والهجرة الآتية قد تكون موت البشرية في نواتنا لتصبح أجنحة ملانكة ومنها نتحول بأحشيتن عن آفاق أخرى هي فوق هذه الأجنحة ووراءها^٢ قد يكون بين ولادة الطفل وخروجه من رحم أمه وبين الخروج بالموت من هذا العالم إلى عالم آخر وجه شبه ، وإن كان العالم الآخر أكثر صفاء وأبعد عمقاً ، وأدق جوهريّة من عالم الرّحم وخارجه .

في الرّحم تتمّ العملية الغذائية للطفل بواسطة الحبل السري وبعد الولادة يقطع هذا الحبل لتبدأ هذه العملية بواسطة الفم والقناة للهضمية .

في الرّحم تصنع الرئتان ولا عمل لهما ، وعقب الولادة تشرعان بالتنفس وإلاً فالاختناق والموت.

وما السمع والبصر والذّوق والشمّ إلا كالرئتين في هذا الشأن ولا نشاط لهما إلا خارج الرّحم .

وما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا كالرّحم الذي تصنع فيه الأجهزة الروحية للإنسان ولكن لتلائم بإعدادها واستعدادها الحياة الأخرى في مقبّل آخر .

ألا نلاحظ أن البساطة والتجرد ، أن رفض التجزئة والوزن ، أن الأفكار اللامتناهية بامتدادها والأمانّي الحاملة والطائفة ، ألا نلاحظ أن هذه الاستعدادات الروحية وغيرها إنما خلقت متلائمة مع حياة غير ترابية ، مع حياة هي أكثر اتساعاً وشمولاً ، مع حياة هي أكثر

^١ - حسب قانون أنوركادرو .

^٢ - هي النشأة القصوى العارسي مولوي .

طولاً وعرضاً ولعلها تتألف مع الخلود ، وتتسمج مع الأبد لا كما نجدتها غريسة ، ونجد الإنسان بأسبابها غريباً في عالمنا الواقع ^١ .

هذه الحقائق والوقائع يقرّها القرآن الكريم بالإيجاز الغني المعبر ، وبالاستفهام للتوبيخي المستهجن :

﴿ أَفَمِنْهُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَيْنًا وَأَكْنُكُمْ إِلَهًا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون : الآية - ١١٥ .

أتظنون أن أجهزكم الروحية التحريدية عابثة حين تكون متجانسة مع هذا العالم القرابي ؟

لماذا لا تكون صالحة لعالم آخر شأن الرنين والسمع والبصر والشم والمعدة خارج دائرة الرحم بعد الولادة ؟

وما الذي يحول بين الدنيا وبين أن تكون دار إعداد ، ومدرسة إرشاد وتطوير ، ومكان تربية وتنشئة وعبور كما هو الرحم ؟

وصدق أمير المؤمنين (ع) بقوله :

* الدنيا صديقة لمن يسير معها بأسلوب الصداقة ، ومنبع للعافية لمن يدرك حقيقتها ، الدنيا معبد أحياء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومحط وحي الله ، ومجر أولياء الله * .

بهذا الفهم العلوي الراشد ندرك أن الدنيا مزرعة الآخرة فلماذا لا نكون فيها باذنين للخير ليكون الموسم غنياً سخياً ؟ ولماذا لا نفهمها محراباً يصلي ، ومنبعاً يعطي ، وصديقاً وفياً يأخذ بأيدينا إلى دار الأمن والوفاء والرشاد ، بل أن نفهمها دار شهوة وعبث وسواد وشيطان ؟ ^٢

إن الدنيا ليست موطن خداع ، إنما هي دار اختبار وتنشئة وتربية لإظهار الاستعدادات والقبليات ومنها الرشد والتكامل لتخرج الصفات الإنسانية بهذا الابتلاء الإلهي من كهف القوة ومكن الاستعداد إلى دائرة الفعل والتنمية والإكمال .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك : الآية - ٢ .

^١ - راجع كتاب العمل الإلهي ، مرتضى المظهري ص ١٨٧ .

^٢ - يقول ناصر حسرو ونظام الكون : فوحيه الذي يلهمك ويحدث قل له : أنت بعد لم تتجهن إلا كنت عاقلاً فاستوي مكاناً للهدى ، فلماذا ترم شيئاً تنسره ؟ لقد جعلني الله لك معروفاً فلماذا تجلس صامتاً في هذا الممر ؟ إنك عصا الله مستقبلت أعداءه لأعدائه فلماذا ترح نفسك بهذه المعص ؟

﴿ سادساً :

وهناك شبهة أي شبه بين الموت والنوم :

إن النوم يقد على الكائن الحي قهراً ويسري إلى بدنه بطيئاً أو سريعاً ولا يلبث أن يغشى هذا الكائن كله ما لم يمتلكه قلق أو يأخذه خوف ، ما عدا ما يتبقى منه لتخليط الأحلام التي تسمعها أذنه أو تتمثلها نفسه دون تمييز صحيح لها .

وفي القرآن أن النوم من آيات الله تنبيهاً لغافل ، وإيقاظاً لخامد حتى يبحث عن سر الخلق وفائض الرحمة ، وبدرك العقل والعلم مطامع الرزق ويحصيان فنون النعم .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الروم : الآية- ٢٣ .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ النبا : الآيات- ١٠- ١١ .

أليس في ذلك إشارة إلى أن رحمة النوم تعادل ابتغاء الفضل ، وهما معاً يتساويان في تعديل شأن الحياة ، وتوفير القوة لدوامها ؟

فالتعماء من العلماء رأوا أن النوم حل تعرض للحيوان من استرخاء وأعصاب الدماغ وذهبوا إلى أن العلة في ذلك رطوبات الأبخرة المتصاعدة من داخل الجسم لتتعتّل الحواس الظاهرة عن العمل وتقلب سبباً لإعادة الحيوية واستجلاب القوة إلى الأعصاب بعد الكد والإرهاق .

أما العلماء المحدثون فقد انتهى بهم البحث إلى أن النوم إنما هو أثر من تهالك الخلايا العصبية كلها وانهايار طاقتها .

إن السكون الخامد الذي يعترى الخلايا لم تقلب دقتها ولا خفاؤها من الملاحظة القرآنية التي عبرت عن النوم بالوفاة مرة وبالسبات أخرى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ الأنعام : الآية- ٦٠ .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ النبا : الآية- ٩ .

وبالنظرة المسرعة يتبدى لنا أن هذا الميتات الذي هو في الاصطلاح العلمي إغماء كلي من المرض ، وهذا النوع من الموت ليس إلا هذه الحقيقة العلمية نفسها والتي هي انقطاع للنظم عن الحركة ، ومفارقة حياة الأعمال والأفكار ما عدا الرؤى والأحلام حتى إذا أخذ

القطع والمفارقة حفظهما عاد الناس في الصحوه إلى ما يفعلون ، وفي الصحوه إلى ما يجرحون .

وقديماً حاول ابن عباس رجل الفكر والعلم أن يفرق بين قوى الجسم في النوم واليقظة تفريقاً مجملاً فأصاب الفكر وحقق النظر . لقد رأى ابن عباس في إسن آدم نفساً وزوحاً وبينهما مثل شعاع الشمس . فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والحياة ، أما الروح بجناحيها فتتوفاً عند الموت ، وأما النفس فهي وحدها التي تتوفاً في المنام .

وما شعاع الشمس الذي مثل به ابن عباس الارتباط بين النفس والروح إلا هو نفسه الذي رآه العلم الحديث في ترابط أجهزة البدن كلها ترابطاً فارغ القوة ولكنه دقيق المراسى ، خفي السر ، ومهما ظهرت آثاره فهو أدق من أن يرى ، كشعاع الشمس يربك الأشياء وأنت لا تراه ، وتقش به الأحاد وأنت لا تترك مداه .

﴿لَلَّهِ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِكِ الْتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^١ . وإنها آية تفصح عما بين النوم والموت وعلاقة .

في النوم والموت تتفصل الأنفس عن الأبدان ولا يعود لها أن تتصرف فيها ، ولكن ذلك الانفصال يكون إما ظاهراً عند النوم وإما ظاهراً وباطناً ويكون عند الموت ، أما التي قضى عليها بالموت فهي لا تود إلى البدن ولا ترد إليه إلا لحظة البعث ، وأما التي لم يقض عليها به فترجع عند اليقظة لتتدلى به .

والبعث من نوم قصير أو من نوم طويل هو دليل على البعث من أي موت أطول ، ولا عبرة بالزمن ولا بتفتت الأبدان أو بقائها بدون تفتت .

لقد ورد في القرآن قصص للبعث تستوعب كل الصور التي تكون عليها الأجساد حين يكون انبعاثها من جديد .

وضرب لنا القرآن مثلاً على إمكانية البعث قصة أهل الكهف الذين رقدوا طويلاً دون أن تتأثر مركبتهم وعناصرهم ، ودون أن تهترئ جثثهم وتبلى أبدانهم .

﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمُ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾^٢ .

^١ - الزمر : الآية - ٤٢ .

^٢ - الكهف : ١٠٠ - ١١٠ .

كما ضرب لنا في هذا الشأن قصة الطير التي ذهبت أجزاؤها مزيجا ، دليلاً على إحياء الموتى ليطمئن قلب إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثَوَمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ البقرة : الآية - ٢٦٠ .

وجعل القرآن من هاتين القصتين مثيلين للوعد الحق بالبعث سواء تفرقت الأبدان أم لم تتفرق ليرد على من يمتنع طائف الإستغراب من دعوى البعث بعد الموت .

وشبه الله سبحانه حال الموت بحال النوم ، وحال البعث بحال الإيقاظ حين روى قصة استغراب بعض المبعوثين من أجدانهم ، ومراد موتهم فقال :

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَنَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس : الآية - ٥٢ .

لعل هذا الاستغراب الحائر كان لأنهم ألفوا النوم أكثر من الموت ، والاستيقاظ أكثر من الإحياء بعد الموت ، والإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة طوال فترة الحياة وليس كذلك حال الموت والحياة ، ولعل هذا الاستغراب لأن الموت لا يحدث إلا مرة واحدة تصيب الإنسان وتمت طويلاً طويلاً فيحسبها الناس نوماً بلا يقظة ، وانطواء بلا رجوع ، وفناء بلا عودة .

وفلامنة المسلمين وأبو حنيفة التوحيدي منهم ، وجدوا أن النوم هو حال يحمل صاحبها شعوراً ، وهي حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة ، وأحوالاً عجيبة ، ويتلقف منها غيباً كثيراً ويستقبل منها عياناً ظاهراً . فبطل هذه الرموز للأحلام والرويا تكلل إلا على ثبات النفس على حال واحدة وهي أنها لا تأخذها سبلة ولا نوم ، والنوم شبيه بالموت . فالنفس بهذا الاعتبار ليس من شأنها أن تنام أو تموت .

لكن العلم مهما أوتي من قدرة على الكشف ، ومهما تقدمت به الخطى نحو الوصول إلى الحياة في الخلايا فإنه أعجز من أن يترك سر الإحياء .

إن العلم في تقدمه الوصول وكشفه للجديد قد أشار إلى تحول المادة المتجمدة الصماء إلى طاقة متبذرة ، وأشار إلى إمكانية سيرورة للطاقة حركة ميكانيكية ويمكن أن يشير يوماً إلى إمكانية رد الطاقة إلى مادة في مرتبة الجماد لكنه مهما تطاول في هذا وفي غير هذا فإنه سيبقى عاجزاً ليزه الإحياء في أسرارهِ وغيبياته .

وليس من أمر حاسم في هذا الشأن إلا الوعد الحق الذي صرح به الأنبياء وجاء به
الرسول ، واهتدت إليه سلائق الخير :

﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس : الآية- ٥٢ .

وقال صلى الله عليه وآله :

* كما تنامون تموتون ، وكما تستيقظون تبعثون * .

في منطق القدرة الإلهية لا نتوقف عند أحكام العادة ومنطقها ، لنن تعودنا أن نلاحظ
ليقظة بعد نوم ، ونوماً بعد يقظة ، وعدم تبعث بعد موت فإن الذي يمكن من نقض عادة بعادة
أو بمعجزة ، وإن الذي يقول لأي شيء كن فيكون لا يعجز عن نقض العادات كلها ولا
يستحيل عليه أن يغير الخلقة ويبدل التكوين ^١ .

ويخلص بنا القول إلى أن القرآن يعتبر الموت كالمنام ، فكما أن الروح لا تموت
بالمنام فإنها لا تموت بالموت ، ووجه التشبيه هو انعزال الروح عن البدن في الصورتين
بوجه ما لكته في الموت انعزال كليّ كيفاً وزماناً أما في النوم فانعزالها برزخي أنسي لا
إطلاقي ^٢ .

في المنام تأخذ الروح مسيلها إلى للعزلة عن البدن بأفعالها الاختيارية التي منها العقل
والتمييز والإرادة ليستمر سلطانها فيه بالأفعال غير الاختيارية التي منها النمو وجريان الدم ،
وهضم الغذاء .

إن النوم أية حتمية متكررة إن في الليل وإن في النهار ، لتدل على استمرار سريان
الحياة بعد الموت وتلغي الاستهجان والاستبعاد عند أحد حين يسمع آيات القرآن البرزخية
القاتلة بأن الحياة هناك كما هي الحياة هنا .

وإن لليقظة بعد النوم هي نوم بالنسبة ليقظة الآخرة ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

* الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا * .

إن إرسال النفس بعد توفيقها في المنام هو شاهد صدق على إرسالها إلى قالب آخر بعد
الموت ثم إلى قالبه الأول يوم القيامة ^٣ .

^١ - راجع كتاب : من إرشادات العلوم في القرآن الكريم لمعالي سيد الأمل ص ١٦٤ .

^٢ - كتاب عقائد المعادني ص ١٦١ .

كل ذلك يشير إلى مدى تهافت المادّية المنكرة للحياة بعد الموت حين تنتهي بها دعوها إلى أن جميع ما قام به الإنسان عبر الأجيال من صالح العمل وعظمته انصف به من لحظة عجيبة ، وإخلاص لا شبهة فيه إنما مصيره الفناء المرتبط بنهاية المجموعة الشمسية بل لا بدّ أن يفن هذا الإنسان جميع ما حققه من مكاسب وانتصارات ، وما سيّده من صروح المدنية تحت أنقاض هذا الكون .

٤- سابعاً :

في الإنسان أيّ إنسان وجدانية داخلية تستشعر وجود حياة بعد هذه الحياة .
في الإنسان حسنٌ خفيٌّ وشعور مبهم يسريان في النفس ، ويشيران إلى ميزان متكافئ يعدل في الخير والشر بعد الموت .
لعل هذه الوجدانية الأصيلة ، وهذا الحسن والشعور للفطريين هما أوضح أدلة وأقوى براهين على وجود تلك للحياة .

فالحسن العفوي هو ومض الإلهام عريق في الذات ، شفيف في الأعماق ، لا يمكنه إلا أن يؤمن بالعدل المطلق في يوم لا تظلم فيه نفس شيئاً لينال كلّ منّا جزاء ما قدّم ، ونحقّق للغاية من المسؤولية وتتوفّر الحكمة من الحرّة والاختيار ، هذه الحقيقة للوجدانية هي من خصوصيات الإنسان .

وحده الإنسان الذي يفكر في ماضيه وحاضره ، في غده ومستقبله ، في ما قبل الموت وفي ما بعده .

لئن سلوك الإنسان وسيرته مستوحيان من هذا للتفكير وهذا الوجدان المتغلغلين في أعماقه على مساحة كل تاريخه المدوّن وغير المدوّن .
وإن صدر الإنسان مفعم بالأحلام المستقبلية ، ومتحفّز للمشاعر الخائشة والقلق من مجهول المستقبل ، وخلفيات الموت .

هذه الهواجس تسيطر على كل شعوب الأرض في وجدانهم ووعيمهم على اختلاف دياناتهم وألوان تفكيرهم ، ولا فرق في ذلك بين الإلهيين والوثنيين وجماعة الفسفة والعقل .
وهذا هو أفلاطون الفيلسوف القديم يجد أن النفس جوهر الحياة وما هو حياة لا يعود إلى عدم الحياة . فالروح تخلص من المادة بالتطهّر والتّرقّي والانغماق على التنزيح من سجن الجسد لتعود إلى عنصرها الأول وهو المثال ، ليس هو القاتل :

” لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار ؟ “

ورعت الكتب السماوية هذا الشأن وألحت عليه وأكثته .

يصف أشعياء يوم للرضوان في العهد القديم بقوله :

وكثيرون من الزائدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ،
وهؤلاء إلى العار للزبداء الأبدية * .

وفي العهد الجديد :

* إن الصالحين أصحاب اليمين يرثون الملكوت المعد لهم منذ تأسيس العالم ،
وأصحاب الشمال الملاعين يذهبون إلى النار الأبدية المعدة لإبليس * .

وفي القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَانْطَلِي فِي
عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ الفجر : الآيات - ٢٧-٣٠ .
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ
الانفطار : الآية - ١٣-١٥ .

كثيرون لا يرون مصلحة ترجى ونفعاً يحصل من هذا المعتقد لأنه مخالف لسنة الكون
والطبيعة . لا إنسان قضى نحبه وعادته الحياة ثانية ، وأجساد الأموات تتفرق وتتحلل وتفسد
وتفنى في الأرض .

لكن ألا يمكن بأسباب هذه الأفكار أن نقع في قلق الاضطراب ، وعذاب الوحشة
لنرمل احتجاجاً على وجودنا الذي لا خير فيه ، بناء على هذا المنطق ، فإن تصور الوجود
على أنه لغو وعبث هو معلول للتقلص بين غريزة ذاتية فطرية تشمر بضرورة وقوع اليوم
الأخر وبين تلقين اكتسابي يرفض وينكر استمرار الحياة بعد الموت .

فالإنسان بكيئوته الظاهرة والخفية قد خلق على صورة غرست فيه غريزة حب
الخلود وغريزة الأمل في الاستمرار الذي هو طريق الكمال الذي هو أوسع مدى من هذه
الحياة المحدودة ، فلغو كل اللغو في هذه الاستعدادات لو كانت الحياة لا تتجاوز دائرة هذه
الدنيا .

من لا يؤمن بالحياة الخالدة يجد تناقضاً ظاهراً بين تكويبه الواقعي والظاهري الذي يوحى بالعدم وبين استعداداته الخفية التي لا ترى في العدم على أنه المصير وإلاً فلماذا كان هذا الأمل بالخلود ولماذا تزود الإنسان بالاستعدادات لذلك الخلود ؟

إن القرآن الكريم أصدر حكمه حاسماً في هذا الشأن بقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون : الآية - ١١٥ .

لا استحالة ولا غرابة في العودة إنما هي حكمة بالغة عاتلة وتكريم للإنسان وتشريف ، هي للمظلوم في الدنيا تعويض وهي للظالم الأخذ الأليم .

إن في الناس القدماء منهم والمحدثين شعور خفي يشبه الإلهام بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى تقام فيها محكمة العدل لينال فيها الإنسان جزاء أعماله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

يقول نورمان فستنت بل :

• والواقع أن الشعور الغريزي بوجود عالم آخر بعد الموت هو من أقوى الأكلّة على هذا الوجود . إن الله سبحانه إذا أراد أن يقتنع البشر بأمر ما ، فإنه يغرس فكرة الاقتناع به في غرائزهم ، وإن الشوق إلى خلود الحياة ، ولو في عالم آخره إحساس شائع في نفوس البشر بحيث لا يمكن النظر إليه باستخفاف عام . وإن ما نهقوا إليه بقوة ، وما تحصن به في أعناقنا لا بد أن يكون انعكاساً لقاعدة أساسية في الوجود البشري .

إن مثل هذه الحقائق العظمى لا يؤمن بها عن طريق النليل والإثبات للمادي ، وإنما عن طريق العقيدة والإلهام والمشاعر النفسية . وإن الإلهام في ذاته عامل مهم في الفهم العلمي للحقيقة ، وإن العلماء كما قال برجمون ، عندما يصلون إلى نهاية علمية تحتاج إلى إثبات ، إذا هم في مضى إلهام يصلون إلى الحقيقة . إن الأبحاث العلمية تؤيد إيماننا بوجود الإلهام والعقيدة ، وإن آراء الماديين عن العالم في ضيقها إلى الزوال ^١ .

^١ نقلًا عن مجلة المختار من ربيعز دا بجست عدد نوفمبر ١٩٥٧ .

فالإِنسان المستعد لما لا يتأهى من الكمال لم يخلقه الله لتكون غايته كفاية سائر
الحيوان إنما تقضى حكمة الله أن يتحقق العدل مع هذا الإنسان . ولو أن الله وهب للإنسان ما
وهب ثم تركه سدى لكان ذلك خلواً من الحكمة والتبصرة والعدل .
﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ القيامة : الآية- ٣٦ .

« ثامناً :

إن الموت والحياة يحققان في هذا للوجود نظام التعاقب .
ألا نشاهد أن موت فئة من الناس يكون سبباً لتهيئة مناخ صالح وأرض ملائمة لحياة
فئة أخرى ؟
ألا نلاحظ أن جثث الأموات ليست خلواً من النفع إنما تساعد في إنبات نبات جديد ،
وتكوين أحياء جديدة ؟
ومما يمكن إضافته أن المادة تقبل للحياة من جهة المكان في ظروف محدودة ولكن
ظرفيتها من حيث الزمان غير متناهية .

فالعالم مهما كان متسع الفضاء والأرجاء فإن له سعة أخرى غير متناهية من حيث
الزمان . فلو لم يكن موت وأموات لكان ذلك حائلاً دون مجيء الآخرين في أيام المستقبل ،
لذلك فإن فيض الحياة سيمتد خلال الزمان بلا نهاية .

فالقضاء من الناس لو لم يموتوا لما كان أحيائنا اليوم ، وأداس أيماننا إذا لم يكن ليد
الموت أن تمتد إليهم فإن غيرهم من البشر في المستقبل سوف يكونون ممتعي الوجود .

إن عدم الموت الإضلافي للإنسان وإن عدم فصحة هذا الوجود للحياة الأبدية ينتهيان بنا
إلى القول بأن قادة الكون بمرها الطبيعي وحركتها الجوهرية تظهر الجواهر المشعقة
للأرواح المجردة فتخلص الروح من المادة وتنتقل إلى حياة أكثر طهارة ورفقة وقوة وكمالاً .
أما المادة فإنها تبقى صالحة لاحتواء روح أخرى تقدم عليها ليكون في ظل هذا النظام
المتكامل واتساع الحياة بأسباب التنقل من بيئة إلى بيئة ومن عالم إلى عالم .

^١ كتاب العدل الإلهي لسميرتي ص ١٩٥ .

إن الإنسان الواعي لهذا النظام لا يروعه الموت ولا يخيفه إنما يفرحه ، إنما هو انتصاره الأعظم وفوزه الأرجح .

❖ تاسعاً :

إن العلم بمعطياته التجريبية يعترف بأن الكون له نهاية وليس أبدى الوجود وأن البشرية مصيرها إلى الزوال ومحال استمرارها إلى ما لا نهاية .

١ . قانون الحرارة الديناميكية :

" إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة . ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينبض فيها معنى الطاقة ، ويومئذ لن تكون هنالك عمليات كيميائية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيميائية والطبيعة تسير في طريفها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا كون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود " ^١ .

وتؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي كلياً ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها .

إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لا بد لها من بداية ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها خلقاً في وقت ما حيث لا يمكن أن يكون هذا للكون أزلياً ^٢ .

ويقول فرانك إلن عالم الطبيعة البيولوجية :

" إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن هذا الكون يفقد حرارته تدريجياً ، وأنه سائر حتماً إلى يوم تصير في جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي

^١ - كتاب : الله يتحدى في عصر العلم ص ٢٧ .

^٢ - كتاب الاسلام يتحدى ص ٥٥ - الدكتور محمد .

الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، و لا مفاصل من حدوث هذه الحالة من انعدام اللطائف عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلقة بمضي الوقت .

أما الشمس للمسترة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أصله يرتبط بزمان ما من خطة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث^١ .

وقد أدرك (سير إسحق نيوتن) أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ، ووصل من ذلك إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية .

وأثبت دراسة الحرارة هذه الآراء ، وماعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة ، وقد وجد أنه عند حدوث أي تغيرات حرارية ، فإن جزءاً معيناً من الطاقة الميسورة يتحول إلى طاقة غير ميسورة ، وأنه لا سبيل إلى أن يسير هذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية ، وهذا هو القانون الثاني من الديناميكا الحرارية^٢ .

وقد اهتم (بولتزمان) بتعميم هذه الظاهرة حتى أثبت أن فقدان الطاقة الميسورة الذي يشير إليه القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية ليس إلا حالة خاصة من ظاهرة عامة تشير إلى أن كل تحول أو تغير طبيعي يصحبه تحلل أو نقص في النظام الكوني ، وفي حالة الحرارة يعتبر تحول الطاقة من الصورة الميسورة إلى الصورة غير الميسورة فقداناً أو نقصاً في التنظيم الجزيئي ، أو بعبارة أخرى تفتتاً وانحلالاً للبناء^٣ .

بهذا يمكننا التأكد: بأن الضوء والحرارة وإشعاعات الراديو المادية تضمحل وتتلاشى ويعفو أثرها.

٢. الكيمياء الجيولوجية :

يقول الدكتور (دودالد روبرت كار) أستاذ الكيمياء للجيولوجية :

والكيمياء الجيولوجية تحدد عمر التكوينات الجيولوجية كمواد تشهب وغيرها . فقد أمكن باستخدام العلاقات الإشعاعية أن نحصل على صورة شبه كمية عن تاريخ الأرض . ويستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بـسجلات متفاوتة

^١ - كتاب : الفتح على د. عمر العلم ص ٩٠ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٩٠ .

^٣ - المصدر نفسه ص ٩٠ .

من الدقة ، ولكن نتائج هذه الطريق متقاربة على حد كبير ، وهي تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ خمسة بلايين سنة ، وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، ولو كان كذلك لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية ، وهذا يتفق مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية . أما الرأي الذي يقول بأن هذا الكون دوري ، أي أنه ينكمش ثم يتمدد ثم يعود فينكمش من جديد فإنه رأي لم يعم على صحته دليل ، ولا يمكن أن يعتبر أيأ علمياً بل مجرد تخمين ^١ .

ويقول الدكتور جون مكيفلاند كوثران من علماء الكيمياء والرياضة :

"وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإن المادة ليست الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ، وعلى هذا فإن العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان" ^٢ .

٣. علم الفلك :

يقول الدكتور أيرفينج وليام أستاذ العلوم الطبيعية :

"فعلم الفلك يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن للكون يسمير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلي ليس له بداية ، أو أبدي ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغير ، وفي هذا الرأي يلتقي الدين بالعلم" ^٣ .

من كل ما تقدم يتبدى لنا أن العلم بقوانينه المختلفة يشهد بأن هذا الوجود له بداية وله نهاية حتمية ومحال أن يكون لبدناً كما هو محال أن يكون أزلياً .

هذه الأدلة تشير إلى أن العلم يدعو إلى الإيمان بالله الخالق الذي بيده كل شيء ، كما يعترف بأن هذا الوجود مصيره إلى الزوال والتلاشي ولا مندوحة له عن الانتهاء ، طالما هو حادث وله ابتداء .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ القصص : الآية- ٨٨ .

^١ - كتاب الله : الله يحيى في عشر العلم ص ٨٥ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٢٥ .

^٣ - كتاب : الله يحيى في عشر العلم ص ٥٣ .

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَأَن (٢٦) وَيَتَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن : الآيات -

. ٢٧-٢٦ .

وكيفما انقلب الأمر : إن هذا العلم الذي نفخر به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتغلت منا ، وإن الطبيعة الحقيقية للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن نلتم بها عقولنا .

ويبقى الإلهام والشعور للوجداني هما الأقوى دلالة على الحياة بعد الموت . لا ...
ليس الإلهام الإنساني بالحياة الأخرى وهماً إنما هو وحي صادق من طبيعته وشعور حي يتغلغل في غريزته ^١ .

٤. البرزخ :

قيل: البرزخ هو أمر بين أمرين الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ^٢ . وقيل :
البرزخ هو الحاجز بين الشينين كما في قوله : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ الرحمن : الآية -
. ٢٠ .

أما البرزخ في الاصطلاح فهو عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة ^٣ حيث لا يكون للناس فيه من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة إنما هم في ذلك البرزخ حتى يأذن الله بيوم يبعثون .
إن البرزخ هو دار جزاء لفترة ليجزى بعدها الإنسان يوم القيامة والشعور جزاء الأوفى .

﴿وَمِنْ ذَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ المؤمنون : ١٠٠ .
حياة البرزخ واسعة وأكثر منها اتساعاً حياة الخلود بعد القيامة .

حياة البرزخ تختلف عن الحياة الدنياه بتعلق الروح بالبدن البرزخي لا بالبدن الدنيوي .
والأحياء في البرزخ لا يراهم الأحياء في الدنيا لاختلاف البدنين والبصريين والنشأتين كاليقظان والثائم فإن أحدهما لا يرى الآخر في أفعاله ، ولا يسمعه في أقواله ^٤ وإن حياة البرزخ المتوسعة فيها جنة ونار برزخيتان لأهلها صالحين وملاحين .

^١ - كتاب محي الخاطر : أحمد أمين .

^٢ - تفسير القرطبي ، راجع تفسير الميزان جلد : ١٥ ص ٧٤ .

^٣ - تفسير الميزان ، جلد ١٥ ص ٦٨ .

^٤ - كتاب عقائدنا لفضلافي ص ٢٥٧ .

يقول الإمام زين العابدين (ع) :

" للقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران . "

ويقول أمير المؤمنين (ع) :

" حتى إذا انصرف للمشيّع ، ورجع المتفجع أقعد الميت في حفرة نجيا لبهنة السؤال ، وعشرة الامتحان . "

لقد ورد البرزخ في الإنجيل والقرآن والسنة وأخبار الأئمة :

يقول السيد المسيح(ع) :

" انه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الصالحون إلى قيامة الحياة وللطالحون إلى قيامة الدنيوية " .^١

ورأى القرآن أن بين الموت والنام وجه شبه حين قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِنْكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الزمر : الآية - ٤٢ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام : الآية - ٦٠ .

فالمتوفى كالنام لأن الروح لا تموت بالنام ولا تموت بالموت ، ولتقطاع الروح في النام هو لتقطاع برزخي لا لإطلاقها أما الروح في القبر فحياتها برزخية بين الدنيا والآخرة . لكن البدن غير البدن والبقعة بعد النوم آية أن "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" ^٢ لكن الروح تعود إلى البدن عند البقعة ولا ترجع إليه بعد الموت إلى حين البعث من القبور يوم النشور .

فالحياة البرزخية شبيهة ليس لنا أن نخوض فيها بعيداً عن دلالات المصادر الشرعية .

^١ - ٢٨ : ٥٠ .

^٢ - نقائدا لصلادي ص ٦٠ .

٥. الإنسان المبعث وطبيعة الحشر :

واطمأنت بنا الطريق ، واستقرت معنا الغاية .

فالمعاد أمر مقضي به وحياً ، والعقل التأثير يسوقنا للأخذ به ولا يرفضه ويذهب إلى القول بإمكانية حدوثه ، والوجدان الأصل المبرأ من الصدا ، والمظهر من غيار الطريق ، ورجس الشيطان لا يمكنه إلا أن يؤمن بوقوعه . لقد سبق بنا الحديث إلى أن الإنسان قائم به الكيان على جسم وروح . وأن الروح مغايرة بطبيعتها وجوهرها للجسد .

فالروح هي الجوهر البسيط القائم بنفسه والمستقل عن البدن ، إنها قوام الإنسان في الإدراك والتدبر والعمل والشعور والضمير والأحلام ، إنها وحدها المسؤولة ووحدها المكلفة ، إنها وحدها الثابتة المستمرة ولا يعرض لها تغير ، ولا يطرأ عليها تبديل ، إنها وحدها الشخصية والأنا التي هي وراء الجسم ، أما الجسم فإنه المركب المادي الذي تحكمه قوانين التغير والتبدل والنمو ، إنه آلة الروح وأداتها ووسيلتها في أداء أفعالها وإبراز نشاطها وسلوكها وتنفيذ قراراتها .

ليس للجسم القرار إنما عليه التنفيذ ، ليس له أن يأمر إنما عليه أن يطيع . ورغم هذه المغايرة الكلية ، والتباين لشمال فإن بينهما العلاقة الخاصة التي تجعل للروح جسمها دون غيره ، فالروح هي لجسمها ولا تتجاوزها إلى أجسام أخرى كما تدعيه نظرية التقمص والتناسخ.

وهنا سؤال ملحاح يفرض نفسه حول الإنسان في نشأته الثانية ، ما هي طبيعتها ؟ هل للعودة روحية خالصة ، أو هل هي روحية جسمية معاً ؟

إن المادة تنكر مسألة الألوهة أصلاً فكيف بالمعاد وخاصة الجانب الجسماني منه ؟
إن نظرية الفلاسفة الإسلامية جُلّها لو بعضها تنكر الحشر الجسماني أيما إنكار . هذا هو الفارابي يرى بأن خلود انفس إنما هو خلود جمعي لا فردي لأن الأجسام في نظريته إذا أذنت بالفاء لم يعد هناك ما يدعو إلى اختلاف النفوس ، وحينذاك فإنها تتحد وتكون نفساً كلية.

فالنفوس السعيدة الخيرة للفاضلة خالدة ، وإذا تحررت من سجن جسدها وفارقت أتحدت وسعدت ، وكلما وفد عليها وافد من جنسها لتحدث به وزادت معادتها إلى ما لا نهاية في النعيم .

أما النفوس الخالدة في شقاؤها فقد أدركت معنى السعادة وعلوم المدينة الفاضلة لكنها لم تعمل على تحصيل أسبابها ، تلك هي نفوس أهل المدينة الفاسقة التي كتب لها الشقاء الأبديّ ويزداد شقاؤها ، كلّما انضمت إليها نفوس فاسقة ضالّة من جنسها .

أما إين سينا فالنفس عنده حادثة لا تعزّيها الشيخوخة ، ولا يلمّ بها المرض ، إنها لا توجد قبل البدن وإنما تفيض عليه من العقل الفعّال عند استعداده لقبولها وعندما يحصل فيه اعتدال يعدّه لتقبّلها .

ألا يلاحظ من نظريته هذه انه فيلسوف توفّقي يجمع بين مذهب أفلاطون الذي ينتهي به مذهبهُ إلى أن النفس هي من عالم المثل لكنها أزليّة وبين مذهب أرسطو الذي يدّعي بأن النفس صورة البدن وهي حادثة بحدوثه ، وفاتية بفنائه ، والدين الذي يقول بأن كل كائن حادث ما عدا الله .

إن إين سينا يؤمن بأبديّة النفس وبقيائها بعد الموت متأثراً بالنظرية الأفلاطونية والدينية والفارسية ، وبأصحاب النزعة الروحية .

وإن ننس لا ننس عصر إين سينا وما فيه من تيارات فكرية متنافضة ، هناك الملحون والماثيون الذين ينكرون خلود النفس ، وهناك التناسخيون الذين يقولون بخلودها بواسطة التطهّر والتطهير ، وإين سينا من أظهر الذين أنكروا ذلك . هل النفس الإنسانية خالدة على هيئة نفس كليّة في فلسفة إين سينا كما هي نظرية الفارابي ؟

إن النفوس عنده لا تتحدّ بعد مفارقتها للأجسام بل تبقى فردية تتخصّص بالجسم السذي تحلّ فيه وبالزمان الذي تقضيه في هذه الحياة الدنيا ، وليس من الممكن القول بوجود نفس واحدة مشتركة بين الأفراد وإلاّ لكانت عالمة فيها كلها أو جاهلة ، والناس يختلفون في شخصياتهم ونزعاتهم ومعرفتهم ، إن الشهيد على أن النفوس تتخصّص بأجسامها أن بعضها يحزن ويهلع لفراق بدنه وبعضها يسعد .

ومما ينبغي ملاحظته إزاء آراء إين سينا هذه في خلود النفس أنه يقول بتلازم النفس والجسد في الحشر وإن لم يكن له رأيهِ الصريح والمباشر في ذلك .
إن آيات أحوال المعاد ومنها طبيعة الحشر قد ألحقها البعض بالظاهر الذي لا يجوز تأويله وألحقها البعض الآخر بالباطن الذي لا ينبغي إلّا تأويله .

أما ابن رشد فالمعاد عنده لا مجال للتأويل فيه لأنه أصل من أصول الشريعة وإنكاره كفر لكن أحوال المعاد وصفاته قد استقطبت إزاءها الخلافات واضطربت حولها الآراء وأنت إلى تبادل التفكير . من هذه الأحوال ، هل طبيعة الحشر جسمية روحية أو هل هي قصر على الروحية فقط ؟

كل ما وقع فيه خلاف هو عند ابن رشد من الجائز تأويله ، لكن هذا التأويل هو حق لأهل البرهان دون غيرهم ، يخصصون به كتبهم حتى لا يطلع عليه الجمهور العاجز عن إدراكه ، فتفسد عقيدته ، وينتهي إلى الكفر والداعي إلى الكفر هو كافر .

والواقع أن المسائل الغيبية كمسألة خلود النفس وطبيعة الحشر والحساب يترك ابن رشد الحكم فيها إلى الشرع لأنها تخرج عن مفهومها الفلسفي ، ولئن كان لا بد من التسليم بشأن خلود النفس فإن عودتها تكون إلى جسم أصفى وأكثر روحانية من سائر الأجسام ، ومحال أن تعود إلى الجسم الذي كان لها في الأصل . كما أنه يدعو إلى انتهاز طريقة التأويل لما ورد من الأوصاف الحسنة للجنة والنار مع العلم أنه لا يبيح جعل هذه التأويلات بين أيدي العامة من الناس .

وهكذا يبدو أن الاتجاه الفلسفي ينمو باتجاه القول بالبعث الروحاني لتعيش الروح تجديدها .

الثواب والعقاب تجريديان روحانيان .

البعد عن الله عقاب والقرب منه ثواب .

وما جاء من الوصف الحسني في القرآن ما كان إلا ضرب الأمثال والتقريب من الأفهام يقول تعالى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ آل عمران : الآية-٧ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

" إنا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونخاطبهم على قدر عقولهم " .

وقال أمير المؤمنين(ع) :

" حثوا الناس بما يعرفون ، أترىون أن يكذب الله ورسوله " .

أما جمهور الفقهاء وعلماء الكلام والتوحيد وكبار رجالات الإمامية فإنهم يأخذون بظاهر القرآن في هذه المناسبة حيث لا سبيل إلى التأويل الذي هو حمل الظاهر على الباطن أو هو إخراج اللفظ من دلالته الحقيقية إلى رسالته المجازية هؤلاء يقولون بالإنسان المزجج

في المعد ، بالإنسان القائم على الجسم والروح . إن الألة . على إمكانية الحشر وحتميته هي نفسها تصلح لإثبات الحشر الجسائي : من هذه الألة :
العقل لا ينفيه ولا يرفضه .
حكمة الخالق تقتضيه .
الحس الوجداني والنفسي يطلبه ويعترف به .

الوحي المعصوم ، والرسالة المنزهة هما شاهدا صدق ودليلا حق على وقوعه وإن كان هو أمراً غيبياً لا يخضع لتجاربنا ، ولا ندركه بحواسنا ، القائلون بأن الحشر هو أمر وحي أو عقلي وليس جسياً لا يتوفر لديهم الدليل الذي يحملنا على الاقتناع .

لقد ورد في إنجيل برنابا :

” قال بطرس : أيذهب جسدا الذي لنا الآن إلى الجنة ؟ أجاب يسوع : إنحز يا بطرس أن تصير صدوقياً ، فإن الصدوقيين يقولون إن الجسد لا يقوم أيضاً لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول إلى الجنة ، أنسميت أيوب النبي وخليق الله كيف يقول : أعلم أن إلهي حي وأنني سأقوم في اليوم الآخر بجسدي ، ولكن صدقوني أن جسدا هذا يتطهر على كيفية لا يكون له معها خاصة واحدة من خصائصه الحاضرة لأنه سيتطهر من كل شهوة شريرة وسعيداً الله إلى الحال التي كان عليها آدم قبل أن يخطئ ، رجلان يخدمان سيّداً واحداً في عمل واحد ، أحدهما يقتصر على النظر في العمل وإصدار الأوامر ، والثاني يقوم بكل ما أمر فقط ويطرد من بيته من أنهك نفسه في العمل ؟ لا البتة ! فكيف يحتمل عدل الله هذا : إن نفس الإنسان وجسده وحسّه يخدمون الله . فالنفس تنتظر وتامر بالخدمة فقط ، لأن النفس لما كانت لا تأكل خبزاً فهي لا تصوم ، لا تمشي ولا تشعر بالبرد ، ولا تمرض ولا تقتل لأنها خالدة وهي لا تكابد شيئاً من الآلام الجسدية التي يكابدها الجسد بفعل العناصر ، فأقول : هي العدل إذا ألا تذهب النفس وحدها إلى الجنة دون الجسد الذي أنهك نفسه لهذا المقدار في خدمة الله ! قال بطرس : يا معلم ! لما كان الجسد هو الذي حمل النفس على الخطيئة فلا ينبغي أن يوضع في الجنة ، أجاب يسوع : كيف يخطئ الجسد بدون النفس ، حقاً إن هذا محال ، فإذا نزعتم رحمة الله من الجسد قضيت على النفس بالجحيم ^١ .

^١ . ١٧٣ : ١٦٦ .

"إن طعاماً كهذا يبرز نجاسة ، لأن هذا الجسم في الوقت الحاضر يأكل أطعمة قابلة للفساد ، ولهذا يحصل الفساد ، ولكن الجسم يكون في الجنة غير قابل للفساد وغير قابل للكلم ، وخالداً ، وخالياً من كل شقاء ، والأطعمة التي لا عيب فيها لا تحدث أبنى فساد " ^١ .

فأثبت جسمي روحي طالما أن إعادة الإنسان كما كان في النشأة الأولى ممكنة في قدر الله . قال تعالى :

﴿ أُنْخِصِبِ الْإِنْسَانَ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُمَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ القيامة : الآيات - ٣-٤ .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يس : الآية - ٧٨-٧٩ .

﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور : الآية - ٢٤ .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ لَئِنَّا مَا مِتْ لَنُؤْتَىٰ أُخْرَىٰ حَتَّىٰ (٦٦) أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ لَأَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُن شَيْئًا ﴾ مريم : الآية - ٦٦-٦٧ .

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا نَعْتَبُوهُنَّ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِينُنَا قُلُ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الإسراء : الآية - ٤٩٥١ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ العنكبوت : الآية - ١٩ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَنَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء : الآية - ٥٦ .

وقفة قصيرة متبصرة في دراسة هذه النصوص الإنجيلية والقرآنية نرى أن بين هذه النصوص أوجه لقاء في مسألة طبيعة الحشر .

فالحياة بعد الموت مستمرة ، والحشر للجزاء ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، حتمي ومقتضي به ، والإنسان إنما يبعث بروحه وجسده . للجسد أكثر صفاء وطهراً . الجسد مبرراً من كثافته الناسوبية الذنوبية ولوازمها من فناء وبوار وظلمة . الجسد مقطوعة منه الزوائد والمعارض من الأجزاء ليبقى فيه الجوهر والأصيل .

^١ - ص ١٧٤ : ١٧٦ - ١١ .

الروح لها جسمها الدنيوي الذي يختص بها دون غيرها والذي يخلو من الأخلط
الفاسدة التي لا تصلح للبقاء والخلود .
إن الإيمان في القرآن قوامه روح وجسد ، وإن الإنسان والروح هما شريكان
بالأعمال ، ومتلازمان في إبعاد الحياة وإشفاقها .

ليس الله مطلق العدل والحكمة ؟
الله ظالم وغير حكيم حين يقصر الجزاء على الروح دون الجسم طالما أن للجسم
نشاطه في الخير وفي الشر كما هو شأن الروح .
لكن ما هو هذا الجسم الذي يعود إلى النشأة ؟
هل هو الجسم الدنيوي بكل أشيائه وأجزائه ؟
هل هو أبدان متداخلة في بدن ، أو بدن تخالطه أبدان بعد التفكك والتحلل والخلط ؟
وهل الخلق الجديد على طريقه الأول لآدم ومن طينته وأصله ؟

إن الذي يمكن تداوله من الآلات هو أن الإنسان يحشر ببذنه الأصل الذي خلق من
ترابه الخاص به ، والذي من طينته ونطقته دون إضافات أو زيادات عليه . إن الأجزاء
الأصلية للإنسان لا تتحول أجزاء أصلية لأبدان آخرين وإن لحقت بها أحياناً .

فانه بدأ خلق كل إنسان من طينة خاصة ويعيده دون خليط ودون أن تضلّ أجزاؤه
عنّ لا يعزب عن علمه ولا يضلّ مقال ذرة وإن ضلّت عنا وتحولت إلى عناصر أخرى أو
إلتحقت بأبدان آخرين طيلة برزخها :
﴿ وَقَالُوا ابْدَأْ فَتَلَكُنَا فِي الْأَرْضِ بِنَا يُفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾
السجدة : الآية - ١٠ .

إن الموت ليس إعداماً للجانب الجسمي على إطلاقه إنما يبقى من البدن جوهر أصيل
يصلح للحياة عندما تتوفر ظروف ملائمة للحياة . وهل حبة القمح تبدو إلّا على بيس وجفاف
في ظاهرها ولكنها تحمل الحياة بالقوة ، فإذا توفرت لها ظروف المناخ والتربة والسقاية
والرعاية إذا بها تضج بالحياة ، وتتبعث شيئاً آخر فيه الخضرة والنضرة والنماء والثمر ؟

إن الإنسان بعبادته الأصلية ودون عوارضه يرجع في خلق جديد عندما تأتئ كلمة الله في هذا الخلق ، ليكون الجسم المحشور ، المعذب أو المثائب واحداً ، وليكون البدن الأصل المستمر طوال حياة التكليف دون العوارض .

إن الجسم المسؤول والمكلف هو هذا الجوهر الأصلي لا العوارض من الأجزاء ، وهذا الجوهر هو الذي سيكون له وحده دون سائر العناصر وذلك انسجاماً مع عدالة الله التي لا يجازى في محكمتها إلا المكلف المسؤول وإلا لإنسان العمل :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ الإسراء : الآية ١٥ .

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ النجم : الآية-٣٩ .

وإن جلود الكفار كلما نضجت في النار بتلكها الله جلوداً غيرها. إنها هي هي لأنها المادة التي نضجت ذاتها ، وهي غيرها لأنها خلق جديد على مثال الصورة الأولى دون إعادة لشخص الصورة المعنوية ، ولا حشر لسائر الجلود ، والمواد الدخيلة على البدن طوال الحياة.

وسأل ابن أبي العوجاء الإمام جعفر الصادق (ع) يوماً :

﴿ كَلِّمْنَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَتَلَّتْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَتَوَقَّوا الْعَذَابَ ﴾ النساء : الآية-٥٦ .

* ويحك هي هي ، وهي غيرها ، قال : فمثل لي في ذلك شيئاً من أمر الدنيا ! قال : نعم : أرايت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكمسها ثم ردها في ملبئها فهي هي ، وهي غيرها *^١ .

بهذا ندرك لو أن الأبدان لم تبلغ مرتبة النضج لم تصيبها ذائفة العذاب ، ولو أنها نضجت واستمرت تحت سياط العذاب لاتعمد الإحساس بالعذاب . إنما يكون التبديل والتبديل لأجزاء الأبدان وجلودها لمواصلة الشعور بالعذاب .

والكلمة الفصل أو ما يشبهها في هذا الشأن هي * أن المدرك للعقوبة والمثوبة إنما هي الروح ، ومقتضى العدل أن تعذب الروح أو تثاب ببئنها الأصل لكي تدرك جزء ما عمله جزءاً وفقاً ، ولا مدخل لإلتحاق سائر الأجزاء في درك المثوبة أو العقوبة ، حيث أن الروح لا تأتئ إلا ببئنها الأصل ، فليس الدرك والإحساس للبئن حتى يقال هذه الأجزاء كانت

^١ - نور الثقلين نقلاً عن الاحتجاج للضري ج ١ ص ٤١٠ .

شركة الأعمال في أبدان أخرى فتجز كما عملت ، وإنما المدرك هو الروح ، ولا سييل عائلة لجزاء للروح بدنياً إلاً من طريق بدنها الأصل الذي كان معها طيلة حياتها فيه ، لذلك لم يرد إشكال لو حشر من البدن بعضه الخاص وهو الذي كان معه طيلة حياته وترك الباقي لا إلى هذا ولا إلى ذاك حيث يخلص البدن الأصل عما يستلزم الموت والمرض والقدارة من العوارض الدنيوية ، فيخلق من تراب الجسد بدن الخلود ، وهو الخالص من كل عوارض الفناء كما ويخلص من عوارض أخرى كانت من الأجزاء الأصلية لأبدان آخرين لو سلمنا بهذا إلحاقاً^١ .

ليس لنا أن نتجاوز تساؤلاتنا بعيداً بعيداً حتى لا نضل ونضل ، حتى لا نؤدي هذه التساؤلات إلى تعقيدات يتوكد بعضها من بعض .
فالحديث القرآني مع اليوم الآخر وطبيعة الحشر هو حديث قريب المتناول لا عقدة فيه ولا غموض ، يخاطب العقل والقلب والوجدان في آن .

إن المطلوب من مبدئه إلى خبره هو الإيمان الذي لا شبهة فيه باليوم الآخر أصلاً من أصول الإسلام ، هو الإيمان بالبعث المزدوج وما يتصل به من حساب وصراط وميزان وما يعقبه من ثواب وعقاب في جنة ونار ، شريطة إلا يتعدى ذلك للدائرة القرآنية في السدالات التعبيرية لنا من الزلل ، وتجنب الشطح ، ونطمئن إلى القرار .

" لا تجب المعرفة على التحقيق التي لا يصلها إلا صاحب النظر الدقيق كالعلم بأن الأبدان هل تعود بنواتها أو إنما يعدو ما يماثلها بهيئاتها ، وأن المعاد هل يختص بالإنسان أو يجري على كافة ضروب الحيوان ، وإذا لزم الاعتقاد بالجنة والنار لا تلزم معرفة وجودهما الآن ولا للعلم بأنهما في السماء أو في الأرض أو يختلفان"^٢ .

٦. الشفاعة :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عْتَلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة : الآية - ٤٨ .

^١ - مصادق في كتاب عقائدنا ص ٢٧٧ .

^٢ كتاب كتب الفناء لكاتب الفناء : ص ٥ .

- ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ الأنعام : الآية- ١٦ .
 ﴿ إِنْ لِلَّهِ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ النساء : الآية- ١١٦ .
 ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ الزمر : الآية- ٤٤ .
 ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ البقرة : الآية- ٢٥٥ .
 ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ مريم : الآية- ٨٧ .
 ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَافِيزٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ غافر : الآية- ١٨ .

٧. تحديدها :

الشفاعه هي من الشفع مقابل الوتر ، كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة مع المشفع فيصير به زوجاً بعد ما كان فرداً ، فيقوى على نيل ما يريده من جلب منفعة وخير ، أو دفع مضرة وشر لا فيما تتضمنه الأسباب الطبيعية والحوادث مخالفات للقوانين الوضعية أو الإلهية في الشؤون الإنسانية ^١ .

إن الشفاعه التي يقصد بها التوسط بين العبد وربه قد اعترض عليها المعارضون وأنكرها المنكرون من رجالات الشيعة والسنة على السواء ظناً منهم أن الشفاعه هي على إطلاقها لا بشروطها رغم أن الشفاعه لها الحدود والقود ولا معنى لها بدون ارتباطها بالمسببه والتأثير ، فلا السبب ينقلب سبباً لكل مسبب دون شرط ولا مسبب يغدو سبباً لكل سبب على إطلاقه وبدون قيد . من البدايه أن هذا الاعتبار هو إلغاء للمسببيه وإبطال لها وتجاوز المسببيه باطل ضروره لأن المسببيه هي الأوليه التي لا تنزل للشبهات إلى ساحتها ولا تدخل الرتب إلى دائرتها.

لقد سقط بعض من الباحثين المسلمين في هوّه هذا الوهم فأبطلوا هذه الحقيقه القرآنيه دون تدبّر ودون إدراك شمولي سابر لأغواء الدلالات للآيات القرآنيه في هذا الشأن .

٨. شبهات وإعترضات وردود

- وأثر هؤلاء المعارضون شبهات وإشكالات عدّه منها :
- * إن الشفاعه ليست إلا ملغاه في صريح الآيات القرآنيه :
- ﴿ لَا يَنْبَغُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ البقرة : الآية- ٢٥٤ .

^١ - راجع تسميه الميزان للفاضلاني المجلد الأول ص ١٥٧ .

﴿فَمَا تَتَّخِذُهُمْ شُفَاعَةً لِّلشَّافِعِينَ﴾ المائدة - ٤٨ .

ولكن حين نقرأ في القرآن آيات تنفي الشفاعة وأبنت تؤكدنا فليس لنا الأخذ بالمطلق
إن في النفي وإن في الإثبات وليس لنا أن نقول شبهة للتناقض بين آيات القرآن المعصومة
إنما علينا - بالبداية - أن نضع كل أية يميزها لتعصم بالموضوعية والوعي ، ويكون الحكم
عليها من خلالها ولون تجاوزها .

لماذا لا ندرك بهذا التنوع للقرآني أن هناك نوعين من الشفاعة ، شفاعة مقبولة في
الحكم الإلهي وشفاعة مرفوضة ؟

فالشفاعة المقبولة هي العادلة التي ليس فيها ترجيح ولا تستلزم المشاركة فله في قدرته
وحكمه ولا يكون لها قدرة التأثير على القرار الإلهي ولا تكون إلا نتيجة الإنز من الله لمن
ارتضى .

أما للشفاعة المرفوضة نقلاً وعقلاً فهي التي يكون فيها الشفيع وسيلة لينفذ بها المجرم
إلى الحكم الإلهي ويحول دون تنفيذه كما هو الشأن بالوساطة التي تعمل على خرق القوانين
في المجتمعات البشرية المختلفة .

إن شفاعة النبي والأئمة ليست نافذة في الساحة الإلهية لتتعلق قدرة على تغيير إرادة
الله ونقض قوانينه .

فالجاهليون كانوا يرون في الأصنام شركاء لله في إدارة الكون حيث كانوا يقدمون لها
الذبايح والقرابين والأدعية لأن رضاها يغني عن رضى الله .

هذا النوع من الاعتقاد بالشفاعة هو باطل وشر ، هو انحراف وشك . فالشفاعة لا
تعارض مع التوحيد في العبادة ولا تتناقض مع التوحيد الذاتي لأن خطأ القائلين بهذه الشبهة
صانر عن الاعتقاد بأن الشفاعة من لوازمها كون رحمة الشفيع هي أكثر سعة من رحمة الله
بينما رحمة الشفيع ما هي إلا قيس من رحمة الله . فإله وسعت رحمته كل شيء .

إن الشفاعة المقبولة تتلحق من الله إلى المذنب بالوسيلة التي يحددها الله دون غيره .
أما الشفاعة الساقطة الباطلة فهي التي تتلحق من العبد إلى الله بقصد نقض حكمه ، وتغيير
إرادته .

الشبهة الثانية التي أثبتت حول الشفاعة هي الاعتقاد بأنها سبيل لارتكاب الذنوب ووسيلة تشجع المذنب على مضاعفة مخالفته وتدفعه إلى خرق الأحكام الإلهية كما هو الحال في الحكومات الضعيفة والقوانين البشرية التي لا تملك المنعة ، فتعمل الرشوة عملها ، وتغرض القوة سلطانها ، وتنفذ الوساطة أو الشفاعة إن في السر وإن في العلن ، لنسقط للذنب، ونحو المخالفة . كل ذلك على حساب العدل، وهيبة القانون ، وحقوق الآخرين .

إن القرآن يرفض الاستثناء والوساطة والتأثير والنصرة والمؤازرة في المحكمة الإلهية لتعطيل قرارها ، وللفرار من المسؤولية إزاء قانونها وأحكامها .

ما هو تفسيرنا لقولة الرسول صلى الله عليه وآله :

" يا فاطمة ، إعلمي ، فوالذي نفس محمد بيده لا أغني عنك من الله شيئا ؟ "

وما هو فهمنا للأئمة القاسمية التي توجه بها علي (ع) لابنته حينما بلغه أنها قد استعارت - بتقديم ضمان - قلادة من بيت مال المسلمين لتزين بها أيام العيد قائلاً :
" لو لم تأخذ بها عارية مضمونة لقطعت يدك ، أي لنفدت فيك حد المارق " ؟
أليس ذلك تطبيقاً لشرعية السماء بعدالتها الأرضية حيث لا محسوبية ولا وساطة ولا تأثير ؟

إن الشفاعة هي شفاعة للعمل لأن " الدنيا مزرعة الآخرة " . فالإنسان مرهون بما كسب وبما قدم " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " .

لكن الأعمال ليست وحدها التي تتجسم في الآخرة وإنما للروابط أيضاً تتجسم هناك ، الروابط المعنوية المقننة بين الناس هنا ، فإنها تستحيل إلى صور عينية واقعية . حين يكون إنسان سبباً في هداية شخص معين فإن رابطة القيادة والقوة الحسنة التي تحققت بينهما تتحول يوم القيامة إلى صورة عينية يكون فيها الهادي على صورة قوة وإمام ، والمهدي بصورة تابع ومأموم ، وليس الأمر إلى غير ذلك في موارد الإضلال ، ومناسبات الإغواء كل إنسان يحشر يوم القيامة مع إنسان قنوته^١ .

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ الإسراء : الآية - ٧١ .

^١ - كتاب العدل لإمامي المظهري ص ٢٢٦ .

فكما أن فرعون كان للضالين قوة في الدنيا فهو في الإمام والقائد والواسطة لهم في الآخرة إلى جهنم . ﴿ يَنْقُصُ قُوَّةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ هود : الآية - ٩٨ .
فالأنبياء الشفعاء والأئمة الشفعاء ، والأولياء والأصفياء والعلماء الشفعاء إنما هم كذلك بالقيادة والهداية للذين اتبعوهم بإحسان لا للذين اتخذوهم ومذهبهم وسيلة ضلال ، وسبيل انحراف .

إن المقولة التي تجد في الشفاعة مدعاة لارتكاب المعاصي ، وإغراء بهتك الحرمات وسبيل لكل ما يصطدم بالطاعة والتعبد ، هذه المقولة مردودة لأن الآيات التي تنفي الشفاعة لا تنفيها من أصلها إنما تنفيها بعض الإثبات ولأن هناك شفاعة لله بإذنه وهناك مقفرة لما دون الشرك من المآثم وهناك رحمة إلهية تتسع لكل شيء ومن جانب آخر فلو قيل :

" إن الطائفة الفلانية من الناس أو كل الناس لا يعقبون على ما أجمعوا ولا يؤاخذون فيما أذنوا ، أو قيل إن للذنوب الفلاني لا عذاب عليه كان ذلك باطلاً وعبثاً بالأحكام والتكاليف المتوجهة إلى المكلفين ، وأما إذا أبهم الأمر فلم تحدد الشفاعة في أي من الذنوب ، وفي حق أي من المذنبين أو أن العقاب المرفوع هو جملة العقوبات وفي جميع الأوقات والأحوال ، فلا تعلم نفس هل تنال الشفاعة الموعودة أو لا تنالها ، إن ذلك لا يجعلها تتجراً على هتك محارم الله إنما يوقظ قريحة رجائها ويدفع عنها القنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله عندما تشاهد من ذنوبها وأثامها ، مضافاً ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ النساء : الآية - ٣١ ، فإن الآية إن نلت على شيء فإنما تدل على رفع عقاب السيئات والمعاصي الصغيرة على تقدير اجتنب الكبائر المعاصي الكبيرة ، فإذا جاز أن يقول الله سبحانه : إن أتقيتم الكبائر عفونا عن صغائركم ، فليجز أن يقال : إن تحفظتم على إيمانكم حتى أتيتوني في يوم اللقاء بإيمان سليم قبلت فيه شفاعة للشافعين ، فإنما الشأن كل الشأن في حفظ الإيمان ، والمعاصي تضعف الإيمان ، وتغلظ القلب ، وتجلب الشرك ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف : الآية - ٩٨ ، وربما أوجب ذلك إقلاعه عن المعاصي ، وركوبه على صراط التقوى ، وصيرورته من المحسنين ، واستغناؤه عن الشفاعة ، وكذا إذا عين المجرم المشفوع له أو الحرم المشفوع فيه ، لكن صرح بشموله على بعض جهات العذاب أو بعض أوقاته فلا يوجب تجريم للمجرمين قطعاً خاصة وأن القرآن ، لا للمجرمين حد ، ولا الذنب عين ، ولم ينطق في رفع العقاب إلا بالبعض ^١ .

^١ - الميراث للطائفي ، منه قول ص ١٦٦ .

إن السعادة ليس مقصوراً عليها على العمل إنما رحمة من الله سبقت . رحمة هي الواقع الحقيقي في نظام الوجود وما سواها من الكثر الجاحد ، والشر الهابط ، ليس إلا الأمر العارض ، إن مغفرة الله وإزالة العارض من الذنوب ، وإن الإمدادات الغيبية ، ووجود التطهير في نظام الوجود المادي والمعنوي كلها شاهد صدق على غلبة رحمة الله ورافته على غضبه .

إن المغفرة هي غسل للقلوب وتطهير للأرواح . إن السلامة والصحة هي الأصل وإن الأمراض هي الطارئة . إن كل طبيعة تتعرض لقسر يظهر فيها ميل يحاول إعادتها إلى حالتها الطبيعية . إن الانحراف إذا طرأ على مسيرة كائن فإن قوة في هذا الوجود ، وإن قوة في أعماق هذا الكائن تنبثق لتبعده عن هذا الانحراف .

ألا يمكننا أن نستنتج من جملة هذه الشواهد أن الرحمة شاملة وتسبق الغضب وأن المغفرة الإلهية ليست ظاهرة استثنائية إنما هي قانون كلي مستنتج من غلبة الرحمة في نظام الوجود . فالمغفرة الإلهية شاملة تطلل جميع الموجودات في حدود قابليتها وإمكاناتها . إن الرحمة الشاملة تجعل الفوز بالسعادة، والنجاة من العذاب شاملاً لكل الناجين . فلو لم تكن للرحمة لم ينج أحد من العذاب .

لكن بعض النفوس والقلوب تكون قد فقدت قابليتها للتطهير ، وأصبحت خلواً ، من عوامل الاستجابة للتطهير وانقلبت هي ذات النجاسة وعينها . وعندما يحل الكفر والشرك بالله في قلب إنسان ، فإن ذلك القلب يصبح هو القذارة التي يستحيل تطهيرها لأن فقد قابليته للتعقيم والتطهير .

والقرآن أصاب الهدف وأحسن التعبير حين عبّر عن استقرار الكفر في القلب بالختم والطبع للذين يرفضان أي مقتحم للقلب جديد .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ البقرة : الآية - ٧ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ النحل : الآية - ١٠٨ .

إن الاعتقاد بمغفرة الله وشفاعة الشفعاء بإذن الله ورضاه لا يتنعق إلى المخالفة ، ولا يشوق إلى الذنب إنما ينقذ القلوب من عمق اليأس إلى إشراق الأمل ويخرج بها من ملاعب العبث إلى موطن يتأزعها فيه الخوف والرجاء^١ .

^١ - رابع كتاب العدل الإنفي : ص ٢٥٠ .

الشبهة الثالثة : ماذا يلزم عن الشفاعة لو كان أمرها سليماً صحيحاً ؟

ألا يقضي ذلك بأن الله ليس مستمراً على حال ، ولا ثابتاً على أمر إنما شأنه التآثر والانفعال ، والتغير والتحول في الإرادة والمشيئة رغم أن إرادة الله وعلمه أزليّان ؟
إزاء هذا التساؤل الواهي المنطوق ، وهذه الشبهة الرافضة للشفاعة يمكن دحضها بأن الرحمة هي السابقة للغضب والمنتصرة عليه ، وأن المغفرة هي الأصل وهي الشاملة لجميع الناجين من العذاب إلا الذين لا قابلية عندهم للتطهير ولا استعداد لإعادتهم إلى طبيعتهم الأولى.

الله لا ينفعل ولا يتأثر إنما يفعل ويؤثر ، لا إرادة إلى جانب إرادته ، كل أمر مقضى بإذنه .

الله لا يطوف به تغيير ولا تبديل في صفاته عامة وفي إرادته وعلمه خاصة إنما هو الذي يغير ويبدل : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ الزمر : الآية - ٦٧ .
﴿ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ البقرة : الآية - ١١٧ .

الله لا يعنونه نقص أو ضعف أو جهل أو خطأ لينسخ إرادته متأثراً بالشفيع إن الحاكم العادل يقبل الشفاعة حين يدرك خطأه في حكم قضى به أو عمل يخالف المصلحة إن خاصة ، وإن عامة .

وإن الحاكم الظالم يأخذ بشفاعة البطانة والمقربين وإن في الشر والظلم وتجاوز الحدود.

إن الله المطلق في عدله ، والمطلق في قدرته وإرادته ومشينته ورحمته فليس إلى هذه الشفاعة الظالمة في شيء .

إن الشفاعة لا تغير إرادة الله ولا تؤثر عليها في تحول ، ولا تحمل الله على فعل أو ترك لفعل . إن التغير يحصل بالمراد والمعطوف ، وليس كل علم ينطبق على كل معلوم ، ولا كل إرادة تنطبق على كل مراد .

إن الإنسان المعلوم كل يوم هو في شأن بأسباب لكن علم الله شأنه واحد ثابت مستمر ، وإن الشفاعة الحقّة بدائيتها من عند الله ونهايتها عند المذنب لأن الله هو الذي يحدد الشفيع ، ويعين الوسيلة . أما الشفاعة المردودة والباطلة فإنما تبدأ بالمذنب وتنتهي عند الله لأن المذنب

هو الذي يحدد الوسيلة الشافعة ويقرّها . ولطالما أن الله هو الذي انتدب الشفيع نبياً كان ذلك الشفيع أو ولياً ، فلماذا لا يقبل شفاعته ؟

بهذا المفهوم للشفاعة المنحرفة فإن الشفيع تتحكم فيه إرادة المذنّب أو المشفوع له ويقع تحت تأثيره كما أن المشفوع عنده يتأثر بإرادة الشفيع .
لما الشفاعة الحقّة فاش هو العلّة المباشرة والمؤثرة في الشفيع بإرادة تلك العلّة يؤثر في المذنّب . ومحال أن يتمكّن للمجرم من استغلال قدرة الشفيع في الآخرة بدون مشيئة الله وإذنه .

الشبهة الرابعة : إن الشفاعة محال تحقّقها حسب موازين العقل ، والآيات التي نطقت بها إنما هي متشابهة لا محكمة ، وتتغير تارة ، وتتبدّل أخرى ، وربما تقول بإمكانية وقوعها لكن بحدود وشروط وربما تطلقها ولا قيد ولا حد .

وإن ننس لا ننس أن المتشابه يحمل على الباطن بالتأويل العقلي وأن المحكم إنما يحمل على الظاهر . لذلك لا بدّ من إرجاع آيات الشفاعة إلى علم الله .
لكن الحقيقة تتبدّى ولا مشكلة حين نرجع الآيات المتشابهة إلى محكمات بواسطة العقل والتأويل ، وذلك من الأمور اليسيرة لا الصيرة .
" والبرهان العقلي لما ذكرناه يتلخّص في أنه قد ثبت في الفلسفة الإلهية أن واجب الوجود هو واجب من جميع الجهات والحيثيّات . وهذا مؤداه أن واجب الوجود كما أنه في ذاته ليس معلولاً لغيره ، فهو في صفاته وأفعاله لا يمكن أن يقع تحت تأثير أيّة علّة ، فهو مؤثر محض ، ولا يتأثر ولا يفعل بأيّ شيء آخر " ^١ .

ويخلص بنا القول إلى أن الشفاعة لا تتعارض مع التوحيد في العبادة ولا تبعث على اليأس ، ولا تتعارض مع العمل طالما أن الرحمة سابقة ، والمغفرة شاملة باستثناء الكفر والمشرّك ، باستثناء فاقد القابلية للتطهير .

كل نفس مرهونة يوم القيامة بما كسبت من الذنوب والشفاعة هي للمذنبين من أصحاب اليمين ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ النساء : الآية - ٣ ،

^١ - كتاب العدل الإلهي : ٢٤٩ .

فمن كان له ذنب باق إلى يوم القيامة فهو لا محال من أهل الكبائر ، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكفراً عنه ، قال صلى الله عليه وآله : " إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل " ^١ .

أما الشفعاء فهم الرسل والأنبياء والملائكة والمؤمنون والشهداء ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ النساء : الآية - ٦٤ .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْإِنُّ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الشورى : الآية- ٥ .

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ البقرة : الآية- ٢٨٦ .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف : الآية- ٨٦ .

وقال صلى الله عليه وآله :

" من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أنا له الله شفاعتي " .

قال الحسين بن خالد : فقلت للرضا (ع) يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل : " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " قال (ع) : لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه .

العمل الصالح من غير المسلمين :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران : الآية- ٨٥ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ التوبة : الآية- ١٢٠ .

﴿ وَقُلُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مِنْ أَسَمٍ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة : الآيات- ١١١- ١١٢ .

^١ - ابن جرير لطفاطاي ، محمد الأول ص ١٧٠ .

﴿ إِنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَانُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنُّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المائدة : الآية- ٦٩ .
 ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ إبراهيم : الآية- ١٨ .

السؤال الذي يطرح نفسه ويطرحة مختلف الناس هو :

هل أعمال الخير التي تصدر على أيدي غير المسلمين هي مقبولة أو هي مردودة ؟

مرضية عند الله ولها أجرها وثوابها أو هي عابثة خاوية كقبض الريح ولا جدوى منها
 لا في قليل ولا في كثير ؟

هل المخترعون الإنسانيون ؟ هل العاملون في خدمة البشرية أيًا كانت تلك الخدمة
 وهم على غير دين الاسلام لا منجاة لهم وهم من أهل الشقوة الإلهية ؟ وإذا كان الأمر كذلك،
 الا تتم الغلبة للشر والشفاء في نظام الوجود ورغم أن الخير والسعادة هما الأصل ، ورغم أن
 رحمة الله ومغفرته هما شاملتان ولا استثناء ؟

هذه التساؤلات تبعد عن الصحة لأن الأجوبة الحاسمة في هذا الشأن ليست من
 مسؤوليات الفقهاء ؟

إن الجزاء الأوفى ، والحساب الأقرب إنما هو لله وحده ، وليس لأحد أن تكون له الكلمة
 للفصل بحق شخص ما بأنه من أهل الجنة أو بأنه من أهل النار !
 ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أُنْزِرُ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ الأحقاف :
 الآية- ٩ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

” إني رسول الله وما أدري ما يفعل بي ”^١ .

هناك وحدة بين الرسل ولا اختلاف لكن لكل مرحلة رسولها ولا مجال للتخيير أو
 الاختيار ! إن الاسلام هو الكلمة الأخيرة لله في الناس ولا يجوز إلا اعتناقه وحده لأنه يغني
 عن الكل ولا يغني عنه الكل .

^١ - أسند العتبة : عثمان بن مظعون .

يمكن أن يقال : إن علاقة الله بمختلف الكائنات متساوية ، وأن نسبة الله إلى كل الناس واحدة ، فمقتضى العدل أن يكون ثواب الله واحداً لكل المحسنين من عباده سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين !

ومن جانب آخر ، أليست الأعمال الحسنة حسنة بذاتها والأعمال السيئة سيئة بذاتها فينعدم الاختلاف بين مرتكبي الذنوب ، وفاعلي الخير وإن فيهم من هو على الكفر والشرك ، فالكُل وعمله إن في الخير وإن في الشر ؟

﴿ إِذَا لَا نُضِيعَ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ للكهف : الآية - ٣٠ .
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المائدة : الآية - ٦٩ .

لكن ألا يقال أيضاً ما للفرق بين المسلم وغير المسلم إذا كانت أعمالهما في النتائج ، ثواباً وعقاباً ، سواء ؟ ألم يقل سبحانه في كتابه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُهَا كَصِرَافٍ بَاقِعَةٍ يَصْطَبُهَا الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَجْدَةٌ شَيْئًا وَوَجَدُوا لِلَّهِ عِذَّةً مُوقِفَةً حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ النور : الآية - ٣٩ .

نعود فنسأل :

هل الإيمان بأصول الدين من المكانة التي لا تسمح بالتنازل عنه كشرط في قبول عمل الخير ؟ أم أن العذر له سبيل إلى بعض الذين لم يؤمنوا فلا يطالهم عقاب ؟
من الأمور المسلم بها أن الإنسان مسؤول عما يعلمه كما هو مسؤول عما جهله ويمكن أن يعلمه .

فالكفر الصادر لا عن العناد الجاحد الذي يمتلك المعرفة بل عن الجهل الذي لا يتصور صاحبه تقصير أو إهمال ، هذا اللون من الكفر لا تترتب عليه ولا هو في موقع خارج دائرة عفو الله ورحمته .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء : الآية - ١٥ .

فالإنسان الذي أسلم قلبه للحقيقة ، فلا عناد ولا تعصب ولا مكابرة ، لا تقصير ولا إهمال في التنقيب عن هذه الحقيقة ، وإن لم يهتد إليها فإنه سيكون في منجاة بالمغفرة والرحمة .

فديكارت الفيلسوف الذي اختار المسيحية ديناً لم يكن شائعاً غيره في وطنه ليس كثراً بل هو مسلم بالقطرة . لقد كانت عملية الاختيار عنده بعد شك وبحث ، بعد أن أسلم عقله وروحه للحقيقة . ألم تكن له مقالة تجسد هذا الاستسلام ، وهذا الصفاء وعدم التقصير :

" إنني لا أدعي أن المسيحية قطعاً أفضل دين في الأرض ، ولكني أقول أن المسيحية هي الأفضل بالقياس إلى الأدیان التي أعرفها وقد تناولتها بالبحث والتحقيق ، وليس لي أي عدا مع الحقيقة ، فقد يكون هناك في أماكن أخرى من الدنيا ، ومنها إيران ، دين يرجع على المسيحية " ^١ .

في الإسلام ليس العمل الخارجي الظاهري وحده هو ميزان الإيمان في القبول أو الرفض إنما النية المرتبطة بالعمل هي التي يعول عليها في الحكم على العمل . فالمؤمن ترتبط غايته الأخيرة في عمله بالله ، لذلك فعليه دائماً عيने إلى فوق . أما غير المؤمن فلا يتجاوز إلى أعلى لأن روحه لا تنفذ بأشواقها إلى الأعلى . قال صلى الله عليه وآله : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " ^٢ .

ويقول الصادق (ع) :

" اجعلوا أعمالكم لله لا للناس ، وذلك لأن كل ما لله فهو إليه يتجه ، وكل ما للناس فهو لا يرتفع إلى الله " ^٣ .

إن العمل قوامه نية صالحة ، وشرقه روح صفية ، وميزانه إخلاص نفسي لا شائبة فيه . فالقضية في العمل نوعيته لا كميته ، وروحه لا مانيته .

﴿ إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لِرُوحِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ الإنسان : الآية - ٩ .

إن العمل بدون إيمان بالله واليوم الآخر هابط ، وأن العمل بإيمان هو صاعد ومقبول .

وكيفما انقلب الأمر فالذين يخدمون الإنسانية لا يخلو أمرهم من أجر وإن كانوا على كفر ، يقول صلى الله عليه وآله بحق عبده بن جذعان الجاهلي المشترك :

^١ - العدل الإلهي : ٢٨١ .

^٢ - صحيح مسلم ، المجلد السادس ص ٤٨ .

^٣ - الوسائل ، المجلد الأول ص ١١ .

” أن أهون أهل النار غذائاً ابن جدعان . قيل : لماذا يا رسول الله ؟ فأجاب : إنه كان يطعم الطعام ”^١ .

وهذا حاتم الطائي وأمثلة من المشركين قد رأى فيهم الحديث النبوي رأيه ؟ هؤلاء ينتهون إلى رحمة الله التي تخفف عنهم من العذاب ما تخفف أو أنها تترك العفو والمغفرة بنون قيد ولا عذاب .

ورد في كتاب العدل الإلهي :

” وفي كل زمان يوجد أفراد كهؤلاء مع اختلاف الظروف والملابسات يخفف عنهم العذاب أو يرفع عنهم تماماً .

وفي نظري إذا وجد أفراد يحسنون إلى الناس الآخرين وحتى إلى الأحياء عموماً لأن ” لكل كيد حرى أجراً “ دون انتظار لأي نفع ، وحتى أنهم لا يقدمون خدماتهم للبايسين خوفاً من يوم يأتي يصبحون فيه من جملتهم ، بل دافع الإحسان والخيمة يقوي في أعماق وجدانهم ، حتى أنهم ينجزون الخير ولو أنهم يعلمون بأن لا عائد منه ، ولا أحد يعلم به ، ولا أحد يبارك له ، وبشرط أن لا يكونوا واقعين تحت تأثير العادة ، فلا بد أن نقول إن هؤلاء يقيناً في أعماق ضمائرهم يوجد نور من معرفة الله . وعلى فرض أنهم ينكرون بالسننهم فهم قطعاً مقررون في ضمائرهم . أما إنكارهم فهو منصب على أشياء موهومة ، تصورها مكان الله ، أو منصباً على أمور متخيلة تصورها مكان العودة إلى الله ومكان القيامة ، وليس الإنكار في الواقع منصفاً على ذات الله تعالى المعاد الحقيقي .

وللتعلق بالخير والعدل والإحسان من جملة كونها خيراً وعدلاً وإحساناً بدون أية شائبة أخرى يكشف عن الحب لذات الجميل على الإطلاق ، وعليه فنحن نستبعد أن يحشُر هؤلاء للناس مع أهل الكفر ولو أنهم كانوا مفكرين بالسننهم ، والله أعلم ”^٢ .

يوم الجزاء ’ البعث ‘ :

إن يوم الجزاء هو من مقتضيات الحكمة الإلهية ليجزى كل بما قَمَّ لأن الدنيا مزرعة الآخرة .

وعنى القرآن بهذه العقيدة لأنها من أصول الإسلام الثلاثة لو هي من أصول الصلاح والإصلاح في العالم لكن فئة من الناس يعتربها للشك في البعث ودار الجزاء لأنها لا تجد فيه

١ - تيسار ، المجلد الثالث ص ٣٨٢ نقلاً عن الكافي .

٢ - العدل الإلهي للمعصومي ص ٢٩٧ .

مصلحة ترجى ولأن الحاجة لا تدعو إليه ، ولأنه مستبعد وقوعه ، ومستعظم أمره حيث الأجساد تتفرق وتتحلل وتفسد وتنفى في الأرض ، فلم يكن لعقول هذه الفئة أن تسلم بسهولة عودة الأجساد حية تسعى وتترك وتحس . وتتساءل هذه الفئة قائلة : أليس يوم الجزاء مخالفاً للسنة الطبيعية ؟ وهل عهد الأحياء أن ميتاً يبعث من رسمه ، واستعداد الحياة كرة أخرى .

وكان الرد القرآني الملائم ، وكانت المواجهة القرآنية للمتخينة لكل فريق . لقد رد القرآن على المتوهمين بأن البعث لا تقضي به حكمة ، ولا تدعو إليه حاجة بقوله :

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ النجم : الآية-

٣١ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ لَنَا خَلْقَانَكُمْ غَنًا وَأَنْكُمُ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون : الآية- ١١٥ .

وكان رده على الذين يستبعدونه ويجنون في أمره صعوبة أو استحالة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الروم : الآية- ٢٧ .

وأما أولئك القاصرون في الاستنتاج ، أولئك الذين توهّموا أن البعث إنما هو مخالفة للسنة الكونية المعهودة وخرق للقوانين الطبيعية المألوفة ، أما أولئك فقد كان الرد عليهم بليغاً بليغاً لأن من واقع الطبيعة وظواهرها المحققة التي يدركونها ويعهونها :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا سَخَّيْنَا فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنَعْرِفَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَالْأَسَاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَئِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ الحج : الآيات- ٥-٧ .

إن البعث ثبت في هذه الآيات بدليلين ملائمين للاعتراضات :

الأول : خلق الإنسان من تراب لينقلب التراب إنساناً كاملاً عبر مراحل النطفة والعلقة والمضغة والطفولة والرشد والأرذل للعمر حتى اللوفاة . أفلا تكون الساعة ممكنة بعد هذا بل هي آتية لا ريب فيها كما في التعبير القرآني .

وإن العلم الحديث والواقع يقرآن هذا الخلق وهذه المراحل المتعاقبة .

خذ قطعة من الجسم الإنساني وتحول بها إلى الاختبار التحليلي فالنتيجة التي ستنتهي إليها هي أن هذه القطعة تتألف من العناصر التي تتألف منها عناصر التربة للأرض ذاتها ، ويكون مصير هذه العناصر للتربة الأرض إنما هو الانتقال إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من المأكّل .

الثاني : الأرض الهابدة الميتة التي تدب فيها الحياة ، وينبت فيها النبات الأخضر الريان حين يتنزل عليها المطر وفقاً .

إن مسألة خلود الروح وما إليها كمسألة نهاية العالم ويوم الحساب والجنة والنار كانت موطن العناية والرعاية في عقيدة التوحيد .

لكن التعاليم اليهودية لم ترعه حق رعايته ولم ترسل شعاع اهتمامها عليه إلا جانباً خافتاً ، ولعل التنظيم الاجتماعي قد أخذ من هذه التعاليم الجهد .

وجاء العهد الجديد يؤكد في تذكيره أيام الله ويلج باهتمام بالغ على الآخرة بعد أن كان العهد القديم قد انصرف بعض الانصراف عن التعاليم الاجتماعية والتنظيمية .

أما القرآن فقد اهتمت على يديه سطور قصة الخلود والانبعاث ، ورواها بالنبوة المهيبة الرهبة ، واللهجة الفريدة العجيبة التي تبعث الخشية للخشعة في القلوب ، وترسم للمشاهد المفزعة الخائفة على تفاصيلها الدقيقة والمحيطه .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ التكوير : الآيات - ١-٣ .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يُومِنُ نَحْنُ أَخْبَارُهَا (٤) بَلَىٰ رَبُّكَ لَوَحِي لَهَا ﴾ الزلزلة : الآيات - ١-٥ .
﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَنِمْ لَوْقَعَتِهَا كَذِبَةٌ (٢) خَالِصَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ الواقعة : الآيات - ١-٦ .

﴿ يَسْأَلُ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٢) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٣) وَجُمِعَ الشَّعْنُ (٤) وَالْقَمَرُ (٥) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ (٦) كَلَّا لَا وَزَرَ (٧) إِلَيْ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (٨) يَتَبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَالْآخِرُ (٩) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٠) وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعْبُودَهُ (١١) لَا تُعْرِضْكَ بِهِ لِمَعْبُودِكَ لِتُعْجَلَ بِهِ ﴾ القيامة : الآيات - ٦-١٦ .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ لقمان : الآية- ٣٤ .
﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأحزاب : الآية- ٦٣ .

وهذه الساعة ، أو القيامة ، أو القارعة ، آتية لا ريب فيها ولعل وقوعها قريب ولكنسه من علم الغيوب والله وحده علام الغيوب .

ومن حكمة الله في خلقه هذا الغيب في زمانها ليكون الانتظار والترقب موقف الإنسان الدائم فيكون متواصلاً بالعلاقة بالله وبنفسه على صلاح وبالأخرين على إصلاح . ولطالما كان الدليل الواضح على إمكانها ووجوب وقوعها فلا حاجة للتوقُّف . وإن عدم التحديد قد يكون لحكمة إلهية تقضي بأن يبقى الناس أمام التجربة والامتحان في الفكر والإيمان ، كلسه الخير والشر ، إن الساعة هائلة الإفراغ ، مرعدة المخاوف . إنها انقلاب الكون على نفسه .

فالتشمس زائغة عن مجراها . باهتة بضوئها ، متجاوزة لموقعها .
النجوم المنتظمة متناثرة ولا نظام . لقد اختفى بها الضوء ، وغار بها الشماع .
الجيال الرواسي قد سحقت وانطوت غباراً تذرره الرياح .
المحيطات قد اهتاجت بها الأمواج لتثور وتفيض ويتداخل بعضها ببعض .
الوحوش ما لها إلا الرعب ، وامتلكها للفرع فإذا بها متهاجرة تسابق الريح أو يستلظ بعضها ببعض من الهول .
الأرواح المنفصلة عن أجسادها قد عالت واتصلت بها لتحيا وتسعى .
الأرض ترجّ رجاً لتخرج أثقالها ويقول الإنسان ما لها . يومئذ تحت أخبارها .

النفس الإنسانيّة يغشاها الذهول الضائع ، وتحيط بها الدوامة الحائرة لتأخذها من أقطارها ،
﴿يَوْمَ تَرَوْنها نَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتُكْرَى
النَّاسُ مُكْرًى وَمَنْ هُمْ بِسُكْرًى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج : الآية- ٢ .

الصفح المطوية التي فيها أعمال الإنسان قد نشرت للحساب ، السماء غير السماء ،
والأرض غير الأرض .
الجحيم قد سقرت للكافرين ، والجنة قد أزيلت للمؤمنين المتقين ، الكون غير الكون ،
الانقلاب التام لكل معهود ومشهود .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاعَةُ ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ عيس: الآيات- ٣٣- ٣٧ ، طلباً للنجاة ، وانشغالا بالهم والقلق والمخالفة من المصير المجهول .

ليس في الوجود المعهود كله مشهد يماثل هذا المشهد في الحركة أو يفوقه في الألوان المركبة في مختلف سور القرآن .

من هذه المشاهد اللوحات وما يتبعها من صنوف المشاهد للجنة والنار اقتبست عبقرية دانتي لوحاتها الخيالية في الكوميديا الإلهية لأنها مما أوحاه إليه في " رسالة الغفران " .
إن الساعاة في القرآن لها المرادفات من الأسماء كالقيامة والبعث والحاقة والصاعقة والقارعة والأزفة .

ويصير الناس إلى ربهم في هذا الانقلاب ويتوجهون إلى تناول صحائفهم السوداء أو البيضاء في يوم الفزع الأكبر ، في يوم المحشر الرهيب .

﴿ فَأَمَّا مَنْ نَقَّلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَلَمَّا مِنْ خُفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأَمَّةٌ هَارِيَةٌ (٩) وَمَا أَنْزَلَكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿ القارعة : الآيات- ٦- ١١ .

للدنيا مزرعة الآخرة والانسان ما يقدّمه ينتهي إليه ، وما يزرعه يحصده .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْنُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ﴾ (١) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ الزلزلة : الآيات- ٦- ٨ .
﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿ آل عمران : الآية- ٣٠ .

إن اللذة والألم ، والنعيم والجحيم مرتبطون بما اختاره الانسان لنفسه في الحياة الدنيا ، لأن الإسلام جمع بين الدين والدنيا ، وزاوج بين النية والقول والعبادة والعمل " الكاذب في سبيل عياله كالمجاهد في سبيل الله " ^١ .

فالإيمان باليوم الآخر هو أقوى ما يدفع الإنسان إلى الكمال الخلقي ، والراقي الشخصي، والتواصل الاجتماعي لتكون المكانة الراضية المرضية في المقلب الآخر .

^١ - حديث شريف .

يوم القيامة هو يوم الحساب والحشر والعدل والجزاء ، إنه يوم المصير الأكبر ، إنه يوم " لا تزر فيه وازرة وزر أخرى " ، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه " ، ولا يظلم ربك أحدا " .

كل إنسان وكتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ويحصيها له أو عليه ليكون إما من أصحاب اليمين أو من أصحاب الشمال .

الحساب دقيق وعسير ، لا تقوته الخاطرة في الذهن ، ولا الحصن في النفس ، ولا النية في القلب . وهل النية إلا روح للعمل وللعمل بمنزلة الجسد بغير الروح لا خير فيه ؟ وهل النية إلا سابقة على العمل ، والسابق أشرف وأفضل من المسبوق ؟

إن نية المؤمن خير من عمله ، وإن نية الكافر شر من عمله .
﴿ وَإِنْ تَبْذُوهَا فَمَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهَا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ البقرة : الآية - ٢٨٤ .

ويقول صلى الله عليه وآله :

" لا عمل بلا نية " ويقول " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " .
إن النية من أشق الأعمال لا تقتارها إلى الإخلاص والقربة والتخلص من الشوائب والعوارض الفاحشة ، والشرك الخفي الذي يدب بالقلب كدبيب النملة السوداء في الليلة للظلماء ، إلى المجاهدات والرياضات ، وتركية النفس من الرذائل ، وتحليلها بحلية الفضائل التي لا يمكن أن نتحقق إلا بالجهد الشاق .

والتوضيح لما تقدم مرهون بقول الرضا (ع) :

" إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه سبحانه ، فيكون هو الذي يتولى حسابه ، فيعرض عليه عمله ، فينظر في صحيفته ، فأول ما يرى سيئاته يصفر لذلك لونه ، وترتعد فرائضه ، وتزع نفسه ' ثم يرى حسناته فتقر عينه ، وتستقر نفسه ، ويفرغ روعه ، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله تعالى من الثواب فيشتد فرحه . ثم يقول الله تعالى للملائكة هلموا إلى الصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها . قال : فيقرأونها ، فيقولون : وعزتك إنك لستعلم أنا لم نعمل منها شيئا ، فيقول عز وجل : صدقتم ، نويتموها فكتبناها لكم ، ثم يثابون ' .

١ - كتاب : أسبغ الوضوء في الفروع - ص ٣١ .

فالتحساب من مقتضيات العدل في الدنيا لتستقيم للإنسانية أمورها وتملك السوي من دروبها .

وهل الكون إلا مدرسة للعدل ؟ وهل الوجود دون ميزان وانتظام بسمائه وأرضه ؟
إن الإنسان ليسعى وهو مسؤول في حياته أمام الهيئة الإنسانية وأمام حسنه وضميره .

أما ذلك الإنسان الذي يجور عن الطريق ، وتضيع به سبل الغواية والشتر ، ولم تحاسبه الإنسانية ، ويتوارى دون جزاء ، ويطوي الحياة دون عقاب فهل من الغريب في شيء أن يكون ما بعد الموت مقلب آخر من الحياة يلقي فيها جزاء ما قدمت يدها في المحكمة الإلهية، وبين يدي حكيم خبير .

وأما ذلك الإنسان الذي بلغ للصلاح في نفسه ما بلغ حيث يعبد الله كأنه يراه ، ويبقى أمر صلاحه في نعمة ضميره ، وفي صحائف الغيب دون صوت إنساني يعلن حقيقته ، فهل عجيب لو كان ثواب في حياة أخرى يجهر بالحق ويضع الميزان ؟

كم هم الذين قضوا ظالمين !
وكم هم الذين قضوا مظلومين !
وهل الدنيا فرصة الأشرار ليبقى الطيبون الأخيار على غُيْنٍ ومظلمة ؟

إن الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإن الجحيم التي وقودها الناس والحجارة وعليها ملائكة غلاظ شداد هما جزاء العدل للأخيار والأشرار .

يقول صلى الله عليه وآله :
" يبعث الناس حفاة عراة عزلاً قد أجمهم العرق ، وبلغ شحمة الآذان " .
وتعان قصة المحشر نهايتها وتصل رواية الحساب إلى غايته فيكون مشهد الختام في ذلك الفصل الرهيب :

﴿ فَضْرِبْ بَنِيَّهَمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الحديد:
الآية- ١٣ .

للتعظيم والعذاب حسنيان معنويان :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَمَلٍ صُفًى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ محمد : الآية-١٤ .
﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ آل عمران : الآية-١٧٠ .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَالُوا مِنْهَا
لِلْبُطُونِ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ﴿ الواقعة : الآيات
٥١-٥٥ .

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفٍ﴾ الشورى :
الآية-٤٥ .

مهما تباينت المذاهب ، واختلفت الآراء حول أوصاف القرآن للجنة والنار وما في
الأولى من التعظيم المقيم وما في الثانية من العذاب الأليم فإننا سننتهي إلى الإيمان بالحسنة
والمعنوية معاً في نعيم الجنة وعذاب الجحيم .

المادية الجسمية في الثواب والعقاب لا يمكن تأويل آياتها ولا حمل ظاهرها هذه الآيات
على باطن استناداً إلى أن المعاد الجسماني المادي ثابت بالنقل والعقل وإلى أن النصوص
القرآنية المعصومة تنطبق بهذا وتعلمه ولا حاجة إلى الخروج بها عن دلالتها الظاهرية طالما
تلتقي بظاهرها مع الغاية من المعاد الجسماني .

إن الإشارات القرآنية إلى المادية في الثواب والعقاب هي المسيطرة وهي لللائحة وهي
الأظهر فلماذا التحايل عليها وحملها على غير محملها ؟
ما قيمة المعاد الجسماني ، وما الغاية النهائية منه إذا اقتصرنا على الأخذ بالفكرة
الروحانية والعقلية للجزاء والجنة والنار ؟

لقد شهد تاريخ الفكر الإسلامي فئة من المتكسبين والمتأخرين فلاسفة كانوا أم
متصوفين ، تأخذ بالفكرة الروحية في مسألة الثواب والعقاب لتخرج بالآيات القرآنية في هذا
الشأن عن ظاهرها ، وتحملها ما لا تحمل من التغيرات والتجوزات مما يتعارض مع
ضرورات الشريعة ، ويخالف غاية المعاد الجسماني دون المادية .

وإن القول بالمعنوية دون المادية في هذه المسألة إنما يحتاج الى إقامة الأدلة ذاتها التي كانت لإثبات المادية رغم ان المعنوية بهذه الأدلة لا يمتثل طائفة من بعد اليقين طالما هي تتناقض مع ما يتناسب وطبيعة الحشر الجسماني اليقيني ، أما الأدلة التي اعتمدها أصحاب النزعة الروحية لإثبات ما ذهبوا إليه فمنها :

﴿ أولاً :

إن الكيان الجسماني المادي محدود وتعتريه النواقص للترابية ، أما الكيان الروحي والعقلي فهو أكثر اتساعاً وأبعد مدى ، وأقرب على الإستيعاب والتناول والنفاذ .

وهل للثواب الذي أعدّه الله للمتقين بما فيه من لذة رَئِيَّة ، وسعادة غامرة هو محدود ؟
وهل العقاب الذي سيناله عدوُّ الله بما في هذا العقاب من الآلام أقصاها هو محدود ؟

لطالما أنَّ النعيم والثَّقاء هما على تناقض تام مع الكيان الجسماني المحدود وغير المحدود فمحال أن يكونا حسيَّين !

يقول تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة :
الآية - ١٧ .

ويقول صلى الله عليه وآله :

‘ لقد أعدَّ الله لأحبَّائه من الثَّواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ’ .

﴿ ثانياً :

للناس أصناف ثلاثة عند بعض المتفلسفين الإسلاميين :

- البرهانيون وهم أهل اليقين بمقدمات منطقهم ونتائج .
- الجدليون وهم جماعة الاحتمال والظن ولا يحققون اليقين في هذه المقدمات والنتائج .
- الخطائيون أو الجمهور وهم الفئة الأكثر عدداً وهم الذين تملك أحكامهم وآراءهم العواطف ولا تتجاوز مداركهم الحسيَّات والمشاهدات .

ولما كانت الشريعة لكل الناس كان عليها ان تضرب الأمثال وتأتيهم بالأوصاف الحمية لقادرة على إفهامهم والتقريب لأذهانهم .

يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

" إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ، ونخاطبهم على قدر عقولهم " .

ويقول علي (ع) :

" حثتوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكتنب الله ورسوله ؟ "

إن الحقيقة الواحدة هي ما وراء الدلالة الظاهرية للآيات القرآنية الحميدة الوصف .
لما جماعة البرهانية ذلت للحكمة وذات المعرفة الواسعة فإنها المتمكنة على إدراك
هذه الآيات على أنها رموز وأمثال لحقيقة هي وراءها ، الحقيقة هي اللذة والام للروحاني غير
المحدودين والذات لا يتحققان في الدائرة الحميدة المادية .

◀ ثالثاً :

إن المعاني المفارقة للمادة والمجردة منها ومن لوصافها تجرداً تاماً ، وإن اللذة والام
الروحيين أو العقليين لا يدركهما البشر عامة إلا بالأمثال المضروبة أو بالأوصاف الحميدة
الملائمة للعقلية البشرية التي لا تفصل عن الحسيات انفصلاً تاماً .

" إن محمداً ﷺ كان ينقل الدين لا للعقول الراجحة الممتازة من المفكرين المثاليين
الذين تصادف وجودهم فحسب وإنما للعالم المتسع حوله ، المؤثر بالماضية بكافة أنواعها ،
وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فالعربي الجائع ماذا عذده أجمل وأحلى توافقاً
مع تفكيره من الجنة ، أكثر من أنهار تجري فيها المياه ، ويجري اللبن والعسل ، وهل يود أن
يرى إلا الفاكهة والخضرة الدائمة والخصب المثمر ؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا
تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحولس " ^١ .

" وإن عالم الآخرة ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل مواد ، على نمو ما يكون للأحياء في
هذه الحياة الدنيا بل ذلك عالم خلود وبقاء ، والذات في لذات سعادة ، والآلام فيه آلام شقاء ،
فكل ما يقع في ذلك العالم ، فإنما بينه وبين ما يقع في عالماً وجوه مشابهة لا وحدة مجانسة ،
فما جاء في القرآن من الأكواب الموضوعة ، والوسائد المصنوفة ، والبسط المبنوثة وغير
ذلك مما نراه في بيوت أهل النعمة فإنما جاء القرآن لتصوير النعمة والرفاهة واللذة ، وإلا
فنعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم " ^٢ .

^١ - كتاب روح الإسلام لمحمد أسعد علي .

^٢ - فتاوى محمد عده ، كتاب تفسير جزء عم ، سورة الفاتحة .

هذا ما ذهب إليه أصحاب النزعة الروحية في شأن الآخرة من حيث نعيمها وشقوتها من حيث لذاتها وآلامها .

لقد ورد في القرآن نوعان من أوصاف الجزاء الأخروي : أحدهما حسني والآخر معنوي ، نارة يردان مجتمعين ونارة يردان منفصلين حسبما تقتضيه البلاغة القرآنية .

إن الله الذي خلق البشر هو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يغزو للقلوب والعقول ، ما يصلح للتربية وما يفيد ، ما يناسب نعيمهم ، وما يصلح لعذابهم .

أليس للبشر أصنافاً ، والنفوس ألواناً ، والطبائع شتى وكلها تنتمي بالقواسم المشتركة التي هي الفطرة لتعود مختلفة متنوعة حسب خصوصيات كل إنسان ؟

لقد فصل الله ألوان النعيم والعذاب ، وصنوف المتاع والآلام وفق علمه المطلق بالعباد !

هناك ناس يصلح لتربيتهم ، وإثارة همهم للعمل ، كما يصلح لجزائهم ويرضي نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن ، أو أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، أو أنهار من عسل مصفى ، أو أنهار من خمر لذة للشاربين ، أو صنوف من كل اللذات ، مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات ، فلهؤلاء ما يصلح لتربيتهم ، وما يليق لجزائهم .

وهناك ناس يعبدون الله شكراً على نعمه التي لا يحصونها ، أو لأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب ، أو لأنهم يستحيون أن يراهم على حالة لا يحبها ، ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار .

روي عن الرسول صلى الله عليه وآله : "أنه كان يصلي حتى تنفر رجلاه فقبل له : يا رسول الله ، أنصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً " .

ويقول علي (ع) : " إلهي : ما عبتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك ، ولكن وجنتك أهلاً للعبادة فعبدتك " .

ويقول : " إن قوماً عبدوا الله شكراً فترك عبادة الأحرار " .

وتقول رابعة العدوية :

" أو لو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ، ولم يخش أحد ؟ " .

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع ، وكلها تجد فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء ما يصلح للزينة في الأرض ، وما يناسب للجزاء عند الله .

ألا يلاحظ أن صور النعيم والعذاب ترقّ وتشفّ كلما ترقّى السامعون في مراقبي التربية ولتهذيب على المساحة الزمنية لنزول القرآن وحسب أنسواع المخاطبين والحالات المتنوعة التي كانت تخاطب بالآيات ، وهي حالات ونماذج تتكرر في البشرية في جميع الأعصار^١ .

وبعد الدراسة يمكننا التأكيد من خلال الأوصاف القرآنية المعصومة للجزاء الأخروي أن الثواب منه المادي ومنه الروحي ، وأن العقاب منه الحسي ومنه المعنوي . أما الذين يقصدون الجزاء على جانب الروحي دون قمادي فليس لهم من ألتهم إلا الاحتمال الذي لا يسنده نقل ولا يدعمه عقل .

ولطالما أن الآخرة وشؤونها هي أمور غيبية ولا تخضع معرفتها للحسن أو التجربة فإن العقل لا يمكنه أن يرسل حكمه في أمر جزائها لأنه لا يملك القدرة على هذا الحكم !

الجنة :

قال تعالى :

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْذُّ الْأَعْيُنُ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا خَلْقٌ ﴾ الزخرف : الآية- ٧١ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ (٥٤) يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ النحان : الآية- ٥١ .

﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ الرحمن : الآية- ٧٢ .

الجنة هي دار السلام أو الخلود أو النعيم ، هي جنة المأوى أو جنة عدن أو دار الرضوان أو هي الفردوس العظيم أو الحيوان^٢ أو المقام الأمين .

^١ - راجع في خلال القرآن ، سيد قطب ، مجلد ٧ ص ١٥٧ .

^٢ أي دار الحياة .

الجنة في اتساعها هي كعرض السماوات والأرض أعنت للمعتقين ، وهي في مقامها ونعيمها قد هيئت للمؤمنين يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر .

إنها لعباد الله المخلصين ، إنها لأهل التوبة النصوح ، والإيمان الخالص ، ، والعبادة الخاشعة ، والألسنة للذاكرة ، والجهد في سبيل الله والأموال والأنفس .

إن عبادة الله هي الطريق الأمين إلى الجنة ، وهي الدرب العموي الذي يوصل باطمئنان إلى رضوان الله .

وإن عبادة الله تتحقق بطاعته وخشيته ، بالإيمان المطلق الذي يخلص من شوائب الكثرة والشرك والارتباب ، بخدمة الإنسان للإنسان ، أو بالصلح والإصلاح لتنتهي الإنسانية إلى الخير .

إن حق الإنسان على الإنسان متصل بحق الله على الانسان .

ولكم توعد الله الظالمين والخائنين والمنافقين !

في الحساب مساواة ، فالجنة للمطيع ولو كان عبداً حبشياً لأن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وما ملئان ويلاً وصهيب ببعيد عن ثقافتنا الإسلامية . أما النار فهي للعاصي ولو كان سيذاً قرشياً كما تعرف عن أبي لهب وأضرابه .

يقول صلى الله عليه وآله :

‘ إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا ’ .

‘ القيام بحوائج الناس خير من عامة الصلاة ’ .

ويقول علي (ع) :

‘ خيركم عند الله خيركم عند الناس ’ .

ويقول الصادق (ع) :

‘ أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ’ .

إن الجنة ونعيمها خللдан ، وإن النار وعذابها مستمران ولكن الانسان في مذهبنا له من الشفوة والعذاب بمقدار ما اجترح من سيئات ، واقتصر من مآثم وخطيئات ، أما المشركون الذين لا عز لهم في شركهم فهم وجهنم زقاء درب وفيها ومعها يخلدون .

والناس في الجنة على درجات بعضها أرفع من بعض والميزان إنما هو الأعمال ، والأعمال تتفاوت بالسمو ، وتختلف بالاخلاص ، وتباین بالإيمان .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ الأحقاف : الآية - ١٩ .
﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ نَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴾ الإسراء : الآية - ٢١ .

إن الجنة بنعيمها الحسي فيها للنهر الكوثر من الخمر العطور ، واللبن المكروور ،
والشراب البخور المسحور ، والماء المتفقق الطهور ، والعمل اللذة المصفى .
﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلْشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَمَلٍ مُصَفًّى ... ﴾ محمد : الآية - ١٥ .

في الجنة الشجر الوارف الظليل ، والهواء البليل اللطيل ، والربيع الأخضر الزمان ،
والفاكهة المباركة الخيرة ، والثمر اللاذ والمشتهي ولا انقطاع .
﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٢٧) في ميزر مخضود (٢٨) وطلع منضود (٢٩)
ونظ منضود (٣٠) وماء منضود (٣١) وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴿
الواقعة : الآيات - ٢٧-٣٣ .

وفي الجنة الصحاف الذهبية ، والأكواب النقية ، والمأكول الشهية .
﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾
الزخرف : الآية - ٧١ .

وهناك السرر المريحة ، والفرش اللينة ، والأرائك المصفوفة ، والكؤوس المنعشة .
﴿ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥)
ينضاء لذة للشاربين ﴿ الصافات : الآيات - ٤٣-٤٦ .

ثياب الجنة ما رق من الحرير المستنم ، وما غلط من الحرير الاستبرق ، وما اخضر
من الألوان الزاهية .
الوسائد منقفة ، والمستائر زينة مزركشة ، والأرائك مخططة ورافهة .

الزينة أساور وجواهر ، ذهب وحلي ، والحياة دار رفه ورغد ، دار سعادة ومقام ومتاع .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ الكهف : الآية- ٣٠ .

ومساكن الجنة هائلة طيبة ، فيها للزينة الزخرف ، والأثاث الناعم ، والرياش الراعدة ، فيها الغرف التي من فوقها الغرف مبنية ، وتجري من تحتها الأنهار ، وتحيط بها الأشجار الظليلة ، والحدائق الألوان .

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مِثْلُهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ لزمزم : الآية- ٢٠ .

وما أنداكم ما نساء الجنة ؟

إنهن الحور العين ، أنهن المقصورات في الخيام ، إنهن النساء الأبيكار والغرب الأتراب ، إنهن اللواتي أشدن إنشاء ، وخلقن خلقاً آخر ، خلقاً كله صبا رقيق وريش ، وكله جمال ساحر فتان ويأخذ باليصلفر والأبصار .

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ اللخان : الآية- ٥٤ .

﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ الرحمن: الآية- ٧٢ .

وكما للجنة نعيمها الحسي المادي فللجنة متاعها للروحي المعنوي ولعل هذا هو المتاع الأشهى والأصفى لكن عالم الآخرة هو من غيبات الوجود ولا ندري عنه شيئا إلا بمقدار ما يصلنا عن طريق النقل المعصوم ، والذي نتيقنه هو أن ما يقع في ذلك العلم وبينه وبين المشاهد في عالمنا من أحداث هو وجوه مشابهة لا وجوه مجانسة لأن ذلك العالم هو عالم الخلود والبقاء حيث لا فساد ولا شوائب ولا تحلل .

أليس لقاء الله قمة السعادة للروحانية ؟

إن الإنسان ليسعد بلقاء قريب أو صديق أو حبيب فكيف بلقاء الله الذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد ؟

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

الكهف : الآية- ١١٠ .

﴿ فَتَنَّا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يونس : الآية- ١١ .

لأنيست مرضاة الله ومحبتة ورحمته سبيلاً للاطمئنان للنفس ؟ ليس الذي يحب الله في الدنيا يحبه الله في الدنيا والآخرة لتمتلي نفسه حبوراً ، ويرتمش قلبه سروراً ؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴾ الفجر : الآية-٢٧-٣٠ .
 ﴿ وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَذْيٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ التوبة : الآية-٧٢ .
 ﴿ فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَلِزَوَّاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ الزخرف : الآية-٧٠ .
 ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ آل عمران : الآية-١٧٠ .

من المنافع الروحية في الجنة حياة السلام والاطمئنان ، فالجنة هي دار البقاء ، لا موت فيها ولا هرم ولا سقم ولا آفة ولا كدر ولا حزن ، لا حسد ولا اضطراع ، لا هم ولا حاجة ، إنما سلام وأمن واستقرار .

﴿ وَتَجِبَتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بونس : الآية-١٠ .
 ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الرعد : الآية-٢٤ .
 ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الأنعام : الآية-١٢٧ .

ولعل حديثاً نبوياً شريعاً بحمد لنا للنعيم الروحي في الجنة ، والعذاب النفسي في النار بصورة هي على أشد ما يكون للوضوح ، وأظهر ما يكون عليه التصوير :
 " ما من عبد مؤمن يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو لماء ، ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ، ليزداد حمرة " ^١ .

هذه هي الجنة وأوصافها على اختصار ، ولأن تكون الاحاطة المفصلة والرسول صلى الله عليه وآله يقول :
 " لقد أعد الله لأحبائه من الثواب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

^١ - سنية البحار : مجلد ٢ ص ٣٠٥ .

النَّار :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّكُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾^١ الدخان : الآية-٤٣-٤٦ .
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ... ﴾ التحريم : الآية-٦ .
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِسُخْنِهَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَبْتَغُونَ الْعَذَابَ ... ﴾ النساء : الآية-٥٦ .

للنَّار سبعة من الأسماء في القرآن : جهنم _ الهاوية _ الجحيم _ مسعر _ سفر _ لظى _ الحطمة ، لكن الأكثر تردداً والأكثر شهرة من هذه الاسماء هي لفظة جهنم .
النَّار كما هي الجنة خالدة لكن أصحابها لهم من عذابها ، زمن ، نوع ، حسبما كُفمت أيديهم من السيئات ، فالمؤمنون العصاة ينتهون إلى النجاة بعد العذاب بالمغفرة والرحمة من الله أما الكافرون بدون عذر فهم وقودها الدائم ولا خلاص .

كما في النَّار عذاب جسديّ حتّى كذلك فيها العذاب للروحي ، وأفاض القرآن بأوصاف النَّار وعذابها المختلف الألوان ليلقي الرعب في قلوب الأتّمين عسى أن يكون الارتداع . وقود النَّار المتلّظية المتشظية هو الناس بأجسامهم عظاماً وجلوداً ولحوماً وأعصاباً ، وكلما نضجت الجلود كان للتبدّل بجلود أخرى حتى لا ينقطع بالمجرمين العذاب الغليظ .

وقود النَّار حجارة تكوي وتشوي على أيدي ملائكة غلاظ القلوب ، شداد البنية ، جفاة المظهر ، خشني الملمس ، تنور النَّار بفور تغيطاً زفيراً ، ويتحيز حمماً وشهيقاً ، وإنه التذائف الحارقة ، والنَّار المحمومة النَّار مسعورة لا يشبعها وقود . دائماً متغيّظة فائرة ، ودائماً بين شهيق وزفير :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ كُلِّ امْتَلَأْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ ق : الآية-٣٠ .
﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَبَحُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان : الآية-١٢ .

^١ - انتهى : المجلس العاشر . الحسيم : الماء يبالغ في الحرارة .

وثياب جهنم نار تصلى وتتلقى ، إنها الحميم يعنصرهم شواظا واستعاراً ، إنها الماء اللهب الذي يُصَبُّ على رؤوس المجرمين ليصهر ما في البطون الجلود .
أما سياط العذاب فهي مقامع من حديد تنهال عليهم موصولة للضرب للجراح للأعناق، والمقطّع للأرصال . وكلّما حاول المجرمون النجاة بالفرار قُعموا بالضرب قعماً ، وردّوا على أعقابهم بالعنف الموحج ، والإيلام البالغ ليدوقوا ما يدوقون من عذاب الحريق الشديد وهم مصفّون بأغلال ذنوبهم ، ومحطّون بالنذل والهوان وتغشى وجوههم النار !

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الحج : الآيات- ١٩-٢٢ .

أما الطعام الجهنمي فهو الزقوم المشهود له بحذّة مرارته ، وعدم استساغته ، ليفلى في البطون ، ويفور ويفور ، ويحرق ويحرق ولا من ينجد ، ولا من يغيث .
ولمّا الشراب فهو الماء الصنّيد والقيح الملوّث الذي يتجرّعه اصحاب جهنم مكرهين فلا يستطيعون له ازدياداً ولا استساغة ولا تجرعاً ولا هضمًا ، إنما النفور والتقرّر والاشمئزاز والغثيان إزاءه .

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَنِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ إبراهيم : الآيات- ١٥-١٧ .

أتعلمون لماذا خصّ القرآن الجلود بالتبديل كلما أصابها النضج من العذاب ؟
لأنّ الجلود هي وحدها التي تجري فيها أعصاب الأكم من الأجسام ، أمّا العضلات والأعضاء الداخلية فإنها لا تملك الإحساس المرفه القويّ ، فالجلود كلما توصلت عليها الضرب العنيف كلما تخترت وفقدت الشعور بالألم ، وكلما تأكلت الجلود بالاحتراق كلما ضمّر الإحساس بالألم ، فالحرق الذي لا يتجاوز الطبقة الجلدية هو أشدّ إيلاماً من الحرق الذي يعمق إلى الأنسجة والعضلات .

فأجلد لا بدّ من إنشائه خلقاً جديداً ليكون العذاب الموصول ، والألم الدائم ، والله الحكمة البالغة ، فالتعذيب ليس من جنس واحد إنما هو الألوان ليتجدّد الألم وليشدّد العذاب ، وكان لهذه الآية السبق الطبّي في قضية الجلد وأعصاب الأكم !

أما الشقاء الروحي في النار فهو سواد الحزن ، وقلق النفس ، وحسرة القلب ، إنه الندم الذي ينهش ، والحزني الذي يأكل صاحبه ذلاً وصغاراً ، إنه الشعور بالعار ، والإحساس بالخنين والضمران ، وإنه لعذاب فوق عذاب . وهل الآلام الجسدية الماثية على ما يصاحبها من تشويه تعتبر أمراً ذابال لزاء للشقوة الروحية ؟

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الأنعام : الآية-١٢٤ .
 ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ الزمر : الآية-٥٦ .
 ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ الشورى :
 الآية-٤٥ .

وليس لنا ، التماساً للفائدة والوضوح والتقريب ، إلا أن نعيد حديثاً نبوياً شريفاً يقول :
 " ... وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ، ليزداد حسرة " .

من وحي اليوم الآخر ،

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ البقرة : الآية-٦٢ .
 ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ البقرة : الآية-١٢٦ .
 ﴿ نَلِّكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ البقرة : الآية-٢٣٢ .

إن المادية لها سلطان وسلطان على العقول والقلوب عند الناس لما في هذه الماثية من إغراء حمي ، ومشتهى نفسي ، ولحظات مانتة .

لا يعزب عن الخواطر أن المادية التي ادعت الفناء بعد الموت قد دفعت الإنسان ليكون مجنون شهوته ورهين لحظته ، حيث لا يؤمن إلا بالحسية القريبة ليتخذها ساحة قبل أن تاذن لحظة أجله .

إن الماثية الكافرة تجلب الفضائل وتجافي الأخلاقيات وتأخذ بأسباب اللامبالاة لأنها ترى بمحدودية الحياة ، وأن الموت إعدام لها وإفناء ، وأنه لا حساب ولا عقاب ، لا جنة ولا نار ، لا حشر ولا أخرة .

والمادية من شعاراتها أن التعاليم الدينية الغيبية خرافة ومعوقة ومخترعة وأنبياء للشعوب ، وأن هذه التعاليم هي صناعة الأقوياء لإحكام القبضة على الضعفاء أو هي نتاج

الضعفاء للعيش مع أحلام الخلاص والتعويض والإقتصاص . الأظهر في سلوك الماتيين هو الاستهتار بالقيم ، وطغيان الأنا ، وفوضى الرغائب والحرية رغم أن الاعتدال هو وسيلة العمارة .

إن الفرق بين معطيات المادية والإيمانية من خلال الاعتقاد بالموت وبما وراءه هو كالفرق بين سلوك طرفة وزهير بن أبي سلمى فسي الجاهلية ، أو كالفرق بين أخلاقية المسقطين وأفلاطون عند اليونان أو كما هو الفرق بين المؤمنين الملزمين دينياً وبين غير المؤمنين في مفهوم الأخلاق وممارستها .

وعني القرآن بهذه العقيدة العناية الفائقة ، وأفاض في الحديث عنها ، بعض السور نكاد أن تقتصر عليها كمسورة الرحمن ، والواقعة ، والقيامة ، والانفطار ، والتكوير ، والفجر ، والطارق ، وللزلزلة وغيرها مما كثر فيها ذكر اليوم الآخر حشراً أو حسلباً أو ثواباً أو عقاباً.

إن أظهر ما تكون عليه الرعاية القرآنية لهذا اليوم وما يتصل به لإبراز أهميته ومنزلته هو اقترانه مع الإيمان بالله في كل سورة وكل آية . وهل نكرت آية الإيمان بالله في سورة من السور إلا وأردفته قولاً باليوم الآخر . فالإيمان بالله شرطه وحقه هو الإيمان بهذا اليوم ، وكان الإيمان بالأول دون الثاني يكاد يكون لغواً ولا حكمة وراءه ! إن الإيمان بالله يستدعي الإيمان بالآخرة ويستتبعه ولا فصل ، وحسب الاعتقاد بهذا اليوم من مكانة أن يرتفع أصلاً ثالثاً في الشريعة الإسلامية بعد الإيمان بالله وبالنبوة .

ولقد بلغ الاهتمام القرآني بهذه العقيدة ما بلغ لأنها اعتراف بحكمة الله وقدرته وعلمه ورحمته ولأنها أصل ضخم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم .
لو سلمت الفطرة وكان الاستقرار لهذه العقيدة في النفوس ، وكان الإيمان بها إيماناً لا يخالطه شك ولا يخامر ارتياب لاستقامت للناس أمورهم ، وصلحت أحوالهم وكثر الخير فيهم مع اليوم الآخر في القرآن تهديد مرعب ، وترغيب جذاب مشتهى .

ليس في ذلك مدعاة لإقامة التوازن في سلوك الإنسان ، فلا شهوة متمادية ، ولا تمرد على الشريعة ، ولا سبيل إلى ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا سبيل إلى المعاصي صفاتها وكبائرها ، إنما الحياة درب راشد ومهتد . أمل بالرحمة ، ورجاء بالمغفرة.

إن الإيمان بالمعاد إيماناً حياً لا شبهة فيه ينقلب عملية سلوك ليعنق الالهة المجنونة على شهوة الأرض لأن هذه الالهة تسبذ بالنفس ، وتتحكم بالحس .
حين يمتلك الإنسان شعور بأن فرصة الدنيا هي وحدها المتاحة فلا يمكن للنفس أن تتحول بخطاها الممرعة لانتهاج هذا المتاع فرصة قصيرة ، وساحة محدودة قبل أن يطويها الموت ، وتطن على مشارف النهاية .

أما حين ينفصح الأمل وتتسع الفرصة فإن النفس تأخذ من المتاع على هيئة دون تلهف وعلى تماسك دون تمزق ، وعلى رجاء دون خوف ليكون الاطمئنان في لغة القلب والأعصاب والضمير .

إن اليوم الآخر يذكر دائماً أن الشهوات ليست غاية في ذاتها ليلحف الإنسان في طلبها، ويُلح في الانكباب عليها .
بذلك يكون للترويض والتربية وتكون الأخلاقية المتنامية التي تتجاوز الأنبيات ، وتسمو عن هبوط للتقاهات .

لطالما أن الدنيا مزرعة الآخرة فكيف لا يصنع الإيمان باليوم بالآخر الكثير من العجائب في النفس الإنسانية لتعطي وتعطي وبدون حساب ؟
﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ الزلزلة : الآية-٧-٨ .

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم :

" إن الله يعذب الذين يعذبون للناس في الدنيا " .

ويقول الصادق (ع) :

" أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة " .

ولماذا لا يذهب بنا الانفتاح بعيداً وتتحرك بنا المطامع خارج الدائرة الإسلامية فنقرأ فيكتور هيجو قوله :

" إن الذي يجعل الإنسان قوياً متسامحاً عاقلاً صبوراً ، شجاعاً ، جريئاً ، وفي الوقت نفسه متواضعاً وعظيماً ، جديراً بالحرية هو ما يترأى له على الدوام من حياة أبنيية أكمل يتألف نورها خلال صعب هذه الحياة ... فواجبنا جميعاً أن نوجه الرؤوس نحو السماء ، وأن نلفت جميع الأرواح إلى حياة بعد هذه الحياة يقرر فيها العنل ويجازى كل على ما كسبت يده .

أولى بالإنسان أن يعتصم بهذا الإيمان الإيجابي ليسلم حياته إلى استقرارها ، ويترك أعضائه إلى الإبداع ، ويتشرف بأحلامه ومآتيه إلى آفاق المستقبل في دنياه ، إلى مظلة الأخرة بين يدي رحمة الله ورضوانه .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي الَّذِينَ يَلْمُؤُنِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ إبراهيم : الآية - ٤١ .

٦- التشريع :

وانطوى القرآن على قوانين وأنظمة ترسم للإنسان طريق رشده وتخط له درب خلاصه وأمنه . قوانين تتوزع مع الإنسان لتربطه بشبكة رائعة تصله بربه والناس ، وتدفعه صالِحاً مع نفسه والحياة ، إن التشريع القرآني بأحكامه ينظم علاقة الإنسان بربه كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنه يرفع راية السلوك الفردي ، والشبكة الاجتماعية لتسلم الحياة الإنسانية من الويلات والتخفيات ، إنه يرفع راية العدل ، وينود الكرامة ، وأعلام الديمقراطية والمساواة .

ولن ننظم هذه العلاقات المتداخلة المتشابكة والمعقدة لم ينهض بها فقه وضعي أو سماوي جملة وتفصيلاً كما نهض بها الإسلام .

ولعلَّ القرآن للفقه والأحكام قد ارتكزت على الطبيعة البشرية والفترة الإنسانية ، واستعداد الإنسان الأصل قبل أن ينطلق في أحكامه وقواعده ، وكان مع الواقعية أكثر منه مع المثالية وإن كان الإسلام يشدُّ الإنسان دائماً إلى فوق .

في القرآن فقه العبادات ونظام التركات والحكم ، وأحكام العقوبات والجهاد والمعاملات والأحوال الشخصية وكل ما من شأنه أن يساعد في إشاعة الأمن والاستقرار ، وكل ما من شأنه أن يكفل اطمئنان وراحة ولمن المجتمع .

هذه هي محتويات القرآن ومشتملاته على إيجاز وتوزع بين الإيمان العبري للحق بالله ورسله واليوم الآخر وبين الأخلاقية للصالحة المصلحة . بين القصة المعلمة والمثل المصلح بين الوعد بالسعادة والوعيد بالشقوة ، بين الفقه للجامع والتشريع الحضاري الشامل والعادل ، لو عشنا القرآن قلباً وعقلاً وعملاً لوجدنا فيه الخير كله ، ولكانت الحياة معنا غير للحياة .

- ﴿ يَتْلُونَ آيَاتَ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ آل عمران : الآية- ١١٣ .
 ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ الاسراء : الآية- ١٠٦ .
 ﴿ لَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَزَلُ الْقُرْآنُ تَرْتِيلًا ﴾ المزمل : الآية- ٤ .
 ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ الاعراف : الآية- ٢٠٤ .
 ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ المزمل : الآية- ٢٠ .

وكان صلى الله عليه وآله يدعو عند ختم القرآن :

" اللَّهُمَّ ذَكَّرْتَنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ ، وَارْزَقْتَنِي تِلَاوَتَهُ أَنَاءَ اللَّيْلِ ، وَاجْعَلْ لِي حِجَةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ " .

ليس عجباً أن يغزو الاهتمام بالقرآن وتلاوته من الأمور الإيمانية الملحة .

أليس هو دستور للمسلمين وصلتهم برب العالمين ؟

أليس هو التنزيل المبين والوحي الأخير ليكون القفل لباب مدرسة السماء لهداية الأرض كلها إلى يوم يبعثون ؟

ليس عجباً أن يتعاهد المؤمنون كتاب الله العزيز آناء الليل وأطراف النهار ، ويجعلوا آياته الكريمة قيد ذاكرتهم ، وميزان تفكيرهم ليسيروا على ضوء هدايته إلى نجاح غير منصرم ، وتجارة لن تبور .

وليس عجباً أن يقلب من السلف الصالح كل بليغ مبين ، وكل متذوق للبيان ناقد ، يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ، ويحمله من السطور إلى الصدور ، يتعبد به ، ويتتبع تنزيله تنبّع الحريص المثلث ، ويصيخ له ، ويغمره صفاء الإصغاء حين يتلى إن في الصلوات ، وإن على المنابر ، يوماً يوماً ، وشهراً شهراً ، وعماماً عاماً ، وكلهم لذكر الله خاشع ، ولما نزل من الحق ذاكر وماجت بهم جزيرة العرب مهللين مكبرين مسبحين ، يتلو آيات الله بالغنى والأصال ، بالليل والأصباح حتى طار بهم في كل الأفاق ، وزرعهم في كل أرض يعلمون البشرية ، ويتركون للإنسانية فيه الرشاد والخير والسداد .

تلاوة القرآن تمنح الإنسان شحنة الوجدان ، وصفاء القلب ، ولقد كان من شأن السلف الصالح إذا كان زحفهم الجهادي كان يسمع لهم دوي كدوي النحل وهم يتلون الآيات من الذكر الحكيم ليفعل ذلك في نفوسهم فعل المسحر .

ولأمر له ما وراءه كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث بعثة استقراهم ، فمن كان الأجود تلاوة ، والأكثر حفظاً كان هو صاحب الإمارة ، ورجل القيادة .

وفي يوم حنين أمر النبي ﷺ عمه العباس فنادى في الناس : يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فأسرعوا يقبلون من كل ناح . وفي القرآن ﴿ لَنُكَرِّيَ لِمَن كَانَ لهُ قَلْبٌ ﴾ ق : الآية- ٣٧ ، من آداب التلاوة كراهة قطعها لمكاملة الناس ، واستحسان الجهد بها ليستمتع الناس .

إن القراءة في المصحف أفضل من القراءة الحافظة لأن النظر في المصحف عبادة فتجتمع القراءة والنظر ، لقد ذكر أن الأكثرين من الصحابة كانوا يقرأون في المصحف ويكرهون أن يخرج يوم إلى يوم دون أن ينظروا إلى المصاحف .

لكن أننى الله على من كان دأبه تلاوة آيات الله :

﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ آل عمران : الآية- ١١٣ .

يقول الصادق (ع) :

" النظر في المصحف عبادة ، من قرأ القرآن في المصحف متع ببصره " ^١ . كثيرة هي الأحاديث الشريفة الواردة في فضل تلاوة القرآن ، وكثيرة هي الكتب التي جمعت جوامع هذه الأحاديث في هذا الشأن ، وحسبنا منها كتاب بحار الأنوار . ونحن كثيرة هي الأحاديث الكاذبة المخترعة التي تنوء بفضل تلاوة القرآن وفضل سورة والتي وردت على ألسنة مفتزين على العنة النبوية ، من هؤلاء المبتدعين أبو عصمة فرج بن أبي مريم المروزي ، ومحمد بن عكاشة الكرمانى ، وأحمد بن عبد الله الجوبباري .

لحكمة بالغة كان الحث على قراءة القرآن في المصحف على القراءة عن ظهر قلب ، ألا تساعد القراءة في المصحف على نشر نسخه في البقاع والأصقاع ، في المساجد والمنازل؟ ومما يثير الالتفات قوله الصادق (ع) "متع ببصره" التي هي من جوامع للكلم .

^١ - أصول الكافي : كتاب فضل القرآن وفي رسائل جزء ١ ص ٣٧٠ .

* قد يراد منها أن القراءة في المصحف سبب لحفظ البصر من العمى والرمد ، أو يراد منها أن القراءة في المصحف سبب لتمتع القارئ بمغازي القرآن الجليلة ، ونكاته الدقيقة ، لأن الإنسان عند النظر إلى ما يروقه من المراثيات تبتهج نفسه ، ويجد انتعاشاً في بصره وبصيرته . وكذلك قارئ القرآن إذا مرّح بصره في ألفاظه ، وأطلق فكره في معانيه ، وتعمق في معارفه الراقية ، وتعاليمه الثمينة يجد في نفسه لذّة الوقوف عليها ، ومتعة الطموح إليها ، ويشاهد هشة من روحه وتطلّعاً من قلبه ^١ .

أليست القراءة في المصحف من نتائجها كثرة القراءة والقراء ؟ وذلك يستدعي كثرة المصاحف وانتشارها .

أليس الحفظة قلّة بالنسبة إلى المتمكنين من القراءة ؟

فالخبر كل الخير أن تكون القراءة في المصاحف لتنتشر في البيوت على أسنة الكبار والصغار ، وتنتشر في البلاد لتعمّ الأمة فيذاع أمر الإسلام ويعظم شأنه في نفوس السامعين من المسلمين وغير المسلمين .

وهذه باقية أزاهير ، وسلة نجوم ، وجامعة حكم من الأحاديث النبوية الشريفة في فضل قراءة القرآن والحثّ عليها ، والترغيب فيها :

- عن الإمام الباقر (ع) : قال رسول الله صلى عليه وآله :
- * " من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ خمسين آية كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثلثمائة آية كتب من الفائزين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين ، ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار من ثبر " .
- " من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه " .
- " إن هذا القرآن مآبية الله فتعلّموا من مآبيته ما استطعتم ، إن هذا القرآن لا يعوجّ فيقوم ، ولا يزيغ فيستعيب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فأتلوه فإن الله يؤجركم على تلاوته بكلّ حرف عشر حسنات " .

- " أشرف أمّي حملة القرآن " .

- " لا ينبغي لحامل القرآن أن يرى أحداً أغنى منه ولو ملك الدنيا برحبها " .

^١ - البيان للإمام الخوئي ص ٣٥ .

- " حملة القرآن عرفاء أهل الجنة يوم القيامة " .
- " لا يعذب الله قلباً أمكنه القرآن " .
- " لو كان القرآن إهياً لما مسته النار " .
- " أفضل العبادة للقرآن " .
- " القرآن غني لا غنى لونه ولا فقر بعده " .
- " حملة القرآن المخصوصون برحمة الله ، المعلومون كلام الله ، المقربون إلى الله ، من والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله ، يدفع الله عن مستمع القرآن " .
- " تلاوة القرآن تدفع بلاء الدنيا ، ويدفع الله عن قارئ القرآن بلاء الآخرة . يا حملة القرآن تحببوا إلى الله بتوكير كتابه يزكم حباً ، ويحببكم إلى عباده " .
- وورد عن الإمام الصادق (ع) في ما نحن بصدد قوله :
- " القرآن عهد الله إلى خلقه ، فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده ، وأن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية " .
- " ما يمنع التاجر معكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن فيكتب له مكان كل آية يقرأها عشر حسنات ويمحى عشر سيئات " .
- " عليكم بتلاوة القرآن ، فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن . فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية رقى درجة ¹ " .

¹ - راجع الجزء 4 ج 8 ص 281 ، بحار الأنوار

التدبر في القرآن

قال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد : الآية- ٢٤ .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد : الآية- ٢٨ .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الأنعام : الآية- ٢٥ .

إن تلاوة القرآن مطلب إيماني أخلاقي وإن حفظه ضرورة واعية وذاكرة، إنها القراءة المنتبذة الهادفة ، القراءة المرسلة صوتاً سماوياً يهز المشاعر ، ويصقل العواطف ، للقراءة التي تشحن للروح بكهربائية حياتية ، القراءة التي تفتح مغاليق الفكر ، وتحيي موت القلب ، وتنمي الفضائل الكريمة في الإنسان .

إن التلاوة المرادة هي التي تخشع لها النفوس " ألا يذكر الله تطمئن القلوب " وهي التي من شأنها أن تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وتأمر بالمعروف والخير ، من شأنها أن تستحيل عملية واجدة وصانعة للكثير في شؤون الفكر والسلوك للقارئ .

فالقرآن ليس ألفاظاً محنطة ، ولا كلمات جامدة ، ولا تمتعات على الشفاه مصلوبة إنما هو آيات يجب أن تتدبرها آذان واعية ، وقلوب خاشعة ، وعقول غير مقفلة .
كثيرة هي الآثار التي نحت على تدبر القرآن في معانيه ومقاصده ، في رسالته وكشف أسرار . في القرآن نفسه حث واستنهاض على هذا التدبر ، وفي الأحاديث الشريفة ترغيب في التفكير في آياته . ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

هؤلاء لم يفقهوا السمع ولا البصر ولكنهم عطلوا السمع والبصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة ويتساءل القرآن في استنكار وتوبيخ ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ؟

وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب للنور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستدير ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

فهي تحول بينها وبين القرآن ، وبينها وبين النور ، فإن استغلق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء ولا بالنور .

إن تنكير القلوب في هذه الآية كما ورد في تفسير الميزان هو للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء وأمثالهم .

وفي الأثر النبوي الشريف :

'إعربوا القرآن والتمسوا غرائبه' حتى لا يفتكم من معانيه أو مقاصده شيء .

وعن أبي عبد الرحمن السلمي :

" حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون من العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل " ^١ .

وعن عثمان وابن مسعود وأبي :

" أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمهم القرآن والعمل جميعاً " ^٢ .

وعن علي (ع) أنه ذكر جابر بن عبد الله ونعته بالعلم فقال له رجل : جعلت فداك تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ، فقال : إنه كان يعرف قوله تعالى :
" إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " .

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

" ما من رجل علم ولده القرآن إلا تَوَجَّ أبواه يوم القيامة بتابع الملك ، وكسبا حلتين لم ير الناس مثلهما " .

" من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار " .

" إن هذا القرآن مادبة الله فتعلموا من مادبته ما استطعتم " .

وقال علي بن الحسين (ع) :

" آيات القرآن خزان فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنتظر ما فيها " ^٣ .

^١ - بحار الأنوار ج ١٩ ص ٥٨ باب فضل التدبر في القرآن .

^٢ - تفسير محمدي ، جزء ١ ص ٣٩ .

^٣ - أصول الشريعة ، كتاب فضل القرآن .

ليس من العجيب أو الغريب في شيء أن يكون هذا الترغيب في قراءة القرآن ، دون دراسة قضاياها ، وتبخر جوانبه وشؤونه .

أليس التمسك فيه يدفع الضلالة ويهدي إلى الرشـد ؟

أليس هو الفرقان والدستور والمعلم الخير في مدرسة السماء ؟

علوم القرآن

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ الشورى : الآية - ٥١ .
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم : الآيات - ٣-٤ .
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ النجم : الآيات - ٣-٤ .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة : الآية - ٣ .
﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ آل عمران : الآية - ٧ .
﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ الفرقان : الآية - ٣٣ .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ آل عمران : الآية - ٧ .

﴿ الرِّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ هود : الآية - ١ .
﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ البقرة : الآية - ١٠٦ .

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء : الآية - ٤٣ .
﴿ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَةٌ وَقُرْآنُهُ ﴾ القبلية : الآية - ١٧ .
﴿ إِبْنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية - ٩ .
﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ النساء : الآية - ٩٢ .

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ المائدة : الآية - ٩٠ .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ البقرة : الآية - ٢٣ .
﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ فَلَوْلَا بَعْشَرٌ مُقَرَّرَاتٌ ﴾ هود : الآية - ١٣ .
﴿ إِبْنَا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يوسف : الآية - ٢ .

﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت : الآية- ٣ .
 ﴿ لَنْ عَنِينَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ التقيامة : الآيات- ١٧- ١٨ .
 ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ لِلْكِتَابِ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ البقرة : الآية- ١٢١ .

أهمية العلم في القرآن والحث على طلبه :

للعلم مكانة سامية في الميزان القرآني ، وعظم القرآن العلم أي تعظيم ، والذي كان للعلم من تقدير ورعاية وحث على طلبه لم يكن في كتاب سماوي أو غير سماوي ، ألم ينعت الفترة التي سبقت الاسلام بالجاهلية "أفحكم الجاهلية يبغون" وقال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآية- ٥ ، ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة : الآية- ١١ ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر : الآية- ٩ . ويقول صلى الله عليه وآله وسلم " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ، ويقول أمير المؤمنين (ع) " الناس اعداء ما جهلوا " " ومنهمومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال " .

العلوم التي يدعو القرآن إلى نقلها :

قيمة القرآن تبدو في مبادرته التي تحث على طلب العلم في عصر جاهلي ، وتدعو إلى التفكير في خلق السماوات والأرض ، في الآيات الكونية والنظام المتقن الذي تسمير عليه ، تدعو إلى التفكير في الكواكب وفي خلق الأرض والبحار والجبال ، واختلاف الليل والنهار ، وتبدل الفصول ، إنها تدعو إلى التفكير في عجائب النبات ، وخلق الحيوانات والانسان ، إنها لمبادرة تدعو إلى التفكير في النفس وأسرارها الباطنية ولربطها بالملوكوت الأعلى ، كما تدعو إلى السير في أقطار الأرض ، والتفكر في آثار الماضي ، والفحص في الجوامع البشرية .

إن القرآن يدعو إلى تعلم العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والأدبية واللغوية وسائر العلوم التي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنساني لنفع الإنسانية وإسعادها شريطة أن تكون سبيلاً لمعرفة الحق والله والكون : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْتَدِي مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ الجاثية : الآية-

العلوم التي كان القرآن عاملاً في ظهورها :

ن في أواخر القرن الثاني الهجري بدأ المسلمون بتكوين الحديث بعد ارتفاع المنع لتكوينه على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ هـ . فكان عن ذلك : فن الحديث ، علم الرجال والدرية ، فن أصول الفقه ، علم الحديث ، علم الكلام الذي هو البحث في العقيدة الدينية بالأدلة العقلية .

□ الفلسفة المنقولة من اليونانية إلى العربية ، فإن البيئة أثرت فيها مادة وصورة ، ليس من مسألة فلسفية في المعاني الإلهية إلا ويمكن أن تجد منتهى وبراهينها وأصلها في طيات الآيات القرآنية .

ن العلوم الأدبية واللغوية ، كالصرف والنحو والمعاني والبيان واللبس واللغة وفنهما والاشتقاق ، هي وليدة القرآن بما فيه من إعجاز بلاغة وفصاحة ، لقد كان ابن عباس أحد كبار مفسري الصحابة ، كان يشتهر في التفسير بالشعر العربي ، وكان يأمر بجمع الشعر وحفظه ، ويقول الشعر نيون العرب . الخليل بن أحمد الشيمي ألف في اللغة كتاب "العين" ووضع علم العروض .

□ علم التاريخ الذي هو من مشتقات علم الحديث كان مجموعة من قصص الأنبياء والأمم ، وبدأ من سيرة الرسول منحولاً إلى تاريخ صدر الإسلام ومنتهياً تاريخاً عاماً للعالم على أيدي مؤرخين كبار كالطبري واليعقوبي والواقدي وابن خلدون .

ن إن القرآن هو الدافع الأول لانشغال المسلمين بالعلوم العقلية من طبيعية ورياضية بصورة نقل من اللغات الأخرى ابتداءً ومن استقلال وابتكار في مسائلها انتهاءً .

تحديد علوم القرآن :

إن علوم القرآن هي مختلف مباحثه وما أعانها ، وهي جملة ما يتصل به صفوف المعارف والعلوم وما أكثرها وأرقاها !

أنواعها :

هذه العلوم متعددة ، وتختلف فيما بينها باختلاف الموضوعات التي تعالجها ، والقضايا القرآنية التي تتناولها ، وتبحث عنها . ولطالما للقرآن موضوعاته ، فإن لكل واحد منها عمله الذي يتدارسه ويخوض فيه .

وتتفرق في الناحية الملحوظة في كل منها .

١. ظاهرة الوحي :

إن القرآن وحي نزل على قلب النبي ﷺ ، وظاهرة الوحي رعتها الدراسات الإسلامية كل الرعاية والقرآن من أدلة إثباتها ، إن دراسة ظاهرة الوحي هي من علوم القرآن لأنها تتصل به اتصالاً مباشراً ، إنها الأهم بين موضوعاته وإن كان موضوع منه على وضوح في الأهمية .

٢. علم النزول وأسبابه :

يرتبط القرآن في عهد النبي ﷺ بوقائع خاصة ومحددة . لكل قرآن مناسبه ، ولكل آية أو آيات أو سورة سببها في النزول .

فكما أن للقرآن نزولاً على النبي ﷺ دفعة واحدة فإن له نزولاً منجماً له أسبابه المباشرة ، ومناسباته للخاصة .

فالنظر في القرآن ، ومعرفة ما نزل منه لسبب أو مفصلاً عن السبب ، أو مجيباً عنه ، أو مبيّناً لحكمه ، وهل تؤخذ الآية بعموم معناها ، أم بخصوص سبب نزولها ، كل ذلك يبيته علم أسباب النزول .

إن معرفة أسباب النزول المنجم وغير المنجم ضرورة لا يمكن إغفالها إذا أردنا كشف مقاصد القرآن ، وإدراك أبعاده ، هذا العلم يتكفل بالكشف عن الأحداث التاريخية والوقائع التي كانت من دواعي نزول النص القرآني ، لهذا العلم دوره المؤثر في الإقصاص عن كنه الآية ، وبيان مرادها ، وما تضمنته من أبعاد وأغراض .

٣. علم التفسير :

القرآن عربي لللسان والبيان ، كلامه ذو دلالة على معنى ، وآياته منها المحكمات ومنها المتشابهات .

بهذا الاعتبار لا بد للقرآن من التوضيح لمقاصده ، ولا بد من الكشف عن أسرارها ، وخاصة أنه دستور المسلمين ، وعمدتهم في تعبدتهم وخلقيتهم وسياساتهم وتفكيرهم

وكل توجهاتهم . لسبب كهذا كان علم التفسير بين علوم القرآن قمتها ومستندها ومنطلقها " ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم " .

إن التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار ، وفي الاصطلاح هو بيان معنى الآية وشأنها وظروفها بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة . وإذا كان القرآن كلاماً له دلالة ومعنى وقصد فإنه لا بد له من علم يقال له علم التفسير يتكفل بتوضيحه ، ونشأت للتفسير أساليب ومذاهب ، ودوت للمفسرين شرائط وأداب ، وصار للمفسرون طبقات ، يعتبر هذا العلم أساساً لكافة العلوم وأعظمها ، وما من علم قرآني إلا ويعتمد على علم التفسير .

٤ . المحكم والمتشابه :

إن المحكم من الآيات القرآنية هو الذي يدل على مفهوم محدد ومعين لا نجد مشقة أو صعوبة أو ترددًا في تجسيد صورته أو تشخيصه في مصداق معين ، والمتشابه ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي^١ .

والمحكم والمتشابه من الآيات يندرجان بين علوم القرآن تحت ظلال علم التفسير ، ولئن كانا كموضوع هما فرعان لأصل هو موضوع علم التفسير فإن تخصيصهما بالدراسة يشير إلى مدى أهميتهما بين موضوعات القرآن يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ ، وقد ذهب العلماء إلى ما يزيد على عشرة أقوال في تشخيص هذا التشابه والاحكام وبيان مصابيقهما من الآيات ، وعلم للمحكم والمتشابه هو الذي يفرق بين محكم الآيات ومتشابهها ، وبيان الفرق بين التشابه والتأويل وغير ذلك .

٥ . النسخ :

هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمدّه وزمانه ، سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام للتكليفية أم الوضعية ، وسواء أكان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى بما أنه شارع^٢ .

^١ .. كتاب علوم القرآن عند باقر المحكم ص ١٣٧ .

^٢ - البيان ، للسيد الخوئي ص ١٩٦ .

فالنسخ قد يأتي بمعنى الإزالة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ... ﴾ [الحج : الآية - ٥٢] ، وقد يأتي بمعنى نقل صورة الكتابة من موضع إلى آخر . ومنه قولك : نسخت الكتاب : إذا نقلت لفظه وخطه كما هو .
وأهمية هذا العلم كبيرة في معرفة استمرار ثبوت حكم الآية أو ارتفاعه . قال الإمام علي (ع) لقاضٍ : أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكت هلكت ، ولهذا فإن لعلم الناسخ والمنسوخ أهمية خاصة بالنسبة للفقهاء والقضاة والتفسير ومعرفة الأحكام .

إن علم النسخ لا يعني التناقض في القول أو الاختلاف فيه ، وإنما هو ناشئ من الاختلاف في المصادق الذي ينطبق عليه حيناً تحقيقاً لمصلحة ، ولا ينطبق عليه الحكم حيناً آخر لعدم المصلحة بحسب التقدير الشرعي .

وتبدو أهمية النسخ من خلال مراعاته وتفهمه للقابليات والإمكانات البشرية حسب الظروف الزمنية .

وشبيه النسخ القرآني في جوانب بالنسخ للقوانين بعضها لبعض حين تتقي صلاحية المنسوخ منها للاستمرار ، إن النسخ في مثل هذه الشؤون يدفع المستحيل ويتحول إلى الممكن فيسببه ليساعد على التطور والمتابعة للتأمية والمنمية في آن .

٦. جمع القرآن :

إن الأمر اليقين هو أن القرآن قد تمّ به الجمع والتسجيل في عهد الرسول ﷺ وإن كان الراوي الشائع والسائد في مباحث العلوم القرآنية هو أن جمعه قد تمّ أيام الشيخين روى ابن مهاب عن سالم بن عبد الله وخارجه :

" أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس ، وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل ، كانت الكتب عند أبي بكر حتى توفي ، ثم عند عمر حتى توفي ، ثم كانت عند حفصة زوج النبي ﷺ فأرسل إليها عثمان فأبى أن تنفعها حتى عاهدها ليردّها إليها ، فبعثت بها إليه ، فنسخ عثمان هذه المصاحف ثم ردّها إليها فلم تزل عندها " . يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جُمُعَةً وَقَرَأْنَهُ ﴾ [القيامة : الآية - ١٧] .

^١ - التشريع الجنائي الإسلامي ، عبد القادر عودة . تحقيق السيد الصمد ص ٣١١/١ وما بعدها .

٧. صيانة القرآن من التحريف :

هذه المسألة تتصل اتصالاً مباشراً بمسألة الجمع .

لقد أثبتت شبهات مختلفات حول هذه المسألة التي لا بد من دفعها وردّ كيدها .
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

٨. التشريع : علم آيات الأحكام

إن القرآن هو كتاب تشريع وأخلاق وعقيدة .

واشتمل القرآن على القواعد الإسلامية الكلية لقضايا الحدود والمعاملات والحرب والعقود والمواثيق والأموال والزواج والطلاق وغيرها .

إن القرآن هو المصدر الأول بين مصادر التشريع الإسلامي لينقلب بهذا الميزان موضوعاً لعلم آيات الأحكام الإلهية .

هذا العلم تدور نشاطاته واختصاصاته ودراساته في دائرة أنواع الأحكام الشرعية التي يمكن استخراجها بعد المقارنة لجميع الأئمة الشرعية الأخرى من سنة وإجماع وعقل^١ .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ المائدة : الآية- ٣٨ .
ومصادر الاحكام الشرعية القرآن ، السنة ، الإجماع ، العقل ، وقد اختلف العلماء في بعض المصادر التشريعية ولكنهم مجمعون على القرآن باعتباره أول تلك المصادر .

فيل إن آيات الاحكام هي خمسمائة آية . فالنص القرآني بما يفيد من امر لو نهى على سبيل الإيجاب أو الترجيح أو الإباحة هو المصدر الأول للتشريع الاسلامي ، وهو الموضوع لعلم هو علم آيات الاحكام^٢ .

٩. الإعجاز :

وحده القرآن هو المعجزة بين الكتب السماوية .

^١ - مجلة رسالة الإسلام ، العدد الثاني ، السنة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ص ١٥ .

^٢ - أول من صنف في هذا العلم من الشيعة محمد بن الحاتب الكوفي [ت ١٤٦ هـ] ومن الشافعية محمد بن إدريس [ت ٢٠٤ هـ] ومن الحنفية أبو بكر الطرقي [ت ٢٧٠ هـ] ومن المالكية القاضي أبو اسحق اسماعيل بن اسحق [ت ٢٨٢ هـ] ومن الحنابلة القاضي أبو بكر الكيم [ت ٤٥٨ هـ] .

هو كتاب تحذى ولا يزال عبقرية العرب ببيانه السراج ، وأسلوبه للفريد ، إنه المدرسة لكل كاتب أو خطيب أو أديب ، من لا يمر على الأدب القرآني من الأدباء فهو لغو بين الأدباء . في القرآن أدلة حاسمة على نبوة الرسول ﷺ ، وفيه حديث طويل ومستفيض ومقتنع على أنه وحى إلهي منزل ، وفيه بيان ساطع ، وتقرير شامل للخصائص التي تفرزه كلاماً سماوياً ، وتصنفه أو تبرزه كلاماً إلهياً لا بشرياً .

فالقرآن هو موضوع لعلم الإعجاز الذي صنف عبر العصور من عمالقة العلم ، ورجال الفكر والفقه والأدب ، فالقرآن بإعجازه هو دليل صدق النبوة المحمدية ، وعلم الإعجاز تكفل ببيان وجوه الإعجاز في القرآن ، وشروط المعجزة ووجه الحاجة إليها .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ البقرة : الآية : ٢٣ .

١٠. الإعراب والبلاغة :

يجري القرآن وفق للغة العربية لفظاً وتعبيراً وتركيباً ، ولقد اعتبره فقهاء اللغة وعلمائها المصدر الوثائق الموثوق ، والمرجع الأكبر والأفضل في سلامة العبارة فكان علم إعرابه ، فالنحاة يبنون من القرآن قواعد إعرابهم فهو مرجعهم ، وحكمهم في معرفة خطأ القول من صوابه ، والقرآن هو المعجزة الخالدة في سمو بلاغته ، وإشراقه فصاحته ، ورائع سياقه ، ليكون عن ذلك علم البلاغة القرآنية بقواعده واستخلاصاته ، فالبلغيون يشهدون القرآن معرفة محاسن الصياغة وموازين البلاغة . فلم إعرابه وعلم بلاغته إنما يدرسانه من الجانب الذي يوضح لنا أنه يجري وفق السنن الثابتة لقواعد اللغة العربية في النحو والبلاغة .

١١. علم القراءة :

هناك قراءات للقرآن وقراء وفي ذلك الطرق والمذاهب ، ولهذه القراءات علم بأصول ويبحث في ضبط حروف كلماته وحركاتها وطريقة لفظها من حيث الإمالة والتثنية والتخفيف والترخيم ، من حيث الإدغام والإخفاء والإظهار ، من حيث الغنة وغير الغنة . وبما أن القرآن له طرائقه في القراءة ، فإنه يكون موضوعاً لعلم هذه القراءات المختلفة . ﴿ الَّذِينَ آمَنُواهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ .

إن البحث في القرآن باعتباره كلاماً يتلفظ به بشكل خاص ، والنظر في أنواع القراءات للمروية والمعتبرة ، واختلافاتها ، ومستويات الاختلاف في القراءات والمناهج في قبولها أو رفضها ، والآراء في القراءات السبع ، وعلاقتها بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن ، والقراءة المثلى ، وما إلى ذلك هو ما يسمى بعلم القراءات .

يروى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . وقد أوّل البعض الأحرف السبعة تأويلات متباينة أدت إلى مشاكل وخلافات عقيدية ولغوية عمقت الحزازات ثم تدخلت الأهواء والعصبية فحدث لهذا الحديث من الآثار ما لم يحدث لغيره .

فابن قتيبة [٢٧٦] يرى أنها سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن ، والطبري [٣٢٠] يرى أنها سبع لغات ، أو سبعة ألسن من بين ألسن العرب التي يعجز عن إحصائها [التفسير جـ ١/٤٦] إن الذي يروي من الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن لا علاقة لها بالقراءات السبع ، وإن توهم قوم ذلك . وإن القراءات السبع أو العشر ، منها ما هو اجتihad من المقرئ ومنها ما هو منقول بخبر واحد . وهذا هو رأي جماعة المحققين من أهل السنة ، بل المشهور عند جمهور المسلمين [الخوئي : البيان ١٣٧] .

والحق أن القرآن ما نزل إلا على حرف واحد ، وأن تسجيله كان على حرف واحد متواتر ، والحقيقة - المرة - أن ما وقع من اختلافات فمرده الرواة حسب قواعد البحث العالي ، ومناهج النقد الإسلامية ، ولا يمكن إرجاع هذه الاختلافات إلى الرسول صلى الله عليه وآله . ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَلِّغَ مِنْ تِلْكَ مَنْ تَلْقَاءُ نَفْسِي إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ ﴾ يونس : الآية - ١٥ .

إن الدكتور شاهين يعتبر الاختلافات رخصة مؤقتة [تاريخ القرآن ص ٨٥] . ويقول : معاذ الله أن يصدر عبث من الرواة لأنهم أصحاب القرآن ص ٣٢ ويمكننا القول : معاذ الله أن يصدر الاختلاف من رسول الله لأنه مبلغ للقرآن ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

١٢. رسم القرآن :

قبل أن يحفظ القرآن في الصدور دون مكتوب في السطور ، وكتابة القرآن لها طريقته الخاصة ، وإيا رسمها المعين ، فالقرآن من حيث هو حروف وكلمات مكتوبة

له علم موضوعه هذه الكتابة بفنونها ومذاهبها ، فالقرآن مكتوب بخط وبشكل خاص ، هل هذا الرسم توقيفي ورد للنص عليه أم لا ، وهل يجوز من لغة رسمه حسب الاصطلاحات الشائعة في كل زمن من حيث الخط والإملاء وما إلى ذلك ، فالتعلم الذي يبحث ويوضح هذه البحوث هو علم للرسم القرآني .

١٣. المكي والمدني من القرآن :

المكي من القرآن هو ما نزل في مكة أو في المرحلة المكية من البعثة ، أما المدني منه فهو الذي تنزل في المدينة أو في المرحلة المدنية من البعثة . لكل من القرآن المكي والمدني مناسباته وخصائصه أسلوباً ومضموناً وموضوعاً . العلم الذي موضوعه القرآن مكيّاً أو مدنيّاً وينهض بدراسة مميزاته من هذا الجانب يسمى بعلم القرآن المكي والمدني .

١٤. مسألة قدم القرآن وحدوثه :

إن مسألة حدوث القرآن وقبليه أمر حادث لا صلة له بعقائد الإسلام وإن الكلام النفسي هو أمر خيالي بحث لا دليل على وجوده من وجدان أو برهان ، قال الإمام للصديق (ع) : لم يزل الله عز وجل ربنا ، والعلم ذاته ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والفترة ذاته ولا مقدور ، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم ، والسمع على المسموع ، والبصر على المبصر ، والفترة على المقدور . قال: قلت: فلم يزل الله متحركاً ؟ قال: فقال: تعالى الله عن ذلك ، إن الحركة صفة بالفعل . قال: فقلت: فلم يزل الله متحركاً ؟ قال: فقال: إن الكلام صفة محدثة ليست بأزلية ، كان الله عز وجل ولا متكلم ، رواه الشيخ الكليني ، راجع أصول الكافي باب صفات الذات تراه ، إن القرآن مفجر العلوم من قرب أو بعد ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ ، ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ الفصل : الآية - ٨٩ .

إن تعدد العلوم القرآنية لا يعني اختصاص كل علم بعدد من آياته ، فقد تكون الآية الواحدة موضوع علمين أو أكثر بحسب الاعتبارات ، قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى النَّبِيِّ أَمْنٌ وَأَعْمَلُوا لِلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ المائدة : الآية - ٩٣ ، قد ينظر إليه في علم أسباب النزول ، وعلم آيات الأحكام ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، والمحكم

والمتشابه ، والمكي والمدني وغيره . وهكذا تتعدد علوم القرآن حسب تعدد الاعتبارات .

نشأة علوم القرآن وتاريخها

قال تعالى :

- ﴿ أَنْ لَّهُ بُرْءٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ التوبة : الآية-٣ .
﴿ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعٌ وَقِرْآنُهُ ﴾ القيامة : الآية-١٧ .
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية-٩ .
﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنُ تَقْوِيرًا ﴾ الفرقان : الآية-٣٣ .

أولاً : عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على آله ملاذ المسلمين كلما استعصى على مداركهم أمر قرآني ، وكان مرجعهم الفكري والشرعي كلما استبهم عليهم متشابه من آياته ليشرحه ويوضحه . لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والتميز العذب ، والسلم الرقيق للعلوم الإسلامية ، فأحاط به الصحابة الأجلاء يقتبسون منه سناء العلم ، ويمتضيون بهداه وكان المؤمنون من السلف الصالح يتداولونه بالذوق العربي الصافي ، ويتدارسون به بالقطرة السليمة الخالصة ، وكانوا يحكمون إلى النبي كلما اصطدم بينهم خلاف في رأي ، كما كانوا يلجأون إليه كلما أرادوا خروجاً من إيهام إلى توضيح ، ومن إجمال إلى تفصيل ، ومن الخط الاستداري في الأسلوب إلى الخط المباشر حتى يقضي بينهم في جملة الأمور التي عنها يستفتون .

لم تكن مذاكرة القرآن أو الحديث فيه ، أو اللغوض في قضاياها عن طريق التدوين والتصنيف . إنما نشأت تلك المباحث نشأة خطابية تلقينية ، وانطلقت في طريقها مشافهة ولسانية لأن الكتابة لم تكن بعد قد انتشرت في البلاد العربية أو ذاعت .

والكتابة كانت قد وردت إلى العرب الجاهليين عن طريق الحيرة ، وبقيت محدودة النطاق ، ضيقة النشاط والأفاق ، لا تغطي المساحة الواسعة من المجتمع العربي حينذاك ، إنما كان يتداولها نفر قليل من الذين نهلت لهم سوانح الفرص في تلك الحياة التي حرمت من كل شيء إلا من الصحراء .

وبعد القرآن قد نعت الجاهليين بالأميين لهذا الاعتبار :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة : الآية- ٢ .

لقد نوه القرآن بالعلم وأهميته ، وأدركت الطلائع المؤمنة من الصحابة هذه الأهمية ، فأنبرت للعلم تنهله ، وترتاد رياضه ، وطلبت العلم ليهدى بها إلى الحقائق الكونية والعلوية ، وتنافس في مصداق قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر : الآية- ٩ .

وأدرك المسلمون الأوائل المعافاة الشاسعة التي تفصل بين العلم والجهل في اعتبارات القرآن وقضاياه ، غير أن هذه العلوم القرآنية لم تدوّن في عهد التدوين القرآني في العهد النبوي وذلك لأسباب منها :

أ- وجود الرسول صلى الله عليه وآله بين ظهراني المسلمين ، يوضح ما أشكل ، ويبصر بحقائق التفسير ، ويوجه نحو المقاصد القرآنية ، فهو ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ﴾ آل عمران : الآية- ١٦٤ .

ب- قدرة المسلمين على الفهم المباشر ، والاستيعاب الصحيح لفصاحتهم المتمكنة ، وبلاغتهم العربية الأصيلة .

ج- نهى الرسول صلى الله عليه وآله عن كتابة شيء عنه غير القرآن ، يقول " لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحاه " ولا يتعدى ما كتب عن رسول الله في عصره عشر صفحات إلا أن ذلك لا يعد تدويناً^١ .

لم يكن المسلمون يلجأون إليها إلا في كتابة الوحي أو في كتابة الرسائل أو للحاجات التي تفرض طبيعتها للكتابة .

ثانياً : التدوين بعد وفاة الرسول :

واستمرت الحياة عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وعلى آله تواصل طويلاً على هذا النهج من الدراسة للتكثيئة المباشرة إلى أن اتسعت رقعة الدولة والأمة ، وتكاثرت الفجوات

^١ - الشيخ : محمود أبو ربة : قصة الحديث النبوي ص ١٨ .

هنا وهناك ، وشرع الاختلاط بالأعاجم يأخذ سبيله ، واشتد التفاعل مع الشعوب الدخيلة على الإسلام ، وطلعت على الإسلام عقائد مختلفة ، وبيانات متباينة هي بين زندقة مجوسية وبين كتابية منحرفة ، كل ذلك بعث في نفوس المؤمنين المخلصين ، والمسلمين المستبشرين نخوة على القرآن ومشتعلاته ؛ واعتبروا أن في ذلك مفسدة للعقيدة ، لقد أطلقوا على هذه العلوم اسم العلوم المستوردة والدخيلة والزنيئة ونحوها باللائمة على من نقلها .

يقول ابن خلدون :

" ودخل الفلّة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس ، والحسب في ذلك لمن ارتكبه ، ولو شاء ربك ما فعلوه " .

ورأى ابن الجوزي والسيوطي والمقرئ والذهبي والغزالي بأن هذه العلوم والفلسفات ما هي إلا سرّ السقم والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، وكل ما لا يتفق مع أحكام القرآن .

حينذاك كان لا بد من حركة علمية واعية تعمل على صيانة القرآن ، ودفع الشبهات عن موضوعاته ، والمعنى في سبيل حفظه من التحريف والتزييف ، وصيانته في مقاصده الأصلية .

وتداول الصحابة للقرآن في عصر الرسول صلى الله عليه وعلى آله بيّسر وسهولة ودون تعقيد إلى أن كان عهد التكوين للعلوم وانفصالها واستقلالها وتبويبها في أبوابها بعد عصر التابعين .

ومما لا شك فيه أنه قد دخل في الإسلام جماعة إيمانهم على حرف ، كما دخل فيه علماء من أهل الكتاب لغية في نفوسهم مأكرة كعبد الله بن سلام ، وكعب الاحبار ، ووهب بن منبه وأمثالهم ، إلى جانب الكثيرين من مشركي العرب الذين تناولوا كثيراً من علوم اليهود . هؤلاء استقرت في نفوسهم بقية من رواسب الجاهلية المنحرفة والكافرة ، أو أن هؤلاء قد استمروا متأثرين بمعارفهم الأولى من الأخبار والمواظ ، فكانوا يسردون للنصص القرآنية مفصلة اعتماداً على الروايات الإسرائيلية ، فتقبل العامة الفوغاء عليهم مستأنسة راعية .

وهكذا كثرت الروايات الإسرائيلية في التفسير المختلفة ، واختلط الجيد بالردى ، وللسليم بالمشبوه ، مما جعل كثيرين من العلماء يتنبهون إلى هذه الظاهرة الخطيرة فيتصنون لها في طريقها مواجهين .

ولعلّ أولي المبادرات الخيرة في هذه العلوم كانت هي جمع عليّ (ع) للقرآن عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وعلى آله مبشرة خشية الأيدي العابثة ، والعقائد التي هي على حرف .

إن علياً (ع) كان الأسبق في الإيمان ، والأسبق إلى الجهاد ، والأسبق إلى الإصلاح ، والأسبق إلى جمع القرآن والأسبق إلى إعرابه لأنه كان الأسبق بالتخوف عليه فور وفاة الرسول من أن تنال منه الأيدي المشبوهة .

لقد هاله ما رأى بعد وفاة الرسول من نقص ومخالفة فأقسم أنه لن يضع عن عاتقه رداءه حتى يجمع القرآن ، فاعتكف في بيته ثلاثة أيام حتى تمّ له هذا الجمع المبارك^١ فهو أول مصحف جمع فيه القرآن ، إن الصحابة الأول كانوا على صفاء في الإخلاص ، وقوة في الإيمان ، وإشراق في الوعي ، مما حملهم على أن يحرصوا على القرآن وتعاليمه فكانت بواكير العلوم القرآنية على أيديهم المؤمنة .

إن علم الإعراب على صعوبته يعود بقواعده الأولى إلى رعاية عليّ (ع) اتفاقاً ، والفتاى البارة حيث أوعز إلى أبي الأسود وتلميذه يحيى بن يعمر العدواني بأن يبلغ اهتمامهما بهذا العلم لغاية . فكان عليّ (ع) أول من وضع الأساس لعلم إعراب القرآن .

يروى أن أبا الأسود هو الرائد في وضع نقط المصحف .

كما يروى بأن أبا الأسود الملمه والمخلص للقرآن ولغته قد سمع قارئاً في الطريق يقرأ قوله تعالى : " إن الله بريء من المشركين ورسوله " ، وكانت اللام في لفظ (رسوله) مجرورة مما أخاف هذا اللحن الخطير أبا الأسود ليقول : " عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله " . منذ ذلك الحين عقد عزمه ، وأسرع يعلن تصميمه على وضع علامات خاصة تكون ضماناً للقرآن من العبث والخطأ في قراءة القرآن .

وانصرف إلى مشروعه الضخم موصول العمل بجديّة حتى انتهى إلى نتائج خيرة ، فجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحته ، والضمّة نقطة بين أجزائه والمسكون نقطتين فوقه^٢ . لقد كان التلقين طريقاً ، والمشافهة أسلوباً للتعلّم والتعلم . وبعد وفاة الرسول تبارى المسلمون الغيارى على الذين في تدوين العلوم وتصنيفها حسب ما توفرت لديهم من الوسائل والألوات ، ولعلّ أهم الأسباب التي وفقهم إلى التدوين هي :

^١ - مبهرت لابن خديم .

^٢ - راجع بحلة رسالة الإسلام ، العدد الثاني ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ص ١٨ .

الرغبة في تحقيق إرادة الله في حفظ القرآن وتخليده بالبحث فيما احتواه من علوم ومعرفة. خدمة المسلمين بإشاعة العلم الصحيح بتكوينه ، وخاصة بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم تركية ما لديهم من العلم بنشر ، .

لقد كان أمير المؤمنين (ع) صاحب الفضل الأول في تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه ، وجمع علي (ع) القرآن بتكوينه مصحفاً وذلك بترتيب الرقاع والعصب المنون عليها وتوحيدها .

وورد في ما يتصل بالتفسير أن " الخلفاء أكثر من روي عنه فهو عليّ ، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً " ، وقال (ع) : " والله ما نزلت آية إلا قد علمت فيما نزلت وأين نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً وعقلاً ولساناً سؤلاً " ^١ ، قال : " سلوني قبل أن تقفوني ، فوالذي خلق الجنة ، وبرأ النعمة ، لو سألتوني عن آية لأخبرتكم بوقت نزولها ، وفيما نزلت ، وأنتيكم بناسخها من منسوخها ، وخاصتها من عامتها ، ومحكمها من متشابهها ، ومكيها من مدنيها " ^٢ .

وأعطى علي (ع) في سائر العلوم القرآنية وصنفها ، ولقد " أملى مستين نوعاً من أنواع القرآن وذكر لكل نوع مثلاً يخصه ، وهو في كتاب نرويه عنه من عدة طرق ، موجود بلدينا إلى اليوم " ^٣ .

ومن الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل عبد الله بن عباس [ت ٦٨ هـ] فهو أول من أملى في تفسير القرآن ، وهو ترجمان القرآن ، وخبر الأمة ، ورئيس المفسرين . إلا أنه قد أخذ عن علي (ع) ^٤ . قال عليه السلام عنه : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " ، ومن المفسرين جابر الأنصاري ، عبد الله بن مسعود ، أبي بن كعب ، سعيد بن جبير التابعي .

^١ - الإيضاح ج ١٨٧/٢ .

^٢ - المصدر نفسه .

^٣ - المفيد ، الإرشاد ص ٢٣ .

^٤ - بغار الأنوار ، ج ٩ .

^٥ - تأسيس الشيعة ، أبو الخمر ص ٢٢٢ .

ثالثاً : القرن الثاني للهجرة :

- من المشاهير الذين كان لهم اهتمامات بعلوم القرآن :
١. أبان بن تغلب [ت ١٤١ هـ] الذي هو أول من صنّف في القراءة وفي معاني القرآن وغريبه .
 ٢. طاروس بن كيّان [ت ١٠٦ هـ] هو من أصحاب الإمام علي بن الحسين (ع) ، واعتبره ابن تيمية أعلم الناس بالتفسير .
 ٣. العزّ بن السائب الكلبي من أصحاب الإمام محمد الباقر (ع) وهو أول من صنّف في أحكام القرآن [ت ١٤٦ هـ] وهو صاحب للتفسير الكبير .
 ٤. شعبة بن الحجاج ، سفيان بن عيينة ، وكيع بن الجراح ، السدي [ت ١٢٧ هـ] ، أبو حمزة الثمالي ، صاحب زين العابدين (ع) ذكر تفسيره ابن النديم .

رابعاً : القرن الثالث للهجرة :

- أشهر أعيانه المهتمين بعلوم القرآن :
- الفراء ، يحيى بن زياد [ت ٢٠٧ هـ] الذي صنّف في معاني القرآن .
- علي بن إبراهيم القميّ ، عاصر الإمام العسكري عليه السلام ، له كتاب تفسير القرآن يعتمد فيه على المأثور من أهل البيت .
- محمد بن جنيّد ، ألف في لفقه المقرّن ، هو أول من صنّف في أمثال القرآن ، له مصنفات كثيرة من معاصري ولاد الشيخ الصدوق .

- العينسي محمد بن مسعود: له ما يقرب من مائتي مصنف منها " تفسير العياشي " .
- الحسن بن علي بن فضال [ت ٢٢٤ هـ] له كتاب الناسخ والمنسوخ ، وكان من أصحاب الإمام للرضا (ع) .
- محمد بن العباس المعروف بن الحّجّام ، له في كل علوم للقرآن ، وله كتاب إما نزل في أهل البيت من القرآن ، وهو ألف ورقة] .

- علي بن المديني [ت ٢٣٤] له [البياب النزول] .
- أبو عبيد القاسم بن سلام ، له [الناسخ والمنسوخ] ، و [القراءات] و [فضائل القرآن] .
- محمد بن أيوب الضرير [ت ٢٩٤ هـ] ، صنّف في المكي والمدني .

خامساً : القرن الرابع للهجرة :

وشهد هذا القرن نشاطاً واسعاً غنياً في مباحث علوم القرآن وتدوينها. وأشهر رجالاته:

١. أبو علي الكوفي [ت ٢٤٦ هـ] ، له كتاب " فضائل القرآن " .
٢. ابن جرير الطبري ، صاحب التفسير الشهير باسمه .
٣. ابن عقدة أبو العباس : كان منظوراً في حفظ الحديث ، بل كان وحيد أيامه في هذا الشأن [٢٣٣ هـ] . صنف كتاباً في تفسير القرآن من طريق أهل البيت (ع) .
٤. أبو بكر بن القاسم الأنباري [ت ٣٢٨ هـ] له مصنف في [عجائب علوم القرآن] .
٥. أبو الحسن الأشعري ، من مصنفاته " المختزن في علوم القرآن " .
٦. محمد الأوفوي [٣٨٨ هـ] ، كتابه " الاستغناء في علوم القرآن " ، وهو مؤلف من عشرين مجلداً .
٧. عبد الله بن الأشعث [٣١٦] له كتاب المصاحف .
٨. الشريف الرضي [٤٠٦ هـ] وله كتاب " تلخيص البيان في مجازات القرآن " .

سادساً : القرن الخامس للهجرة ^١ :

يمكن أن يقال أن هذا القرن هو العصر الذهبي في شأن التصنيف والبحث في علوم القرآن ، أشهر هذه المصنفات :

١. "البرهان في علوم القرآن" و " البيان في علوم القرآن " للشيخ المفيد بن النعمان [ت ٤٠٩ هـ] .
٢. "التبيان في تفسير القرآن" للشيخ الطوسي [٣٨٥ هـ - ٤٦٠ هـ] ^١ .
٣. "التيسير في القراءات السبع" و "المحكم في النقط" لأبي عمرو الداني [ت ٤٤٤ هـ] .
٤. "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني [ت ٥٠٢ هـ] .

سابعاً : القرن السادس للهجرة :

من علماء القرآن والمصنفين من علومه في هذا القرن :

١. الشيخ رشيد الدين محمد بن علي بن شهر اشوب [ت ٥٨٨ هـ] له كتاب [أسباب النزول] وكتاب [متشابه القرآن] .

^١ - أنظر الزنجاني : تاريخ القرآن ص ١٦ ، تأسيس الشيعة ص ٣٣٩ .

^٢ - هو شيخ الإمامية ، قدم العراق ، وتصدق لدى الشيخ تقي الدين ، وتروى ودفن في الحنف الأشرف .

٢. الشيخ أبو الفتوح الرازي له كتاب [روض الجنان في تفسير القرآن] في عشرين مجلداً.
٣. أمين الدين الطبرسي [ت ٤٥٨ هـ] صاحب تفسير [مجمع البيان في تفسير القرآن].
٤. ابن الجوزي [ت ٥٩٧ هـ] صاحب [فنون الألفان في عجائب علوم القرآن] .

ثامناً : القرن السابع للهجرة :

أشهر علمائه :

١. علم الدين السخاوي [ت ٦٤٣ هـ] له كتاب [جمال القرآن وكمال الأقرء] .
٢. الغزّ بن عبد السلام [ت ٦٦٠ هـ] صنّف في مجاز القرآن .
٣. أبو شامة [ت ٦٦٥ هـ] له [المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز] .

تاسعاً : القرن الثامن للهجرة :

أشهر علمائه ومصنفاتهم : بدر الدين الزركشي [٧٤٥ - ٧٩٤ هـ] له كتابه الشهير [البرهان في علوم القرآن] .

عاشراً : القرن التاسع للهجرة :

واتسعت في هذا القرن نشاطات التصنيف وتنوعت :

جلال الدين السيوطي [ت ٩١١ هـ] صنف الكتب [الاتقان في علوم القرآن] و [التحبير في علوم للتفسير] و [معترك الأقران في تفسير القرآن] .
جلال الدين البلقيني له كتاب [مواقع العلوم في مواقع النجوم] .
الشيخ أحمد الجزائري [ت ١١٥١ هـ] صنف كتاب [قلائد الدرر] .

حادي عشر : القرن العاشر للهجرة :

هو أغنى القرون في المؤلفات القرآنية :

‘الميزان في تفسير القرآن’ محمد حسين طباطبائي ، إنه مصنف غني عن التعريف بطريقته وعمقه ومباحثه .

- ‘التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن’ للشيخ طاهر الجزائري .
- ‘محاسن التأويل’ للشيخ جمال الدين القاسمي .
- ‘مناهل العرفان في علوم القرآن’ للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

" منهج الفرقان في علوم القرآن " للشيخ محمد علي سلامة .
"التصوير الفني في القرآن " و " في ظلال القرآن " الشهير لسيد قطب .
" الظاهرة القرآنية " لمالك بن نبي .
" تفسير القرآن الحكيم " للسيد محمد رشيد رضا .
" إعجاز القرآن " مصطفى صادق الرافعي .

" نظرات في القرآن " لمحمد الغزالي .
" علوم الطبيعة في القرآن " ليوسف مروّة ، بحث فيه العلوم الحديثة كالنّزرة ، وغزو الفضاء والنسبة ، والنظام الكوني .
" روائع الإعجاز " لمحمد جمال الدين فندي .
" البيان في تفسير القرآن " للإمام الخوئي ، ويحتوي على نظرات رائدة وهامة .

هذه المصنفات هي قليل من كثير من المصنفات التي توقفت عند القرآن تستمطره العلم والمعرفة ، ولا يزال أهل العلم يصنّفون ، ولكن هيهات هيهات أن يحيطوا بسدنهاه علماً وكشفاً .

ظاهرة الوحي

(١)

تحديد الوحي ومصوره

قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴾ القصص : الآية-٧ .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ الْخَوَارِجِ أَنْ أَمْنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا أَمْنَا وَاشْهَدْنَا أَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ المائدة : الآية-١١١ .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ النحل : الآية-٦٨ .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم : الآية-١١ .
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ الأنعام : الآية-١١٢ .

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ الأنعام : الآية-١٢١ .

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الأنفال : الآية-١٢ .

﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْنِ مِنْ رَبِّى ۖ ﴾ الأعراف : الآية-٧ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَلَاغُهُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ الشورى : الآية-٥١ .

تحديده :

إذا كان لا بد في هذه الدراسة العجول من تحديد للوحي بمفهومه وماهيته ومذته فإنما يكون تحديداً من جانبين اثنين : الأول لغوي والثاني اصطلاحى شرعى .

الوحي في اللغة :

هو مصدر من (وحي) إليه أو (أوحيت) إليه ، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره أو بتعبير آخر : الوحي هو الإعلام في خفاء وقد أطلق هذا اللفظ على الطريقة الخاصة التي

يتصل بها الله برسوله نظراً إلى خفاؤها ودقتها وعدم تمكن الآخرين من الإحساس بها حيث لا يسمعه غير المخاطب ، ويندرج تحت هذا المفهوم المعاني الآتية :

١. الإلهام القطري للإنسان أو يقال له المعرفة الحسية المباشرة ، أو الإلهام الباطني القلبي الذي لا يحتاج إلى ترتيب ومفدمات ودليل ، أو الذي سمته الفلسفة المنيوية بالعقل القمسي الذي هو أشد صفاء ويقيناً من المعرفة الحسية والعقلية .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴾ القصص : الآية-٧ .

هذا النوع من الوحي يخص به الله من يشاء من عباده ، وهو ليس من نتاج العقل بل هو لا يحمل القابلية للتكثير فيه ولا للتخطيط له مسبقاً ليفرق بينه وبين الحالات اللاشعورية من جهة وبين السلوك الكسبي من جهة أخرى^١ . قد لا ينتبه الملهم إلى الوحي في الوحي الإلهامي ، لكن أم موسى كانت متنبهة إلى عملية الوحي والإلهام لها وأنه أمر أفيض عليها من ربها ، وذلك يدل على فضيلة اختصت بها أم موسى .

﴿ إِذْ لَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ ﴾ طه : الآية-٣٨ .

٢. الإلهام الغريزي للحيوان أو ما يقال له : التسخير حيث يسخر الله بعضاً من مخلوقاته إلى عمل من الأعمال بهديه ومشيبته وتسخيره على صورة لا يمكن لمداركنا ان نستوعبها.

” وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون “.

٣. الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء والتعريض لا التصريح وكل ما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير الإفصاح كما في قوله تعالى عن زكريا :

” فخرج على قوميه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا “ .

وهل يفهم الوحي في هذه الآية إلا أنه الإشارة الخفية السريعة والإيماء اللفظة ليكون الوحي في اللغة أصلاً هو الإعلام في خفاء^٢ .

^١ تاريخ القرآن ، محمد صفير ص ٢٦ .

^٢ ط : ابن منظور ، لسان العرب ٢٠٨/٢٠ .

قال الطبرسي :

” الإيحاء هو إلقاء المعنى في النفس خفية بسرعة وأمسله من قولهم : الوحي الوحي ، أي الإسراع الإسراع (فأوحى إليهم) أي أشار وأوحى بيده “ .

ونعل من قبيل هذا الإيحاء والإشارة بالجوارح قول الشاعر :

نظرت إليها نظيرة فتحيّرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنني أحبها فأثر ذلك الوحي في وجناتها^٤

٤ . وللوسوسة الشيطانية وتزيينها للناس حبّ الشهوات إلماحة لها في القرآن بمعنى الوحي:

” وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم “ .

٥ . وعزّ القرآن بلفظة ”الوحي“ عمّا يكلف الله به الملائكة من الأمور أن ينفذوها وينهضوا بها :

”إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا “ .

الوحي الاصطلاحي أو الشرعي :

الوحي هو ما أنزله الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم والأخلاق ومنهم من بعثه بكتاب ومنهم من لم يبعثه بكتاب أو هو إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعيّ وغيره .

أما الوحي المحمدي فهو ما نزل على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلّم من لدن الله تعالى .

يقول تعالى :

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (١) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾
النجم : الآية-٢-٤ .

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَيِّنَ مِنْ بَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أُتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾ يونس :
الآية-١٥ .

^٤ - تفسير مجمع البيان المجلد : ٣ ، ص ٥٠٥ .

^٥ - قارن معروضة الرأغب الأسفها ٥١٥ .

وقال محمد عيده " وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبيٍّ من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه ، أما نحن فنعرّقه على شرطنا بأنّه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبّل الله أو بخير واسطة ، والأوّل بصوت يتمنّى لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجد أن مستيقنه النفس وتتساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجودان الجوع والعطش والحزن والسرور ^١ .

وهناك تحديد نصراني للوحي مرفوض يقول :

" الوحي هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين " ^٢ .

ومما سلف من تحديدات للوحي يمكننا أن نلمس من خلالها صلة وثيقة ، وعلاقة متينة بين معنى الوحي في معجم اللغة وبين معناه الاصطلاحي لأن كلا منهما يعطي معنى الخفاء ولا يخرج عن دائرته .

فالإنشارة السريعة رمزية يدركها المتلقّي وقد تخفى على الآخرين ، فالراغب الأصهباني يرى بأن الكلمة الإلهية التي تلقى إلى الأنبياء هي وحي باعتبار خفائها واختصاصها بهم دون غيرهم ^٣ .

وقال ابن الأثيري : " سمّي الوحي وحياً لأن الملك أمره على الخلق ، وخص به النبي صلى الله عليه وآله وسلم " ^٤ .

صور الوحي وكيفيته :

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ الشورى : الآية- ٥١ .

إن الذي يمكن استخلاصه من الآية الكريمة هو أن للوحي ليس قصراً على الملك فحسب إنما يتجاوز ذلك إلى صور عدّة تحتها الآية :

^١ - رسالة التوحيد ط ١٠ ص ١٢٥ ، محمد عيده .

^٢ - من قاموس الكتاب المقدس المتبوع في المطبعة الأسبوعية في بيروت ١٨٩٤ .

^٣ - الرغب الأسهباني ، المفردات ص ٥١٥ .

^٤ - ابن منظور ، لسان العرب ٢٠/٢٥٨ .

أولاً : الرؤيا الصادقة أو الصالحة :

هذه الصورة وإن لم تكن وحياً مع غير الأنبياء فقد كانت بداية للوحي أو كانت الإشعار والإيماء ببداية اللوحي مع النبي .

لقد كانت هذه الرؤيا تصدق في الواقع الخارجي مع النبي وفي لحظة النبي أو كما في تعبير : جاءت مثل فلق الصبح ، لقد روي أنه :

" أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح " كما كان في رؤيا إبراهيم الخليل (ع) عندما أمره الله بذبح ولده اسماعيل :

﴿ قَلَمًا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) قَلَمًا أَسْمًا وَثَقَّةً لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْتَاهُ أُنْ يَا إِبْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَحْزَرِي الْمُحْشِينَ ﴾ الصافات : الآية - ١٠٢-١٠٥ .

كيف كان فهم إبراهيم (ع) لهذه الرؤيا ؟

لقد فهمها رؤيا صادقة ، والتزم بها أمراً إلهياً ، وأدركها وحياً ينبغي الالتزام بأوامره ، والعمل بمقتضياته .

قد تأتي الرؤيا وعداً أملاً وحَقاً يقطعهُ الله لنبيه ، ولا رادَ لوعده الله ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْحَقِّ لِنُدْخُلَ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾
الفتح : الآية - ٢٧ .

إن الرؤيا الصالحة تحدث مع الأنبياء وغير الأنبياء من الأئمة والصالحين والأولياء ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

" نلقط الوحي وبقيت المبشرات : رؤيا المؤمن ، فالإلهام ، والتسخير ، والمنام " بعد المتابعة والدراسة انتهى بنا الأمر إلى أنه لم نعثر في القرآن على شاهد لتسمية ما بلقى

^١ - شعاري ، الجاه الصحيح ٧/١ .

^٢ - فروع ، نظم دات ٥١٦ .

في النوم من الرؤيا الصادقة وحياً بل الشاهد على خلاف ذلك * وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً * هذه الآية تشير إلى أن الوحي إليه يكون واعياً يقظاً وليس بنائم .

ولا نقه في ما ينلق في الرؤيا إلا أن يصتقه الوحي كما حصل لمحمد ﷺ وقال به القرآن في سورة الفتح ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ وكما حصل لإبراهيم الخليل (ع) في الأمر بذبح إسماعيل ابنه ﴿وَلَقَدْ أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتُ الرُّؤْيَا﴾ .

ثانياً : من صور الوحي وطرائقه ما ينفثه أو يلقيه ملك الوحي في قلب النبي وروعه 'نفسه' دون أن يراه . قال ﷺ :

"لئن روح القدس -جبرائيل- نفث في روعي -نفسى- أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " .
ومن الممكن أن يكون التعرفان اليقيني بغير صوت والذي عثر به محمد عبده عن الوحي هو الإلقاء في الرُوع ، والنفث في القلب .

هذا الوحي الذي يأتي وراء حجاب بلا واسطة ولا معاينة ولا رؤية لامتاع ذلك في العقل والشرع ، والإكانت المشابهة بين الله وعباده وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .
﴿لَا تَرْكُةَ الْأَيْصَانِ وَهُوَ يُذَرِّكُ الْأَيْصَانِ﴾ الأنعام : الآية -١٠٣ .
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى : الآية -١١ .

هذا النوع من الوحي يتلغنه الرسول مباشرة كما سمع موسى نداء ربه من وراء الشجرة أي سمع موسى الكلام من الشجرة ومما حولها : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ للنساء : الآية -١٦٤ . وكما سمعه ﷺ وتلقاه وهو في السماوات العلى ليلة معاجزه من صنوف التكليف والغروض كالتلوات وغيرها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ الأنبياء : الآية -٧٣ .

وحين يقال من وراء حجاب يعني ما ذهب إليه الطبرسي بقوله : * هو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى (ع) لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى (ع) وحده لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة " . لم يوصف هذا الوحي في القرآن بأنه وحى ، ولعله من جهة كونه مسموعاً لغير المختطب

^١ أخذت في الالتفات للسيوطي ١٢٩/١ والتفردت للزحبي ٥١٥ .

فيخرجه ذلك عن الخفاء . الوحي من وراء حجاب لم نعر على دلالة قرآنية عليه وإن كان قد ثبت لموسى الذي كلم الله بنص قرآني كما في قصة النار .

وصورة الوحي هذه يصحبها قرع هو صلصلة الجرس وهو أشده أخذاً حيث يفصم عن النبي (ينكشف وينجلي) ويأخذ جبينه بنقصد عرقاً ، وتشرع عروقه بالاحتقان .
وسئل الصادق (ع) عن الغشية التي كانت تأخذ النبي أكانت عند هبوط جبرائيل ؟
فقال : " لا وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل بغير ترجمان وواسطة " .

وهذه الصورة من الوحي قليلاً ما تحدث ، وهي أشد صور الوحي وطأة وثقل على قلبه :
﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ المزمّل : الآية- ٥ .

والنبي ﷺ وما أدراك من هو في تماسك أركانه ، وقوة بنيانه ، وطهارة روحه وقلبه ، وقابليته للتلقي من لدن ربه ، ورغم ذلك كان لحظة تلقيه الوحي من وراء حجب يرشح جبينه بالعرق حتى اليوم الشديد البرد ، وبلغت وطأة هذه الصورة حدّاً جعل " راحلته تبرك إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء مرة كذلك وفخذة على فخذ زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضعها " ١ .

ثالثاً : الوحي رجل عادي :

وقد يرسل الله جبرائيل رسولاً إلى أنبيائه يتمثل بصورة إنسان لا يتنافر مع الذات النبوية أو الانسان فيبلغ ما يبلغ عن الله .

هذه الصورة من الوحي ليس فيها ثقل ولا وطأة أو قل هي التي لا يأخذ فيها الجهد النبي لتطمئن إليها نفسه حيث لا مفارقات بين الذاتين : الذات المبلّغة والذات المبلّغة . يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

" أحياناً مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " .

ويستخلص كتاب الوحي المحمدي من هذا الحديث نتيجة تقول :

١ - زاد المعاد لابن القيم ٢٥/١ .

" أي يظهر بصفة رجل ومثاله ذلك ان الملك روح عاقل يريد له قوة التصرف في المادة ، فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها ، وإن علم الكيمياء في هذا العصر ربما يثبت فيه تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينها بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهربائية ، والملك يتصرف في الكهرباء كما يشاء " ١ .

في الحالتين أو الصورتين كان النبي يستوعب الوحي ويعيه ، لقد كان واعياً قبل الوحي وخلاله وبعده ، سواء كانت صورة الوحي شديدة اللطافة أم خفيفة .
إن قوله النبي " وقد وعيت عنه ما قال " لتزيل كل شبهة ، وتضع كل تهمة حول وعي النبي خلال تنزل الوحي ، ولا تسمح لقائل أن يقول باسم العلم والعقل بأن ذلك قد يكون من شطحات الخيال ، أو من صناعة الهذيان ، أو وليد اللاشعور .

إن وحي النبوة المحمدية هو نفسه وحي النبوة لمن سلف من الأنبياء ، وطريقة الوحي مع النبي هي الطريقة العامة في اتصال الأنبياء بالله وتنقيهم للكتب السماوية المختلفة . ولعل وحدة الوحي ووحدة الرسالات هي من أقوى الأدلة على صدق النبوة المحمدية . وهذا هو الوحي يبشر زكريا بغلام بعد ما بلغ زكريا الهاس :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴿ مريم : الآية ٧-٨ .

ويتنزل الوحي على صورة رسل أو رجال يبشرون إبراهيم وزوجته سارة التي بلغ بها السن عتياً بغلام :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿ ٢٦ ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ فَلَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَتَسْرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ﴿ ٢٨ ﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿ ٢٩ ﴾ قَالُوا كُنْذَا قَالَ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿ الذاريات : الآية ٢٤-٣٠ .

إن أشرف أنواع الوحي هو وحي النبوة ، هذا الوحي محصن بالوثوق ، فكل نبي مؤمن بوحيه أشد الإيمان " نزلته على قلبك بإذن الله " .

١ - الوحي المحمدي ، رشيد رضا ص ٨٣ .

ظاهرة الوحي

(٣)

الوحي واحد في كل الرسالات

قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَالْيُوسَى وَهَارُونَ وَمُوسَى وَإِنَّا كُنَّا مِنْكُمْ شَاهِدِينَ ذَاوُدَ زَيْبُورَ (١٦٣) وَرَسُولًا قَدْ مِصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ النساء : الآية- ١٦٣ .

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الصف : الآية- ٦ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الأعراف : الآية- ١٥٧ .

إنَّ الفكرة الدينية صحيحة في التاريخ وأصلية ، وكلما أوغلنا في مطاوي هذا التاريخ الإنساني ، سواء كان ذلك الإيغال في الأحقاب الحضارية أم في المراحل البدائية ، فإننا نجد سطورا واضحة المعالم للفكرة الدينية .

وعلم الآثار يعلن مستقيماً أن الشعائر الدينية للإنسان القديم تتجسد في كل آثاره المتيقنة سواء كانت تلك الآثار في كهوف العبادة في العصر الحجري أم في عهد المعابد التي شيدتها يد الحضارة ، أم في العمارة الضخمة ، أم في اللقائين والعلوم القديمة والحديثة ، فالحضارة كانت مرافقة للفكرة الدينية بل الحضارة ولدت في ظل هذه الفكرة .

لقد ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الإنسان حيوان ديني بشكل فطري غريزي وبسبب استعداد أصيل في طبيعته لا أن الإنسان قد اكتسب هذه الصفة بنسج الامتصاص النفسي الشامل للإنسانية كلها إثر عارض ثقافي مفاجئ لدى مجموعة إنسانية معينة^١.

ما المذاهب المادية إلا عارضة وكارثة في حياة البشرية وذلك بفعل المكتسب ، وصدا الفطرة وما تكثف حولها من غبار وحواجز .

ولن الظاهرة الدينية معقدة لأن مظاهرها متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية، لذلك تحتاج الدراسة الواعية والمتمهلة لفهمها ، كما نحتاج إلى تغفل في مسربها من أجل استيعابها حتى لا تكون الدراسة استخلاصاتها غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها كما كان شأن الكثيرين من أصحاب المباحث المعاصرة التي حاولت شرحها على ضوء تفسير تاريخي مجرد .

فالظاهرة تحتاج إلى جلاء لتعود إلى وضوح ، وتحتاج إلى صلصة لتعود إلى وعي ، وتحتاج إلى إثارة لتعود إلى حيوية وقوة واستقامة .

وتتأهت ديانات التوحيد متمثلة بظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها في سبيل إصلاح البشرية بعد فساد فطرتها ومنذ نوح (ع) عبر إبراهيم (ع) تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم ، جاءوا يخاطبون الناس باسم " حقيقة مطلقة " يقولون إنهم يعرفونها معرفة خاصة بوسيلة سرية هي الوحي .

هؤلاء الرجال يدعون بأنهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته إلى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء أن يسمعوها مباشرة .

إن خصوصية هذا الوحي ومضمونه هما الإمرتان المميزتان المئبئتان لرسالة النبي ، وهي السمة المميزة للنبوة ، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي^٢ .
إن ليس الوحي المحمدي بدعاً ، وليس محمد هو النبي الأول الذي جاء بالوحي ، إنما الوحي المحمدي سبق أن كان مع آخرين .

فالنبوءات كانت تتوالى ، والأنبياء المصطفون كانوا يتعاقبون ، وكان الوحي معهم جميعاً واحداً ، ولم يكن يختلف من نبي إلى آخر .

^١ - الظاهرة للبرانية : ٣٠ .

^٢ - المصدر نفسه : ٤٥ .

أليس مصدر الوحي واحداً لتكون الحركة النبوية كلها بهذا الاعتبار متماثلة في الهدف .
وتلتقي جميعاً على صعيد واحد ، وتنتهي عند غاية واحدة ؟
إن استمرار مظاهر السنوك النبوية وتمثلها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء يشير
إلى وحدة الوحي ، كما يشير إلى أنه لا يمكن تفسير وحدة هذا السلوك بتفسيراً نفسياً قائماً على
الحوادث التي تخضع لها ذات النبي ، والتي يبدو أنها لا تبرز هنا إلا في أنه مجرد مترجم
مرمف الحس ، تمنع أحياناً نظاهرة مستمرة تلزمه بقانونها ، كما ألزمت ذوات جميع الأنبياء ،
وكما أن المجال المغناطيسي يثبت اتجاه جميع الإبر الممغنطة^١ .

حركة النبوة :

ونحن هذه الظاهرة في الحركة النبوية من حيث الانقضاء والتمائل تشير إلى فصل
الوحي عن ذات النبي . فالحركة النبوية قد تختلف بأساليبها خضوعاً لعامل الظهور لدى
الإنسان ، لكنها في كل أحوالها واحدة في الهدف ، تلتقي روادها في مصب واحد .
لكل أمة رسول يتناسب مع واقعها الزماني والمكاني ليهدبها سواء السبيل ، وحتى لا
تكون صيحاته في فراغ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل : الآية -

٣٦ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ فاطر : الآية - ٢٤ .

في اللوحة القرآنية من الرسل خمسة وعشرون لكن القرآن أشار إلى أن عددهم هذا
ليس على سبيل الحصر إنما هؤلاء هم القمم بين الأنبياء وكانت أخبارهم مشهورة ومتداولة
بين أهل الكتاب :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْنَاهُمْ عَلَيْكَ ﴾ النساء : الآية -

١٦٤ .

فالأنبياء كما ورد ذكرهم في القرآن هم :

آدم ، نوح ، إدريس ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، اليسع ، ذو الكفل ،
إتياس ، يونس ، إسحق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ،
أيوب ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد ، صلى الله عليهم أجمعين .

^١ الظاهرة القرآنية : ٦٠ .

وهناك أنبياء لم يذكروا بأسمائهم بل بتوصف والكنية :

﴿الَمْ تَر إِلَى الْمَلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾
البقرة : الآية-٢٤٦ .

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ البقرة : الآية-٢٥٩ .
﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ التَّنِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزِّرْنَا بِهَاتِلٍ﴾ يس : الآية-١٤ .
﴿فُوجِدًا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا أَنْبَاءَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمًا مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا﴾ الكهف :
الآية-٦٥ .

روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ : إن الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ،
والمرملون ثلثماية وثلاثة عشر نبيًا .

وعظماء الأنبياء هم أولو العزم : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ﷺ ،
كل واحد من هؤلاء الخمسة هو صاحب شرع وكتاب ﴿إِنْ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨)
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ الأعلى : الآيات-١٨-١٩ .

من نوازم النبوة وضرورياتها الوحي الذي هو تكليم إلهي تتوقف عليه النبوة :
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّائِبِينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ النساء : الآية-١٦٣ .
ومعنى العزم في الرسل هو الثبات على العهد الأول المأخوذ منهم وعدم نميانه :
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الأحزاب : الآية-٧ .

ذلك لا ينفي نزول الكتاب على داود ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَيْبُورًا﴾ النساء : الآية-١٦٣ ،
فالزبور لا يشمل على الأحكام والشرائع .
لا تفريق بين رسول ورسول ، إن من يؤمن بالبعض منهم ويكفر بالبعض الآخر لا
يقبل منه دين ، وينتهي إلى الكفر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ يَقُولُونَ نُسْأَلُ
بِغِيصٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيَقُولُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا
وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ النساء : الآيات-١٥٠-١٥١ .

إن في الحركة النبوية وحدة لأن الوحي واحد يقول عيسى (ع) :

" ما جئت لأقضى الناموس بل، جئت، لأتمم " .

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَنُبَشِّرُكُمْ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ للصف : الآية- ٦ .

في هذا القرآن إشارة إلى البشارة برسالة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل ، ولعل إيمان الكثيرين من اليهود والنصارى بنبوّة محمد صلى عليه وآله وسلم خلال حياته ، وعقب وفاته إن دلّ على شيء فإنما يدل بما يشبهه اليقين على وجود البشارة في الكتابين أيام الدعوة الإسلامية .

لو لم تكن هذه البشارة كائنة في التوراة والإنجيل لاتخذ اليهود والنصارى مما ذكر في القرآن موطنًا للطعن والتجريح والتكذيب ، بل لربّما إلى إنكار القرآن جملة وتفصيلاً . وعلى هذا فإن الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام يستلزم الإيمان بمحمد ﷺ من غير حاجة إلى وجود معجزة تدلّ على صدقه .

إن التعبير القرآني بالوحي عَمَّا يَكْلَفُ الله الملك حمّله إلى النبيّ من الآيات المنزلة المشدود الصلّة بتعبيره بالوحي إلى النبيّ نفسه . وما بين منطولي التعبير من اختلاف لا يعدو الوظيفة التي يتحمّلها ملك الوحي بالنقل الأمين ، ويتحمّلها النبيّ بالوحي الرائد ، والحفظ الذاكر ، والتبليغ الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحي يوحى .

﴿ فَاَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ النجم : الآية- ١٠ .

أليس منطوق هذه الآية ومنطوقها إن الله قد أوحى إلى جبريل ، ملك الوحي الأمين ما أوحاه جبريل وبلغه إلى محمد خاتم النبيّين ؟

ليس مفهوم الوحي في هذه الآية كمفهوم التنزيل الصريح في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٦٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ الشعراء : الآيات- ١٦٢-١٦٤ .

* - البيان ، السبب الخفوي ص ١٣٣ .

ألا يمكن الاستخلاص مما قد سلف بأنه لا علاقة بين الوحي وبين النبي سوى أن النبي هو الكائن البشري القادر على التقاط لهذا الوحي ؟
 ألا يمكن الاستنتاج بالضرورة بأن وحدة الوحي ، واستمرار وحدة الملوك النبوي ، وتصديق الأنبياء بعضهم لبعض ، وبشارة الأنبياء بعضهم لبعض هي الدليل الأوفى على أن الوحي هو حقيقة يقينية ، وإن الذات النبوية هي خارجة ومنفصلة عن دائرة الوحي ؟

أما الوحي المحمدي فهو الأخير والخاتمة ، هو الجامع والناسخ لما تقدمه .
 ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ الأحزاب : الآية-٤٠ .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة : الآية-٣ .

وأحكمت هاتين الآيتين القفل لباب حركة النبوة ، وأصدرتنا الحكم بأن لا نبوة ولا نبي بعد محمد .

ألم يمض على البشرية قبل محمد أزمان وأزمان هي آلاف وآلاف من السنين أو يزيد والأنبياء على تعاقب ، وكتبهم تحمل البشارات إلى اللاحقين من السابقين ؟
 ألم تكن تلك البشارات حرية أن تدفع محمداً للإحجام عن قطع النبوة لو كان القرآن من عند نفسه ؟

إن إعلان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين هو إعلان يخالف السفة للحركة النبوية ومسيرتها .

لماذا لم يتابع محمد ﷺ البشارة بغيره كما بشر غيره به ؟
 لو كان القرآن من عند نفسه لكانت على يده هذه البشارة ترويحاً لأمره بين الناس ، لا سيما وأن للناس شغفاً بالبشارات ، وميلاً إلى تصديق من يذهب هذا المذهب .

ما بال النبوة قد انقطعت بها السبل ، وما بال الأنبياء لا يظهرون وقد مضى على نبوة محمد أربعة عشر قرناً ؟

إن الذين لا يعترفون بمحمد ورسائله ويؤمنون بعودة النبوة إلى متابعة حركتها كما تعودوا سوف ينتظرون محالاً !

ومما لا اُرتباب فيه أن الحكم الحاكم بانقطاع الوحي نهائياً بعد محمد لا يمكن أن يحكم به بشر ، وإنما هو حكم الله ، وإنما هو المعجزة القرآنية التي تدل على أنه وحي إلهي حكيم .

ويستمر بنا الحديث قائلًا : إن بين المصعب والمنبع للنهر علاقة وإن كان المنبع نيس كل النهر عند المصعب ، مع مسيرة النهر فتجتمع الروافد وتمده ليغني كلما امتد به المجرى .
والرسل فيما بينهم كالنهر بين منبعه ومصبه ، اللاحق يخلف السابق بتعاليمه ورسالاته ولكنه يضيف عليه ما يتلاءم مع حركة الانسانية .

في الأدب يقال : لكل فن وعصر ألفاظ وأسلوب ، ما ذلك إلا عملاً بسنة التطور والحاجة ، لا تظن ذلك على سبيل النقص بل على سبيل التكيف والتجدد والتمدد تلبية لحاجة الحياة المتحركة .

تواصل الرسالات : والخلف بين الأنبياء لا ينقض السلف ولكنه يؤكد ويثب رسالته .
إن الغاية الأولى في تعاليمهم جميعاً هي الإيمان بالله خالقاً حكيماً ، له المثل الأعلى ، وليس كمثل شيء . وإنيهم ليفتخرون بالوسائل وأسلوب التحدي لعبقرية الذين أرسلوا إليهم لإثبات نبوءاتهم ورسالاتهم .

وتعاقبت الرسالات على هدف واحد هو توجيه الإنسان إلى طريق الله ، وإنقاذه منا على بعقيته وممارساته وأخلاقه من أضرار ، ولقد كان الرسل في طريق الأهداف والوسائل كما صورهم حديث نبوي يقول :
" إنهم بناء بيت واحد ، يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم " .

كثيراً ما كان يجتمع رسولان أو أكثر في عهد واحد أو بيت واحد كالأب وابنه كما كان بين إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، أو بين يعقوب ويوسف أو كالأخ وأخيه كما كان الشأن بين موسى وهرون .

ولعل هذه الظاهرة تعود بأسبابها الأولى إلى المواصلات بمشقاتها وتعنتها ، وترتبط بجهالة الناس الذين يحتاجون إلى نبي دائم فيهم يعلمهم ويذكرهم وكلما أخذت الإنسانية تتفاعل مع بعضها البعض بالاتصال ، وكلما أخذ عقلها سبيلها إلى النمو كلما بعدت المسافة الزمنية بين الرسل والأنبياء كما بين موسى وعيسى ، وكما بين عيسى ومحمد ليكون هذا الأخير قفلاً وبوابة مدينة الأنبياء لأن رسالته قادرة أن تتصل بالناس أجمعين مخاطبة منهم العقول والقلوب على مدى الزمان والمكان .

إن العقيدة الإلهية في الإسلام صححت عقيدة الهند لأنها خواء ، وصححت عقيدة المعلم الأول أرسطو لأن عقيدته رأت الله كمالاً مطلقاً ولكنه كالعدم المطلق فهو متجرد عن الخلق والإيجاد والإرادة ، وأشارت إلى الأيدي التي عثت بالثورة والإنجيل وإلى ما تركته فيهما من تزيف وتحريف .

من أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بالمطلق بالرسول جميعاً دون تفريق لأن القرآن يطلب هذا الإيمان ، ويشترط هذا الاعتقاد ، وهو وحده المعجزة الأبدية المتحدية بين الكتب السماوية لأن وحده المعمور بالحفظ ، ووحده الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد صدق القرآن الرسول وزكاهم كما بشرُوا هم بمحمد ﷺ وزكوه ، لقد طلب القرآن إلينا أن نؤمن بالكتب السماوية على أصلها لا كما هي عليه بزييفها .
ليس على المسلم أن يتمسك أخبار كل نبي ، وأنباء كل كتاب ، وحقائق كل معجزة ليؤمن بهم ، حسب من تلك مشتملات للقرآن العظيم لأنه معجزة الإسلام الكبرى ، والكتاب الواثق والموثوق على إطلاقه .

تعتبر الرسالة الإسلامية آخر أمروحة ربانية ، وتعتبر النبوة المحمدية هي النبوة الخاتمة .

” وفكرة النبوة الخاتمة لها مدلولان : أحدهما سلبي وهو المدلول الذي ينفي ظهور نبوة أخرى على المسرح ، والآخر إيجابي وهو المدلول الذي يؤكد استمرار النبوة الخاتمة وامتدادها مع العصور .

وحينما نلاحظ المدلول السلبي للنبوة الخاتمة نجد أن هذا المدلول قد انطبق على الواقع خلال الأربعة عشر قرناً ، وسيظل منطبقاً على الواقع مهما امتد الزمن ، غير أن عدم ظهور نبوة أخرى على مسرح التاريخ ، ليس لأن النبوة تخلت عن دورها كأساس من أسس الحضارة الإنسانية ، بل لأن النبوة الخاتمة جاءت بالرسالة الوريثة لكل ما يعبر عنه تاريخ النبوات من رسالات ، والمشتعلة على كل ما في تلك النبوات والرسالات من قيم ثابتة ، دون ما لايسها من قيم مرحلية . وبهذا كانت هي الرسالة المهيمنة القادرة على الاستمرار مع الزمن ، وكل ما يحمل من عوامل التطور والتجديد ^١ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ المائدة : الآية-٤٨ .

^١ - كتاب ، المرسل ، الرسول ، الرسالة للشهيد السيد محمد باقر الصدر ص ٨٨ .

ظاهرة الوحي

(٣)

لماذا الوحي ؟ لماذا النبوة ؟ ما مدى الحاجة إليهما ؟

قال تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ البقرة : الآية-٢١٣ .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (٣) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿ الجمعة : الآية-٢ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء : الآية-١٠٧ .
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء : الآية-١٥ .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآيات-١-٥ .
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة : الآية-٣٠ .

لماذا الوحي ؟ ولماذا النبوة ؟

ما هي الغاية التي وراءهما ؟

ليس العقل بإمكانيته ومداركه قادراً على حلّ الألفاظ ومعالجة المشاكل التي تعترض الإنسان في مسيرة حياته ومنها الفكرة الإلهية ؟

هذه الأسئلة تطرح نفسها أحياناً ، ويطرحها المعطلون أصحاب الحذقات الفكرية ، ومدعو النشاط العقلي والمنطقي والعلمي أحياناً أخرى .

إن الأجوبة القرآنية من جانب ، وإن الأجوبة الموضوعية والعقلية والعلمية من جانب آخر يمكنها مناقشة هذه الأسئلة والانتهااء معها إلى الكلمة الفصل انطلاقاً من مرتكزات ثلاثة :

- أولاً : عجز الإنسان عن إدراك أسرار الحياة رغم عظمتها بين مخلوقات الله .
- ثانياً : الجهل لحكمة الله في خلقه .
- ثالثاً : المغاسد بأسباب العلاقات الاجتماعية المبهوسة .

الكلمة الأولى :

في هذا المبحث تجد الإنسان الكائن الأكمل بين الكائنات الحية .

أليست للإنسان ميزة الفكر والمشاعر ، ميزة للمطامح والتطلعات والأحلام ؟ هل من شيء في الوجود إلاّ وهو مسخر لمنافع هذا الإنسان وإرادته ؟ بينما هو ليس مسخراً لشيء ؟

﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ الجاثية : الآية-١٣ .
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الإسراء : الآية ٧٠ .

وميزة الإنسان أن قوامه الإنساني ليس رهين القسر ، ولا محكوماً بعملية آلية مفروضة ، إنما الإرادة والاختيار هما اللذان يحركانه ويدفعانه بكل تطلعاته وممارساته . ولقد حقق الإنسان بهذا الإرادة، وهذا الفكر الأعاجيب في العلوم والإنشاء والكشفات. وأنجز ما يشبه المعجزات في الشؤون المادية .

أما سرّ الحياة ولغزها فقد اصطدم الإنسان إزاءها بالحيرة المظلمة ، والمجهول الغامض ، والضباب الكثيف الثقيل . لقد امتنعت يد الكشف الإنساني إلى السماء والأرض إلا ذات الإنسان، وسره في الحياة حيث لا يزالان هذان في دائرة المجهول . ألم يقل العالم الفرنسي الشهير صاحب الكتاب الشهير : " الإنسان ذلك المجهول " ^١ .

" إن علمنا عن ذاتنا لا يزال في حالة بدائية " ؟

^١ - انكسب كنزويل .

إن الإدراك عاجز في دائرة الجواهر وإن كان متمكناً من المعرفة في نطاق الظواهر .
لقد بذل الإنسان جهوداً مضنية من خلال معارفه المادية في سبيل الإجابة عن تساؤلاته حول
سرّ الحياة ، فلم يظفر بظائل ، ولم يكن له حظ من المعرفة في هذا الحقل .

ينبغي أن لا يمتلك العجب قلبك إزاء هذا المعجز الظاهر عن إدراك ما ليس ظاهراً ولو
مهما أوتي الإنسان من الفطنة والمعرفة والقدرة على الكشف والاستنباط .
أحوج ما يحتاجه الإنسان في هذه المواطن هو أن يتلمس المعرفة من خارج قواه
المادية ومن منطقة هي وراء وجوده المادي .

ليس إلّا وحى الله يفتح المغاليق ، ويكشف الحجب ويهتدنا لنلنفاذ وراء صفاقة المادة
وغلظتها ، لنعرف بواسطة الرسالات والرمز ما نعجز عن معرفته بالعلوم المادية . ولعل آية
الوحي الأولى كانت أول ما تعنيه من العلم هو هذا الجانب بواسطة الوحي والانبيا :
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي
عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآيات ١-٥ .

الكلمة الثانية :

في هذا المبحث فإنها تؤكد جِهالة الإنسان بالحكمة الإلهية في خلقه ، وشه في خلقه
شؤون . إن الله هو الحكمة المطلقة ولا يخلق ربك لغواً أو عبثاً . ولئن جهلنا حكمته وغرضه
من خلقه أحياناً فلا يقتضي ذلك أن الله خلق من الغرض والحكمة ومتى كان الجهل بالشيء
يدلّ على عدمه ونفيه ؟

وإن النبوة [الوحي] يبرزها العقل ويجد فيها الضرورة انسجاماً مع الغاية الإلهية من
خلق الإنسان وهذا الغرض الإلهي لا يتجاوز واحداً من افتراضات ثلاثة لا رابع لها :

الأول : أن يكون الغرض من خلق الإنسان هو منافع ومصالح تعود إلى الله تعالى .
وهذا الافتراض مردود ومرفوض لأن الله ليس بذئ حاجه ولا نقص .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ النحل : الآية- ٦٠ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فاطر : الآية-١٥ .

الثاني : أن تكون العاية قائمة بالخلق ذاته ، والفعل نفسه ولا مصلحة في ذلك لا للخلق ولا للمخلوق ، وتنزه الله عن أن يخلق للخلق ، أو يفعل للفعل ، وتعالى الله أن يكون محلاً لالتفاعلات والتأثيرات النفسية التي هي من لوازم المادة ولواحقها ، وتعالى الله أن يفعل اضطراباً لا اختياراً .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ القصص : الآية-٦٨ .

ليس إلا الافتراض الثالث الذي يفهم بين الأول والثاني قواماً ويؤخذ به أمراً يقينا^١ .
هذا الافتراض الذي مقتضاه أن الغرض من خلق الإنسان هو مصلحة الإنسان وحده لأن الإنسان تمسه الحاجة إلى الكمال الروحي ولأن الإنسان عاجز بعقله وقدراته عن تحقيق هذا الكمال .

فالله القادر على كل خلق ، الرحيم بكل العباد هو الذي منه الهداية والرشاد إزاء هذا ليس عجباً أن تكون النبوة المنفذة ، والعجب ألا تكون !

أما الكلمة الأخيرة في ضرورة النبوة ومدى حاجتنا إليها فهي التي تدرس الإنسان ككائن اجتماعي بالفطرة وما ينتج عن ذلك من علاقات متشابكة قد يتورطها الخلل والزلل والتفكك ، وما تحتاجه هذه العلاقات في اضطرابها من علاجات شافية وافية .

يقول أفلاطون بضرورة الوازع والدولة بأسباب الاجتماع في كتابه السياسي الاجتماعي التريوي :

" وتنشأ الدولة عن عجز الفرد عن سد حاجته بنفسه واقتضاه لمعونة الآخرين " .

ويقول أرسطو :

" الإنسان حيوان سياسي اجتماعي " .

أما فيلسوفنا الفارابي المسلم فيردف قائلاً في كتابه " آراء أهل المدينة الفاضلة " :

^١ - راجع التفصيل في كتاب عقيدتنا ص ٦٥ ، وكتاب الإسلام يتحدى .

‘ وكل واحد من الناس مغطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها وحده بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد بهذه الحال ... ’ .

وانتقلت هذه الفكرة بعد الفارابي إلى ابن خلدون في مقدمته :

‘ إن الاجتماع الإنساني ضروري ويعتبر الحكماء عن هذا بقولهم : إن الإنسان وفي بالطبع ’ .

من البداية أن الإنسان الذي ينشأ وحده ويعيش وحده خارج الجماعة يفقد أو ما يفقد القدرة على تأمين الغذاء والكساء ، ويعجز عن التعبير والتفكير .

وبأسباب من المضامع والشهوات ، وبدافع من الاستئثار والاستغلال والاستلاء تضطرب هذه العلاقات ويفسد أمرها ، ويقتل كيانها ، وتغدو المعالجة من حاجاتها ومنطلقاتها.

هل يدور في خلدنا أن الله الخالق الحكيم ، الرحيم يرضى لعباده الخبط في الشروع والفجور ، ويدعهم إلى التنازع والنصارع ، ويدعهم إلى آلامهم وضياعهم ؟

إن خروج البشرية من ضانقتها ومضيقتها لا يكون من ذاتها وبذاتها ، ولا يكون إلا من هو الأقوى من خارجها ، والأقنر على مكافحة أمراضها وهل مرضت هي إلا لعجزها وضعفها ؟ فكيف يمكنها أن تتقلب يدها المريضة إلى يد طبيب تشخص داءها ، وتبلم جراحها ؟

الطبيب الذي يقود البشرية إلى معافاتها وسعادتها ليس منها ولكنه لها في خيرها وصلاحها ، إنه النبي أو الرسول الأمين الذي يبلغ الرحي المنفذ ولين إله المرتجى !

لئن أثرت شبهات حول معطيات النبوات ، لئن تكاثرت التشكيكات حول منتجات الرسالات في الإنسان فما ذلك بشأن ذي بال !

لقد تَنَاطَرَت السَّؤَالَات المتجاهلة أو الجاهلة ، قديمها وحديثها ، حول نتائج الرسل والأنبياء لتنتهي تلك التساؤلات إلى إجابة قاتلة :

إن الديانات مخترعة ومعوقة للشعوب على سبيل ، وفاصرة ومقصرة في أداء مهمتها على سبيل آخر . وماذا غيرت الرسالات للبشرية من أحوال ؟

ألا تزال هذه الإنسانية تعاني ما تعاني من الولايات في انحرافاتها الفكرية والاجتماعية والأخلاقية ؟

ألا تزال البشرية مثقلة بالفجور والشرور ، بالشقوة والبؤس بالمظالم والمفسد رغم نعمتها المذهل في شؤون المعرفة ، وحقوق المأذة ، ودائرة الطبيعة ؟
إن الديانات على اختلافها قد أخفقت في تحقيق غايتها ، وعجزت عن صنع الإنسان المرتجى في خلقه وممارساته .

ولطالما كانت هذه الديانات لغواً ولا خير فيها ، ولطالما كانت سلبية لا إيجابية في كثير من جوانبها ومواقفها فما هي ضرورتها ، وما هي حاجتنا إليها ؟

وجوابنا المباشر على هذه المواقف المستنجة من الدين ، والتساؤلات المشبوهة حول النبوات هو أن الإنسان ليس بجانبه المادي الآلي إنما هو بجانبه الإرادي الذي يصنع قراره .
إن للتكامل عند الإنسان في روحه ونفسه وخلقه لا يحققه الكشف للمادي ، ولا المعرفة الماتية ، ولا علم النفس الذي لا يزال في مواقع التكوين والافتراضات والترجيحات ، إنما الذي يحققه معرفة من خارج ذات الإنسان ، ودائرة الإنسان ، بواسطة هداية نورانية إلهية .

إن الأنبياء بالوحي والرسالة هم المبلغون لهذه الهداية والمعرفة ، هم الذين يعرفون الإنسانية على ذاتها لتكشف أمراضها ونعالجها باختيارها وقرارها .

إنسجاماً مع الغاية من خلق الإنسان بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، هداة ومعلمين ليهتدوا للمناخ الصالح لتحقيق التكامل الإنساني بإرادة الإنسان وقرار الإنسان .
﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ البند : الآية-١٠ ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ الكهف : الآية-٢٩ .

لئن صُنِّتْ بالإنسان الأذن ، وأحكمت على العقول والقلوب أفعالها فما هي مسؤولية الرسالات حينذاك ؟

لئن للرسالة لا تخلق الهداية خلقاً ، ولا تفرضها فرضاً ولكنها تكشف المجهول ، وتفتح المغاليق ، وتشير إلى الطريق لتنهض الحجة ، وتتحمّل المسؤولية .

ومنى أذنت نبوة أو رسالة أنها ستحمو كل شائبة ، وتزيل كل شر فى النفس الأمارة
بالسوء ؟

بمقدار القابلية الإنسانية للتناول من خيرات الرسائل يكون تكامل الإنسانية ونموها !
ولماذا لا نقول بأن هذه الحضارة متدهورة لأن عقلها فى جيبها ، وقلوبها فى معملها
ولا روح لها ؟

ولماذا لا تكون مقلتنا واعية فتترك بأن بُعد الإنسان عن تعاليم السماء هو الذي يهبط
به إلى حضيض المهانة ، ويأخذ بيده إلى سواد الشرور وجنون الفجور ؟

الثقافة متذكرة إلى شريط التاريخ كقيلة بأن تحمل لنا الصور المشرقة للشعوب التى
أمنت بعد الكفر ، كقيلة بأن تظهر لنا مدى التحول العظيم عند الإنسان بفعل النبوة والأنبياء !
حسبنا من ذلك الإسلام وأمثه .

وماذا كان العرب قبل الإسلام ؟
ألم يكونوا همنشاً على صفحة الأمم ؟
ألم يكونوا الرقم للمسمى التآفة بين أرقام المنتجين الصانعين ؟
وبالإسلام أصبحوا الأرض فى السماء ، والسماء فى الأرض :
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ آل عمران :
الآية - ١١٠ .

ويعود بنا الحديث متابعاً مسيرته ليقضى به للحكم على الوجدان والعقل بأنهما حاجتا الإيمان .
فالعقل النّير المتفتح يملك استعدادات للوصول والكشف والافتتاح . والعقل يهدي إلى
الرشاد وإلى سواء المييل ، إنه يفتح أبواب المجهول ، ويعرف الله بآثاره ، وفي التاريخ كبار
كان وصولهم المؤمن بأسباب هذا الوعي الوجداني والعقلي . لقد اتقوا الله حق تقاته ، وكانت
عبادتهم لله بشروطها . لقد وضعوا أصولاً فى الفضائل ونواميس الاجتماع .

لكنّ للنبوة خير من الحكمة ، والنبي أفضل من الحكيم ، والوحي أصدق أسلوباً من
للعقل الإنسانى الذي تحيط به ظروف معقدة تصرفه عن صفائه ، وتبعده عن روائه .
هناك فروق بينة المعالم ، جلّية السمات بين النبي والحكيم ، ولكنّها ترجع بإيجابيتها
فى كفة الميزان النبوي .

لعل هذا الرجحان يبدو في الحقائق الآتية :

- المصدر: منابع التعاليم النبوية إلهية غيبية يتناولها الرسول بحرفها وأبجديتها من مصدرها: ﴿ وما يَنفُطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم : الآية-٣-٤ .
- إن التعاليم النبوية واثقة موثوقة ، إنها أشدُّ بعثاً لليقين من فروض تعتمد الظنَّ والترجيح والاحتمال ، وتتأثر بعوامل خارجة عن ذاتها .

- التأثير : التعاليم النبوية تنهض مقام السحر في النفوس والقلوب ، والإنسان بطبعه يثق بالمجهول ، ويؤخذ بالغيب . ويقدر تعاليمه أكثر من تعاليم أمثاله من الناس لأن الغيب لذاته وسحراً وجاذبية .

- الشمول : رسالة النبي أكثر إحاطة ، واثد صفاء ودفّة من حكمة الحكيم ، إنها لا تدع شيئاً تحتاجه إنسانية الإنسان دون أن تدفعه إلى سبيله المأمون . إنها أكثر وعياً ، واشمل موضوعاً ، وأغزر معرفة ، وأصدق مقالاً . كم من الخفايا والطوبا قد تغيب عن التفاتة الحكمة بينما للرسول مكلف بتعاليم العام ، والإحاطة بالحقائق هي مطلب الرسالة ومن مسؤوليتها .

- التكليف والمسؤولية : والنبي مكلف بأمانة ، ومسؤول عن أمانة ، يبلغها بشروطها ، ويؤذيها بحقها . يستشعر بأن التقصير ممنوع ، وأن الإهمال ليس من طبيعته . أما الحكيم فلا يجد نفسه إزاء هذا التكليف بحرجه وحدوده ولا إزاء هذه المسؤولية بحدتها وقسوتها .

حفنة ضئيلة في كل عصر ، ليس كل كائن بشري يملك قابليّة للتفوق ، واستعداداً للنبوغ ، ليس كل فرد يعيش الموضوعية ، ويلتزم بالتجرد ، الإنمائية مجموعها ليست خلوا من الغرض والهوى ، وليست خيراً بكلّ نوازعها .

أليس هناك البلادة والغفلة ؟

أليس هناك النفس الأمّارة بالسوء الجانحة إلى الشرور ، المأخوذة بجنون الشهوة ؟

وهل الإنسان إلّا ذلك الكائن المعقد التركيب والطبيعة والبناء ؟

من البذاهة ألا يستطيع كل امرئ أن يصل إلى الإيمان المراد باستعداده للشخصي ،
ولعلّ الخاصّة العاقلة لا يكتمل بها الإيمان إن اعتمدت على استعدادها الشخصي وحده وخاصة
أن عامل المحيط بغيره وغلظته لا بد أن يترك بصمته عليها .

لا بد من الرسل والوحي ، ولا بد من التخلّص من خارج حين تحزب بالإنسانية الشدائد
والمخاطر ، حين تعجز البشرية عن أن تفرض الحلّ على ذاتها المنحرفة ، فالإنسانيّة تحتاج
إلى رسالات السماء لتقودها إلى رشدّها الواعي ، وإلى مجدها المؤمن ، وإلى قلبها الخائف ،
وبنها نحتاج حينذاك إلى صدمة تهزّ فطرتها ، وتجلو ذاكرتها ، وتوقظ وجدانها .
﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ البقرة : الآية-٢١٣ .

فالعقل ليس إلى نوره على الدوام ليكتشع غشاوة ظلمة ، وليس إلى صفائه دائماً لينفذ
وراء الحجب . كثيراً ما تطوّر الأوهام ، ويحجبه صدأ المكتسب ، ويفشاه غبار الخارج فلا
يدري إنسانيته كيف المسير ، وأين المصير !
إن الذين ينفخون هذه الصنّاعة المعنوية عن صدر الإنسانية هم الرسل المختارون من
الله بالمواعظ الحسنة ، والصيحات العابسة ، والعلمية المغيرة .

أما العقل كعقل فإنه لا يسجّل اصطداماً مع الدين في شيء .
ولطالما للعقل صريح وهو بنجوة من التأثير بهوى ، ولطالما الدين لا شبهة في توارده
ونقله ، فإن التقاءهما معاً أمر تحتمه طبيعتهما .

أليس عقل الإنسان من نعم الله التي لا تحصى ؟
أليس الوحي لله وحده ؟
أنّى للتناقض بعد ذلك أن تكون له يد بينهما ؟

فإنه قد امتنّ على الإنسان بالعلم نتاجاً للعقل ، وبالرسالة النبوية صادرة عن الله ، والله
لا يمتنّ بما يسيء إلى الإنسان إن في قليل وإن في كثير .

فإذا تعارض العقل والدين فإمّا أن يكون ما يسمى بالعقل وهمّاً أو غرضاً ، وإمّا أن يكون الذي يُدعى أنه دين هو محرّف في نقله ، أو مزوّر عن أصله ، أو مأوّل مشوّب بالغرض في فهمه .

إن المقياس الذي يتمّ فيه امتحان العقل إذا كان وهمّاً ضائعاً ، أو كان عقلاً صريحاً هو صحيح المنقول من الدين .

وإن الوحي هو بمثابة الضابط لعمل العقل ، وهو القانون الذي يرجع إليه اختلاف الناس في عقولهم وأرائهم .

فالوحي له المكانة الأولى في التوجيه ، وهو المقياس الأخير لتفكير المفكرين فيما يفكرون فيه ، وفيما يحاولون أن يضعوه من توجيه للإنسانية^١ .
سنة الحياة ، وواقع الإنسانية يتطلبان مراجعة ظاهرة الوحي ، ومسألة النبوة .

" إن العلاقة التي لا التباس فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها هي علاقة الكون أو علاقة التاريخ . وقالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا تحتاج إلى النبوة ، وقالت حقائق التاريخ لقد ظهر الرسل بالنبوة التي تريدها الحياة المثلى ، والإنسانية الكريمة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ " .

الله لطيف بعباده ، هو أرحم بهم من أنفسهم ، يده الغنى وما دونها الفقر ، رحمته السعة ، وما دونها الضيق ، لم يخلق الإنسان ليتركه سدى . وهل من نهى إلهي ، أو أمر إلهي إلاّ وعنه منة للخير المشتهة ؟

ليس إلاّ الخليفة لله يكون كلمة عمره ، ويحقق إرادته في الناس !
ليس إلاّ النبيّ ينهض السفير الأمين لله ، لخصائب الناس بما يفهمون !
ليس إلاّ النبيّ من الناس وللناس ، بالفهم وبالفونه ، يعرفهم ويعرفونه ، يطمنون إلى مقالته وأنه لا يتكلم زوراً ، ولا يتحدث بهتاناً .

ليس للرسول أن يكون ملكاً وإلا كيف يكون المخاطب والتعاضد والتعامل ؟
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ الأنعام : ٩ .

١ - راجع محاضرات في الفكر الإسلامي في مرحلته الثانية ، مرحلة إعادة بناء المجتمع الإسلامي للذكور محمد شبهي ص ٤٩ .
٢ - كتاب مطلع النور ، بحسب المقدّم ص ١٥ .

وليس للرسول أن يكون أي إنسان اتفق ليغدو كل فرد رسول نفسه لأن الرسول لا بد له من إيمان راسخ ، ويتبين لا شبهة فيه وحتى يصبح ذا شخصية مؤهلة لتلقي الوحي والآ فلا جاحد ولا منكر على مساحة الأرض كلها ، وعلى امتداد الخليقة بأجمعها .

إن الرسول الموحى إليه هو من البشر ، يختاره الله ليعلمهم ويزكيهم لخصوصيات فيه قادرة على التلقي ، وقادرة على التبليغ .

وليس إلا النبي من الناس وللناس مثال الكمال والجمال في عقله وخلقه ، وهذا هو الأبلغ في الحجة ، والأصدق في المنهج من هبوط لملك سماوي ليس من طينة الناس ولا من جنسنة الناس .

وضرورة الاجتماع والوازع كان لها دراستها المستفيضة في مقدمة ابن خلدون ، وكان التوقف فيها والاستيقاف عند الوازع للرداع سواء كان سياسياً أم دينياً أم عقلياً . شرط هذا الوازع في المقامة أن يكون من هؤلاء الناس وله المنعة يقول عليه السلام :
" ما بعث الله نبياً إلا وهو في منعة من قومه " .

ويقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : الآية - ٢] .

الله لطيف بعباده ، الإنسان عاجز بنفسه عن تحقيق الإيمان بحقه وشرطه .
ظاهراً أن اثنتان تنتهيان بدا بداهة إلى الحكم بأن الحاجة إلى الوحي والرسول بالغة .

فالمسلم يؤمن بمختلف الرسل رغم ضياع معاجزهم وتحريف كتبهم ، وسبيل المسلم الأرشد إلى هذا الإيمان هو قرآنه الذي تحدث عنهم ، وصنق بهم ، فالقرآن المعجزة وحده يعني بذلائله على صدق الوحي والنبوة عن كل دليل سواء كان الوحي محسناً أم مع سائر الأنبياء والرسل السابقين .

إن النبوة رحمة وكتب الله على نفسه الرحمة وأخذ على نفسه اللطف بعباده .
وإن الرسل هم حجة الله في العباد .

لا عذر للإيمان في خطاياه بعد الرسل .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعْظِمِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء : الآية- ١٥ .

فالوجدان والعقل والرسالة نعم من الله وسبل رائدة للتعليم .

من يؤمن بالله الخالق الحكيم والرحيم ليس له إلا أن يمتلئ قلبه إيماناً بضرورة النبوة .

إن الذين ينكرون الوحي ويجادلون في مسألة النبوة لا يملكون إلا استغراب هذه الظاهرة واستبعادها ، سهل على الإنسان أن ينكر شيئاً ، فالقضية هي مدى منطقية هذا الإنكار لا الإنكار ذاته .

والمنكرون للوحي لم يكن نهم إلا المدعي بأن النبوة هي أمر غير عادي ، ولم يكن لهم إلا التساؤل المستغرب للاتصال البشري المادي بالله خالق غير مادي .

إن عدم فهم الشيء ، إن خروج الشيء عن دائرة المؤلف .

ولن عدم خضوع الشيء للتجربة وعمل الحواس ، كل أولئك ليسوا دليلاً على عدم وجود الشيء أو على استحالة ذلك الشيء .

كل ما يلاحظ حول النبوة من هذه الأمور المنكرة المستغربة ليس دليلاً على استحالة النبوة وبطلانها !

إن العقل لا يلغي النبوة ولا ينكرها إنه يقول بإمكانها رغم استغراب المستغربين ، وإنكار المنكرين .

أليس هناك حقائق واقعة ولا تقع في مجال مدارك الحواس ؟

ألم يكن للعلم اكتشافات لحقائق بواسطة أجهزة لاقطة وكانت تلك الحقائق غائبة عن حواسنا ومداركها ؟

من هذه الأجهزة :

- ما يرسل أو يستقبل الكلمة والصورة والصوت عبر البتر والبحر كالتلفزيون والراديو وغيره .
- ما يسجل أحلام النائم وحواراته النفسية .
- ما يسجل اصطدام الأشعة الكونية في الفضاء .

- ما يلتقط أنباء الفيضانات والزلازل وغيرها من الكوارث الطبيعية قبل حدوثها بمدة تتراوح بين ١٢ و ١٥ ساعة . وقد استبط هذا الجهاز من سمكة قنديل البحر المسماة بـ (هلامي) ، والتي هي شديدة الحساسية وتحسّ بالذبذبات التي هي تحت الصوتية .
- ما يساعد على كشف المجرمين ، ومنه الكلاب التي من خصوصياتها حاسة شم غريبة عجيبة .
- النمل الأميركي الذي يلهم بمعرفة حدوث الطوارئ والاضطرابات التي تصيب مساكنه ، فتغادره قبيل اندلاع الحريق فيها بلبلة .
- الأسماك تشعر بهبوب العاصفة في أعالي البحار بفترة طويلة فتغادر الشواطئ هرباً إلى الأعماق مخافة أن تغرقها العاصفة إلى اليابسة فتلقى الهلاك .
- عملية الإسراق أو الموجة المخفية التي تمكن الإنسان من تحويل الأفكار إلى إنسان آخر من مكان بعيد بعيد ، وبدون واسطة مادية ظاهرة أو جهاز آلي محسوس .

وإذا كان الأمر في عالمنا على هذا المستوى من الاتصالات البشرية وغير البشرية أفلا يمكن لشخص أن يكون مميزاً فيتصل بربه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ويتلقى تعاليمه ليبلغها للناس منقذة هادبة .

روي في الكافي عن هشام بن الحكم الإمام الصانق (ع) أنه سئل :
من أين تثبت الأنبياء والرسل ؟

قال (ع) :

” إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا ، وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه ، فيبشروهم ويذسروهم ، ويحاجهم ويحاجوه ، ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده ، يعبرون عنه إلى خلقه ويسئلونهم على مصالحهم ومنافعهم ، وما به بقاؤهم ، وفي تركه فناؤهم ، فثبت الأمر والنهي عن الحكيم العليم في خلقه ، المعبرون عنه عز وجل ، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه ، حكماء مؤيّنون بالحكمة ، مبعوثون بها غير مشاركين للناس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شئ من أحوالهم “ .

- كتاب الإسلام يتحدّى ص ١٠٨ - ١١٠ وكتاب عقيدتنا ص ٢٦٤ .

فالنبوّة المعصومة ، الأنبياء المنزهون عن الخطيئات ، الوحي الأمين في الهداية ، هؤلاء لا غنى للإنسانية عنهم على وجه .

ليس الوحي أو الذين أفيضوا الشعوب ، يعطّل الإمكانات ، ويقتل الطامات ، ويدفع إلى السلبات ، إنما هو الظاهرة الإيجابية الأفضل الأسمى للإنسان إذا فكّر وقدر ، وأحسن للتفكير والتقدير ، فيسلك بالذين دروب أمنه ، وسبل نموه ، وطريق معادته .

يوم تتحول العقول والقلوب والممارسات عن الدين تذهب ربح الإيمان ، وخلافة الإيمان ، وضمانة الإنسان إن في الدنيا وإن في الآخرة .

الدين أبقى من العصبية والقومية ، أبقى من الكنود ، والإلحاد الجحود ، أبقى من كل عبادة وتشريع ولن يزول وإن زالت السموات والأرض .

ظاهرة الوحي

(٤)

شخصية النبي كيف نعرفها ؟

قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآية-١-٥ .
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة : الآية-٢ .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُنَاطِلُونَ ﴾
التكوير : الآية-٤٨ .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ فَكَذَّابْتَ هَيْكَمٌ عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يونس : الآية-١٦ .
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم : الآية-٤ .

كلما لوحظت ظاهرة معينة ، ضمن عوامل وظروف محسوسة ، ولوحظ استقرارها أن هذه العوامل والظروف - المحسوسة في الحالات المماثلة ، لا تؤدي إلى نفس الظاهرة ، فيدل ذلك على وجود عامل آخر غير منظور لا بد من افتراضه لتفسير تلك الظاهرة ، وبعبارة أخرى :

إذا جاءت النتيجة أكبر من الظروف والعوامل المحسوسة ، بحكم الاستقراء للحالات المماثلة ، كشفت عن وجود شيء غير منظور وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة ^١ .

ألا تصدق هذه المقولة على نبوة الأنبياء والرسالات التي أعلنوها باسم السماء ؟
يقول مالك بن نبي محدثاً خصائص النبوة :

^١ - كتاب الترميز ، الرسول ، السيد الشهيد الصدر ، ص ٦٩ .

- ❏ أولاً : صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات ، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين ودائم .
- ❏ ثانياً : حكم فذ على أحداث المستقبل يمليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي.
- ❏ ثالثاً : استمرار مظاهر السلوك النبوية ، وتماتها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء^١ .

ولكم أصاب مالكا حظاً الدقة والعمق والموضوعية بهذا التحديد الموجز والمعبر لمظاهر النبوة ، فالنبوة في مقياسه هي ظاهرة قهر النبي ، وتلزمه إلزاماً بسلوك خاص مستمر ، وتطبق على لسانه أحكاماً فذة على المستقبل لا تتساق وقواعد المنطق الإنساني لأنها أمر غيبي ، وهي تتكرر بخصائصها ومقوماتها بوحدة متجانسة عند كل الأنبياء .

إن هذه الحدود أو البنود الثلاثة يمكنها إثبات النبوة وتمييزها عن النبوءات المزعومة ودفع الشكوك والريب عنها .

فالمتمنئ شخص مشبوه الموقف ، كثير الألوان ، انتهازى وصولي ، يمتلكه حب المنافع ، وتأسره شهوات المصالح ، يسائر العقائد الشعبية السائدة ، ويتساهل مع تقاليد عصره... إنه الإنسان المحافظ لا التائر . لا يحيا إلزام القهر النفسي في دعوته لأن ما يزعمه منبثق من داخله ، وصادر باختياريه عن ذاته .

لما النبي فإنه يحاول التهرب ما أمكنه من تكاليف الرسالة وأعبائها ومسؤولياتها لأنها ليست من عند نفسه ، وليست إلا من خارج ذاته ، إنها تأتيه تكليفاً شلماً يحتاج إلى جهاد وإجهاد ، إلى مقاومة وتحمل ، إلى بذل وتضحية . وإنها لتحتاج إلى تربية شاقة وعسيرة تأخذه على التدرج ، ليتم اقتناعه ، ويعمق بها إيمانه .

سينا موسى للكليم (ع) لم يستجب لنداء الله على فوره عندما كلفته الرسالة أن يذهب إلى فرعون هارباً مرشداً .

لقد فكر وقدر ، وأطال التفكير والتقدير ، لقد حاور نفسه متردداً إزاء هذا التكليف ، ادعى بأنه قتل أحد الفراصة ، ويخشى أن يقتل ، توجه إلى ربه راجياً أن يكون أخوه هارون له عوناً ونصيراً .

^١ - الظاهرة القرآنية ص ٥٩ .

بعد حين يفاجئنا موسى للقاتل الهارب عائداً في مجلس فرعون يدعو بجرأه واقفة ،
وشجاعة متمسكة إلى الإيمان .

ليس إلا القهر النفسي ، الخارج عن دائرة الذات كان مطوقاً لموسى (ع) وملزماً لياه ،
ولا تستطيع له دفعا .

أما المنتبئون أمثال خانيا في بني اسرائيل ومسيمة الكذاب ، والمنتبئ الشاعر وغيره
لدى العرب إلا دوافع المنافع وراء حركاتهم ، ولماذا ينتهي المنتبئ إلى التراجع والانكفاء
بدعوته ؟

هذا القهر الملزم لم تستطع الذات المحمدية مقاومتها ولا صدّه !
غار حراء العظيم بالوحي ، العظيم بالرجل النبي .

إن قيمة الأرض هي بقيمة من يمر عليها ، وقد يمر عليها وحش ذو ظفر وناب فإذا
بها غابة ، وقد يمر عليها إنسان فإذا بها وطن حرية ، أو مربع شاعرية ، أو مهبط وحشي
ونبوة . في هذا الغار حين كان الرسول ﷺ في دور العزلة هبط عليه الوحي الأمين يقول :
اقرأ ! فقال الرسول ﷺ : ما أنا بقارئ !

هذا الرد الذي استمر ثلاثاً يشير إلى أن أمراً خارجاً عن ذات محمد لا يعرفه ﷺ قد
ظهر .

وإن نفس لا نفس في هذه المناسبة أن محمداً لم يكن مصاباً بعتة أو بلة ، ولم تلم به
شعوذة ، ولا اعتراه مرض في جسمه أو نفسه أو عقله أو خلقه ، وإنما كان متكامل البناء في
هذه الجوانب ، وكان يعتبر المثل الأعلى في قوامه وبيئته .

ولقد عاد ﷺ إلى زوجه خديجة يتوجس خيفة ، وترتعد فرائصه من الحدث الجديد ،
وشعره أشعث أعبر ، وحاله على غير حاله وهو يقول :
زملوني ، زملوني !

وعاد إليه الحضور الجديد ثانية بصوت أكثر وضوحاً ، وأظهر غاية ، وأشد تصحيحاً :
(يَا أَيُّهَا الْمُنْتَرِ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَذِبْ (٣) وَتَبْلُوكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)
وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿ المدثر : الآيات ١-٧ .

لو كان القرآن محمد بن الإمام والفتاح لما كانت محاولته الانفلات من هذه المسؤولية الاستثنائية غير العائدية ، ولما ذهب مع زوجه إلى ورقة بن نوفل ناسك مكة يسأله الخبر ، ويستنطقه اليقين في أمر الحدث الجديد ؟

لو لم يكن محمد مع شيء خارج ذاته في هذه الزاوية لما كانت منه خشية أو تردد ، ولما لاذ بزوجه بينهما ألامه وقلقه من الذي يلاحقه بين الغار والفراش ليحمله أعباء الرسالة الكبرى .

لو لم يكن ما يسمعه وما يشاهده ، وما يحمر به غير ذاتي لما لا حظنا شكاً يتحول إلى يقين ، وخوفه إلى اطمئنان ، وهربه إلى ثبات ، وإحجابه إلى إقدام . ونون مبدئه الشمس وإن كانت في يمينه والقمر وإن كان في يساره أو الموت في مبيله .

الشخص الذي يدعي النبوة من حيث شخصيته وسيرته من جانب وفي دعوته من حيث طبيعتها وموضوعاتها وتوجيهاتها ومدى تساوقها مع الحياة ، وانسجامها مع المنطق من جانب آخر .

وحين يراد بنا أن ندرس شخصية الرسل بخصائصها فالشخصية المحمدية تغنيا عن الكل لأنها صورة الكل في مرآة الكل .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: الآية-٣٦.

في المحيط المحمدي :

ولد محمد ﷺ في عام ٧٥٠ للميلاد بيتاً في مكة أم القرى في بيئة أظهر عباداتها عبادة الأصنام والأوثان ، وأوضح ما في أفكارها الخرافات والأساطير .

واحتضنت الطفل حليلة المرضعة ليكون لها مصدر سرور وقلق في آن ، وشب بين يديها كأنه نبتة قوية متسكة اقتطفت من نبات الصحراء .

وخلال هذه الحضانة المميزة بالرعاية أقليل الطفل إلى مرضعته على سرعة وخوف ينبئها عن حادث غامض وعجب قد تعرض له بقوله :

" جاءني رجلان يلبسان البياض فأمكناني وفتحوا صدري وقلبي وأخرجوا منه علقة سوداء " .

^١ - راجع الطائفة القرآنية ص ٧٤ .

^٢ - راجع السعدي في مروج الذهب ، والطبري في تاريخه ، والطبري في تاريخه ، والمقرئ في إنتاج التواضع .

وبعد وفاة أمه أمنة وجده العجوز عبد المطلب تحول إلى كفالة عمه أبي طالب العائل الفقير ، رعى لعمه الإبل حتى الثانية عشرة من عمره دون أن يعلم بقراءة أو كتابة ، ودون أن تتصعب حياته بلون ثقافي . وكانت لمحمد الفتى رحلة تجارية مع عمه إلى الشام لم تتجاوز مدينة بصرى وعمره حينذاك في الثالثة عشرة ، في هذه المدينة استقبل القافلة بالضيافة الواسعة راهب يدعى "بحيرا" ، وانتحى الراهب بأبي طالب جانباً بنصح ويحذر قائلاً : " إرجع إلى مكة بلبن أخيك ، واحذر عليه من يهود ، فإنه كائن نه شأن عظيم " .

إن هذا التدخل الغيبي في حادثة شق الصدر محمد الطفل ، وحادثة "بحيرا" الراهب قد ورد بأخبار مسندة ، وروايات موثوقة .

هذه الروايات التي لا تخضع لمنطق الأحداث ، ولا تتسابق مع قانون الأسباب والمسببات الإنسانية قد ألصق بها باحثون تهمة الاختراع ، وأرجعوها إلى شطحات الخيال ، ودافع الرغبة باحاطة الشخصية المحمدية بهالة من الرعاية الإلهية قبل النبوة ، لكن سؤالا ملحا يطرح نفسه انطلاقاً من هذا التشكيك وهذا الاتهام لنقول :
" لو ثبت للكتب والاختراع لهذه الروايات فهل يكون المردود سلبياً على الشخصية المحمدية ؟ وهل تتناقض قيمة محمد في ميزان الخلق ؟

إن الشخصية المحمدية خير لها أن لا تعتمد على الخوارق الحسية سواء قبل البعثة أم بعدها ! وإن شرف المعجزة المحمدية أنها كانت قرآنية متحتية على الزمان لا حسية أنية كما كانت مع السابقين من الرسل والأنبياء ، لولا القرآن المعجزة وتأكيد على تلك المعجزات لما كان لنا أن نؤمن بها .

وكانت لمحمد سن المراهقة ولا مراهقة عنده بمفهوم الانزلاق ، والاحتراق في آتون الشهوات ، والتلوث بالموبوءات والمفاسد رغم أن فرص الفساد كانت سائحة وعلى غير حرج.

شهادة تاريخية أصداها عارفوه لتكون حكماً موجزاً بليغاً يختصر شخصيته بأخلاقها وسلوكها . لكم هي بليغة وموحية تلك الشهادة حين أطلقت على محمد قبل البعثة لقب :
"الصادق الأمين" .

- ابن الأثير جزء ٢ ص ٢٤ .

وثانية الرحلتين إلى الشام كانت في تجارة خديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة لتكون تلك الرحلة شهادة أخرى تنفع خديجة لتخطب بده .

وتتوارد الشهادات المركزية للشخصية المحمدية ، هناك واحدة من هذه الشهادات تعتبر في التاريخ المحمدي وثيقة لا تقه ومدعة لصورة بطل أعظم ملحمة في التاريخ للدين . إنها خطبة أبي طالب في يوم خطبة محمد لخديجة :

" أما بعد : فإن محمداً ممن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجع به شرفاً ونبل ، وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قليلاً ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك " ^١ .

واستطاع محمد الموثوق في جماعته ، والأمين في قومه أن يرفع الخلاف الحاد بين القبائل في شأن إعادة الحجر الأسود إلى مكانه بعد أن أعاد المكيون للكعبة بناءها . حسبه من تقتهم به أن هتفوا أجمعين حين دخل عليهم إلا هذا الأمين ، رضينا به حكماً " .

وتتوثق هذه الشهادة حين سأل هرقل أبا سفيان : هل تنهونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، وهل يغدر . فقال أبو سفيان : لا .

وأسلم أحد الأعراب حين رآه ﷺ وقال : والله ما هذا بوجه كذاب .

وتضخم هذه الشهادة في عين التمييز والاقتناع والإقناع حين دعا محمد ﷺ قومه إلى الإسلام فأنزل : أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً ينفخ هذا الجبل ، أكنتم تصدقوني؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط " .

وكان لمحمد صلى الله عليه وآله مشاركة منتجة في إقامة حلف الفضول المكي الذي أنشئ لرفع الحيف ، ونفع الظلم ، وإعانة المضطهد .

وعقب الزواج انسحبت حياته العادية من المجتمع المكي ، وانطوى إلى عزلة زاهدة متسكة متأملة انتهت إلى هبوط الوحي ، وإعلان النبوة .

^١ - هامش الكامل لابن الأثير ج ٢/ص ٢٥ : السيرة الحفية جزء ٦ ص ١٢٩ .

لم يكن قبل النبوة إلا الأنبياء في الجماعة الأمية ، ولم يفرق في تأمل عميق في المشكلة الدينية ليقوده نوع من إلهام الدعوة المستقبلية ، وشهادة القرآن التي لا تقبل الطعن والتجريح توضح هذا بحسم حين تقول :

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُرْجَوْنَ أَنْ يُقَالَى لَكُمْ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَلَا تَكُونُوا ظَهْمِرَ الْمُكَافِرِينَ ﴾ القصص : الآية - ٨٦ .

وفي الغار توارى محمد ﷺ عن أعين الزمان خمسة عشر عاماً ولم يسجل لنا التاريخ شيئاً مما يتصل بتنظيم حياته الروحية في ذلك العصر ، كل الذي ندرسه عنه في تلك الحقبة هي أخبار ضئيلة عن حياة زوجية وعائلية .

وبالمقارنة فالأخلاق المحمدية قبل البعثة وبعدها هي من جنسية واحدة وذات مسار واحد ، وكيفما انقلب به الأمر فقد كان هنا وهناك النموذج الأفضل ، والمثل الأعلى ، والقدوة الصالحة أمانة وصدقاً ، نبلاً وشفافاً ، تواضعاً وتواضعاً ، ترصناً ووفاءً ، رأياً وجماعة وحزماً .

لقد كان خلقه القرآن والقرآن هو الشهيد :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم : الآية - ٤ .

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران : الآية - ١٥٩ .

حين نكون مع الشخصية المحمدية لا بد لنا من كلمة صلاة ، ونبرة حرية ، ومعجم فضائل ، ونصلي بين يديه وفي محرابه .

هذه الصلاة هي انعتاق من قيد الأرض ، وقبضة الطين ، واتصال بالملأ الأعلى ، وبالوجود كل الوجود .

أن يكون محمد يعني أن يكون الله قد ألقى الكلمة الأخيرة والقتل في الناموس ، كل الناس .

وقضى ربك أن يتواري الحنان الأبوي العميق عن محمد لتنهطل السماء على جنبات نفسه حناناً كهطول الحياة في اليبس ، ومتى كان الأمر إلى حنان الرحمن الرحيم ، فليذهب بك الظن ما شاء له أن يذهب إلى صنع ربك .

ودرج اليتيم العبقري على مصعد الحياة نبتة قُنت من السماء بين نبات الصحراء ،
لتنصر في زحمة الفجر والكفر شهادة عنوانها : "الصادق الأمين" تهيئاً لكلمة السماء ،
وتوثيقاً للحجة على الشهود .

لا يعجب الناس للزهرة في الرياض الناضرة ، ولكن عجباً سيملاً قلوبهم عندما يرونها
مستوية على ساقها في الصحراء الجديدة المختصرة بلهب الرمل ، وهيب الريح ، واختناق
الحياة .

وكان النور الفيض في غاره وقنبه ، وكانت كلمة " اقرأ " ميلاده الجديد ، ميلاد
مسؤوليته ، وفاتحة مساطته بين السماء والأرض .

ومشت به الطريق الصعب إلى غايتها ، وكان محمداً قد من السماء لينهض بأنتال
الأرض .

وما أدراك بعد ذلك ما سواد الفجور والشرور ، وما ويلات الأحقاد في الصدور وما
نفثات الغدر في الظهور ! وتوهج محمد ﷺ كلمة الله على العصور .

جماعة على هامش من الحياة ، وفضلة من الناس . أمة في شعاب من الضلال ،
ومجتمع يتقارع لبناؤه بأسنة والسنة حداد ، والضعفاء المعذبون منه يعيشون على الصخائف
السود .

فالأمة التي صنعتها يده من هؤلاء ، والوحي الذي هبط على قلبه هما أشرف مواريث
الإنسانية .

إن العقيدة لا تبلغ النصر العبقري بين الناس إلا بعد أن تنتصر على أصحابها ، وبهذا
النصر سحق محمد ضحية الإسلام قبل أن يسحق ضحية الحجر ، وتحطيم التقيد النفسي أحوج
إلى البذل والتضحية من تحطيم التقيد البدوي .

وانتصر محمد ﷺ الإنسان قبل أن ينتصر محمد النبوة . فكان محمد الثاني بمحمد
الأول ، وإن عظمة محمد الإنسان هي قبل النبوة كما هي بعدها .

عجباً أيّ عجب ، لإنسان قادر على التمرور كالعماق ، وعلى الانتصاب كالسما ،
وعلى التماسك كالجبال ، وعلى التمدد كالأفاق ، فينقلب متأكلاً كالعناكب ، ضامراً كالبعوض ،
مرمياً كالفضلات ، ضائعاً كالغراغ .

وضف محمد [ص] لينشر على الدهر جناحاً .

صيححاته في الحق لها زفيف الريح العاصف ، ولفح اللهب المستعر ، لكن سرعان ما تنقلب الصيححات غناء في سحر أو حذاء في عتمة من الليل بهيم ، إنما إيقاظاً لغفلة ، أو إيناساً لشقي ، أو نجوى في محراب .

إنسانه صراحة كفلق الصبح ، وتفتح الزهر ، ونور اليقين .
إنسانه _ سواء قبل للبعثة أم بعدها _ ميزان : عنوانه تماسك البنيان . ووحدة الأركان في الفكرة والحركة والجنان واللسان .

كلمته الفصل لا الهزل ، وحكمه العدل ، وإرادته جبل يدخل في جبل ، أو أرض تشد في سماء .

قلبه نور من النور ، أو هو وجدانية الملائكة الذين ليس بينهم وبين الملائ الأعلى حجاب . هو أرض في سماء ، أو هو سماء في أرض .
صنعه الله على عينه فاختصر الإنسانية بأنبيائها وحكماتها خلال كل عصورها ، إنه يغنيها عنهم ، ولا يغنونها عنه .

الميزان المحمدي هو الوحدة المتجانسة بين نفسه وربيه والناس ، الوحدة كما اللون مع اللون ، وكما الخط مع الخط ، وكما الكون الجمال يشد بعضه ببعض ، ويحمل بعضه ببعض .

لم يكن محمد ﷺ بمقدار نفسه إنما كان على شيء من الحقيقة التي كان بها يؤمن .
فالنبي ﷺ بإيمانه طوع الجبال ، فهل نحن منه في شيء حين تطوعنا الأقزام ؟
نقد امتشق محمد ﷺ سيف الحق بيده ، فإذا بالسيف عصا الراعي !

وشاء ربك المعلم الإنسان ، ثم قال :
إليه اتخصصوا وإلى سمائه اصعدوا ، ومن مدارسه تناولوا حتى تصلحوا .
أي محمد :

هذه كلمتنا اليوم وكأنها تشرح على الشمس ، أو كأنها نشوة العبادة ، أو نشيد الحرية ،
أو انفتاحة المدى .

ما اطمأنت كلمتنا إلى غايتها ، ما تكافأت مع ضميرها .

ما قَرَّتْ في مَقَرِّها وَمَسْتَقَرِّها .

ما انْفَعَلَ أو تفاعل خبرها بمتننها كما هي في سيرته .

وكثيراً ما انطوت كلمتها ضامرة متاكل إشا ، خجلي نتلوى جوعاً أو التواء أو فراغا ، هابطة
تسّر رأسها في التراب إلا في مناسبتها .

كلمتها المحمدية وكأنها تنطق وحيا .

وكانها تملأ الوجود حضوراً .

أو كأنها تزحم السماء بالكبرياء ، وتماسك بعقلها وقليها جبلاً .

وقصارى القول :

إن القصة المحمدية هي اختصار لقصة الأنبياء والإنسان أو يزيد .

إنها قصة كل الحرية ، وكل الإيمان ، وكل إرادة الله في الخلق .

أليست هذه الشخصية بخلقتها الأصلية لائقة لأن تكون شخصية الرسالة ، ومؤهلة
لتلقي كلمة السماء وتبلغها ؟

إن النبي محمداً مكتمل الخلال ، ناضج الوعي ، منفتح العقل ، نير القلب ، حي
الضمير والوجدان ، ما الشجاعة إن لم تكنه ؟

ما الفطنة والسياسة ؟ ما الأمانة والعزة إن لم يكنها ؟

ما حسن التدبير ، وبراعة التصرف ؟ ما الصبر الجريء والإرادة المعجزة ؟ ما
الإيمان الموقف إن لم يصدر عن قلبه ، أو ينبثق عن وعيه كما ينبثق الشعاع من الكوكب ،
والأريج عن الزهر ؟

إن هذا المثل الأعلى في الخلق الإنساني المبرأ من البشاعة والمقايح ، والمنزه عن
شوائب الرذيلة قبل البعثة وبعدها ، يساعد في تدعيم الإيمان بظاهرة النبوة والتسليم بحقيقة
الوحي !^١

^١ - راجع كتاب علي وسقراط ، جورج حرطاق .

شهادات استشرافية في الشخصية المحمدية

يقول المؤرخ الأمريكي " واشنجتون أرفنج " :

هل كان تريباً ؟ لا ، بل كان فقيراً ، هل كان بارزاً ؟ نعم ، كان له شأن في وطنه .
فقد كان رجلاً ذكياً وأميناً . هل كان قوي النفوذ ؟ نعم ، فقد كانت أسرته تقوم بصدانة الكعبة ،
وتتولى شؤون مكة ، تلك المدينة المقدسة . ولذا كان مركزه وما اتصف به من أخلاق كريمة
يؤهلانه ليكون موطن ثقة : ولكن حين دعا محمد إلى الإسلام اصطدم بأسرته وقبيلته ، وجرَّ
على نفسه عداها ، فقد كان تحطيم الأوثان يقضي على سيطرة قريش على الكعبة وما
تستقيده من قدوم الحجاج . لقي الرسول في سبيل نشر الإسلام كثيراً من العناء وبذل
التضحيات . لقد ظل سنوات عدة دون أن يبال نجاحاً كبيراً ، وتعرض خلال إيلاغ الوحي إلى
الإهانات والاعتداءات والاضطهادات ، بن اضطر إلى أن يهاجر من وطنه . فقد كان في
الأربعين من عمره حين نزل عليه الوحي ، وعانى كثيراً سنة بعد أخرى في نشر الإسلام بين
أفراد قبيلته . وحين هاجر من مكة كان قد مضى ثلاثة عشر عاماً ، وحينما وصل الرسول
إلى المدينة لم يكن يفكر في القوة العظيمة التي كانت تنتظره ، فقد كان تنكيهه منصرفاً إلى
بناء مسجد يستطيع أن يصلّي فيه وينشر منه دعوته . وقد كان كل أمله أن ينشر الإسلام في
جوّ الهدوء والسلام . لقد كان في كل تصرفاته ناكراً ذاته ، رحيماً بعيداً عن التفكير في الثراء
أو المصالح المادية ، فقد ضحّى بالمائتات في سبيل الروحانيات * .

ويقول الكاتب الإنجليزي [توماس كارليل] :

لقد أصبح من أكبر العار على أي فردٍ متمنٍّ من أبناء هذا العصر أن يصنّف إلى ما
يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من
مثل هذه الترهات السخيفة والمخجلة ، فإن الرسالة التي أذاها ذلك الرسول ما زالت السراج
المفير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس من أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ،
أفكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين التي لا حصر لها
أكتوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والعشّ يروجان
عن خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلاّ به
ومجانبين ، وما الحياة إلاّ سخف وعبت وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق .

* - كتاب حياة محمد ، ترجمة الدكتور علي حسين الخربرجلي ص ٢٩٦ .

وهل رأيت قط معشر الإخوان أن رجلاً كانياً يستطيع أن يضع ديناً وينشره ؟ عجباً والله ، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجبر والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت ، وإنما هو نل من الانعاض وكتيب من اختلاط المواد ، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مئتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ^١ .

ويقول غاستاف لوبون :

إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها ، وإنه مما لا ريب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب سلفها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ، ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك لا نرى حداً لفضل محمد على العرب ... وإذا ما قيست الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ ^٢ .

وقال العلامة بارتلي سنت هيلز :

لقد كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء ، وأشدهم تديناً ، وأعظم رافة ، وقد نال سلطانه الكبير . بفضل تفوقه عليهم وقد كان دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته ^٣ .

يقول الدكتور مايكل هارت :

العظماء مئة أعظمهم محمد ، إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ، قد يدهش القراء ، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدينيوي . فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة ولكنهم ماتوا دون إتمامها ، كاليسوع في المسيحية ، أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم إليها سواهم كموسى في اليهودية ، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية كاملة ، وتحدثت كل أحكامها ، وأمنت بها شعوب بأسرها في حياته ، ولأنه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة ، فإنه في هذا التحال الدينيوي أيضاً وحاً التبادل في شعب والشعوب في أمة ، ووضع لها كل أسس حياتها ورسم أمور دنياها ، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم أيضاً في حياته ، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمها .

^١ - كتابه الأنفال ، ترجمة محمد السباني ص ٥٤ ط ٣ .

^٢ - كتابه حضارة العرب ، ترجمة محمد رعيتر ص ٤٥ و ١٢٨ .

^٣ - انفسد نفسه ١٢٨ .

إن معظم الذين غيروا التاريخ : ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية في العالم في بيئة متقدمة تبرز ظهور العظماء فيها ، ولكن محمداً هو الوحيد الذي نشأ في بقعة من الصحراء الجرداء المجردة تماماً من كل مقومات الحضارة والتقدم ، ولكنه جعل من السدو البسطاء المتحاربين قوة معنوية هائلة ، فهزمت بعد ذلك امبراطوريات فارس وبيزنطية . كذلك لا يوجد نص في تاريخ الرسالات نقل عن رجل واحد وبقي بحروفه كاملاً دون تصوير كل هذا الزمن سوى القرآن الذي نقله محمد .

ولذلك فإني وجدت محمداً هو صاحب الحق الوحيد الذي اعتبره صاحب أعظم تأثير على الإطلاق في التاريخ الإنساني^١ .

ويقول المؤرخ العالمي والروائي الشهير برناردشو :

إن أوروبا بدأت تحسن الآن بحكمة محمد ، وتعشق دينه كما أنها تبرأ العقيدة الإسلامية مما اتهمتها به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد هو النظام الذي تؤسس عليه دعائم السعادة ويستند على فلسفته في حلّ المعضلات وفك المشكلات، وإن كثيراً من الأوروبيين يقسمون تعاليم الإسلام ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول : إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة ، إنني اعتقد لو أن رجلاً كمحمد تسلم زمن الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم لتم له النجاح في حكمه ولقاد العالم إلى الخير وحلّ مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة .

يقول الدكتور بورت باستوت سميث :

كان محمد في وقت واحد مؤسساً لأمة ، ومقيماً لامبراطورية وبنياً لنين ، وهو إن كان أمياً فقد أتى بكتاب يحوي أدباً وقانوناً وأخلاقاً عامة ، وهو كتاب يقدمه إلى يومنا هذا كلّ مجموع النوع البشري [الآن ربع مجموع النوع البشري] لأنه معجزة في نقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلالة الحق .

يقول الفيلسوف والمؤرخ الأوروبي جيمس منتشر :

إن محمداً رسول الإسلام ، رجل ملهم أقام الدين الإسلامي في قبائل عربية كانت تعبد الأصنام ، وكان محباً للفقراء والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين ، وقد أحدث محمد

^١ - كتابه : العظماء مائة أعظمهم محمد .

ﷺ بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله ، فقد حطه الأصنام ودعا إلى الإيمان بالله وحده كما دفع عن المرأة قيود العبودية التي فرضتها عليها تقاليد الصحراء .

ويقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل :

إن أكبر دلالة على صدق نبوة محمد [ص] ، أن دينه يعتقه نحو ٨٠٠ مليون نفس (الآن يزيدون على ألف مليون) ، وقد مضت عليهم قرون طويلة وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك؟ ويضيف : كما أن محمداً لم يثنّ درساً على أستاذ أبداً ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وكل ما تعلمه هو عيشة الصحراء وأحوالها ، ولكن كان دائم التأمل ، كثير انصمت ، يستك حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من أدب وفضل وإخلاص وحكمة .

ويقول لورد هرلي : [وكان قد أعلن إسلامه سنة ١٩١٤] :

إن محمداً رسول الله ﷺ جاء داعياً إلى الرحمة والعدل والكرم والشجاعة والصبر على المكاره ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة وبخاصة الصدق الذي كنّ يحبه ويقسمه أكثر من سواء ، وإن محمداً نبي الإسلام ﷺ يعتبر الدين وحده هو القانون الطبيعي الذي يجب على الناس أن يتبعوه ، وأن الله ما بعثه إلا رحمة للعالمين ليبين لهم طريق الهدى وطريق الضلال ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم .

وكتب مستر بورت سميث [أحد الكتاب المسيحيين] رسالة جاء فيها : إن محمداً كان موقفاً عظيماً فريداً لم يحتثنا للتاريخ عن مثيل له ، فقد جمع بين زعامات ثلاث هي : زعامة الشعب ، وزعامة الدين ، وزعامة الحكم والسلطان ، وعلى الرغم من أنه كان أميناً لا يقرأ ولا يكتب ، فقد جاء بكتب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، وهو الآن موضع احترام أكثر من ربع سكان العالم .

أفلا يعتبر هذا كله دليلاً على أن محمداً ﷺ لم يتصف بالقسوة ولا متعشاً للسماء ، كما يقول خصومه بل كان دائماً يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع . وقد نال محمد ﷺ حب للعالم أجمع وحب أعدائه بوجه خاص ، وذلك عندما ضرب مثلاً في مكارم الأخلاق ، بإطلاق سراح عشرة آلاف أسير كانوا في يوم من الأيام يعملون على قتله والفتك به ، وإيراده

هو وأصحابه موارد الهلاك ، ولما استتبَّ له الأمر وخضعت له شبه الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، وجاء إلى النبي وقد نصارى نجران بقيادة البطريرك لم يحاول كسب أن يكرههم على اعتناق الإسلام بن أمتهم على أموالهم وأرواحهم ، وأمر بالآب ينعرض ليهب أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية وأن تبقى كنائسهم ومعابدهم كما هي يؤتون فيها شعائر دينهم كما كانوا يفعلون من قبل .

هؤلاء قليلون من كثيرين من فلاسفة العالم ومفكره المعاصرين أنصفوا رسولنا ﷺ ووضعوه في مكانه اللائق به كأعظم إنسان عرفته الدنيا على مر العصور ، فقد غير مجرى التاريخ وجعل الشَّات أمة ، وأقام من الفوضى نظاماً ، وجاء بمنهج فيه سعاده البشريه وهو صالح لكل زمان ومكان . وهذه شهادة من فلاسفة غير مسلمين ، والحق ما شهدت به الأعداء.

ظاهرة الوحي

(٥)

الرسالة

قال تعالى :

- ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ﴾ الكهف : الآية - ٢٩ .
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ الزمر : الآية - ٩ .
﴿ أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ﴾
الروم : الآية - ٨ .
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۚ﴾ الحجر : الآية - ٩ .
﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ﴾ الطلاق : الآية - ٧ .
﴿ إِنِ اكْرَمْتُمْ عَبْدَ اللَّهِ إِنْتَكُم ۚ﴾ الحجرات : الآية - ١٣ .

الحديث عن شخصية الرموز يستدعي بالبداية الحديث عن الرسالة وشخصيتها .
إذا لم يكن الشخص ذا قابلية لتلقي الوحي ، إذا لم يكن ذا مقومات شخصية تمكنه من
التبليغ والتبليغ فلا رسالة .

الرسالة والرسول بينهما علاقة خاصة لا تتجاوزهما إلى غيرهما كالملائكة والناس .
فلا الملائكة يمكنهم أن يكونوا رسلاً وإلا استحالوا بشراً ذوي أجسام ومادة ، ولا كل إنسان
بإستطاعته أن يكون رسلاً وإلا فلا جاد ولا فاسد ولا كافر في الناس . فالتشبيه لا يدرك إلا
تشبيه كائنات تدرك المعقولات والمجردات لأن بينهما شبه التجرد . أما الحواس فليس لها أن
تدرك إلا الظاهر المحسوس . والرسالات الإسلامية ذات نكهة خاصة ومميّزة ، إنها تتجاوز
إمكانية الظروف والأحوال للمحيط الذي ظهرت فيه ، كما أن القرآن أعظم من أن يكون نتاج
بشر متحضرين ، فكيف بمحمد الأُمّي ، ومجتمعه الأُمّي الذي لم يمر على طريق الثقافة ، ولا
كان له من أسباب الحضارة حظ أو نصيب ؟

إن النتائج إذا كانت أكبر بكثير من الظروف والعوامل المحسوسة بحكم الاستقراء للحالات المماثلة ، كشفت هذه النتائج عن وجود شيء غير منظور يخفي وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة ، إن قواعد المنطق ، وقوانين الأسباب قرارها أن الأشياء المتشابهة تنتج أشياء متشابهة وأن النتائج هي على قدر الأسباب لا على قدر أهل العزم تأتي العزائم ^١ وأن نبيّن للإنسان إلا ما سعى ^٢ إلى التجم : الآية- ٣٩ .

إن القرآن الرسالة هو أعظم من أن يصدر عن ظروف محيطه ، وعوامل بيئته ، بل وأعظم من أن يكون نتاج البشر على مدى زمان البشر ، ومكان البشر .

إن الرسالة الإسلامية لم تتجاوز الحالة الفكرية والدينية مجتمع ينغمس في العبادة الوثنية فحسب بل تجاوزت على يد أنبياء ، في مجتمع وثني معزول ، جملة الثقافات الدينية في عصرها لتصححها من أخطاء ، وتعالجها من أمراض ، وتعود بها إلى جلوة الفطرة ، وحكم العقل ، ومنهية الأصل .

لقد طلعت علينا هذه الرسالة بثقافة إلهية فريدة في جديدها ، ورائدة بمنهجية تصحيحها لعقائد عصرها ، وما أكثر الشوائب والزيف في عقائد ذلك الزمان ! ولعل الحاجة إلى هذا التصحيح كان من أهم المبررات لظهور الإسلام ، لقد التفتت هذه الرسالة إلى الإنسان لتصحيح منه الكيان ، ومخاطبته بعقله وروحه وقلبه لتردع عن غي ، وتوقظ من غفلة ، وتنبس كل حاجة ، وتبني الإنسان المتماسك والمتوازن ، لأنه لبناء الواحد ، فالإنسان في نظرية الإسلام ليس روحاً وإلا صار ملاكاً ، وليس جسداً وإلا صار شيطانا ، وإنما هو الروح والجسد والعلاقة بينهما على توازن واعتدال .

في الإسلام هي الإرادة والاختيار لكن بمسؤولية ، هي العمل لكن بثواب أو عقاب ، هي العلاقة الاجتماعية المشدودة لكن بتكافؤ ، هو التشريع الواسع لكن بعقل .

العقل في الإسلام له حسابه وميزانه ومكانته .

لا إيمان بتقليد ، التثبت واليقين على طريق الشريعة هما مصدر الحكم ، لا ظنة ولا شبهة في القرآن الكريم .

يقول [ص] :

« إدركوا الحدود بالشبهات » ويقول : « الظن أكذب الحديث » .

”لأنَّ يعقوب الإمام عن مَنهم خبر من أن يدان برّيه“ لأنَّ العفو هو الأصل .

لا بدّ من التأمل في خلق السماوات والأرض ، وليس إلّا التفكير الواعي بأسرار الكون وقوانين الوجود للاستدلال على الخالق بالمخلوق ، وللمسير في طريق الكشف والإبداع .
﴿ فذَبِّحْنَا لَكَ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران : الآية- ١١٨ .

المساواة العادلة والاخوة الإنسانية الشاملة اللتان تحفظان للإنسان حقّه وكرامته هما من أعظم بنود الإسلام الاجتماعي والإنساني . فالتألّه والاستكبار باطلان . الظلم والبغي مردولان . التمييز والتفريق في المعنى الإنساني بين الغني والفقير ، بين الكبير والصغير ، بين الرئيس والسرووس . بين الرجل والمرأة هما مرفوضان مردودان .
﴿ إِن كَرَّمَكُمْ عَبْدُ اللَّهِ لِتَقَاكُمْ ﴾ الحجرات : الآية- ١٣ .

ويقول (ص) :

”كلّم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى“ .

ولطالما في نظرية الإسلام أن ”الدين هو المعاملة“ ، فالاحتكار الظالم ، والغش الخادع ، والميزان غير الأمين ، والربا المستغلّ ، والتجارة الأمّارة بالسوء هي من أخطر ردائل الأخلاق ، وأبشع وجوهها .
﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْأَلُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ المطففين : الآية- ١-٣ .

والرسالة بقرآنها اختصرت تاريخ الأنبياء وأمهم وتحدّثت عنه بموضوعية وأمانة في مجتسع يعيش الغربة عن هذه الثقافة . فكان القرآن بهذا النهج يتحدّى بشجاعة أمة المجتسع ، وعلماء الديانتين السماويتين النصرانية واليهودية .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ القصص : الآية- ٤٤ .

وهذه الرسالة بمبادئها كانت متفصلاً للمضطهدين ، وطريقاً لطلاب الحرية ، وهادية للضالين ، ومنقذة من الواقع الصعب .

لقد تغيرت في ظلها مفاهيم ، وتبدلت موازين ، فإذا الإنسان غير الإنسان ، والحال غير الحال . لا أولهم خاوية ، ولا أساطير مضللة ولا عادات بالية ، ولا تقاليد مهترنة ، ولا عصبية تقاضل بالملاكمة والدعاء والعروق .

إنها رسالة جمعت فأوعت ، وتركت بصماتها على كل ما يحقق سعادة الإنسان وصلاحه مع ربه ونفسه والآخرين .

وإنها لرسالة معجزة بالقرآن الذي تحدى ببلاغته من يقدمون البيان أكثر مما يقدمون الأصنام والأوثان .

وقال الوليد بن المغيرة المشرک المعاند حين استمع إلى قرآن ينثى :

" والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن . وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعذوق ، وإنه ليعلو وما يعلو عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . وما أنتم بقتالين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته " .

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن .

عجاً : إن الذي حمل هذا القرآن المتحدي ببيانه إلى المجتمع الذي يعتد بتفوق لسانه هو إنسان لم يعهد من ذي قبل على تميز في فنون القول ، وصنوف الأدب شعره ونثره .
كيفما تلتفت بنا الذاكرة إلى مجتمع الرسالة المحمدية فإنها لا تقع إلا على صحائف سوداء ، أو على هامش من مظاهر الحضارة .

فالفكرة الإلهية كانت على خلط وقلق وسطحية العملية العقلية غائبة ، العلاقات الاجتماعية واهنة واهية مريضة ، القيم الأخلاقية متوارية إلا في النثرة من مناسباتها :
إن فضايها الإصلاح لا تهجم كصدفة مفاجئة بل على التدرج لتتمكن من التبليغ والتأثير والتغيير .

وإن المصلحين كل منهم له اختصاصه وتوجهه في الإصلاح بعضهم لهم نشاطهم في الإصلاح العقائدي ، وبعضهم في الجانب السياسي ، وآخرون في مسائل الاقتصاد ، وغيرهم في زوايا الأخلاق .

ومنى كان محمد [ص] له هذه الشمولية من الثقافة والاهتمامات والأخذ منها بأسباب وهو الذي نعرفه بالوثائق التاريخية ومستنداتها أنه الأمي في المجتمع الأمي ، وأنه ما اتصل بقرأة لو كتابة ولا كانت له علاقة بديانة حتى يطل علينا بهذه الطفرة الشاملة الهائلة من الإصلاح ؟

قد يكون الفرق بين الإصلاح والظروف والعوامل درجة أما أن يكون طفرة هائلة ، وثورة عسيفة وشاملة ، فهذا ليس من منطق الأحداث !

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ ﴾ الشورى: الآية-٥٢ .

لا يعني تفسير الرسالة على أساس الوحي ، والإمداد من السماء ، بدلاً عن العوامل والظروف المحسوسة ، إلغاء هذه العوامل والظروف عن التأثير ، بل إنها مؤثرة وفقاً للسنن الكونية ، والاجتماعية العامة . ولكن تأثيرها إنما هو في تأثير الأحداث ، ومدى ما ينجم عنها من مؤثرات لصالح نجاح الرسالة أو لإعاقتها عن النجاح ، فالرسالة - كمحتوى - حقيقة ربانية فوق الشروط والظروف المادية ، ولكنها بعد أن تحولت إلى حركة ، إلى عمل متواصل في سبيل التغيير ، يصبح بالإمكان ربطها بظروفها وما تكتنفها من ملايسات وأحاسيس .

فيذا قيل ، إن شعور الإنسان العربي بالتمزق والضياح ، وهو يجد نفسه يجسد آلهته ومثله الأعلى في حجر يحطمه في لحظة غضب ، أو حلوى يلتهمها في لحظة جوع ، جعله يتطلع إلى الرسالة الجديدة .

فيذا كان هذا القول فإنه المقبول بمقدار ، غير أن ذلك يفسر الأحداث ولا يفسر للرسالة ^١ .

^١ - كتاب رسالة ، السيد ماهر العبد ، ص ٨١ .

هذه الرسالة هي الخاتمة بين الرسالات السماوية وصدق نصّها حين أعلن أن محمدًا هو خاتم فرسان الحركة النبوية حين قال :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ الأحزاب : الآية- ٤٠ .

ليس هذا الإعلان الحلم وصدقه على مساحة الزمان والمكان دليلين على أن الوحي كما هو في المفهوم النبوي صحيح ، كما أن محمدًا هو النبي كما ادّعى ؟

أثبتت هذه الرسالة سليمة من التحريف في نصّها القرآني ، خلافاً للكتب السماوية التي امتنعت إليها الأيدي العابثة ، والتي إيمانها على حرف لتفرغها من محتواها في مواطن كثيرة ، تصد عليها أمرها وأصلها في كثير من شؤونها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ غَرَقْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية- ٩ .

إن استمرار القرآن بنصّه وروحه يشير إلى استمرار التحدي واستمرار أهمّ وسيلة من وسائل إثبات النبوة المحمدية ، بل إن ذلك يمنح الرسالة أفاقاً جديدة من خلال تطور المعرفة البشرية ، واعتماد العلم والكشوفات في الكون نيلاً على وجود الله الخالق الحكيم .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ الحجر : الآية- ٢٢ .

ألم يقل المستشرق الإنجليزي " إجنيري " عندما تمّ اكتشاف العلم لدور الرياح في التلقيح :

" إن أصحاب الإنبل قد عرفوا أن للريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يتوصّل العلم في أوروبا إلى ذلك بعدة قرون " .

وتخصّص العرب فجأة من عبادة الوثن والحجر ، وتحرّروا وصعدوا واستملوا حين عبدوا الله العليّ القدير .

وحين أظلمت هذه الرسالة انطلقوا أمة الأمم خلفاً وفكراً وقوة واتسعت بهم مساحة الحضور أفضاً وصوتياً ليكونوا خير أمة أخرجت للناس .

هذه هي الرسالة التي هي فوق ظروف الأحداث ، والتي تحمل الأدلة على حقيقتها من ذاتها لا من خارجها .

فالمندارس والمذاهب والمقائد إنما يتوجه برسائلها إلى الذين تخاطبهم وهم مختلفون .
فالمدرسة القومية تخاطب شعوبها بدعوى الرغبة في تحريرها ، والعمل على إبعادها .
والمدرسة العنصرية هل من هدف لها غير التحرير بأسم وحدة العنصر والدم ، كالمدرسة
التي تخاطب السود لينتفضوا ضد البيض ثائرين ؟

والمدرسة التي تستهدف إتباع البطون الجائعة فتنادي باتخاذ الجياح لإيجاد قوة قادرة
على انتزاع خبزهم من بين يرائث المعتدين على حقوقهم كالمدرسة الماركسية التي تنادي
بالصوت الجيهر :
أيها العمال اتحنوا لتتحرروا وتسعدوا .

أما المدرسة القرآنية فليس لها من نداء يقول : " يا أيها العرب " " يا أيها القرشيون " .
" يا أيها المكيون " " يا أيها المدنيون " .
النداءات القرآنية تتوزع على نوعين : نوع يتوجه إلى كل البشر بقوله : " يا أيها
الناس " ونوع يتوجه إلى المؤمنين بقوله " يا أيها الذين آمنوا " .

إن الإسلام لا يرى وجدان الإنسان في قوميته أو عنصره أو طبقته إنما يرى الإسلام
في الإنسان فطرته . " كل مولود يولد على الفطرة " .
فالإنسان منذ أن كان الإنسان قد وهبه الله وجداناً شريفاً ، وروحاً ملكوتية لتكون
الوجدانية للشريفة في مكون كل إنسان ، أما الروح القومية والعنصرية والطبقية وغيرها فهي
الروح المكتسبة .

والإسلام وإن حرر المستضعفين فإنه يخاطب الناس أجمعين بما فيهم أمثال فرعون
لأن القرآن يرى في أعماق كل إنسان ، وإن كان فرعوناً ، ذلك الإنسان الأصيل الذي ولد
على الفطرة ، فرعون الجائر الظالم فيه بقية من الفطرة التي خلقه الله عليها ، لأنه إنسان .
فالرسل قبل أن يحاربوا الفراعنة يسعون إلى استمارة الإنسان الكامن فيهم لعظم فرعون :

﴿ أَهْبِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّىٰ (١٨) وَأْمُرْكَ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَتَخَشَّىٰ ۖ﴾ الفازعات : الآية-١٧-١٩ .

فالله يأمر موسى أن يستشير روح الإنسانية الكامنة في فرعون فيحررها على موسى أن يشن حملته على فرعون من داخله ، من أعماقه ، فإن لم يستطع كانت الحملة المنظّية من خارجه .

هذه هي الرسالة الإسلامية بعناوينها المتاحة هي الأغنى فكيف ونحن مع تفاصيلها ؟

هل لنا إلا أن فرسل الحكم بأن هذه الرسالة ليست نتاج المحيط لأنها تتجاوزهُ إلى كل المحيطات ، وليست صناعة محمد لأن محمداً وإن عظم في الناس ، فهو في أقصى قدراته لا يتجاوز المبلغ .

ظاهرة الوحي

(٦)

الوحي بين المهابط والكتاب

قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآيات ١-٥ .
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَيَتَذَكَّرُ فَعَزِيزٌ (٤) وَالرُّجُزُ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ المدثر : الآيات ١-٦ .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّمْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَخْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ المائدة : الآية- ٦٧ .
﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ مريم : الآية- ٥٢ .
﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ القصص : الآية- ٤٦ .
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ النساء : الآية- ١٠٥ .

وهنقت أصوات الرسالات على روابي جبل النور والجليل والزيتون وأبى قبيس ،
ومتنت بهذه الجبال وبغيرها سير وتاريخ . والله في خلقه شؤن .

ولحكمة إلهية قد لا ندري بها يقيناً ، كانت الجبال موطناً لمعظم مناسبات الوحي .
لعل علو الجبال يناسب علة الرسالات فاتخذتها منابر لدعوتها ، ومراقى لخطبتها
ومواعظها .

أو لعل حقائق الرسالات راسخة رسوخ الجبال ، أو كأنها جبال تدخل في جبال ليدعم
بعضها بعضاً .

أو لعل الجبال لما كانت معالم يهتدى بها من بيته في الصحراء ، أو ضياع في أودية
وسهول ، اتخذتها للشرائع منازل لتكون هي الأخرى معالم يهتدى بها إلى طريقها الإلهي
السوي .

لماذا الجبال في أيام الوحي والحرب والتفتك وغيره من الأعظم في مواقف الإنسان ؟
ما من رأي يحسم ، وما من قول يقيني في هذا الأمر العجب !

لأمر ما أهبط آدم على ربوة ، وعرضت الأمانة على الجبال ، وأرسلت سفينة نوح
على الجودي وقطعت على الجبال طير إبراهيم ، وسخرت الجبال لداود يسبحن ، ونطق الجن
لنوح ، وكان مأوى أهل الكهف في الرقيم
ولأمر ما كنن نكح المسلمين في الحج حول الجبال ، ويسعون بين الصفا والمروة ،
ويجتمعون على عرفات ، وإذا كانت لهم زيارة للتبرك سعوا إلى غار حراء في صدر جبل .

ألم يعتقد أهل الصوفيّة بجلال الجبال ؟
ألم يتخذها بعضهم مساكن لهم ومساجد وأمكنة خلوة مع الله ؟
ألم يصفها القرآن بالخشوع والتسبيح والسجود ، فلبوا إليها لنخلوا بهم صفاء ،
وتجنبهم صراع الأرض ، وتصرف عنهم جنون الشهوات بينما تصلهم بالخالق وتبعدهم عن
كل ما سواه .

﴿ وَكَانُوا يَنْجَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي أُتِينِ الْجِبَر : الآية - ٨٢ .
﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُصَى وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ص : الآية - ١٨ .

ألا تذل الجبال الراسخة المنتصبة على الله خالقا حكيمًا ؟
﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ الغاشية : الآية - ١٧-١٩ .

وبدا الوحي المحمدي بالرؤيا الصالحة خلال النوم ، إن على فرائض وإن على رمل .
كان لا يرى رؤيا إلا وجاءت كخلق الصباح . ثم حبب إلى محمد ﷺ الخلاء ، فكان يخلو بغار
حراء فيتحقق فيه الليالي نوات العدد قيل أن ينزع إلى أهله ليتزود من جديد إلى غار التنسك
حتى جاءه الحق في ذلك الغار الذي يلتفت إليه التاريخ بالإعظام والتقدس . وأين من هذا
الغار الغائر في جبله القصور الشامخة الباذخة ، والأهرامات التي ترحم السماء ؟

وبداً وحى البقطة الناطق للنبوة المحمدية بكلمة "إقرأ" في غار حراء الرابض على صدر جبل ، بعد خلوة طويلة صافية ، بعد خلوة متعبدة متأملّة في خلق السماوات والأرض تمرّ حتى خمسة عشر عاماً .

بعد فترة حدث له ما جاء في قوله :

بينما أنا ملثي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، فأنزل الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتَبَيَّنْكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) الْمُدَّثِّرُ : الآية - ١- ٥ .

وحمي الوحي وتتابع ، والذي اشتهر بأن الذي نزل بعد أول المدثر سورة المرمل ثامة وبعدها بقية سورة المدثر . قال أمير المؤمنين (ع) : إن أول ما نزل سورة الفاتحة .

الوحي لا يختص به مكان أو زمان لأن الله يحيط بالزمان والمكان .

يتنزل الوحي على الرسول حيث تدعو الحاجة ، إن ليلاً وإن نهاراً ، إن في الغيران أو على قمم الجبال ، إن راكباً أو راجلاً ، إن قائماً أو قاعداً ، إن في مكة أو في المدينة ، إن في الطريق المهاجرة أو في دار الإقامة المستقرة ، في البرد القارس أو لظى الهجير ، في هدأة السوق ، أو وطيس الجرب .

إن الوحي القرآني كان إزاء ظاهرتين اثنتين حين إشرافه على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الأولى أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان الأمل الذي لا يئتم بقراءة أو كتابة والثانية أن هذا الوحي لا تكتفه الصدور بل لا بد منه من السطور ، القرآن هو الثقل لبوابة الوحي ، ويخاطب الناس أجمعين إلى نهاية مطافهم في زمانهم ومكانهم .

طبيعة هذا القرآن الوحي وغايته تقتضيان صيانته من الأيدي العابثة في روحه ، وتغرضان الحاجة إلى حفظه في نصّه لأنه وحده المعجزة بدائه بين كتب السماء ، ووحده الذي يواجه تحديات الإنسان متجاوزاً حدود الزمان والمكان ، ووحده ببقائه واستمراره ينبت صحة النبوة المحمدية لا النبوة التي تنبت صحته وصدقه .

إن للقضايا والمبادئ بأسبابها كما هي بذاتها ، والقرآن يحمل بذاته عوامل البقاء ، لكن سطوراً يحتاجها لحفظ نصه وإلا ينقلب عرضةً للتحريف وزيادة ونقصاناً بالفاظه وأياته .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية- ٩ .
﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ القيامة: الآية- ١٧٠ .

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فور نزول الوحي بقرآن تتعجل به القراءة على كتاب الوحي لما نزل فيه مخافة النسيان لأنه مكلف بتدوينه بالسطور ليتم حفظه بالأسباب والأحداث .

والدراسة النقدية لا يمكنها أن تغفل أهمية الفحص للوثائق المدونة أو التاريخية التي يمكنها أن تلقي ضوءاً واضحاً على القرآن .

هذه المشكلة التاريخية لا وجود لها مع واقع القرآن منذ أربعة عشر قرناً أو يزيد والقرآن يتغل على نجوة من التحريف والريب في نصه .

إن العهد القديم لم تعترف الدراسة النقدية للشرح المحثثين له بالصحة ، وليس العهد الجديد (الإنجيل) بأسعد منه حالاً ، ولا بأوفر منه حظاً .

ألم يبلغ مجمع أساقفة (نيقية) للكثير من أخباره ، مما بعث الشك والارتياب حول البقية منه ؟

إن النقد لا يعتبر الأنجيل صحاحاً لأنها وضعت بعد السيد المسيح وبعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية بقرن أو يزيد .

ليس في الجانب القرآني مشكلة تدوين ، لقد توافق واقع التاريخ مع هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

هذا الواقع لا يبعد أن يكون ظاهرة جذيرة بالملاحظة في نظرية علم الاجتماع ، وعلم النفس العربي في العصر المحمدي .

كلما كان ينزل الوحي كانت الآيات تتحول إلى ذاكرة الرسول ، وصدور صحابته ، وتسجل مباشرة على السطور بأيدي أمناء الوحي ، مستخدمين لذلك ما يصلح للكتابة كعظام الكتف ، أو قطع الجلد ، أو جريد النخل أو الرقاع والكتابة انتقلت من الحبرة والأنبار إلى

مكة على يد رجل يدعى بشر بن عبد الملك أخى أكيد بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل ، لقد خرج بشر إلى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية ليعلم عقب ذلك جماعة ضئيلة من أهل مكة مبادئ القراءة والكتابة .

وحين البعثة كان بمكة نفر يحسنون الكتابة ويبلغون السبعة عشر^١ أما في المدينة بعد الهجرة وعقب معركة بدر المنتصرة فقد أسر المسلمون سبعين رجلاً ، جعل الرسول ﷺ ذية كل واحد يلم بالقراءة والكتابة منهم تعليم عشرة صبيان من أهل المدينة ، وهكذا أخذت الكتابة سبيلها إلى الاعتناء والانتشار في المجتمع المنفي حتى بلغ عدد كتاب النبي ﷺ ثلاثة وأربعين .

إن الذين يلمون بالقراءة في عصر صدر الإسلام كانوا حفاة ضئيلة جداً أما الذين كانوا يحسنون الكتابة فقد كانوا الأقل .

ولن ضرورة التدوين للقرآن من أجل صيافته وحفظه حمل الرسول ﷺ على الاستعانة بكل من له حظ من المعرفة بالكتابة والقراءة ، سواء كان موثقاً في إيمانه وعدلته ، وخلفه أم لم يكن موثقاً ، كتاب النبي ﷺ إما كتاب وحي وإما كتاب رسائل وعهود ، وإما كتاب يجمعون بين النوعين ، رواية تؤكد على أن عددهم لا يتجاوز الستة والعشرين كتاباً كما في السيرة الحلبية وأخرى تذهب إلى أن عددهم لا يقل عن اثنين وأربعين كتاباً ، وعلي (ع) كان الكتب لعهد النبي ﷺ إذا عهد ، ولصلحه إذا صالح ، وللوحي إذا كان التنزيل .

كتاب الرسول ﷺ :

ومن كتاب الرسول ﷺ على بن أبي طالب (ع) وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص ، وحنظلة الأسدي ، والعلاء بن الحضري ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن سعد بن أبي مروح ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي سلول ، والمغيرة بن شعبة ، وعمر بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت ، ومعيقب بن أبي فاطمة ، وشرحبيل بن حسنة .

^١ - فتح البذل ، ليلالزي ص ٥٨٠ .

وبأسباب الإهمال ديناً والحسن المذهبي حيناً آخر كان الخلط بين الكتاب ، فلم تحدث عملية الفرز بينهم لتسمية كتاب الوحي وكتب الرسائل والعهود بأسمائهم .

وفي رواية أن الكتاب كانوا أربعة عشر رجلاً من الصحابة على رأسهم أمير المؤمنين (ع) وكتبوا في الأغلب لا يكتبون إلا ما يتعلق بالأحكام ، وما يوحى إليه في المحافل والمجامع . وأما الذي كان يكتب ما ينزل على الرسول ﷺ في خلواته ومنازله فليس هو إلا أمير المؤمنين (ع) لأنه كان يدور معه كيفما دار ، فكان مصحفه أجمع من غيره من المصاحف^١ .

الكتاب الذين يمكن الحديث عنهم بأنهم كتبوا للوحي ، وإن لم يكن بعضهم موثوقين إلا بمعرفتهم للكتابة هم :

على أمير المؤمنين (ع) ، عثمان بن عفان ، أبي بن كعب الأنصاري ، زيد بن ثابت ، عبد الله بن أبي سرح .

أمير المؤمنين علي (ع) :

أجمع الرواة الباحثون على أن أمير المؤمنين (ع) كان كاتب وحسي وكتب عهود ورسائل ، وكيف لا تكون له هذه الشخصية المميزة في الكتابة بين يدي الرسول ﷺ وهو الذي كان يدور معه كيفما دار ، وهو الذي كان يختص به في منازلته وخلواته .

لقد جمع (ع) إلى شرف محتده وقرباته القريبة من الرسول ﷺ كتابة الوحي^٢ ، وكان جبريل يملئ على النبي ﷺ والنبي يملئ على علي^٣ وإذا كان الوحي ليلاً لم يصبح النبي ﷺ حتى يخبر به علياً (ع) وإذا كان نهاراً لم يمس النبي ﷺ حتى يخبر به علياً (ع)^٤ .

^١ - كتاب "طب احوال" نسخة مخطوطة الخزانة .

^٢ - العقد الثريد جزء ٣ ص ٥ .

^٣ - تاريخ الأنوار للعلوي ، جزء ١٨ ص ٢٧٠ .

^٤ - انصاف بنسبة جزء ٢ .

وقال (ع) يوماً وهو يحتج على جماعة من المهاجرين والأنصار :

« يا طلحة إن كان كل آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ عندي بإملاء رسول الله ﷺ وخط يدي وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ ، وكل حلال وحرام ، أو حد ، أو حكم ، أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة ، فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله ﷺ ، وخط يدي حتى أُرش الخشخشة ... وقال علي (ع) يوماً في أصحابه : سلوني قبل أن تفقدوني ، سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلا وقد أقرأتها رسول الله ﷺ ، وعلمني تأويلها ، فقال ابن الكواء : فما كان ينزل عليه وهو غائب ؟ فقال : بلى ، يحفظ على ما غبت ، فإذا قدمت عليه ، قال لي يا علي ، أنزل الله بعدك كذا كذا فيقرأني ، وتأويله كذا كذا فيعلمني »^١ .

وللرافعي في أمير المؤمنين كاتب الوحي رأي يقول :

« واتقوا على أن من كتب القرآن وأكمّله ، وكان قرأه أصلاً للقرآنات المتأخرة على بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود »^٢ .
ألا يشير هذا إلى أن أمير المؤمنين (ع) كثيراً ما أسىء إليه تقصيراً أو سهواً أو عمداً؟

ابن الأثير في كتابه الكامل يبلغ به التفسير مداه حين يرى بأن علياً كان يكتب لرسول الله ﷺ بعضاً من الأحاديث لا كل الأحاديث .

وكتاب الإصالية لابن حجر لم يبعد عن التعصّب إلى الإهمال حين خرّج علياً (ع) من جملة الكتاب ليدخل معاوية بينهم .

عثمان بن عفان :

هو من كتّاب النبي عند كثير من المؤرخين المسلمين لكن دون توضيح أو تصريح بأنه من كتّاب الوحي ، ونقله من كتّاب الرسائل واليهود^٣ .
رواية وحيدة يتيمة تضمّه إلى كتّاب الوحي قائلة بأن « عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي »^٤ .

^١ - البيان ، آية الله العظمى حر ١٧٢ .

^٢ - إصحاح القرآن ص ٣٥ .

^٣ - راجع كتاب الإصالية ، والاستيعاب ، والسيرة الخليفة ، وتاريخ الطبري أو غيره .

^٤ - عقد العرب لابن عبد ربه جزء ٣ ص ٥ .

هذه الوثيقة المفردة في العقد دون غيره لا تدفع شكاً ، ولا تبعث على اليقين .

أبي بن كعب الأنصاري :

كان أبي رجل فضل وعلم ، وكان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود وملماً بالكتب القديمة على قلة الملمين بالقراءة والكتابة في عصره ، وعقيب إسلامه أدرج بين كتّاب الوحي كما في كتاب الاستيعاب ، وأسند الغابة ، والسيرة الحلبية ، والعقد الفريد ، والمنقب لابن شهر آشوب .

ولقد شهد أبي بن كعب العقبة ودرأً وبايع رسول الله ﷺ الذي أخى بينه وبين سعيد بن عمرو بن نفيل .

أبي بن كعب كان سيّد القراء وكتّاب الوحي ، عتيق ، بدري ، فقيه هو أول من كتب للنبي من الأنصار ، ولعله كان من فضلاء الصحابة ، ومن أعيانهم ^١ .

وحسبه من قوله الراقي في كتابه إعجاز القرآن بأنه هو وعليّ (ع) قد أجمع الصحابة بأنهما كتبّا القرآن وأكمله ، وكان قرآنهما أصلاً للقرآنات المتأخرة .

زيد بن ثابت :

كان زيد يكتب الوحي مع أبي بن كعب ، وكان يكتب إلى الملوك مع عبد الله بن أرقم ، وكانت ترد على الرسول ﷺ كتب بالسريانية فأمر زيداً فتعلّمها .

حين قدم زيد إلى المدينة وأسلم بين يدي النبي ﷺ كنن له من العمر إحدى عشرة سنة أمره النبي ﷺ أن يتعلم خط اليهود ، فجود للكتابة ، وكتب الوحي .

كنن زيد من الذين أوتوا حظاً من الفطنة والنّجب . ولقد كان عثمانياً ولم يشهد مع عليّ (ع) واحدة من حروبه .

وعن أبي جعفر (ع) قال : الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية وأنشد عليّ زيد بن ثابت ، لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية ^٢ .

^١ - العلامة الطباطبائي في رساله .

^٢ - راجع كتاب الفتن والسيرة الحلبية وأسند الغابة وتذكرة الحفاظ ، وفاموس الثمّ حان .

عبد الله بن أبي سرح :

قال المجلسي في بحاره نقلًا عن تفسير علي بن إبراهيم القمسي في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الأنعام : الآية - ٩٣ .

أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان أخا عثمان من الرضاعة ، حدثني أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال :

إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة ، أسلم ، وقدم المدينة ، وكان له خط حتم ، وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ دعاه فكتب ما يملئه عليه رسول الله ﷺ ، فكان إذا قال له رسول الله ﷺ : مسمع بصير ... يكتب مسمع عليم ، وإذا قال له : والله بما تعملون خير ... يكتب بصير ... ويفرق بين الباء والتاء ، وكان رسول الله ﷺ يقول : هو واحد فارتد كفرًا ، ورجع إلى مكة ، وقال لقريش :

" والله ما يدري محمد ما يقول ، أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر علي ذلك ، وأنا أنزل مثل ما ينزل " .

فأنزل الله على نبيه ﷺ في ذلك : " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ... أو قال : أوحى إليّ ولم يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، ومن قال سأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - قَلْبًا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ أَمْرَ بَقْتَلِهِ ، نَجَّاهُ بِهِ عُثْمَانُ فَخَذَ بِيَدِهِ - وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعَفَ عَنْهُ ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ أَعَادَ ، فَسَكَتَ . ثُمَّ أَعَادَ فَقَالَ : هُوَ لَكَ ، فَلَمَّا مَرَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : أَلَمْ أَقُلْ مَنْ رَأَاهُ فَلْيَقْتُلْهُ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : عَيْنِي إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تُشِيرَ إِلَيَّ بِقَتْلِهِ فَأَقْتُلْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنْ لَا يَفْتُلُونَ بِالْإِشَارَةِ ... فَكَانَ مِنَ الطَّلَاقِ ^١ .

وقال الصدوق :

" إنما كان النبي ﷺ يقول فيما يخبره هو واحد لأنه لا يكتب ما يريد عبد الله ، إنما يكتب ما كان يملئه ﷺ . فقال : هو واحد عجزت أم لم تغير لم يكتب ما كتبه ، بل يكتب ما أمليه عن الوحي ، وجبرائيل يصلحه . وفي ذلك دلالة للنبي ﷺ .

^١ - البحار ، جزء ١٩ ص ٣ .

وقال الصدوق :

ووجه للحكمة من استكتاب النبي الوحي معاوية وعبد الله ابن سعد وهما عنوان ، هو أن المشركين قالوا : إن محمداً يقول : هذا القرآن من تلقاء نفسه ، ويأتي في كل حادثة بآية . إلى أن قال : فاستعان في كتب ما ينزل عليه في الحوادث الواقعة بعنوين له في دينه عدلين عند أعدائه ، فيعلم الكفار والمشركون أن كلامه في ثاني الأمر كلامه في الأول غير مغير ، ولا يزال عن جهة فيكون أبلغ للحجة عليهم ، ولو استعان بونيين مثل سلمان وأبى ذر وأشباههما لكان الأمر عند أعدائه غير واقع هذا الموقع ، فهذا وجه الحكمة في استكتابهما .

لعل هذا التخريج ، وهذا التوضيح للصدوق في شأن استكتاب النبي لمعاوية وابن أبي سرح فيه من العمق والبراعة ما فيه ، وإن هذا الاستكتاب يشهد للنبي ﷺ بعد الرؤيا وحسن التدبر ، وعقلانية الحكمة .

معاوية بن أبي سفيان :

ولا يحتاج الحكم على فساد طوية معاوية إلى مشقة في التمهيص والتحقيق ، ولحكمة بالغة يدركها النبي ﷺ كما أشار الصدوق كان هذا الاستكتاب . قال رسول الله ﷺ ومعاوية يكتب بين يديه وأهوى بيده إلى خاصرته بالسيف : من أدرك هذا يوماً أميراً فليبقرن خاصرته بالسيف^١ .

وقال الصدوق :

إن الناس شبه عليهم أمر معاوية بأن يقولوا كان كاتب الوحي ، وليس ذلك بموجب له فضيلة وذلك أنه قرن في ذلك إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح فكانا يكتبان الوحي .

أما العلامة للحلي فقد كان من جملة المنكرين لكتابة معاوية للوحي . قال :

" كان إسلام معاوية قبل موته ﷺ بخمسة أشهر ، وطرح نفسه إلى العباس ليشفع له إلى رسول الله ﷺ فيعفو عنه ، ثم شفّع إليه أن يكون من جملة خمسة عشر ليكتب له الرسائل^٢ .

^١ - البحار ج ١٩ باب ٣ عن الصدوق .

^٢ - كتاب كشف الحق ومع الصدوق ص ١١ .

أما العقاد فقد ذهب إلى أن معاوية قد تعلم القراءة والكتابة والحساب ، كما رأى أن الأخبار قد اتفقت على كتابته للنبي ﷺ ، لم تتفق على كتابته للوحي ، ولا على حفظه لأيات من القرآن تلقاها من النبي ، كما كان كتاب الوحي يتلقون الآيات لساعتها... والأرجح أنه لم يكن معروفاً بحفظ شيء من كتابة الوحي في أيام جمع القرآن الكريم . ولو علم عثمان - وهو من ذوي قرباته - أن عنده مرجعاً من المراجع يتوب إليه لرجع إليه كما رجع إلى غيره .

إن الذين أنكروا كتابة معاوية للوحي ليسوا قلة بل لعظم جميعاً كانوا إلى هذا الإنكار ، لقد كتب معاوية رسائل وعهوداً للنبي ، ولئن كانت له كتابة للوحي فإنها لم تكن إلا نغسرة بمسيرة لأنه لم يعلن إسلامه إلا قبل وفاة النبي بخمسة أشهر ، ولئن كانت له هذه الكتابة فإنها لا تحقق له ذلك الشرع المأمور لأنه قرأ في ذلك إلى عبد الله بن أبي مرجم ، ألم يطلب الرسول ﷺ أن يقر بطن معاوية يوم يشاهد أميراً ؟

أليس ابن أبي مرجم طريد الرسول ﷺ ؟ ألم يهجر الرسول ﷺ دمه ؟
 لو لا شفاعة عثمان بن عفان لما كانت له منجاة من الحكم النبوي الذي يقضي بقتله ،
 إن هذه الدرامة النقوية تنتهي بنا إلى الحكم بأن الذين يمكن الاطمئنان إلى أنهم كتبوا السوحي أربعة هم : علي (ع) ، أبي ، زيد ، عبد الله بن أبي مرجم .

ظاهرة الوحي

(٧)

شبهات حول الوحي المحمدي

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّمِثْلِ الَّذِي يُلْحَقُونَ إِلَيْهِ أُعْجِبْ هَذَا لِسَانٌ

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ التحل : الآية-١٠٣ .

﴿ وَقَالُوا لَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفرقان : الآية-٥ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ الطور : الآية-٣٠ .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ التكويد : الآية-٢٥٠ .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرَاهُ فِي الشَّاعِرِ مَجْنُونٌ ﴾ الصافات : الآية-٣٦ .

﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات : الآية-٣٩ .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ الطور : الآية-٢٩ .

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ﴾ القصص : الآية-٨٦ .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ ﴾ الجمعة : الآية-٢ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا لَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيْنَا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الكهف : الآية-١١٠ .

هي مذاهب جاهلة أو متجاهلة لتزيغ بها القلوب والأبصار ، هي مواقف حاقة نفثت

سمومها ولا تزال حول الوحي القرآني .

أعداء الإسلام من قدامى الجاهليين ، ومحدثين مستشرقين وغير مستشرقين أناروا

شبهات وشبهات حول الظاهرة القرآنية كوشي يرتبط بالسماء .

لأن كان لهذه الشبهات من خلفيات وأهداف فليس إلا التأكيد على بئرية القرآن ،
وانتفاه عن الذات المحمدية ، وأنه لا يد الله فيه ولا علاقة .
بعض من هذه الشبهات تحول إليها القرآن في مواطن كثيرة مشيراً ومنسنداً ومجادلاً
ليدفعها ، هذه الشبهات أشارت إليها سور مختلفات منها : الأنبياء ، النحان ، الفرقان ، النحل ،
الطور ، التكوين ، الصافات ، والذاريات .

ولقد أضفى المستشرقون على هذه الشبهات بروح من التخابث طابع الموضوعية
وسمات البحث للعلمي المنهجي كما هو شأنهم في هذه المناسبات .

ولعل الخبث يبلغ مبلغه في إثارة هذه الشبهات حين يُنعت محمد ﷺ بأنه الصادق
الأمين ، ولنه المخلص القطن ، مما دفعه لأن يتخيل بأنه نبي يوحى إليه من عند الله ،
وهذا الوحي هو الذي يمكن تسميته بالوحي النفسي .

إن هذه الشبهات التي أثارها الباحثون للمعاصرون في الأديان والمذاهب حول وحي
تقرآن ونبوة محمد تدور في المحاور الآتية :

.. عقل محمد الصافي أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة
الأصنام .

- فطرة محمد الخالية من الاختلاط ، وغلظة المكتسب ، وما طبع عليه من طهر
نفسى ، كل ذلك حملة على احتقار ما كان يتنافس عليه قومه من جمع الأموال
بالربا والقمار والاستغلال والغش .

- فقره وفقر عته الذي كفته صغيراً ، وحماه كبيراً قد صرفه عن الانغماس فيما
كان يسرف فيه قومه من الظنم ، والاضطهاد ، واستمتاع بالشهوات ، وارتكاب
الفواحش ، والمكر والتسري وعزف اللقيان ، وسائر التقابح والموبقات .

- لقد كان محمد نابغة ملماً بالأوضاع الاجتماعية وما فيها من الانحطاط الخلقي ،
وما يتحكم فيها من الظلم والظلام ، وما يسودها من حب الذات والسيطرة وتنازع
البقاء ، وما يحيط بها من جهالة وغلظة وضلالة .

لقد سعى محمد ما سعى لإنقاذ البشرية من ورطتها الاجتماعية ومعالجتها من
أمراضها الخلفية فدعاها لتأخذ بأسباب الحرية والفضيلة لأنه كان يحمل روحاً طاهرة مطهرة ،
وهمة ذات عزم وبأس .

لقد فكر محمد وقتر ، وطلال به التفكير والتقدير لإنقاذ الناس من الشرك الخطير ،
والشر المستطير ، والفواحش المنكرة ، والموبوءات والمقابع .

وكان لمحمد ﷺ من النصاري الذين اجتمع بهم في مكة والشام استفادات لاقتة
ومثيرة ، لقد تناول على أيدي هؤلاء معلومات مختلفة عن الأنبياء والمرسلين الذين ظهروا في
بني إسرائيل وغيرهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ومن جانب آخر فإنه لم يكن له أن
يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصاري الرافضين للعقائد الوثنية والذين
أدركوا ما أدركه من مفاسد قومه ، لقد رفض بعض تلك المعلومات لما طرأ على العقيدة
النصرانية من البدع والانحرافات .

من هؤلاء النصاري غلام رومي أعجمي كان يشتغل في مكة قيناً [حذاداً] يصنع
السيوف وكان يلم بالكتابة ويعرف القراءة ، وربما بدا للنبي أحياناً أن يقف عليه يشاهد
صنعه. فما أنسبها فرصة ليقول العرب الأميون : هذا معلمه ﴿ إِنَّمَا يَطْلُمُهُ بَشَرٌ ﴾ النحل :
الآية- ١٠٣ ، وما أنسبها فرصة ليرد القرآن على أحلامهم الطائشة هذا الرد البديهي المتوقع ،
وهذا الرد المؤثر المقنع ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِقُونَ لِسَانَهُ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾
النحل : الآية- ١٠٣ .

ومن هؤلاء النصاري في مكة ورقة بن نوفل ، ولقد رجع الرسول ﷺ من غار
حراء فور نزول الوحي الأول وهو يرجف فؤاده ، فدخل على زوجته السيدة خديجة بنت
خويلد قللاً : " زمطوني ، زمطوني " ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فأخبرها الخبر بقوله :
تقد خشيت على نفسي " ، فقالت خديجة : كلا والله ما يحزنك الله أبداً ، إنك تتصل بالرحم ،
وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب
الحق^١ .

وانطلقت به خديجة حتى أتت به ابن عمها ورقة بن نوفل الذي تنصر في الجاهلية ،
وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ، وكان ورقة شيخاً طاعناً في السن وقد اشتعل رأسه شيباً ،
وعمي به البصر ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن
أخي . ماذا ترى ؟ فأخبره ﷺ بخبر ما رأى ، فقال له ورقة ، هذا الناموس الذي نزل الله
على موسى ، ليتني فيها جذعاً^٢ ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال : أو مخرجي هم ؟

^١ - راجع صحيح البخاري : باب الوحي .

^٢ - الخداع : الشئ الذي يخدع ، خلاف المرء .

قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .

ومن النصاري الذين استفاد منهم محمد وتعلم راهب اسمه "بحيرا" حيث لقى النبي في طفولته في سوق بصرى بالشام خلال رحلته مع عمه أبي طالب الذي انتحى به الراهب جانباً ليقول له محذراً : ارجع إلى مكة بأين أخيك ، واحذر عليه من يهود ، فإنه كائن له شأن عظيم^١ .

- من الشبهات التي أثيرت حول القرآن هي أن القرآن أسطورة مختلفة ولا واقع له:

﴿ وَقَالُوا اسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفرقان : الآية-٥ .

* محمد شاعر أو كاهن أو ساحر أو شيطان أو مجنون * :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ الطور : الآية-٣٠ .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ التكويد : الآية-٢٥ .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ لِيَلْعَنَ لِسَانُهُمْ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ إِلَى الصَّافَاتِ ﴾ الآية-٣٦ .

﴿ فَتَوَلَّى بَرَكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّونَ ﴾ الذاريات : الآية-٣٩ .

﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجُنَّونَ ﴾ الطور : الآية-٢٩ .

- وقع في سمع محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الله يبعث نبياً من العرب كالونك الأنبياء السابقين من عرب الحجاز ، وأن هذا النبي قد بشر به الأنبياء ومنهم عيسى (ع) ، إن هذه البشارة قد تمكنت من نفسه ، وتعلق رجاءه بأن يكون ذلك النبي الذي أن أواه .

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ... ﴾ الصف : الآية-٦ .

لقد أخذ محمد يتقلب بين الآلام من تلك البيئة الفاسدة وبين الآمال بالإصلاح لتلك البيئة. وحين بلغ به السن الأربعين ، ونتيجة لما تقدم انقطع محمد إلى عبادة الله واتجه إليه في خلوته في غار حراء ، فاشتد إيمانه ، وصفا وجدانه ، واتسع فكره ، بعد تأمله في الكائنات ليهتدي إلى وحدانية الخالق وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

واستمرَّ بمحمد التأمل والانفعال والتأمل حتى استيقن أنه النبي المنتظر ، هذا الترقب وهذا الألم ، وهذا الترجاء النفسي جعله يتصور بأنه ذلك النبي ، لقد تجلَّى له تلك الاعتقاد في الرؤيا ثم اشتدَّ حتى أخذ يتمثل له الملك بلقائه الوحي في القطة^١ .

لما بلغ محمد الأربعين زال عن نفسه القلق والألم ، وأصابه التوفيق حين كشف طريق الإصلاح لتلك الحياة التي لا تحمل في أحشائها إلا الموبوءات والمفاسد ، وتحلَّ محلَّها حياة الخير والمعاداة . ذلك الطريق هو الإسلام الذي كان يتضمن أرقى المصائر التي كانت تتناسب مع مزاج ذلك العصر .

لقد كان النبي يتصور ويفرض أن أفكاره الظاهرة هي كلام إلهي ، ووحى سماوي يلقيها الله تعالى في روعه ، ويتكلم بها معه ، كما كان يفرض روجه الخبرة التي تترشَّح منها هذه الأفكار لتستقرَّ في قلبه هي ' الروح الأمين ' و ' جبرائيل ' والملك الذي ينزل الوحي بواسطته .

لقد سمَّى النبي القوى التي تسوق إلى الخير وتدلَّ على السعادة ' الملائكة ' و ' الجن ' وقد سمَّى واجبه الذي أملاه عليه وجدانه ' النبوة ' و ' الرسالة ' .

قال أحد ملاحدة مصر : إن مولود الحكيم وضع قانوناً وشريعة لقومه فليس بدعاً في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً^٢ .

إن هذا الوحي النفسي عند محمد استمد معارفه من المعلومات التي تناولها محمد من اليهود والنصارى والبيئة الحجازية العامة ، ومما كان لعقله المميز من التفاتات .

إن الذي عرضناه من شبهات حول الوحي المحمدي هو لباحثين معتقلين من غربيين وغير غربيين يرون في الإسلام حركة بشرية في الإصلاح ، أما الملاحدة الذين لا يعتقدون بالله تعالى فإنما ينسبون مسألة الوحي جملة وتفصيلاً ، ويعتبرون النبوة والوحي والتكليف الإلهية ، والنوابع والعقوب والجنة والنار ما هي إلا أكاذيب وأباطيل ، وما هي إلا سياسات دنيوية ظهرت بنوافع المنافع والمصالح الخاصة ، بل للدين عند هؤلاء الماديين خرافة ومخدر للشعوب ، إن الناس في العصور القديمة كانوا على جهالة وضلالة ، وكانوا على سذاجة وخرافات فاستغلَّ الأنبياء هذه الظواهر وطلعوها على الناس بهذه النظم المعوقة وهذه العقائد الخرافية التي تتمثل في مسألة الألوهة ومسائل المبدأ والمعاد والجاهلية والخرافية .

^١ - علوم القرآن ، محمد عبد الوهاب ، دار الحكيم ص ١٦٤ .

ظاهرة الوحي

(٨)

ملحق ونموذج من الشبهات

قال تعالى :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أُنْثَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ

مِثْقَالٍ مِنَ الرُّومِ : الْآيَاتُ - ٢- ٤ .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْفَقُوا بِهِمْ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ الجمعة :

الآية - ٢- ٤ .

صورتان تعرضان ظاهرة الوحي المحمدي فكرة بشرية القرآن .

محتوى الصورة الأولى أن القرآن انطباع في نفس محمد ﷺ نشأ عن تأثيره ببيئته

التي عاين فيها بمكانها وزمانها ، ومظاهر حياتها المادية والروحية .

أما مضمون الصورة الثانية فهو أن القرآن تعبير عن الحياة التي عاش فيها محمد

ﷺ بما فيها المكان والزمان ، ومختلف جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية

والاجتماعية .

ألا يبدو أن الواحدة من الصورتين ملازمة للأخرى ؟

ليس القرآن إذا كان انطباعاً للبيئة في النفس المحمدية فهو يعبر عن هذه البيئة ؟ وإذا كان

تعبيراً عن البيئة فقد انطبع أولاً في نفس قائله قبل أن يعبر به ؟

كلتا هما تصحاحان عن أن القرآن عمل خاص بمحمد ﷺ تأثر فيه كما يتأثر الإنسان

بأي شيء يؤثره ، وعبر به عن المعاني التي كانت في نفسه من بيئته كما يعبر الإنسان عن

أية معايير تنور بخاطره ، أو تجول في نفسه وتأثر بها وانطبعت في خاطره من الظروف التي تحيط به ؟

ويبقى تعضيل إحدى هاتين الصورتين على الأخرى رهينة البينة التي يعلن فيها هذا الرأي .

فالبيئة إن كانت أجنبية أمكن مواجهتها بالصورة الأولى وهي أن القرآن أو الوحي المحمدي هو انطباع نفسي .

أنما إذا كانت البيئة إسلامية فالمناخية تقتضي التلميح لا التصريح ، والمندازة لا المواجهة، وهذا هو اللائق بالصورة الثانية وهي أن القرآن يعبر عن الحياة الجاهلية التي هي قبل الإسلام أصنق تعبير وأبلغه .

في الصورة الأولى لا يذهب بنا الموقف متشجاً متوتراً لنفحدث عن المتشجنين العصبانيين وما أكثرهم بين باحثي الغرب ، ومستشرفي الغرب ممن تعاطوا مع القرآن وكتبوا فيه بالباطل والحقد والأهواء !

نحن ننطلق في موقعنا على اتزان وترصن ، وموضوعية لنختار أصحاب الاتزان في الرأي من المستشرقين الذين قالوا ببشرية الوحي المحمدي .

إن المستشرق دمرنغام والمستشرق جب يعتبرون نماذج بين أصحاب الرأي الحر في الغرب ، وأمثلة بين المستشرقين في الاتزان .

لنن وقع اختيارنا على المستشرق " جب " الإنجليزي ، أستاذ الدراسات العربية الإسلامية بجامعة " هارفارد " بأمريكا الشمالية ، فما ذلك إلا لأننا نريد أن نقف على الحد الأدنى من التعصب في الموقف الفكري الغربي .

هذا المستشرق الذي يمثل الاعتدال في كتابه " المذهب المحمدي قد أثر القول بانطباع النفسية المحمدية بالبيئة بأسلوب ليس جافاً ، وعبارة ليست نابية ، وطريقة لا تعتمد الصراحة المكشوفة . يمكننا أن نتوقف في كتابه " المذهب المحمدي " عند ملاحظتين اثنتين .

الأولى : مكة عند " جب " كانت ذات حياة متحركة وناشطة في التجارة والمياسة والدين .

- في مكة زراعة وزعماء . في مكة ظلم اجتماعي فاحش .

- هذه الجوانب انطبعت في نفس محمد .

- محمد كان واعيا لها ، وتظهر آثارها بينة في فصول حياته ، وفي تضاعيف قرآنه ، وفي ساحات كفاحه ونضاله إلى ان وافته المنون .

- إن جو مكة بما فيه من زعامة اقتصادية وسياسية ودينية ، وبما فيه من معاريف وسلبيات إجتماعية كالرق والتفجوات المذهلة ، والنوازل البعيدة بين الطبقات كسل ذلك هن الكيان المحمدي وثاره ، كل ذلك فعل فعله في الشخصية المحمدية فيقلب من صاحب ثورة متجنزة في كل جانب ، فاعلة في كل اتجاه .

- إن مكة ترتبط بحياة محمد أيما ارتباط ، ولو لم يكن محمد مكياً لما أصاب ثورته هذا الفجاء العظيم . قال " جب " :

‘ مكة في ذلك الوقت لم تكن خلاء بعيداً عن صخب العلم وحركته في التعامل ، بل كانت ذات ثروة اقتصادية ، وسكانها اكتسبوا معارف واسعة بالإنسان والمدن عن طريق تبادلهم الاقتصادي والسياسي مع العرب للرحل ، ومع الرسميين من رجال الامبراطورية الرومانية ، ثم إن السيادة الروحية التي اكتسبها المكيون من قديم الزمان على العرب للرحل زادت قوة ونماء ، محمد نجح لأنه كان واحداً من المكين ... لكن هنا ناحية مظلمة تمشّت في الأرقاء والخم والحوالز الاجتماعية ، وواضح من دعوة محمد الصارخة إلى مكافحة الظلم الاجتماعي أن هذه الناحية كانت سبباً من الأسباب العميقة لثورته الداخلية النفسية ’ .

الثانية : إن الثورة المحمدية النفسية لم تظهر على صورة إصلاح إجتماعي ، ولم ينهض بها محمد على أنه مصلح للحياة المكية الاجتماعية ، وإنما ظهرت في صورة دينية ، وبرزت على أنه نبي وذلك لأنه أراد أن يستغل المقننات الدينية بمكة في الزعامة والفساط الاقتصادي ، ومعارضة المكين لدعوته .

-- لقد كانت المعارضة الحادة خوفاً على الزعامة السياسية من أن تبديد ، وخشية على الازدهار الاقتصادي من أن يمتد طائف من ضعف لو تقبل المكين دعوة محمد بقبول حسن .

- لم تكن المعارضة عتيدية إيمانية . وإلا فالقرآن نفسه يدل على أن فكرة الألوهية والوحدانية التي هي الفكرة الأساسية في الإسلام لم تكن مجهولة أو مغفورة في

غرب الجزيرة ، فالنصرانية متواجده ، واليهودية لها مراكزها ومواقعها ورجالها . يقول جب في كتابه :

" ... ومحمد في البداية لم يكن هو نفسه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد ، بل معارضة للمكيين له وخصوصتهم إياه من مرحلة إلى أخرى هي التي قادته أخيراً ، وهو بالمدينة إلى إعلان الاسلام كجماعة دينية جديدة بآيائها الخاص ، وبمنشأتها الخاصة ، ويبدو أن معارضة السكيين له لم تكن بسبب محافظتهم وتمسكهم بالتقديم أو بسبب عدم رغبتهم بالإيمان بل ترجع بمعظم دوافعها إلى عوامل اقتصادية وسياسية ، ومعروف من القرآن نفسه أن فكرة الوحدانية كانت معروفة في غرب الجزيرة العربية ، ووجود الإله الأكبر ، وهو الله ، كان مبدأ مقبولاً لدى محمد ولدى خصومه على السواء كأصل عام، والقرآن لم يناقش النقطة أبداً ، إن الثورة النفسية لم تظهر في صورة إصلاح اجتماعي بل بدلاً من ذلك دفعته إلى اتجاه ديني أعلنه في اعتقاده ثابت بأنه مبعوث من الله لينذر أتباعه بإنذار الأنبياء الساميين " توبوا فجزاء الله حق " ، وكل ما جد بعد ذلك كان نتيجة منتظرة للتصادم بين هذا الاعتقاد بأنه رسول وبين الكفر به ومعارضته من فريق بعد فريق ، فمن بدء حياته كداعية كانت نظرته إلى الأشخاص والأحداث وحكمه عليهما نظرة تأثر فيها بما عنده من صورة عن الحكومة الدينية وأغراضها في عالم الإنسان .

وخلاصة ما ذهب إليه جب :

هو أن مكة كان فيها حضارة وزعامة ، ولم تكن أرضاً جرداء وخلواً من عطاء ، ولم يكن سكانها جفاة غلاظاً وإنما كانت لديهم فطنة وملكة في السياسة ، وكانوا يمتلكون معارف واسعة بالناس والمدن والعقائد ، إن حياة محمد ﷺ كانت مكيّة خالصة بما فيها نشأته ودعوته وصراعه ، إنها حياة محدودة بالحدود المكيّة على اختلاف الأصعدة .

بهذا الاعتبار فدعوة محمد ليست عامّة للناس أجمعين إنما هي لأناس محددين معينين ، وإن اختير محمد لدعوته بأن تكون دينية واختياره لهذه الدعوة بأن تكون على صورة حكومة إلهية هو من تحديد عوامل الحياة المكيّة وما دار فيها من اتجاهات سياسية واقتصادية ودينية ، إن القرآن ليس جديداً كله على العرب المكيين ، وأن ما فيه من مسيحية لا يتعدى المسيحية

الشرقية السريانية التي هي مسيحية الزهادة التي تأثرت بالاتجاه الشرقي الزهدي ، وإن ما فيه من يهودية لا يتعدى اليهودية المعروفة في المدينة .

ليست معارضة المكيين له بسبب تمسكهم بالقديم أو بسبب الايمان كما يذكر القرآن في قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتِنُونَ ﴾ الزخرف: الآية- ٢٢ ، بل تلك المعارضة -كانت- بأسباب المنافسة الحادة على الزعامة السياسية ، والخوف على حياتهم الاقتصادية من أن تنهار وتبور .

فالقرآن إذن ليس عمل إنسان - أي إنسان - إنما هو عمل إنسان معين عاش في حياة خاصة ، وتبلورت حياته الخاصة فيما طلعت عليه به دعوته .

أما الصورة الثانية القائلة بأن القرآن ما هو إلا تعبير عن للحياة الجاهلية بكل صورها فإنها بجانب الصورة السابقة إلا في التعبير مراعاة للبيئة المسلمة التي تخاطبها . هذه الصورة تختصر ما يهدف إليه كتاب الشعر الجاهلي " لطفه حسين .
لقد أهدى طه حسين كتابه إلى رئيس الوزراء المصري عبد الخالق ثروت .

ألا يمكننا أن نتوقف مسألتين عن الدوافع التي حملت طه حسين على إهداء كتابه إلى المسؤول التنفيذي الأول ؟

العلم لا يهدى إلا لأهل العلم ! المصنفات لا تهدي إلا لأهلها الذين يقدرونها حق قدرها ، ويضعونها في ميزانها !

ليس لنا إلا أن نستخلص بأن الكذب يحتمل من الأفكار التي ليست هي من البيئة الإسلامية ، وتحتاج إلى الحماية السياسية دفعاً لاعتراضات ولوداً من مخاطر !
إن النفس التي تتشد الحق وتحبه إنما تبذل العلم لراعي المعرفة وطلاب العلم لا إلى رجال السياسة إيمان توليهم للسلطة .

إن هذا الكتاب تختصره فكرة واحدة هي أن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الإسلام إنه لا يمثل الحياة التي عاش فيها الرسول ﷺ لأنه شعر مصطنع ومنحرف ،

ولا يعبر عن حقائقها ، وليس هو مرأتها ، ولا صورتها ، أليس الأنثى ابن بيئته ، وصورة محيطه ؟

إن هذا الشعر يعبر عن حياة جاهلية فيها غلظة وخشونة ، وفيها بعد عن التمرس السياسي ، ولا أثر فيه للنهضة الاقتصادية والحياة الدينية الواضحة ، رغم أن حياة العرب في الجاهلية كانت حياة حضارية . يقول في كتابه عن العرب بأنهم :

” لم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهلاً ولا غلاظاً ، ولم يكونوا في عزلة سياسية واقتصادية بالقياس إلى الأمم الأخرى ، كذلك يمثلهم القرآن ، لذلك فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية ؟

وبما أن الشعر الجاهلي لا يصح أن يكون مرآة صادقة للحياة الجاهلية فالقرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، وهو أصفى تعبير عن تلك البيئة بكل جنباتها .

إذا كانت لنا عودة متفحصة إلى القرآن - كما يزعم المؤلف - نجد قد صور العرب وحياتهم على أنها أمة سياسية تنشد أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت هي أمة وسطاً بين المتوسط والهندي . وبذلك كانت مركزاً هاماً للتجارة العابرة المتحركة ، وكان لها دين ظاهر ، ومعتقد واضح . يقول :

” لم يكن العرب إنهم كما يظن أصحاب الشعر الجاهلي معتزلين ، فأنست ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أُنْزَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُتَعَلِّبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) يَنْصُرُ اللَّهُ ... ﴾ الروم : الآيات ١-٥ .

هذا الذي ورد في القرآن في سورة الروم يجد فيه المؤلف عناية سياسية أكثر منه تنبؤاً عن طريق الوحي بمصير الإمبراطورية الرومانية في الشرق ... والقرآن يصف اتصالاتهم الاقتصادية بقوله : ” لإيلاف قريش ” وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة أو الفرس ، ومسيرة النبي تحدثنا أن العرب وصلوا إلى الحبشة والحيرة وبلاد فارس وفلسطين ومصر . إذن لم يكونوا معتزلين : أرأيت أنه يمكننا أن نستخلص من هذا القول أن القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم .

لا يمكننا أن نستخلص من هذا القول إلا أن القرآن هو انطباع للحياة القائمة أيام صاحبه ومنشئه وهو محمد ، وأنه يمثل لذلك بيئة خاصة في عقيدتها ولغتها وعاداتها وتوجهاتها في الحياة وهي البيئة العربية وضمن حدود الجزيرة العربية . يقول موضحاً :

' ليس من اليسير بل ليس من الممكن أن نصق : أن القرآن كان جديداً كله على العرب ، فهو كان كذلك لما فهموه ، ولما وعده ، ولا آمن به بعضهم ، ولا ناهضه رجال فيه بعضهم على الأخرى ، وفي القرآن ردّ على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، وفيه ردّ على اليهود ، وفيه ردّ على النصارى ، وفيه ردّ على الصابئة والمجوس ، وهو لا يردّ على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ومجوس الفرس وصابئة الجزيرة وحدهم ، وإنما يردّ على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها ، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأبدوه ، وضخوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة .

أفترى أحداً يحفل بي لو أني أخذت أهاجم البيوتية أو غيرها من هذه الديانات التي لا دينها أحد في مصر ، ولكني أغضب النصارى حين أهاجم النصرانية ، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهود ، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسلام " .

فالقرآن إذن هو دين محلي لا عالمي ، وقيمه في هذه المحلية وحدها . قتل به صاحبه تحت التأثير بحياتها التي عاشها ، ولذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة بحدودها لا عن الإنسانية الشاملة كلها ليرسم طريقها . إنه دين بشري وليس وحياً إلهياً ، لقد أتى به صاحبه إلى قوم معينين ، لذلك نقول البعض منهم هذه الدعوة ورفضها البعض الآخر ، ولو أن محمداً ظهر في غير قومه لما حفل به أحد ، فالقرآن هو من صناعة محمد ونتاجه ، وخصوصية هذا القرآن أنه يمثل حياة العرب المحدودة من سياسة واقتصاد ودين .

إن دراسة الحياة الجاهلية في نظرية كتاب * الشعر الجاهلي * لا تتكامل إلا بالقرآن . لقد استبعد هذا الكتاب الشعر واختار القرآن لأنه يعيش مشكلة العرب ، ويمثل حياة العرب أصفى وأكمل ما يكون عليه التمثيل .

إن القرآن في مذهب طه حسين يتحدث عن نصرانية العرب المبرزين لا القسطنطينية ولا روما . ولئن حديثه عن مودة النصارى إزاء عدائية اليهود : ﴿ لَتَجَنَّبُنَّ الشُّرَكَاءَ غَدَاةً

لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْيَهُودِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ فَسِيسِينَ وَزُهَّابَانَا وَهُمْ لَا يَمْتَكِرُونَ ﴿٨٢﴾ المائدة : الآية-٨٢ ، وذلك لأن العلاقة كانت
واهمية ، والاحتكاك كان ضعيفاً خلافاً لليهود الذين وقفوا مع محمد موقف العناد والغدر لتنتهي
العلاقة حربية متشنجة ، وذلك لأن البيئة ليست نصرانية بل وثنية في مكة وبهودية في المدينة ،
ولو ظهر النبي في الحيرة أو نجران للقي نفس المعارضة اليهودية .

إن القرآن لا يعبر عن الحقائق التي وقعت في الجاهلية فقط بل عن الأماني والآمال
في الوحدة بين القبائل العربية في اللهجات والعقيدة والسلطان . يقول طه حسين :
' فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فليست أسلك إليها طريق امرئ القيس والثأبنة
والأعشى وزهير ، لأنني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقاً آخر ، وأدرسها في
نص لا سبيل إلى الشك في صحته ، أدرسها في القرآن ' .

لو أردت كلمتنا أن نقارن أو نوازن بين الكتابين لانتهد بها الدراسة إلى الوقائع
الآتية :

- الحياة الجاهلية في الكتابين هي حياة حضارية ديناً وسياسة واقتصاداً .
- محمد عند جب ، استغل المقدسات الدينية فباعت ثورته ذات طابع ديني لا
اجتماعي ، ومحمد عند طه حسين اضطر إلى قبول قصة إسماعيل وتعلمه العربية
اضطراباً رغم أنها قصة خرافية وخيالية وذلك لما لها من أهمية في الصراع
الذي دار بينه وبين قريش صاحبة السيادة ، والحريصة على الاحتفاظ بهذه السيادة
حيث كان لهذه القبيلة نهضة مميزة تحاول ما وسعها المحاولة أن تخلق عن
طريقها وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحشة ودياناتهم
في البلاد العربية فقبلت هذه القصة للسبب الديني والسياسي ، واضطر محمد إلى
قبولها حتى لا يفقد سلاح المقدسات الدينية .

- إن القرآن ليس جديداً كله على العرب ، لكن الدليل الذي تسلح به جب " هو عدم
معارضة المكيين للعقيدة القرآنية حتى وللعقيدة التوحيدية ، إن المعارضة الشرومة
كانت للتنافس السياسي ، والخوف الأسود على الاقتصاد من التآكل والانحيار . أما
طه حسين فالدليل الذي تنزع به قبول البعض ومعارضة البعض ، ولو لم يكن

الذي جاء به محمد مألوفاً لما كان الموقف القابل لدى البعض والموقف السرافض لدى البعض الآخر .

- الدعوة الإسلامية محلية ومحدودة في دائرة الزمان والمكان لسبب كهذا فالإسلام هو حصيلته هذا الانطباع الواضح لهذه الجماعة في حياتها الخاصة ، ويمكن معرفة هذا - في رأي جب - من حياة محمد في مختلف أدواره . أما كتاب " الشعر الجاهلي " فلا يرى في القرآن إلا تعبيراً صادقاً عن هذه الجماعة .
منطق هذا القول يقضي بأن القرآن ليس وحياً لرسالة الله في الناس ، ولو كان لكان للناس أجمعين في كل زمانهم وكل مكانهم ، لو كان الإسلام جديداً بتعاليمه لدعم خطة جديدة لهداية الناس ، إن العرب لم يكونوا على جهل وضلال ليحتاجوا إلى رسالة جديدة تأخذ بأيديهم وتتقدم مما علق بهم من أدران المغايد والعقائد .
- أما الفرق بين الكتابين فيتجسد في أن جب يصف القرآن بأن فيه أخذاً واستفادة من الوثنية والمسيحية واليهودية العربية بينما نجد طه حسين يذكر بأن في القرآن ردّاً على الوثنية والمسيحية واليهودية العربية .

البيئة واحدة في مفهوم الكتابين ، وهل بعد ذلك من فرق أصيل بينهما ؟
إن التعبير بأن القرآن " أخذ " يقصد منه بأن القرآن ليس جديداً . وهل كلمة " ردّ " تقصد غير هذا المقصد ، وتنتهي إلى غير هذه الدلالة في مطاوعها الأخير ؟

إن اختلاف بيئة الكتابين والكتابين هي التي أملت هذا الاختلاف ، وأوحى بهذه الفروقات في وسائل التعبير .

ويطوف بنا طائف للكلمة الأخيرة في هذا الشأن ليحكم بأن كتاب " الشعر الجاهلي هو حكاية لمذاهب المستشرقين في القرآن ، وتحاملهم المشبوه عليه منذ كان الاستعراق ، وذلك للنيل من كرامة الشخصية القرآنية ، وللإضعاف من قيمة الإسلام كدين ، ورسالة من رسالات السماء^١ .

^١ - راجع في هذا البحث محاضرات في الفكر الإنساني ، محمد شبلي عام ١٩٥٦ وكتاب "خطايرة

ظاهرة الوحي

(٩)

شبهات وردود

قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ... ﴾ الجمعة : الآية ٢ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الكهف : الآية - ١١٠ .
﴿ عفا الله عنك لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ التوبة : الآية - ٤٣ .

﴿ لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لِنَتَجِدَ بِهِ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَةٌ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قُرْءَاهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيِّنَةٌ ﴾ القيامة : الآية - ١٦-١٩ .
﴿ قَدْ نَرَى تَغْلِبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّقَنَّ بَقِيَّةَ نُرْسُومِهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ البقرة : الآية - ١٤٤ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَفْهَمُ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ... ﴾ الشورى : الآية - ٥٢ .
﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ العنكبوت : الآية - ٤٨ .

حين نخوض بنا المناقشة الموضوعية والواقعية حول ما ورد على ألسنة المستشرقين في الوحي المحمدي أمثال "مرجليوت" و "درمنغام" و "جب" ومتغربي العرب والمسلمين تتبدى العصبانية أولاً وعدم التحقيق ثانياً ، وثافت النتائج والأحكام ثالثاً .

إن معظم المقدمات التي قامت على أساسها " نظرية الوحي التنفسي المحمدي " لا تنهض على أساس تاريخي صحيح ، ولا على منهجية موضوعية سليمة ، ولا على تحقيق

موتق يصل بنا إلى نتائج تثبت لدى الاختيار والامتحان . إن أصحاب هذه النظرية كان منطقيهم الموقف السلفي المسبق الذي يحكم قبل التحقيق على أن الوحي القرآني ليس وحياً مستقلاً ومنفصلاً عن الذات المحمديّة . هذا الموقف الذي اعتمد النتيجة قبل المقدّمة اضطر إلى اختلاق الحوادث ، واختراع الأخبار ، وتخيّل ما ليس واقعاً من أجل تبرير النتائج غير الموثوقة وذلك لوصل الحلقات بعضها ببعض ، وإتعاء منهجية المباحث ، وموضوعية النظر .

إن الأمر الذي ينكره البحث العلمي الدقيق هو أن يناقش نوع الوحي ويرسل الشك فيه باسم العلم ثم يصنّ نوع آخر على أنه يدهي التسليم ، ويبعد عن مجال العقل النظري أو العلمي التجريبي . للرد على الأباطيل التي أثارها المستشرقون وغيرهم حول الوحي المحمدي لا بد من معالجة الأمور التالية :

❖ أولاً : القرآن ليس نتاج الثقافة المحمدية الدينية ، نصرانية كانت تلك الثقافة أم يهودية .

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ... ﴿ الروم : الآيات ٢-٤ .

يزعم الزاعمون أن هذه الآية هي من جملة ما سمعه محمد من نصارى الشام ، ويضيف آخر فيقول بأن هذه الآية فيها عنابة سياسية أكثر من غيبية^١ . قول زائع أو تسرع ، أوله خلفائه .

إن ظهور الفرس على الروم كان عام ٦١٠ م ، وذلك عقب رحلة محمد ﷺ الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة ، وقبل هبوط الوحي الأول في غار حراء ، بمئة واحدة .

ليس التاريخ يحيطنا علماً بأن دولة الروم كانت على اختلال واعتلال في ذلك العهد ، وأن وضعها الرديء لم يكن يبعث على الأمل بالقدرة على إعادة الكرة الحريية من جديد وإن بعد سنوات ؟

لَمْ يَهْزَأِ الْمَكِينُونَ بِهَذَا الْخَبَرِ وَوَجَدُوا فِيهِ التَّخَرُّافَةَ ؟

^١ - طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي .

إن العقل وإن كان على فطنة وصفاء لا يمكنه أن يكون جازماً في هذه الظاهرة كما جزم القرآن ، إنما يعتمد الظن والاحتمال ، لقد تحققت نبوءة الآية وصدقته الأيام .

أما اتصاله بالراهب " بھیرا " مسرعاً - هو ابن تسع سنوات أو اثني عشرة - مرة واحدة لقد التقى بورقة عقب إخباره خديجة بما رآه في الغار ، ولم يلبث ورقة أن وافته المنون .

لكن هل التقى بهما في خفاء ، أم التقى بأحدهما علانية مع عمه ، ومع الآخر بصحبة زوجته ؟

- ليس من الصحة في شيء ما زعمه " جب " وغيره من المستشرقين ، بأن النصراني واليهود كانوا على كثرة في مكة ، بعض المستشرقين المنصفين والمعتدلين رأوا هذا التهويل والتعمل ، لم يثبت أن الرسول ﷺ كان يتصل بهم على هذا الطريق .

﴿ وَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّمِثْلِ الَّذِي يُنَجِّيُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِمِثْلٍ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ النحل : الآية-١٠٣ ، ولئن افترض المكيون التعلم والتلقي من أشخاص معنيين كالغلام الرومي الحداد في مكة ، فإن ذلك لم يحملهم على فرض أن يكون محمد ﷺ قد تعلم من نصارى الشام أو غيرهم .

" إن افترض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من النبي ﷺ ، لأن مثل هذه العلاقة لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين الذين عاصروه وعرفوا أخباره ، وخبروا حياته العامة بما فيها من أسفار ورحلات " ^١ .

- والقرآن جمع بين ظاهرتين اثنتين بالنسبة للنصرانية واليهودية ، ظاهرة الإقرار والاعتراف والتصديق بهما كأصل ، وظاهرة الإنكار والرفض والمخالفة لما في التوراة والإنجيل من البدع والإضافات التي تتناقض مع الأصل .

^١ - محاضرات في علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم ص ٢٦٦ .

لقد صدّق القرآن الوحي الأصل لهاتين الديانتين ، وجعل من نفسه الرقيب والحاكم والمهيمن على ما فيهما من أصالة وانحراف . وتصدت هذه الرقابة دقيقة وشاملة لتضع المقياس الصحيح ، وترى رأيها في كل شؤون هاتين الديانتين لتسجل الموقف القابل في شؤون ، والموقف الراض في شؤون أخرى . وخالف القرآن التوراة والإنجيل في بعض من الأحداث التاريخية . وهذه المخالفة جمعت بين الإصرار والثقة والدقة .

ألم يكن بالإمكان أن يتجاهل القرآن هذا الزيف نقادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل ، وأهل التوراة والإنجيل ، لو كان القرآن محمدى الصناعة ؟
ألا يشير القرآن إلى أن المرأة التي كفلت موسى هي زوجة فرعون رغم أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته ؟

إن القرآن يؤكد على عرق فرعون أما التوراة فيشير إلى هذا العرق بصياغة مبهمة .
﴿فَأَيُّوْمَ نُنَجِّيكَ مِنْكَ لِنَتَّكُنَ مِنْ خَلْقِ آيَةٍ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَفَافِلُونَ﴾
يونس : الآية ٩٢ .

ليس العجل هو من صناعة السامري في القرآن بينما هو في التوراة من صناعة هارون ؟
كيف تأتي لمحمد ﷺ أن يملأ هذه التفاصيل في الرفض ليصطلم بالتوراة والإنجيل ؟

المسألة في مبيئتها وخبرها وحي يعلم بكل شيء ، ولا يستطيع محمد ﷺ له دفعاً لأنه هو عنده ثقة ويقين .

- فالقرآن أشد اتساعاً ، وأكثر شمولاً ، وأروع تعبيراً ، وأوثق دقة من كل ما كان يلم به " بحيرا " وكل ما كان يعلمه نصارى الشام ويهود الأرض .
- ونزل القرآن مصتقاً لما بين يديه من الكتب السماوية في شأن نزولها وأصولها ، كما نزل موضحاً لما فيها من آثار الأيدي العابثة تحريفاً وتزييفاً ليكون الرقيب المنقذ ، والمهيمن المسؤول عن سلامتها .

ما أروع الحكم وصياغته حين قضى بأن أتباع هذه الكتب قد اتوا نصيباً منها ، ونسوا نصيباً آخر .

قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّاسِبُونَ
وَالْأَخْيَارُ بِمَا اسْتُخْفِضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا
تَسْفُحُوا بِإِيمَانِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا
أَنَّ النَّفْسَ بِالْفَصْرِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَلْفَ بِالْأَلْفِ وَالْأَلْنَ بِالْأَلْنِ وَالسَّنَّ بِالسَّنِّ وَالْخُرُوجَ قِصَاصًا
فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى
أَنفَارِهِمُ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهَذِي وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ(٤٦) وَلَيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ
مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
أَنْتُمْكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ المائدة :
الآية - ٤٤ - ٤٨ .

إن هذه الأحكام الشاملة الحاسمة ، وهذه التشريعات التي تنسج لكل شؤون الحياة ،
وهذه النظرات البالغة من الدقة ما بلغت ، والغائرة في العمق إلى الأصول والجنور ،
والمشجعة الموثقة في تفصيلاتها ، إن هذه الأحكام لا تستمد من الرهبان أو غيرهم في رحلة
محمد التجارية السريعة إلى الشام وهو على سنة المبكر سواء كان لدى بعضهم بقية من
التوحيد الموسوي والعيسوي أم لا ! وسواء كان لدى بعضهم بقية من الأنجيل التي حكمت
الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها كتجليل طفولة المسيح وإنجيل برنابا أم لم يكن ! فمحمد لم يعقد
في الشام ولا في مكة مجمعا مسيحيا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأنجيل والمذاهب
المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض *^١ .

فالقرآن يغني عن الكتب المقدسة وهي لا تغني عنه في حال سلامتها فكيف وهي غير
سليمة من الأيدي التي تحرف الكلم عن موضعه .

^١ - راجع الفريدي اعتمد ص ٩٥ .

‘ وإذا كان القرآن كذلك فهو أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني رغم أن الرسول ﷺ أتمى نشأ في قوم أميين ، وسولون فيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة ‘ .

- هناك إشارة من ذوي التشكيك إلى القوافل التجارية في رحلتي الصيف والشتاء التي كانت تحمل معها .. في زعمهم - من أخبار الأمم الماضية وقصص الملل للخالية .
- نحن لم نعهد تجار العرب يُعنون بلقاء الأخبار ومجالسة رجال اللاهوت ‘ .

ونخلص إلى القول :

- بلنّ محمداً لو تلقى شيئاً من المعارف عن بحيرا أو غيره لنقل ذلك أتباعه وأصحابه .
- لو ثبت ما يدّعون وما يافكون لاتخذوا المشركون شبهة يحتجون بها على أن ما يدّعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من نصارى ويهود .
- القرآن أغنى مادة ، وأشمل موضوعاً ، وأوسع ثقافة مما كانت عليه ثقافة رجال الدين في عصر محمد ﷺ وبعد عصر محمد ﷺ .
- ونزل القرآن التبليغ منجماً حسب الحاجة والواقعة لا جملة واحدة ، ولا دفعة واحدة .
- موطن الراهب ‘ بحيرا ‘ كان الشام ، وموطن محمد ﷺ كان الحجاز . فكيف تمت عملية التعلم والتعليم ؟ ألم يكن العرب على علم بها لو كانت حادثة ؟
- البلاغة والفصاحة لم تكونا بضاعة ‘ بحيرا ‘ ، ولا ميزة محمد ﷺ ، فمن أين مصدر البلاغة القرآنية المعجزة ؟

- التعليم القرآني ذات المنزلة السامية لو كانت للراهب ‘ بحيرا ‘ أطلع بها هو على عصره . لماذا تواريه عن أعين عصره في أيام يعلن فيها محمد ﷺ مبيحات التصدي والتحدي ، ويعلن أعظم ملحمة في التاريخ الديني ؟ ولماذا يعزف عن هذه الشهرة ، ويزهد بهذه الدعوة ليستغلها محمد ﷺ وهو شاخص بتمس نجاحها العظيم ، وانتشارها السريع ؟

‘ - راجع الوحي - محمدني ، ص ٨٦ .

‘ - المصدر نفسه ، ٨٦ .

❖ ثانياً : " محمد شاعر يتربصون به ريب المنون ، أهو شاعر مجنون ، أو ساحر
مفتون ، أو كاهن ضالّ أو مضللّ ومافون .

كان لجماعة محمد هذه التهم يقذفونها حين راع العرب من القرآن سحر بيانه ،
وخلبهم بدغ خياله ، وبهرهم رائع مقاله ، وأثارتهم عنوبة لحنه ، وطارأت بهم أجنحة
إيحانه .

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ليجادل الاعداء في دعوته إنما
كان يحيلهم إلى قراءة القرآن لأنه كان يعرف سره ويعرف أنه يغزو القلوب والعقول
بيانه ، لقد اكتفى بالقرآن ليلاً لإثارة السبيل أمام الذين يريثون أن يؤمنوا دون هوى أو
عنان إن العربي اتعارف بالشعر وسحره ، والذي كان الخصم للعنيد للنبوة ، والعنوة
الأدك للرسول صلى الله عليه وآله وسلم تورّع عن وصمه بالجنون أو الكذب أو
الافتراء أو الكهانة ، النضر بن الحارث ، الطبيب للجاهلي الذي تصدى للدعوة يعوقها
وقف بمكة يوماً يخطب في جماعة قرشية وثنية ويقول :

" يا معشر قريش ، إله والله قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد ، قد كسان
فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم خلقاً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيستم
في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ،
لقد رأينا السحرة ونفّتهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو كاهن ، قد رأينا
الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . قلتم : شاعر : لا والله ، ما هو شاعر ، قد رأينا
الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه ، قلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو
بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر
قريش : فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم " .^١

أبو لهب العمّ للحقود ، الحسود ، الأرعن ، المعارض ، قال له يوماً :

" يا محمد ، إنني لا أقول : إنك كاذب ، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل " .

لقد تأمرت قريش حين حضر محمد للموسم ، لكي يقولوا في هذا الذي يتكلى عنسيهم
وعلى الناس قولاً واحداً لا يختلفون فيه ، وأداروا الرأي بينهم في تاليه على أهل المواسم ،

^١ - سورة من هشام ج ٢ ص ٩٨ .

^٢ - مدافع الترمذي .

ونشاوروا أن يقولوا : كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر ، أو ساحر ، فلمَّا آلت المشورة إلى ذي رأيهم وسنَّهم وهو الوليد بن المغيرة ، ردَّ كلُّ تلك بالحجة عليهم ، ثم قال : والله إن لقوليه لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجذاة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

إن هذا التحير المظلم الذي غشَّاهم وأخذ منهم بالخناق والكظم ، والذي نعته الوليد ، فاستجداد النعت كان تحيراً لما يسمعون من رائع نظمه ، وفردة بيانه .

❖ ثالثاً : محمد كان أمياً في أمة أمية .

هذه الأمية المشتركة بين محمد وجماعته لا سبيل إلى نكرانها ، أو الشك في وقوعها . لم يكن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذا إمام بالقراءة أو الكتابة وذلك تبعاً لبيئته الأمية والبدوية . يقول تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ المائدة : الآية-٤٥ .

لا ثقافة إلا ضئيلة ، ولا معرفة إلا ضيقة .

كان العرب يمتون بعلوم بدائية أولية هي نتاج التجربة اليومية لانتاج البحث والتحصين والاختبار الطويل .

فالطب كيّ وأعشاب وفطران وتجبير وفصد ووقاية .

والتاريخ علم بالأنساب ومعرفة بالأيام والحروب .

والجغرافية معرفة بمسالك الصحراء وأسماء الرياح .

والفلك دراية بأسماء نجوم ، ومواقع كواكب ، ومنازل القمر ، والسنة القمرية .

والأدب خطب وأمثال وشعر ترسله البديهة ، ويتعاطاه الارتجال .

الجزيرة منعقدة أو مقفلة ولا يعرف أهلها ما يجري خارج حدودها إلا ما

يتسرَّب إليها مع التجار العائدين الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف إلى سوريا

واليمن والحشة ، وما نكَّ بالمعرفة التي تغني ، وما نكَّ إلا للفرز ليسير الذي يدخله

تحريف وإضافات غير موثوقة .

لا إحاطة بتاريخ الشعوب الغابرة ، ولا معرفة بشرائعهم ودياناتهم . لم يشاهد في منزله ولا خارج منزله ، قبل النبوة أو بعدها أنه كان يستعمل قرطاساً أو قلماً في تصنيف أو تدوين .

إن أمة الرسول هي من آيات نبوته . كيف لأمة أن يأتي بالقرآن المعجز ؟ كيف له أن يتلو بحرفه ونصه نون خطأ في الزيادة والنقصان لو ألفاه محمد مرتجلاً ؟ بل وكيف لم يكن نفي أو اعتراض من الأعداء على الآيات التي تنير إلى أمية محمد ؟ محال أن لا يكون متعارفاً لدى الأعداء والأصدقاء ، لدى الأقربين من الأهل والعشير أن محمداً يجيد القراءة ويلم بالكتابة .

ولكن كيف لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يطلع علينا بهذا القرآن العظيم الفريد ؟

كيف يتحدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا القرآن البشرية في كل زمانها ومكانها ، ببلاغته التي هي نسيج وحده ؟
ما هي الأسباب التي جعلت هذا الكتاب يحمل نبوءات مستقبلية جازمة تحقق بعضها كما في آية " غلبت الروم " ؟
ليس في القرآن إشارات خالطة إلى ما كشفه العلم الحديث ؟

إن القرآن هو كتاب عقيدة صافية ، أخلاق فاضلة ، تشريعات محكمة ، وعادات سليمة ، ومعاملات إيجابية صالحة .

كيف لمحمد الأمي في البيئة الأمية أن تكون مآثبه هذا القرآن وهذا الإسلام لو لم يكن ذلك وحياً يوحى ، وتنزيلاً مسموعاً إلى البشر ؟

يقول تعالى :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَسَابَ لِمُتَظَلِّمُونَ﴾
العنكبوت : الآية - ٤٨ .

أيتان إن دلنا على شيء فلنما تدلان على أمية محمد وعلى أنه لم يكن ينتظر لا كتاباً ولا نبوة . ويقول : ﴿وَكُنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الشورى : الآية - ٥٢ .

ويقول : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الأعراف : الآية-١٥٧ .

هذه الآية الكريمة ذات شعب ثلاث :

- الله أرسل رسولا أمياً يتلو آيات الله .
- الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرسله الله بالتزكية والتعليم والحكمة إلى قوم أميين ، وقد كانوا من قبل في ضلال مبين .
- هذه الرسالة لا تقتصر على هؤلاء الضالين بل تتجاوزهم إلى آخرين بعدهم لما يلحقوا بهم .

إذاً لقد كانت الرسالة عند العرب حاجة ملحة لأنهم كانوا ضالين غاوين .
وكانوا على بدائية متخلفة ، ولم يكونوا ذوي حضارة في السياسة والعمارة والدين
والاقتصاد وسائر صنوف المعرفة كما تزعم دعوة كتاب " المذهب المحمدي " أو
كتاب " الشعر الجاهلي " . ولا نقوتنا ملاحظة هامة في هذا الشأن .

إن الشعر الجاهلي هو الذي يحكي قصة العرب بكل ألوانها وتوجهاتها رغم المشككين
بهذا الشعر أمثال المستشرق مرجليوت والأديب طه حسين ، مما أدخل الأخلاط والتشويش
على العقيدة الحديثة في العالم الإسلامي ، وخاصة على مقاعد جامعاتنا المتغربة .

حسبنا من الرد على هذا التشكيك قول للأستاذ محمد شاكر :
' فاصحاب الشعر الجاهلي ذهبوا ودرجوا ، وتبدت في الشرى أعينهم .
رأيتهم في هذا الشعر أحياء يغدون ويروحون .
رأيت شائهم ينزرو به جهله ، وشيخهم تلدف به حكمته .
ورأيت راضيههم يستتير وجهه حتى يشرق ، وغاضبيههم تريد سحنه حتى تظلم .
ورأيت الرجل وصديقه ، والرجل وصاحبه ، والرجل الطريد ليس معه أحد .
ورأيت الفارس على جواده ، والمعادي على رجليه .
ورأيت الجماعات ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال فتياتهم .
ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون ، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزعمون .

كل ذلك رأيته وسمعته من ألفاظ هذا الشعر ، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس ، وبحة المستكين ، وزفرة الواجد ، وصرخة الفزع ، وحتى مثلوا بشعرهم أمام عيني . وكأني لم أفقدهم ، ولم أفقد منازلهم ومعاندهم ، ولم تغيب عني مذاهبهم في الأرض ، وحتى كانتوني فلم يبطوا عني شيئاً مما عاينوا وأبصروا ، ولا مما أحسوا ووجدوا ، ولا مما فئسوا وعانوا ، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حياً في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم جزيرة العرب ^١ .

وبكلمة واعية مسؤولة نلاحظ أن الشعر الجاهلي هو أساس مشكلة " إعجاز القرآن " كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث .

ولكن الشعر الجاهلي قد صُنِبَ عليه بلاء خطير ، آخره وأبلغه فساداً وإفساداً ذلك المنهج الذي ابتدعه مرجليوت لينسف الثقة به ، ويبعث الشك فيه وفي روايته إنه لمكر له وراءه من الغش والخبث والافتراء ، إنه لمكر ارتكبه مرجليوت وشيعته وكهنته ، وإنه لمكر خفي تخالطه ضغينة مسكنة للعرب والإسلام ، ويطوي تحت أثلته ومناهجه إبراكاً لمنزلة الشعر الجاهلي البليغ الفصيح في شأن " إعجاز القرآن " .

❖ رابعاً : إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رفض ما كان عليه قومه من ضلالات وجهالات فكانت له عزلة وخلوته وتواريه عن الحياة العامة لكنه ما كان خاطره يختلج يوماً بأنه سيكون النبي المنتظر أو أن يفاجئه الوحي أو الناموس الذي كان ينزل على الأنبياء ومنهم موسى وعيسى (ع) .

لم يكن محمد يطلع إلى نبوة قبل النبوة لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن ظاهرة النبوة ولا عن أشخاص الأنبياء والأحاديث كلها بين أيدينا ، والسيرة كلها تتردد عليها دون أن نجد أثراً لهذا المدعي عن النبي ، إن السير ما تحولت إلى هذه المسألة بسنكر رغم تعقبات لخطوات حياة النبي خطوة خطوة ، وكان القرآن كان يستشرف المستقبل ، ويديري بهذه الترهة ، وهذه الأباطيل :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ القصص: الآية- ٨٦ .

^١ - من مقدمة الظاهرة القرآنية ص ٢٩ .

ألم تذهله مفاجأة الحضور الجديد ؟

ألم يرتعد خوفاً ، ويضطرب قلقاً حين شخص إزاءه الوحي مفاجئاً في غار حراء ؟
لئن القرائن التاريخية ترفض هذه الافتراضات المنحولة ، وإن السُّور لم تقل بأن محمد^{صلى الله عليه وآله وسلم} كان ينتظر النبوة لا تلميحاً ولا تصريحاً .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِنشَانُ ﴾
الشورى : الآية-٥٢ .

إن محمد^{صلى الله عليه وآله وسلم} قد توارى فترة طويلة ولم يسجل نشاطاً في ساحة المجتمع ، وفجأة وبعد الأربعين من عمره ، يطل علينا بشخصية جديدة في مآثيها ، ويحمل رسالته القرآنية للعالمين ، ومتحدياً بها الناس أجمعين .

ألا نثير هذه المفاجأة ؟

ألا تحملنا هذه الاطلالة العلوية على إرسال التساؤلات والافتاتات ؟

❖ خامساً : الوحي كان يتخلله فتور وانقطاع . القرآن نزل منجماً تلبية للحاجة والمناسبة. التشريع القرآني اتخذ طابع التدرج . محمد^{صلى الله عليه وآله وسلم} ابتداء مع الوحي على خوف كثير ، واضطراب شديد لينتهي إلى التصميم والتصدي والتحدى والاقتناع وتحمل المسؤولية . ألا يتعارض هذا كله مع نظرية الوحي النفسي التي قال بها المرجعون المشككون من الغربيين والمتغربين ؟

إن مقولة الوحي النفسي تفرض أن يكون إعلان النبوة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي ، ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمل والحساب .

من البداية أن تستلزم هذه المعاناة ، وهذه المرحلة من التكامل إعلان الرسول أطروحته كنها دفعة واحدة ، وبكل مفاهيمها وأفكارها ومناهجها عن الكون والمجتمع ، وجملة شؤون الحياة . وهل يمكن أن تكون الصورة غير متكاملة عند محمد^{صلى الله عليه وآله وسلم} عند إعلان دعوته بعد هذا الاستغراق الطويل في التأمل والتفكير والمعاناة ؟

إن الدعوة سرت في الناس على مهل لا على عجل ، وعلى التدرج البطيء لا على سرعة ، وحسبنا من ذلك فتور الوحي سنوات أحياناً ليعلن النبي شوقه إليه ، وحينه إلى تبليغه

وحضوره . فالمطلوب الدعوة بهذا الاعتبار يتعارض مع نظرية الوحي النفسي فنتجاست هذه النظرية ولا تنتهي إلا إلى المقوط .

❖ سلاسل : أخلاقية محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي القرآن في التطبيق العملي .

من أن كن صلى الله عليه وآله وسلم كن في مجتمعه كنجم في ليل ، وربيع في خريف ، فكر إلى أنقى صفاته ، وخلق إلى أرفع درجاته ، وفطرة إلى غاية أطنفانها وطهرها ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم : الآية- ٤ .

صادق البيان ، عف القلب واليد واللسان ، متمسك الملوك والبنيان والأركان عنوان شخصيته الأوضح والأكبر : "الصدق الأمين" .

شخصية واحدة بسيرتها ومثالياتها قبل النبوة وبعدها . لا تناقض ولا ازدواج ، لا فظافة ولا خشونة ولا ضعف . العزم همته ، والحزم موقفه ، والعدل قضائه ، والرحمة الرحمة إنسانه .

كان للفقر اليتيم ، وتحول الغنى الغنى بالنبوة في معناه ، وانقلب الحاكم على العباد ، وبيده ثروات البلاد ولكنه يبقى الرحيم الونود العطوف الشفوق ، والمتواضع الصنوق ، والوفى الأمين والمأمون ، ولعل الصدق والأمانة ، هذه الأخلاقية الفريدة هي أحوج ما يحتاجه النبي في نبوته ورسالته . لا تظن أن هذه الوقائع كانت استثناء في سلوكه إنما هي كل عمره وحياته .

وتعامل بتعاليم الوحي ، وترجمها حياته في قلبه وعظه وعمله لينقلب الأسوة الصالحة ، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب : الآية- ٢١ .

لقد كانت هذه التعاليم بقيته وقلنتاعه وبنائها خارجة عن دائرة ذاته ، وانها السوحي الإلهي الذي لا تعقيب عليه ، لذلك كانت له القولة المظفصة الحازمة وعيانه تفيضن بالدموع : "والله يا عم ، لو وضعوا الشمس بيمينى والقمر بيساري على أن أرجع عن هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه " .

❖ سابعاً : الرسول كان واعياً الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الملقية .

لم يكن مريضاً في جسمه ، ولا معتلاً في بنيته ، ولا معطلاً في عقله ، ولا فاسداً ومفسداً في خلقه . ولم يُعرف عنه أنه ثامن من أصحاب الشعوذات ، وجماعة الهلوسة .

ما كان من أولئك المستخفين العائشين ، إنما نفر مما تواضع عليه بنو قومه ليتحول إلى عزلته في الغار ، ويخلو إلى نفسه معناً في التفكير ، سارحاً في التأمل .

هذه المقومات الروحية الصافية ، والكامنة في شخص أمي هي التي هيأته للنبوّة ليصبح قادراً بأسبغها على التلقي ، ونحن نعلم عن طريق للكشوفات العلمية الحديثة أن الإنسان بواسطة الضوء البنفسجي أو بالأدق فوقه يمكنه أن يرى ما لا يمكنه أن يراه في الأحوال العادية .

إن الشخصية المحمدية قبل النبوة هي ذاتها بعد النبوة ، لولا محمد قبل البعثة ما كان محمد المبعث . محمد الثاني كان بمحمد الأول ولا تعقيب .

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين ينزل الوحي على قلبه متيقظاً واعياً ، ويدرك ما كان يبلغ فيبلغ لقد كان يقول حين نزول الوحي على قلبه :
" أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس ، هو أشده عليّ ، فيفصم عني ، وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " .

بهذا النوعي الكامل ، وهذا الشعور المتيقظ ، كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنجوة من الخلط بين شخصية الإنسان المأمور المتلقية والمخاطبة ، وبين شخصية السوحي الأمرة الملقية والمخاطبة .

لقد كان دائماً يدرك ذاته ، ويدرك أن الذي يسمعه هو خارج عن دائرة ذاته ، أو هو من ذات مستقلة كل الاستقلال ، ومنفصلة كل الانفصال عن ذاته .

هل كان محمد على أمر من الهلوسة ، حين عاد من الغار عقب الوحي الأول وهو يرتجف الفؤاد ؟

وهل كان يخبط في جنون حين قال: لزوجته فور وصوله عائداً " زملوني ، زملوني " ،
لتهذي من روعه وتذهب به إلى ابن عمها ورقة تعرض عليه للحدث الجديد ؟^١
لم يكن إلى ذلك في شيء ، وهل يمكن للقرآن المعجزة أن يكون وليد هلوسة ، أو
صناعة جنون ؟
إن هذا يشعرنا ويملاً قلوبنا ببرد اليقين بأن محمداً كان واقعاً بأن هذا الحضور الجديد
في الغار ليس ذاتياً .

لكن المستشرقين من أهل الكتاب بتعطيلهم الموضوعية حين يتحسّنون عن الوحي
المحمدي لا يستطيعون إلا أن يجعلوه بشرياً ، أما حين يتحولون إلى الوحي الموسوي أو
العيسوي فلا يمكنهم إلا أن يرسلوا أحكامهم إرسال تسليم ، ناهيك عن المائسة التي تنكسر
المرسل والرسول والرسالة ، وترفض لفغيبات والماورائيات جملة وتفصيلاً . العجب كل
العجب من أمر الوحي في مفهوم النصاري .

يقول قاموس الكتاب المقدس :

" الوحي هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين لإطلاعهم على الحقائق
الروحية والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم ، فالكل
منهم هذا هو نمطهم في التأليف ، وأسلوبهم في التعبير " .^٢
هذا الوحي هو أقرب ما يكون في حقيقته إلى معنى للكشف الذي كان لدى شعراء
ملهمين ، ومتصوفين عارفين وكهان وعرفان مصلين كائنين .

ليس لنا أن نسلم مقمداً بأن النبوة ظاهرة نفسية عرضية ، تؤثر في تاريخ الذات
الإنسانية ، وليس لأحد أن يدعي بادئ ذي بدء تدخل عامل مرضي لكي يشرح النبوة بالمعادلة
الشخصية التي هي مجموعة الطاقات والإمكانات الشخصية التي تكون " الأنا " .

^١ " صوت حراء بن حذافة في أوّل اليازم محمد مهت كائفاً منه الهسي : " يا أيها مدثر ، قم فأنذر ، وربك فكّر " . وجدت حديثه
حديثاً غارفاً في تراثه ، فضعتها للحدث من استيفاضه إلى أن تسأله . لم لا تنام يا أبا القاسم ؟ فحيها : انتهى يا حديثه عهد اليوم
بالراحة ، فقد أمرني جبريل أن أغير الناس ، وأن أوعدهم إلى الله وإلى عيادته ، من أوعر ؟ ومن ذا يستحب ؟
" - هو القاموس الذي وضعه بالعربية الدكتور جرج بوسط وطبع في المطبعة الأمريكية بيروت ١٨٩٤ .

نحن لا يمكننا ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي ، وفي محتويات رسائله المتواترة المنزلة . فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية ، وتاريخية من ناحية أخرى .

والملاحظة الجديرة بالنظر هو أن بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً بحيث يكون غريباً نادراً ، بل هو على العكس من ذلك ظاهرةً مستمرة تتكرر بانتظام قطبين من التاريخ منذ إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستمرار ظاهرة تتكرر بنفس الكيفية يُعتبر شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها ، بشرط للتثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ، ومع طبيعة المبدأ .

ليس لأحد أن يقرر بأن النبوة لها علاقتها بالأعصاب الشائنة ، والخيال الشاطح ، والفكر الذي أزعجته ظواهر ذاتية محضه .

إن حياة الأنبياء وتاريخهم يمنعاننا من أن نعدم مندفعين دون تعقل ووعي ، إلى الخوارق والمعجزات ، أو أن نحكم بأنهم معتوهون بأصل خلقهم ، يمثلون - على العكس - الإنسان في أسمى حالات كماله البدني والخلقي والعقلي ، وشهاداتهم الإجماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها ، وإن فمن الواجب في المقام الأول أن تلجأ إلى هذه الشهادة لكسي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا ، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربة الشك المطلق الذي لا هدف له ^١ .

❖ ثامناً : النبوة ليست ظاهرة ذاتية تعود إلى ما يسمى بالكشف أو المكاشفة لكي نكون في نجوة من اللبس بأسباب استعمال الكلمات في غير مواضعها بتحتن علينا إقصاء لفظ الكشف وما يشبهه من ألفاظ الإلهام والحنس الباطني ، والشعور الداخلي ، أو اللاشعور التي يتغنى بها شبابنا المثقفون محاكاةً للغربيين والمتغربين ، ويحاولون بها أو ببعضها أن يفسروا بساذجة غريبة عجيبة ظاهرة الوحي .

إن مصطلح " وحي " يفسره بعض علماء الدراسات الإسلامية بلفظة " المكاشفة " أو " الوحي النصي " أو " الإلهام " .

^١ - المظاهرة الشرائعية ص ٤٧ .

فالمكاشفة أو الوحي النفسي هي معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير ، أو خاضر فيه التفكير فعلاً بينما الوحي هو المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير ، إن المكاشفة لا تصبحها ظاهرة نفسية بصرية أو سمعية أو عصبية كتقلص العضلات عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

من الوجهة العقلية لا تنتج المكاشفة عند صاحبها يقيناً كاملاً ، بل كأنما تخلق نصف يقين ، أي بعض ما يؤدي إلى ما يسمى احتمالاً ، والاحتمال معرفة يأتي برهاتها بعدها ، وهذه الدرجة من الشك هي التي تميز للمكاشفة عن الوحي من الناحية النفسية .

أما يقين النبي فقد كان كاملاً ، مع شوقه من أن المعرفة السوحي بها غير شخصية ، وطارئة ، وخارجة عن ذاته ^١ .

هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يفتر بالمكاشفة حالة أم موسى حين أنفت وندها في اليم ؟

وهل بالمكاشفة كان النبي يميز فيما ينطق به بين نوعين من الإحياء هما :
الآية القرآنية التي يأمر بتسجيلها فوراً ، والحديث الذي يستودعه ذاكرة صاحبه فقط؟
إزاء هذه الحالة نجد لزماً علينا دراسة ظاهرة اللاشعور أو الشعور الكامن في داخلنا حتى يميز لنا أمر الكشف جلياً لا غيب فيه ولا خفاء .

في الحياة العقلية ظاهرتان ، إحداهما تسمى الشعور أو العقل اليقظ ، وأخرى خفية وتسمى اللاشعور أو العقل الباطن .

فالعقل اليقظ هو الذي يتحرك به العمل في حالة الوعي واليقظة أما العقل الباطن فهو الذي تكمن فيه رغباتنا المستترة ، ويعمل مؤثراً في العقل الظاهر على غير وعي منا . فالعقل اليقظ أو الظاهر يفكر في اللحظة وفي الظروف الطبيعية أو العادية ، أما العقل الباطن فيظهر البيول والرغائب والأمزجة الخفية والكامنة خلال النوم والحلم ، وأثناء الحمى والظروف غير العادية ، ويسيطر عليك لتصبح رهينته .

^١ - ظاهرة القرآنية ، ص ٢١٧ .

في حالة الوعي قد تسيطر أو تخطو على سلم ملقى على الأرض ، فإِذا وضع هذا السلم على شكل قطرة على سُورِي بيتين ليصل أحدهما بالآخر ، فإن العقل السواعي يسوحى بالامتناع عن المشي عليه مخافة السقوط .

إن العقل الباطن يعمل وكأنه مستقل عن صاحبه ، وله تأثيره الفاعل على سلوكنا وممارساتنا كثيراً ما يسبب لنا أعراضاً مرضية ، وأمراضاً نفسية خطيرة .

وإن الإنسان يتذكر بعقله اليقظ إلا قليلاً مما حدث له من الأمور المؤثرة أيام الطفولة إنه يتذكر - مثلاً - اليوم الذي أحرقت فيه رجله ، أو اليوم الذي سقط فيه على جدار أو شجرة ، أو الحلة للقيية التي ارتداها في يوم عيد ، أو اليوم الأول من أيامه المدرسية ، أما الأمور الهامشية العادية التي تترك لها أثراً على شاشة نفسه فإنه لا سبيل لأن يتذكرها بعقله الظاهر أو السواعي ، أما العقل الباطن فيسجل على شريط نفس الإنسان كل ما حدث له في حياته .

لا سبيل إلى معرفة ما في العقل الباطن من المكونات الكوامن إلا بالتتويم المغناطيسي ، أو التحليل النفسي ، أو دراسة الأحلام .

فالتتويم المغناطيسي يستطيع المنوم فيه أن يطل على ما في العقل الباطن للشخص النائم من مخزونات وذاكرة ، وخلال النوم يُعرف ما ألم بهذا الشخص ، أو ما حدث له من الصعوبات المرفقة ، وبالتحليل النفسي ، ودراسة الكلمات التي تصدر عن هذا الإنسان قد تطفو العقد على السطح وتظهر للعالم النفسي الشيء المكتوم والكامن في العقل الباطن . من دراسة الأحلام وتحليلها كان علماء النفس من الأمريكيين - خلال الحرب العالمية الكبرى - يقرأون أحوال الضباط والقادة ، ويعرفون نفسياتهم وما فيها من خفيا ومكنونات .

ولعل أشهر من توقف عند للعقل الباطن ودرسه بطريقة التحليل النفسي هو العالم النمساوي فرويد ، بل إن أكثر النظريات انتشاراً ونبوغاً عن العقل الباطن قد كانت في يوم من أيامنا في دلترة عقولنا الظاهرة ، وبعبارة كانت هذه الرغبات شعورية . ولذا لم تنتفد هذه الرغبات لمخالفتها العادات أو التقاليد أو القوانين انطوت في ثنايا العقل الباطن أو اللاشعور .

وللعقل الباطن تأثيره البالغ في ممارسات الشخص لينسحب في انعكاساته على أفعاله ، قد ينهض النائم من فراشه ويغادر حجرته وهو نائم متيقظ ، فيمشي على سور لا يستطيع

التمشي عليه في يقظته ، أو في أحواله العادية . قد ينفذ هذا الشخص الدائم أفعالا تعتبر في الظروف العادية أدنى إلى المحال ، ولغرابتها قد لا تنتزل منزلة التصديق عند الدائم المتيقظ نفسه . إن الذي يهيم على هذا الشخص ويسيطر عليه وعلى من هو شاكلته كالسكران الضائع الوعي فيفتن زوجته طعناً بالخنجر إنما هو العقل الباطن ، وحينما يستيقظ كل من هذين الشخصين ويفشاه الوعي لا يتذكر أفعاله ولا الذي حدث منه ، وترتد فرأىه خوفاً من هول ما يسمع .

فالعقل الباطن شجاع ماهر ، وذو قوة بالغة ويمكنه تنفيذ ما يحجز عنه العقل المتيقظ . إن العقل الباطن صريح وجريء في إظهار المضمرات من رغباتنا ونوايانا أكثر من العقل المتيقظ .

فالعقل المتيقظ يفكر ويفكر ، ويطيل التفكير والتقدير ، ويضع كلمته في الميزان ، ويحسب للنتائج حسابها ، ويتعامل مع الظروف بمراعاتها ، ويتحاشى الأخطاء خوفاً من المسؤولية .

أما العقل الباطن فهو ساذج لا يحسب لأمر حساباً ، إنه يعبر عن رغائب صاحبه بتصرّاحه الساذجة ، لتظهر من فئات اللسان الأسرار المكبوتة في العقل الباطن . فاشبه الذي تحبه وتهواه تسرع في ذكره ، وتسر في تحقيقه ، أما الذي تبغضه فلا علاقة له مع لسانك ، وقد ينتهي ليكون من منسياتك لأنه ليس من الأمور الداخلة في دائرتك اهتماماتك .

أنت قد تسوقك قنماك عفواً إلى حيث يقيم صديق له في قلبك مكن ، وله في إخلاصك وشوقك موقع ، إن الذي سلفك إلى هذا الصديق المصطفى هو عقلك الباطن .

وتسمى قائمة الحساب التي أرسلها إليك التاجر لأن الدفع ليس من الذي ترغب فيه ، وإن تسمى حوالة بمائة ليرة ، تحولت إليك من أيك لأنك من عشاق المال .

فالنسيان والإهمال لا يجريان عفواً ولا يحدثان مصدفة أو اتفاقاً دليلاً يكون ذلك ناشئاً عن الرغبة النفسية في النسيان إذا كانت مؤلمة موجعة .

قد يملك الإنسان سلوكاً لا رغبة له فيه وذلك بتأثير القوة الخفية التي تعمل من وراء ستار ، تلك القوة هي العقل للباطن أو اللاشعور الذي يعمل في الخفاء ويؤثر في أعمالنا وسلوكنا^١ .

ألم تقف على مبادئ السريالية وأصولها في الأدب ؟
ألم يملك سمعك ضجيجها وصخب الحديث عنها ؟
ألم تبلغك أخبار رواجها وهيمتها على مساحة زمنية واسعة ولا تزال من هذه الهيمه بغيه ؟

هذا المذهب الأدبي من أهدافه الأساسية والثابتة التحلل من الحياة الواعية لأنه يذهب إلى أن فوق هذا الواقع أو وراءه واقعاً آخر هو أقوى فاعلية ، وأكثر اتساعاً ، ألا وهو واقع اللاوعي المكبوت في داخل النفوس البشرية .

فالسريالية تعمل على تحرير هذا الواقع من سجنه ، وإطلاق مكبوته ، وإطلاق خفيته وتسجيله في الإنتاج الأدبي والفني .

من ثغرات هذا المذهب الإيمان في الغموض والضيائية ، ومن سلبات بعض رجاله اللجوء إلى الطريق المصطنعة كالأفيون وغيره من وسائل التخدير لإيقاظ هذا المكبوت وإطلاقه وتحريره .

ومن معائب السريالية أنه لا يمكن اعتبارها مذهباً أدبياً أو فنياً متكاملًا لأنها عجزت عن خلق صورة أدبية أو فنية خاصة بها ، ولم تتمكن من إبداع أسلوب يتميز به ليكون لها ، مقومات الشخصية والمذهب بل جعلت جل همها في أن يأتي القصيد عفويًا محضاً من غيرها اهتمام بالموسيقى وبنظام الكلمات والتقفية .

والحق أن السريالية لا تخلو مضموناً من بعض الصنق لأن النفس البشرية ليست مجردة من المكبوتات بحكم الأوضاع التي يفرضها المجتمع ، فتكبت من الغرائز ، وتلجم من الرغبات ، وتعطل من الطاقات^٢ هذا هو العقل الباطن أو اللاشعور حقيقة وجوهرًا .
ألا ترى أن العقل الباطن هو عالم ضبابي معمي ، إنه لا ينشئ في النفس يقيناً كاملاً ولا شبه كامل ، إنه يبقى في إطار الذات ، ولا يتلقى الحقيقة من مصدر أعلى .

^١ - رابع كتاب علم النفس ، الجزء الأول ، محمد عطية الأعرشي ص ٥٢ .

^٢ - رابع كل ما كتب في هذا الشأن في كتاب : الأدب ومفاهيمه محمد مندور .

فالشعور قد لعب دوراً نظرياً هاماً في تفسير ظاهرة الوعي ، وإن كنّ رحلات هذا التفسير غير موضوعيين رغم ادعائهم الموضوعية ، ورغم أن نظرية الشعور لا تزال في مرحلة النشوء . لا مجال للإنكار أو للشك بأن الذات تحتوي على مجال معين تتكون فيه الظواهر النفسية الغامضة التي لا تخضع لسلطان الشعور ، كالأحلام وغيرها .

^١ هناك علاقة بين الشعور والشعور لكن الشعور هو الذي يمتص هذه العلاقة لتتحول إلى رموز ، إلى أحلام ، إلى حديث نفسي ، إلى الإلهام . ولكن هذه الرموز تحتفظ بمعالم لفكرة أو الواقع الذي تولدت عنه .

هذه العلاقة تتفاوت في غموضها ، ولكن التحليل قد يكشف عنها ، إذ من الممكن أن نجد في حلم أو في كابوس الطريقة التي اتبعها للشعور في صياغة رمزه ، بالرجوع إلى حادث سابق تسبب فيه .

فالاشعور يعمل هنا عمل المستقبل الكهربى بالنسبة للمولد الكهربى الذي هو الشعور ، وعليه ففي هذا المجال الأخير يجب أن نلتزم دائماً مصدر العمليات النفسية التي يصفونها بالاشعورية ، وعندما يتضح أن فكرة ما لا تخضع للذات الشعورية ، فمن الممكن أن نفهم من هذا أنها بالضرورة أجنبية عن هذه الذات وأن لا محل لها في الاشعور . هذا هو مبدأ النقد الذي ينبغي أن يكون أساساً لدراسة الوعي القرآني ^١ .

إن كشف المعارف كإلهام الواصلين هو وجدان تعرفه النفس معرفة دون اليقين ، لا كما ذهب إليه محمد عبده حين وجد الإلهام وجداناً تستيقنه النفس ^٢ ولا كما ذهب إليه ابن سينا الذي ادعى بأن العقل للقيس الذي هو الحسن أو الكشف الباطني يؤدي بنا إلى المعرفة اليقينية .

ولا عجب فإن الكشف كإلهام هو من ألفاظ علم النفس الحديثة التي ما تبرح حتى عند الفاتنين بها موعلة في الإبهام ، وأبعد ما تكون عن حالات الوعي والشعور . فإذا قيل في إنسان بأنه من ذوي الكشف والإلهام ، لم يرتفع به ذلك إلى مرتبة النبوة والوحي لأن في كل وحى وعياً ، وفي كل نبوة شعوراً بمعناها ، وإبراكاً لمغزاها ، وإنما يرمى باللاوعي من فقد الوعي ، ويوصم بالاشعور من حرم الشعور .

^١ - الصادرة القرآنية ص ١٦٢ .

^٢ - رسالته الشريفة ص ٨ - ١٠ حول إمكان الوعي .

وطبيعة الحقائق الدينية ، والأخبار العينية في ظاهرة الوحي تأتي الخضوع لهذه الأساليب الشعورية التي تستشف حجاب المجهول بالفراصة الذكينة الخفية ، والحدس الباطني السريع ، مثلما تأتي الخضوع لمقاييس الحسن الظاهر التي تخترق حرمان المجهول بالأدلة المنطقية ، والاستنباط المتردي البطيء^١ .

ونخلص إلى القول بأن الكشف فيه غموض والوحي فيه وضوح ، والكشف غير يقيني والوحي يقيني ، صاحب الكشف غير مقتنع والنبى مستيقن مقتنع ، صاحب الكشف لا يدري عن مصدر المعرفة شيئاً بينما النبى يرى أن مصدر الوحي غير ذاتي وخارج عن دائرة شخصيته . لذلك فظاهرة الوحي لا تخضع إلا لتصور حوار علوي بين ذاتين : ذات متكلمة وأمرة وملتقية وذات مخاطبة مأمورة متلقية .

ليس في الوحي خلط بين الذات الأمرة وبين الذات المأمورة بين الذات المخاطبة وبين الذات المخاطبة .

❖ تاسعاً :

إن القول بالوحي النفسي ، وبالكشف الباطني مردود بالشخصية المحمدية القرآنية بدواقيها ومواقفها الأتية :

١ . محمد بن عبد الله ضعيف بين يدي ربه ، الله عونه وملاذه ، ومنه الرحمة وله المغفرة ، محمد واع كل الوعي لهذا الضعف ، ومذكرك حق الإنك لحاجته إلى ربه ، الطاعة لأوامر الله ونواهيه كل ملوكه وممارساته . لقد أرسل دعاءه يوماً :

" اللهم يا مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " .

ألم يستند إلى حائط يوم حاصرته تغيف الطائف ويده مرفوعتان إلى السماء ولسانه الذاك يتوجه إلى الله بدعائه القائل :

" اللهم أشكر إليك ضعفي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، اللهم إن لم يكن بك علي غضب قلن أبائي " .

^١ - مااست في علوم القرآن ص ٣٤ .

إن الشخصية المحمدية في القرآن مطيعة لله مستغفرة له ، راوية خائفة من عصيانه ملتزمة بحدود تعاليمه ، معترفة بعجزها عن تبديد من كتابه ، صادقة بأمره خاشعة بين يديه .

﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتَبِهُوا فَقَرَأَنَ . هَذَا لَوْ نَذَّلَهُ عَلَىٰ مَا يَكُونُ لَنَبَيِّنَنَّ لَهُ أَنَّ تِلْكَ مِنَ الْفُتُونِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا . إِنَّا أَخْلَفْنَا بِنِصَّتِ رَبِّنَا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا تُدْرِكُكُم بِهِ نَقْصٌ لَّيْسَ فِيكُمْ عَذَابٌ مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يونس : الآيات - ١٥-١٦ .

٢ . الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمين على رسالته ، لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . ليس عليه إلا البلاغ ، لا يطم الغيب ، ولا يملك خزائن الله ، لا يدعي صفة ملكية تغاير صفة الإنسان وخلقته ، لله صفة الخالق ، وله صفة المخلوق .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الكهف : الآية - ١١٠ .

﴿ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ صُلُوكَ لِتُخْشَوْنَ اللَّهَ الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا تَسْأَلُونَ عَنِ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ الأعراف : الآية - ١٨٨ .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ الأنعام : الآية - ٥٠ .

المتميز للصفات هو تصدير عبارة " قل " لهذه الآيات ، ولأنها آخر بلغت أكثر من ثلاثمائة !

لئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا علاقة له بالوحي ، إنه لا يصوغه لفظاً ، ولا يلقيه كلاماً ، وإنما يلقي إليه لأخطاب إلقاء .

محمد مخاطب لا متكلم ، مبلغ لما يسمع ، والوحي الأول في الغار تصدرته كلمة " اقرأ " الأمرة والمنتبهة من مصدرها الأعلى .

ويتبدى من خلال هذه الآيات الانفصال التام بين الذات المحمدية وبين مصدر الوحي ، ومنشئ الوحي .

١. وحين يتحول للوحي معانياً معاتباً إن خفيفة ، وإن شديدة يشدّد هذا الموضوع في الاختلاف بين الذات المتلغية والذات الملقية .

وما هو ذا العتاب القرآني الخفيف المقترن بالعفو في شأن من أنزلهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالعفو عن القتال : ﴿عفا الله عنك لم أكن أنت لهم حتى يدين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ التوبة : الآية-٤٣ .

﴿ليخفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ الفتح : الآية-٢ .

وفي هذا العفو الرحيم ، والعتاب الخفيف يقول الطبرسي : "ثم خاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما فيه بعض العتاب في أنه لمن استأنفه في التأخر عن الخروج معه إلى تبوك . وهذا من لطيف المعاتبة ، بداهة بالعفو قبل للعتاب " .

ولعل آية العدا في أسرى بدر هي على هذا التوجه ، وهذا الميزان في العتاب الإلهي للنبي :

﴿ما كان لبني أن يكون له أسرى حتى تثنى في الأرض فريضون عريض الثنيا والله يريذ الآخرة والله عزيز حكيم﴾ (٦٧) لولا كذاب من الله سبق لمعكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ الأنفال : الآية-٦٧-٦٨ .

١. وأظهر من هذا كله وأقوى ذلك الانذار البالغ في الشدة ، وذلك التهديد البالغ في الحزم :

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصبك من الناس﴾ المائدة : الآية-٦٧ .

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتُفْتَرَىٰ عَلَيْهِ غِثْرَةٌ ۖ إِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٢) وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَفَدَّرْتَ هَٰؤُلَاءِ بِأَيْمِنِنَا وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَفَدَّرْتَ هَٰؤُلَاءِ بِأَيْمِنِنَا وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَفَدَّرْتَ هَٰؤُلَاءِ بِأَيْمِنِنَا وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَفَدَّرْتَ هَٰؤُلَاءِ بِأَيْمِنِنَا﴾ (٧٤) إِذَا لَاتُخَذُوكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿الْإِسْرَاءُ : الآيات - ٧٢-٧٥ .

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿الْحَاقَّةُ : الآيات - ٤٤-٤٧ .

هذه الآيات الكريمة تشير إلى الفروقات الهائلة بين ما هو لله وبين ما هو للنبي .

هذه الآيات التي ترسل العذاب المؤدب تارة والوعيد المنذر تارة أخرى تضع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في الواجهة مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه للقاسر القاهر والذي لا تعقيب على إرادته .
في هذه الآيات يبدو الوعي النبوي الكامل لهذه الفروقات بين الذات الإلهية والذات المحسنة :

إنه الوعي الذي ترك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يفرق بين القرآن والحديث ، لأن القرآن خارج عن ذاته ، بينما الأحاديث منبثقة عن ذاته من أفكاره وخواطره ومعناه الإنساني . فالقرآن كان يدونه على فوره خلافاً للحديث فإنه يتركه للصدور الواعية ، والذاكرة الحافظة .

والأحاديث القدسية التي معناها من عند الله أو هي منزلة من عند الله لم تختلط بالقرآن لتنفصل عنه كل الانفصال .

وبكثير من الحذر كان يستهل العبارة كل من يستشهد بحديث قدسي بقوله :
* قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه " أو قال تعالى فسيحدث القدسي .

٥ . خوف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مرض النسيان الذي يؤدي إلى ضياع بعض الآيات القرآنية .

إن شعور النبي بهذه الآفة وهذا الضعف حمله على أن يعجل بقراءة الآيات فور نزولها ، ودعا إلى ترديدها ، واستدعاء أحد كتبة الوحي لتدوينها على فورها خشية نسيانها ، ومخافة الخلط بينها .

إن النبي لا يملك حق استخدام ذاكرته في حفظ القرآن بل الله ضامن لحفظه في قلبه ، وقانون التذكر بطل الآن سحره ، وعفا أثره تجاه إرادة الله . فكيف لا يعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بعد هذا - الفرق العظيم بين الذات المأمورة وذات الله الأمرة - وهو لا يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

لقد كان النبي في مستهل دعوته يجهد ذاكرته عندما كان يعاني حالة التلقّي ، نكس يثبت الآيات كما نزلت ، وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لأخر ، ويريد أن يحفظ كلامه ، فهو يكرره في نفسه .^١

فالتكرار عمل تدريبي للذاكرة ، غريزي أساسي ، فهو لهذا يصدر طبيعياً عن الذات نفسها ، أيًا كانت درجة وعيها .
فالقرآن يأتي بما يضاد هذا السلوك الطبيعي ، إذ يطنق للنبي لإرادته العنان حتى يحفظ بالتكرار في مجال عقله .

والقرآن يصانر حرية النبي في استخدام ذاكرته حيث تنحصر حركتها في هذا التكرار المنهي عنه . وبذلك لا يتجاهل القرآن حرية اختيار النبي ، وإرادته أن يربّ ذاكرته فحسب ، بل يتجاهل أيضاً لقانون النفس لوظيفة التذكر نفسها ، وهكذا نلاحظ مناقضة "مزدوجة بين الظاهرة القرآنية وبين الذات المحمدية"^١ .

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه :
الآية- ١١٤ .

﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ القیامة : الآیة- ١٦- ١٩ .

^١ - الحضارة القرآنية ص ٢٧٥ .

٦. اقتناع النبي صلى الله عليه وآله وسلم باستقلال شخصيته عن شخصية الوحي ،
وبانتماء لإرادته واختياره إزاء إرادة الوحي واختياره .
فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا اختيار له فيما تلقاه من الوحي ، وفيما ينقطع عنه .

والوحي قد يتتابع وقد يفتر أو ينقطع النبي حينذاك يشعر بالشوق إليه يعالج في صدره
وقته ، كما يشعر بأنه أحوج ما يكون إليه كما هو شأنه بعد الوحي الأول حين فتر الوحي
ثلاث سنوات ينتزل القرآن على النبي ولا شرط في نزوله لزمان أو مكان .

قد ينزل الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلال غفوة مسترخية أو
بغظة واعية .

قد ينزل في الصباح إذا تنفس ، وتنيل إذا عسعس ، في النهار الضاحي والأصيل
الداوي ، والليل الساجي والدامن والغاشي .

قد ينزل في البرد القارس ، والهجير المتلطي في استقرار الإقامة واضطراب السفر ،
في هدأة الخلوة وبأساء الحرب ، وصخب السوق .
قد ينزل في النغار أو في المنزل ، أو في الطريق ، أو في المسجد ، أو على الراحلة .

لكم كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتحرق به الشوق إلى تحويل القيلة إلى الكعبة !
ولكن رب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينزل في ذلك قرآناً إلا بعد عام ونصف ،
لأن الوحي لا يكثر ولا يفتر إلا حين يشاء رب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

أما أنه لم يك لهذه المفارقة الواضحة بين شخصية النبي الأمين وظاهرة الوحي إلا
حلّ نفساني واحد على طريقة الماديين من قدامي ومحدثين : فليفترضوا نزود النبي الأمين
بشخصيتين إحداهما واعية شاعرة والأخرى لا واعية ولا شاعرة . أو بعبارة أخرى :
ليفترضوا في نفس محمد ازدواج الشعور واللاشعور ، فهل لباحث منصف أن يعترف
لأصحاب هذا الافتراض بمسحة من عقل أو ذرة من شعور^١ .

^١ - «باحث علوم القرآن» ، صبحي أفراح من ٣٨ ، واسع هذا الكتاب في هذا البحث .

لقد كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين التنزيل على كمال في الوعي ، وبماسك في الشخصية ، وانضباط في التصرف ، رقة في النشاط ، فلا ضياع ولا ذهول ، ولا هفوة ، ولا هذيان ولا نوبات ولا أعراض مرضية تعتريه ، ولا شطحات من الجنون .

❖ عشاراً : تاريخ الشخصية المحمدية في مكة قبل بدء الدعوة يعلن بالصوت الجهوري بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له نشاط أدبي سواء كان ذلك النشاط شعرياً أم نثرياً.

فالخطب الواعظة هي في البلاغة لا تجارى ، وفي الفصاحة لا تبهرى ، إذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أما بعد على منبر ، فهو خطيبها ليسخص كلامه فوق كلام المخلوق لكن دون كلام الخالق .

وزعم ذلك لا مناسبة للمقارنة بين بيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين بيسان القرآن الذي هو المعجزة التي لا تعقب عليها .

لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة حكمة معلمة ، أو خطبة واعظة بليغة ، أو مثل سائر شارد !
وهل تحفظ القصائد الطوال ، والمعلقات السبع أو العشر ولا يحفظ للنبي تراثه الأدبي إن كن قبل النبوة ؟

لو كان للنبي هذا النشاط لكان مجال محاورة أو مذاكرة أو رعاية ، في مجالس العرب وأندية العرب !
ولماذا الاهتمام بشاعرية امرئ القيس والنابغة ، وزهير وعنترة حتى والشنفره أحد الصعاليك ؟

ولماذا لا يتوارى أكتف بن صيفي الحكيم ، وقسن بن مساعدة الخطيب عن المذاكرة العربية ، ويهمل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الإهمال الكلي الشامل كخطيب أو شاعر أو كاهن ؟
ولماذا أخيراً هذا التفتق الأدبي على لسانه بعد البعثة ؟ ولماذا القرآن المعجزة فجأة ؟

❖ حادي عشر : يعرف الرجل بأسلوبه ، قاعدة نقدية تقول : " الأسلوب هو الرجل " .
ابن المقفع أسلوبه سهل ممتنع .

الجاحظ يجمع بين الجد والتهزل .
ابن الرومي يفصل بعد أن يجمل .
أبو تمام يفوص بمعنىاً حتى الغموص .

ولماذا القرآن غير الحديث في القرآن وغير الخطبة عند محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟
نماداً لا يتكرر الحديث في القرآن والقرآن في الحديث طاملاً هما محمدیان ؟

إن العفوية تكرر الآثار - وإن بعضها- في مناسبات الأديب !
كل أديب له ألغاطه الجاهزة ، وعباراته الخاصة له ونهجه وطريقته ، والمقارنة بين
القرآن والأدب النبوي لا تحصل على هذه الوحدة ، ولا تقع يدها إلا على المفارقة والتباعد !
ولطاماً الفجوة بين الأسلوبين عميقة الغور ، ولا مناسبة بينهما للالتقاء فالمصدر ليس
واحداً .

❖ ثاني عشر : القرآن فريد في صياغته ، معجز في فصاحته وبلاغته ، متحد في
أسنويه .

لو كان القرآن محمدی الإنشاء لكان نتاج معاناة شاقّة ، وجهد يرهق ، ولكان
حصيلة عناء فائقة ، ورعاية مميزة .
لو كان القرآن صناعة محمد لاحتاج إلى فترة طويلة سابقة لإعلانه ، واحتاج
إلى التنقيح لأسنويه ، والتهذيب لإخراجه ، والتبويب لأيه وسوره ونهجه !

هل من شاعر أو كاتب إلا ويغرل وينخل ، إلا ويصقل ويصنع ؟
أو تظنون أن المشركين قبل البعثة تخفى عليهم هذه الظاهرة بجمليتها ؟
وهل لمعاصري محمد ، وأهل بيت محمد ، وأصحاب محمد ، وخلفاء محمد -- والفترة ثلاث
وعشرون سنة بعد البعثة -- ألا تكون لهم ملاحظات ولا معانيات لهذا الإنشاء ، وهذا التنقيح
والتهذيب ؟

❖ ثالث عشر : القرآن المعجزة .

إن التهم التي وجهها الغربيون والمغربيون للوحي المحمدی مشبوهة ، وإن
التشبهات التي أثارها هؤلاء حول هذا الوحي كانت كثيرة ولكنها واهية ساقطة .

إن الرخود كانت واعية ومتهكلة ، وكانت مواجهة ومتصدية ، واستطاعت أن تظهر تهافت هذه الشبهات بالدليل الثابت ، والبرهان القاطع ، والمقابلة الدقيقة .
لكن هذه الردود على نجاحها وبقينها تنقلب وكأنها خواء إزاء ظاهرة الإعجاز ، كلمة الفصل في هذا الشأن هي للقرآن المعجزة وحده .

وتحذی القرآن عبقریة العرب !

والعبقرية هذه وجهها فصاحة ، ولسانها وقلوبها وعقلها بلاغة ، وطلع القرآن نوراً من النور ليتوارى كل كلام إزاءه خجلاً واستحياء لقد تحدى القرآن أن يأتي العرب بحديث مثله ، بعشر سور كسوره ، بسورة واحدة أو بآية واحدة من هذا الذي فيه ، فكان المعجز المجهور ، والضعف المخزول .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة : الآية-٢٣ .

الحديث في الإعجاز غني وطويل ولا فحصة له في هذه السطور العجلى ، هيا إليه في مبحث خاص . إن القرآن يشير في كل ما تقدم إلى مصدره الإلهي ، وانفصاله واستقلاله عن الذات المحمدية .

قد يتوهم واهم أن الوحي محال به الحصول نظراً للمفارقات البعيدة البعيدة بين الخلق وبين المخلوق .

ونزّلها كلمة يقين بأن كمال الله في قدرته المطلقة ، ورحمته التي وسعت كل شيء ، يحملاننا على الإيمان الذي لا شبهة فيه بإمكانية الوحي ، وعدم استحالة .

شكل القرآن وإعجابه

القلم العربي ،

أن يكون أصل القلم العربي من اليمن فدعوى لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسمّيه أهل الأخبار القلم العربي... بعيداً كبيراً^١ .

أن يكون أصله من مدين في أعالي الحجاز ومن البتراء في بلاد الأنباط ، فهذا أمر غير مستبعد كثيراً ، لأن الأنباط سكان العربية الصحرية ، كانوا يكتبون بقلم نبطي قريب من القلم العربي الحالي في بعض صور حروفه . ويبدو أن الخط النبطي أخذ بدوره من الخط الآرامي ، وكلاهما كان من جملة مصادر القلم العربي ، ولثلاثة تتصف بمميزات مشتركة مثل الحروف في انفصالها واتصالها ، هي في الكل سواء ، وترتيب أبجديتها هو نفسه ، ومعاني كثير من المفردات متقاربة^٢ .

وأن يكون أصل القلم العربي من الحيرة والأثبار في العراق فأمر أيضاً غير مستبعد ، لأن الحركة التجارية التي كانت قائمة بين مكة والحجاز وبلاد الشام آنذاك كانت ناشطة ، وأهل العراق والشام كان لهم مدارس ملحقة بالكنائس والأديرة ، وأن المبشرين ، والمرسلين النصاري كانوا يجوبون البوادي للتبشير ، فلا يستبعد أن يكون قد نقلوا الكتابة إلى دومة الجندل والحجاز ومواقع أخرى من جزيرة العرب^٣ . ومما يرجح ذلك أن أناساً من الحيرة بقوا يعملون ويكتبون عند زعماء مكة ، حتى بعد ظهور الإسلام ، فكان لأبي موسى الأشعري، مثلاً ، كتب نصراني من الحيرة ، ولما سأله عمر بن الخطاب عن سبب اتخاذه كتباً نصرانياً أجابه : " له دينه وله كتابه " . ولما أراد عمر اختيار كاتب حاذق حافظ ذكر له غلام نصراني من أهل الحيرة^٤ .

^١ - د. جواد علي ، المعقل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٦٨/٨ .

^٢ - خليل جبي ناسي ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ١٩٣٥ ، مجلد ٣ ، جزء ١ صفحة ١٠٢ وما بعدها .

^٣ - د. جواد علي ، المعقل في تاريخ العرب ١٦٩ / ٨ - ١٧٠ .

^٤ - عيون الأخبار ١ / ٤٢ ، أنظر جواد علي ١٧٠/٨ .

وذكرت الأخبار أن أهل مكة تعلّموا الكتابة والقراءة من أحد أهل دومة الجندل النسي هي منطقة شهيرة على الحدود الشمالية للجزيرة ، وهو بشر بن عبد الملك للسكوني ، أخو أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي " صاحب دومة الجندل ، وكان نصرانياً في الحيرة فيقيم بها حين ، تعلّم الخطّ العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه ، فرأه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، يكتب ، فسالاه أن يعلمهما الخطّ فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط ، فكتب .

ثم إن بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخطّ منهم ، وفارقهم بشر إلى مصر ، فتعلّم الخطّ منه عمرو بن زرارة بن عدس ، فسُمي عمرو الكاتب ، ثم أتى بشر الشام فتعلّم الخطّ منه ناس هناك ^١ .

وفي رأي البلاذري أن ثلاثة من طييء ، وهم مراد بن مرة ، وأسلم بن سدر ، وعامر بن جندرة ، اجتمعوا ببقّة - وهو موضع قريب من الحيرة ^٢ - ووضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء المريانية ، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ... ثم تعلّم من الثلاثة الطائنين أيضاً رجل من طائفة كلب ، فعلمه رجلاً من أهل وادي القرى ، وهذا علم قوماً من أهلها ^٣ .

وكان يهود يثرب يعرفون طبعاً لغتهم العبرية ، ولكنهم تعلّموا معها اللغة العربية ، وفي ذلك إشارة واضحة من البلاذري بقوله :

" وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلّمه الصبيان بالمدينة ^٤ " والمقصود هنا " الخطّ العربي الشمالي " لا " خطّ المسند الجنوبي " . ويظهر أن اليهود قد تعلّموا هم أيضاً الخطّ العربي من العراق ، من الأنبار والحيرة ، وبلاد الشام ، أي من المانطرة والغساسنة ، أو من التجار والمبشرين النصارى الذين كانوا يؤمّنون الحجاز .

ويبدو أيضاً أن القلم المسند ، قلم العربية الجنوبية ، لم يكن منتشراً في مكة والمدينة ، ولم نجد له في آثارها أثرًا ، لا في الإسلام ولا قبل الإسلام ، " وهذا يدل على أن المسند كان

^١ - البلاذري ، فتوح البلدان فصل : أثر الخط ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

^٢ - باقرت الحموي ، معجم البلدان ، ٤٧٣/١ ، مادة بقّة .

^٣ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ٤٥٦ - ٤٥٧ .

^٤ - المرجع نفسه ، ص ٤٥٩ .

قد طُورد في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وأن سلطانه كان قد تقلص كثيراً خارج العربية الجنوبية قبل نزول الوحي على الرسول ﷺ ، وربما كان القلم الشمالي قد دخل العربية الجنوبية أيضاً قبل الإسلام ، فأخذ ينافس المسند فيها ، ولا سيما في المناطق التي تركزت النصرانية فيها ، وتحكمت في أهلها ، فأخذ النصارى يقاتلون ذلك القلم ، لأنه قلم الوثنية ، ويعلمون أولاد النصارى القلم العربي الشمالي ، لأنه قلمهم الذي كانوا يعلمون به في كنائس العرب في العراق وفي دومة الجندل وبلاد الشام^١ .

هذه الشهادات ما كنا نعتدها لو لم يؤيدها شهادات من نقوش أثرية ، ومن أقدم نصر^٢ عربي إسلامي ، ومن أقدم المصاحف الباقية حتى اليوم ، ثم من علم مقارنة الحروف بعضها ببعض .

أولاً : ثلاثة نقوش أثرية

هذه النقوش هي من الأهمية بمكان ، لأنها تدلنا على ما كان عليه القلم العربي في الجاهلية قبل الإسلام .

أي قبل القلمين الإسلاميين : القلم الحجازي المتمثل بقلمي مكة والمدينة ، والقلم الكوفي الذي نشأ في الحيرة من أعمال العراق . هذه النقوش الثلاثة هي الوحيدة الباقية لنا من لتأريخ حتى الآن .

النص الأول : نقش النمارة في أم الجمل في الحرة الشرقية من جبل الدروز ، وجد على قبر امرئ القيس الأول بن عمرو ، ملك العرب من سنة ٣٢٨ م . وهو أحد ملوك اللخمين المناذرة في مملكة الحيرة . وقد عثر عليه الممستشرق "ريني دومو" خرائب النمارة على حجر [٤,٤٠ متر x ٣,٣٩ متر] وعليه خمسة أسطر منقوشة بـ الحرف النبطي واللحن العربي الشمالي . طول النقش ١,١٦ متر بعرض ٣٣ سنتيمتراً .

١. في نفس امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله أسر النج .
٢. وملك الأسدين ونزوا وملوكهم وهرب من حجو عكدي وجا .
٣. بزجي في صبح نجران مدينة شمر وملك معنو ونزل بنية .
٤. الشعوب وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ مبلغه .
٥. عكدي ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلون بلسعد نو ولده .

١. حرد علي ، الفصل - ١١٤/٨٠٠ - ١١٥ .

وهذه ترجمته باللغة العربية الفصحى :

١. هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج .
٢. وملك الأميين ونزارا وملوكهم ، وهزم مذحج بقوته ، وجاء .
٣. الى بزجي في صبح نجران مدينة شمر وأخضع معداً وأنزل بنية .
٤. على القبانل ، وأتابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥. الى اليوم ، توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ من أيلول وفق بنوه للسعادة .^١

والنص الثاني المعروف بنص زيد ، بين قنشرين ونهر الفرات ، جنوبي شرقي حلب . كتب بثلاث لغات هي : اليونانية والسريانية والعربية ، ومعظم ما فيه أسماء رجال سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت هذه الكتابة فوق عتبة، لكن النص العربي الذي يهمننا هنا، يبدو متأخراً عن اليوناني والسرياني .

١. [س] م الإله شرحو برمع قيمو برمر القس .
 ٢. وشرحو برسعدو وسترو وشريحو بنيمي .
- ومعناه :

بسم الإله شرحو بن أمت مففو ، وطبيي بن امرئ القيس ، وشرحو بن سعدو .
وستر وشريح ، أتموا " يعني : أن هؤلاء الرجال أتموا بناء الكنيسة التي تحصل هذا النص .

أما النص الثالث من سنة ٥٦٨ م ويسمى "نقش حران" في المنطقة الشمالية من جبل النور . على حجر فوق باب الكنيسة ، وهو باللغتين : اليونانية والعربية .

أنا شرحيل برظلمو بنيت ذا المر طول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم .
ومعناه : أنا شرحيل بن طالم بنيت كنيسة سنة ٤٦٣ ، (الموافق ٥٦٨ م) بعد خراب خيبر بعام .

ومع تأثر هذا النص بالنيبطية فإنه كما يبدو من معناه كتب بلهجة عربية شمالية^٢ .

^١ - زبدان ، العرب قبل الإسلام ص ٢٦٩ ، د. علي حواد ، انقش ، ٢٣/١ . أر. لفسون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٨٩ -

١٩٠ .

^٢ - انظر في هذه الفرضي ، لفسون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٩٠ - ١٩٤ ، وحواد علي ، انقش ، ١٧٨/٨ .

ثانياً : نقش سنة ٣١ هـ

وهناك نص له من الأهمية ماله ، وهو أقدم الآثار الإسلامية ، وفيها كتابة نفشت على قبر رجل يسمى عبد الله بن خير [أوجير] الحجري [أر الحجاري] ، وتشتمل على ثمانية أسطر اكتشفت هذه الكتابة في مصر ، ووجدت بين جملة أحجار في دار الآثار العربية ، ونشرت في جريدة الأهرام في ٩ نيسان سنة ١٩٢٩ . بينها وبين قلم نقش حران شبه كبير جداً ، ويلاحظ تأثيره الإسلامي القراني ، وهو من سنة ٣١ هجرية ، أي سنة ٩٥٤ م تقريباً ، وقد يكون لجندي من جنود عمرو بن العاص .

- ١ . بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر .
- ٢ . لعبد الله بن خير الحجري اغفر له .
- ٣ . وأدخله في رحمة منك وأتنا معه .
- ٤ . استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب .
- ٥ . وقل آمين^١ .

ثالثاً : أقدم المصاحف القرآنية

إن أقدم المخطوطات القرآنية التي بين أيدينا لا تقدم لنا تحديداً زمنياً واضحاً ، ولا تحديداً مكانياً معيناً ، لكن المقابلة بين بعضها البعض ، والدراسات الأثرية الكيماوية قد تفيدنا بعض الشيء في أصل انقلم العربي ونشأته .

- ١ . مخطوطة رقم ٥٣٨٥ من مكتبة اسطنبول سراي هي حجازية ، وبالتحديد هي مدنية في معظمها رغم أن بعضها اليعسبر غير مدني ، ولا نستطيع مقابلتها مع مصحف عثمان بن عفان ، لأن نسخة واحدة من أيام عثمان لم تبقى ، لنقول عن مقدار قديمها ، ثم إن عدم تقسيمها إلى آيات مرقمة لا يعني أيضاً قديمها ، ورغم هذا فهي بحسب وصف ابن النديم للخطوط تبدو مدنية وشبيهة بمخطوطات باريس .
- ٢ . ومخطوطات المكتبة الوطنية بباريس ، من الرقم ٣٢٦ حتى ٣٣٦ هي أيضاً حجازية ، حيث الألف ملتوية نحو اليمين ، بحسب وصف ابن النديم الذي يقول :
في المكي ، الألف ملتوية نحو اليمين ، ثم إن للمقارنة بينها وبين ما تبقى من نصوص جاهلية في النمارة وحواران^٢ تفيدنا قديمها ، ولكن ليس من أيام النبي أو عثمان أو حتى عبد الملك الخليفة الأموي الخامس ، لكن مخطوط رقم ٣٣٧ يبدو لإتقان خطه وجماله ، غير قديم ، فهو كما يظهر خطأ كوفي .

^١ - مغرب ص ٦ .

^٢ - هي أقدم نصوص في انقلم العرب .

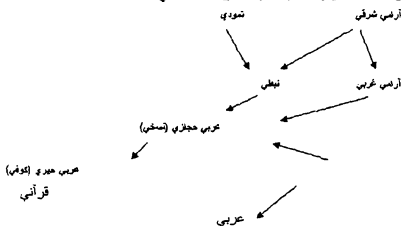
٣. ومخطوط المتحف البريطاني بلندن رقم ٢١٦٥ هو أيضاً حجازي قديم ، أقدم من خطوط الكوفة والبصرة العراقيين .

٤. مخطوطة المكتبة الملكية بالقاهرة رقم ٣٨٧ لا تبدو بقدم المخطوطات السابقة ، فهي تشير الى أنها 'توثيقية' كما من ورقة ١٨ ، لجامع عمر في أورشليم ، وقد دون على ورقة منها وبوضوح كلمات " مئة وستين " وربما من سنة ١٦٨ / ٧٨٤ . فهي ان لم تكن من عهد الخليفة الأموي عبد الملك ٦٥ / ٦٨٥ . ثم إن خطها كوفي واضح متقن جميل ، وقد تكون هذه المخطوطة ، لوضوح تاريخها ، أساس كل معرفة عن أئمة مخطوطة أخرى ، فبالنسبة إليها نعرف قديمها من حديثها ، ونعرف خطها أحجازي هو أم عراقي ؟ مع هذا ليست هي الوحيدة الباقية من ذلك الوقت كما ليست أقدمها .

ورغم هذا ، ومما يبحث على الأسف ليس لدينا اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيام الرموز ، ولا نملك أي نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدونة في أيامه ، فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة عثمان بن عفان ، ولا النسخ التي نوتت بأمره لتوزع على الأمصار ولا أية نسخ أخرى من النسخ التي دوتها الصحابة لأنفسهم ، ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك أو سادات القبايل والأمراء .

رابعاً : الخطوط المقارنة

من ينظر الى لائحة خطوط بعض اللغات السامية القديمة ، ويقارن بينها يستنتج أن الخط العربي بالإضافة الى الالهات السابقة التي جاءت نقوش أثرية ، ومخطوطات قديمة ، تتحدر من عدة مصادر وتتصور تحكها على الشكل التالي :



٥. د. محمد علي ، النسخ العربي .

يبدو من ذلك أن القلم القرآني يتحدر من النسخي المتميز بتدوير حروفه ، ونجد في المخطوطات الحجازية للقرآن ، وهذا بدوره يتحدر من النبطي الذي نرى له مصدرين :
الأول :

شودي مع ما يقاربه من الديثاني والحياني والصنوي ، وقد وجدت له نقوش في مملكة الأنباط ، في حوران وبصرى ، والنثني المسند قلم اللغات الجنوبية كالمعينية والسبئية وغيرهما .

ويتحدر أيضاً من القلم المسمى " حيرى " نسبة إلى الحيرة ، وقد دعي فيما بعد بالكوفي ، نسبة إلى الكوفة التي بنيت على أنقاض الحيرة ، ويتميز هذا الخط بزواياه المربعة ، وبحروفه المستقيمة ، سمي لأجل ذلك بالجزم ، وهذا تحدر من الآرامي الغربي والشرقي اللذين تحدرتا بدورهما من الكنعاني .

لأن الآرامي كان مصدراً هاماً أكثر من سواء من خطوط ، وهو الذي في المخطوطات العربية القديمة ، كان في نشأة القلم العربي مباشرة ، وقد لا يكون في وقت متأخر ، أي أثر يذكر من القلم النبطي . لذلك ينكر بعض علماء اللغات أن يكون علاقة بين القلم النبطي والقلم العربي ، ويعتبر هؤلاء أن الآرامية هي في أساس كل شيء في القلم العربي وهم يستدلون على ذلك بالأمور الآتية .

١. إن ترتيب الأبجدية هو نفسه في العربية والآرامية ، أي ، أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعقص ، قرشت ، ثخذ ، ضطغ ، وعددها ٢٢ . أما ما يسمى بالثروانف في العربية ، أي الحروف الزائدة ، فحشرت بعد الحروف المشابهة لها . مثلاً : وضعت ال "ت" وال "ث" بعد ال "ب" وال "ح" بعد "ج" وال "ذ" بعد ال "د" وال "ز" بعد ال "ز" وال "س" بعد ال "س" وال "ص" بعد "ص" وال "ط" بعد ال "ط" وال "ع" بعد ال "ع" وال "ق" بعد ال "ق" وال "ل" بعد ال "ل" ... وقام بهذه الفلزكة نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر العدواني ، وذلك لتسهيل تصويرها وحفظها للدارسين ، وقصدهما تعليمي ، علماً بأن قيمتهما الحسابية هي كما في ترتيبها الآرامي لا العربي .

٢. إن حساب الجمل هو نفسه في اللغات السامية جميعها ، في الآرامية كما في العربية .
٣. إن فصل الحروف واتصالها في كتابة الكلمة ، هي نفسها في الآرامية والعربية .

١. إن قاعدة حذف الألف في وسط الكلمة في اللغتين الآرامية والعربية هي أيضاً نفسها كما في هذه الكلمات الواردة في القرآن مثلاً : الرحمن ، مسكين ، مسجد ، يتقى ، كتب . وهي بدل : الرحمان ، مساكين ، مساجد ، كتاب ، يتلمى ... الخ .
٢. وكذلك حذف الألف في صفتين : فاعل تفاعل كما في : برك وتبرك ، بدل : بارك ، وتبارك
٣. ثم حذف الألف من ضمير المتكلم 'أنا' كما في 'أرسلتك' و 'وصطفينه' و 'وبشّرناه' ، بدل : أرسلناك ، واصطفيناه ، وبشّرناه .
٤. ثم حذف الألف في جمع المؤنث السالم كما في : صدقات ، وطيبات ، بدل : صدقات وطيّبات .
٥. وحذف الألف في الجمع المنكر السالم كما في : الظلمين ، والكافرين ، بدل : الظالمين ، والكافرين .
٦. وحذف 'ي' في ملك : يارب ، وأنتِ ، وتمكرون ، وتعلمون ، بدل : يا ربي ، أنتي ، تمكرون ، وتعلموني .
٧. ثم في صيغ كلمات بقيت هي في المصاحف ، وهي تدل على أصلها الآرامي مثل : الحبروة ، الصلوة ، الزكوة ، بدل : الحياة ، الصلاة ، الزكاة .
٨. ثم ورود كلمات كثيرة في القرآن على أصلها الآرامي مثل : سفر ، مرسم ، بعير ، بيع ، جهنم ، حطّة ، حواريون ، ملكوت ، رقيم ، مرقوم ، ربانيون ، سينين ، صراط ، شهر ، عدن ، فردوس ، فسطاط ، فراطيس ، قنطار ، كنز ، قيوم ، صوب .
٩. ثم كتابة الحروف في آخر الكلمة هي غيرها في أول الكلمة أو في وسطها ...

كل هذه الظواهر تدل على علاقة وقاربة بين القلم العربي من جهة والقلمين الآرامي والنبطي من جهة ثانية ، كما تدل على أسبقية القلمين المذكورين على القلم العربي ، ويتحصل من ذلك أيضاً أن كثيراً من المعاني والكلمات المقربة والأسماء الآرامية والخصائص اللغوية وكيفية النطق ، وعدة مفردات ... دخلت اللغة العربية من مصدر آرامي أو من لغات أخرى سامية مرت عبر الآرامية ، حتى الفارسية ، إلى اللغة العربية . وليس من ينكر وجود ذلك في القرآن نفسه الذي جمع بحسب العلماء المسلمين أنفسهم ، مئات الألفاظ الأعجمية .

وليس في هذا ضمير طالما أن هذه الألفاظ قد دخلت إلى العربية بطريقة النحت وأصبحت ألفاظاً عربية ، ثم تنزل القرآن عربياً ، بألفاظ عربية ، وعبارات عربية .

لكن القول بأن اللغة العربية هي من منطقة غربي الفرات ، جاءت مكة والحجاز من الشمال لا من الجنوب ، وأن اسمها في أساسه وأصله ، يعني الغربية ، وإن أول المتكلمين بها كانوا نصارى ، وأن أول ما بقي لنا من أثر على اللغة المعمّاة "عربية" يحتم علينا الإقرار بمسحيّتها ، لكن القول بهذا بجانب للحقيقة وفيه ظاهرة تبشيرية ، وظاهرة تعصبية تنتهي إلى أن القرآن لغته غير عربية الأصل ، وأن المسيحية قد تركت بصماتها على هذه اللغة ، بينما اللغة العربية تعود إلى أصحابها المنقسمين إلى ثلاثة أقسام : عرب بائدة ، عرب عاربة ، عرب مستعربة ، والعرب المستعربة كانت علاقتهم بالعرب العاربة أوثق ، وأن العرب العاربة انتهوا إلى العرب المستعربة في الشمال ، وكان المزج ، وكان التزاوج .

محمد عزة دروزة أشار في كلامه على لغة القرآن قائلا :

'إن البيئة الحجازية ... وخاصة مكة والمدينة ، كانت بيئة تجارية ، منصلة بالبلاد المجاورة ، التي كانت تتمتع بحضارة غير يسير من الحضارة والثقافة ، وكان فيها جاليات كتابية نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد ، وكانت تتداول الكتب الدينية وغير الدينية قراءة وكتابة ، فلا يقل أن يظن للعرب أهل هذه البيئة غافلون عن اقتباس وسيلة من أشد الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية ، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوها منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير ' .

والى مثل هذا أشار الدكتور جواد على بقوله :

'إن الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي ، الذي أخذ منه قلم مكة ، هم من العرب النصاري في الغالب . فأهل الأنباط والحيرة ، وعين الشمس ، ودومة الجندل ، وبلاد الشام كانوا من النصاري ... وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هناك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت للنصرانية قد وجدت سبيلا لها بينها ' .

وفي رأي المستشرق "ويل" أن نظرية اشتقاق الخطوط تشير بكل جلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي ، المتفرّع بدوره عن الخط الآرامي .

١ - محمد دروزة ، القرآن العجيد ، ص ٧٥ - ٧٦ .

٢ - جواد علي ، المجلد ٨/ ١٧٨ - ١٧٩ .

كما يذهب المستشرقون - برأى ولفسون - أنه في ذلك الزمن ، أي زمن نصر السّارة سنة ٣٢٨ - لم تكن الكتابة العربية قد وجدت بعد ، إذ لم يعثر الآن على كتابات عربية ترجع الى ذلك العهد ^١ .

لكن الذي نطمئن إليه هو أن الكتابة قد دخلت الى مكة والحجاز على شخص واحد كما سبق أن ذكرنا ، وكما تؤكد الروايات ، هذا الشخص هو بشر الحيري النصراني ، وعنه أخذ أشخاص ، وكانوا قلة قبل الإسلام ، يتداولون الكتابة ، وبهذا كان للقرآن أن يطلق على العرب بأنهم جماعة أميون .

إن الخط العربي أخذ ينمو ويتطور ويستقل رويداً رويداً عن النبطي ، ويكون لنفسه شخصية برزت بوضوح وسرعة في نقش حرّان ٥٦٨ . ولعل هذا السبب الذي جعل المستشرق "أوري" يرفض الاشتقاق للخط العربي من تعلم النبطي .

إن القول بأن التجارة مع بلاد الشام كانت السبب في نقل حضارة غربي الفرات الى مكة والحجاز ، وأن ما ذكره المؤرخون المسلمون من أن الحروف العربية لم تختراع إلا قبيل البعثة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمهيص والتدبر ^٢ . إن هذا القول لا يتفق مع الحقيقة التاريخية المؤكدة ، ويلقي ما ذهب إليه القرآن ، بأن العرب لم يسوا أمة حضارة ، بل هم أميون ونبيلهم أمة .

والذي نذهب إليه هو ما جاء على لسان جرجي زيدان بأنه :

" ليس في آثار العرب بالمجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة إلا قبيل الإسلام مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمة من العرب خلقوا نفوساً كتابية كثيرة ، وأشهر تلك الأمم ، حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند ، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وأثارهم باقية الى الآن في ضواحي حوران والبلقاء ، والسبب في ذلك أن الحجازيين أو عرب مضر كانت اليدوة عالية على طباعهم ، والكتابة من الصناعة الحضارية ^٣ .

أشهر الروايات حول الرجل الذي نقل الخط الى بلاد العرب هي الرواية التي تقول بأنه رجل اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو الكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار ، وخرج الى مكة فزوج الصّهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي

^١ - أ. ولفسون ، تاريخ لغات السامية ، ص ١١٠ .

^٢ - من غرة دوررة ، عصر النبي ص ١٤٩ .

^٣ - جرجي زيدان ، تاريخ السنداء الآدمي ج ٥٨٤٢ .

سفيان ، فعلم جماعة من أهل مكة أكثر من يكتب بمكة من قريش عند ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط إلى العرب هو حرب بن أمية .

لقد ذهبت بعض الروايات إلى القول بأن قريشا في مكة ، لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس ، لكن هذه الروايات اختلفت فيما أخذ عنه حرب ، فرواية أبي عمرو الداني تذكر أنه تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وفيها يقول زياد بن أنعم : قلت لابن عباس معاشر قريش : هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي ، تجمعون فيه ما ما اجتمع ، وتفرقون فيه ما افرق ، وجاء بالآلف واللام والميم ، والشكل والقسط ، وما يكتب به اليوم ؟ قال ، ابن عباس : نعم . قلت فمن علمكم الكتابة ؟ قال : حرب بن أمية . قلت : فمن علم حرب بن أمية ؟ قال : عبد الله بن جدعان . قلت فمن علم عبد الله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار . قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال : طرائط أهل اليمن من كندة . قلت : فمن علم ذلك الطارئ ؟ قال : الحلجان بن الموهم كني كاتب هود نبي الله عز وجل^١ .

ورواية الكلبي تذهب إلى أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك وفيها يقول عوانة : أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم ، مراد بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وكذا عامر بن جثرة ، وهم من عرب طيء تعلموه من كاتب الوحي سينا هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرهما ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحري بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فترج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان ، فتعلم منه جماعة من أهل مكة .

ومن هنا وجد عدد يحقق الخط والكتابة قبل الإسلام ولكنهم قلّة بالنسبة إلى تلك الكثرة الغامرة من الأميين ، وفي ذلك يمتنّ رجل من أهل دومة الجندل على قريش فيقول :

لا تجدوا نعاء بشر عليكمو	فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم ^٢ حتى حفظتمو	من المال ما قد كان شئني مبعثرا
فأجريتكم الأقلام عوداً وبداء	وضاهيتكم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتكم من مسند الحي حمير	وما زبرت في الصنف أقلام حميرا

^١ - ماحي النعمان الزرقي ٣٦٢/١ .

^٢ - سمي الجزم لأن حرم أي قطع - من الخط - يسمى بالسد وهو خط حمير .

أولئك أهل مكة ، أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود ، وقد دخل للنبي ﷺ المدينة وفيها يهودي يعلم الصبيان الكتابة ، وكان فيها بضعة عشر رجلاً يحفظون الكتابة ، منهم المنذر بن عمرو ، وأبي بن وهب ، وعمرو بن سعيد ، وزيد بن ثابت الذي تعلم كتابة اليهود بأمر من النبي ﷺ^١ .

الخطوط عند العرب :

إن العرب تعلموا الخط النبطي من حوران أثناء تجارتهم إلى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الحطآن معروفين عندهم بعد الإسلام .
لقد جاء الإسلام والكتابة معروفة في الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة إلا بضعة عشر إنساناً ، وأكثرهم من كبار الصحابة وهم علي بن أبي طالب ، عمر بن الخطاب ، طلحة بن عبيد الله ، سلمة بن عبد الأشهل ، عبد الله بن سعد بن أبي مسرح ، حويط بن عبد العزى ، أبو سفيان بن حرب ، معاوية بن أبي سفيان ، جهيم بن الصلت بن مخزومة ، ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للحلفاء الراشدين وكتب الرسائل وكتب القرآن ، لقد كتبوا القرآن بالخط الكوفي أيام الراشدين وبنى أمية ، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور إلى أربعة أقلام إشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة حيث كان أكثر الكتب إتقاناً وجودة في زمنه ، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف ، ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره فبلغ عدد الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية اثني عشر قلماً وهي :

١. قلم الجليل
٢. قلم السجلات
٣. قلم التنبياح
٤. قلم أرسطوز مار الكبير
٥. قلم الثلاثين
٦. قلم الزنوبر
٧. قلم المفتح
٨. قلم الحرم
٩. قلم المنمرات

١٠. قلم اليهود

١١. قلم القصص

١٢. قلم الحرفاج

وفي عهد المأمون تنافس للكتاب في تجويد الخط فحدث القلم المرصع ، وقلم النسخ .
وقلم الرياسي نسبة الى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع وقلم غبار
الحلية^١ .

لقد تجاوزت الخطوط العشر من الأشكال وكلها كوفي . وأما الخط النسخي أو
النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى إذا نبغ ابن مقلة المتوفى
سنة ٣٢٨ هـ أدخل من الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن ، وأدخله في
كتابة الدواوين ، والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي السى
صورة القلم النسخي ، ولغالب أن الخطين كانا شائعين معاً أول الاسلام : الكوفي للمصاحف ،
والنسخي أو النبطي للرسائل ونحوها . وأن ابن مقلة جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة
حتى يصلح لكتابة المصاحف ، لقد عرض في معرض للخطوط العربية القديمة في دار الكتب
الخطوبية [دار الكتب المصرية الآن] عقد نكاح مكتوباً في أواسط القرن الثالث للهجرة سنة
٢٦٤ هـ على رقّ مستطيل في أعلاه صورة المغد بالقلم الكوفي المنتظم ، وتحتها خطوط
بالقلم النسخي على غاية من الاختلال ، فابن مقلة حسّن هذا الخط وأدخله في كتابة
المصاحف.

ثم تفرّع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقلام
الرئيسية في اللغة العربية اثنين : الكوفي والنسخي ، ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها^٢
بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام وهي :

الثالث ، والنسخي ، والتعليق ، والريحاني ، والمحقق ، والرقاع ، واشتهر من
الخطاطين جماعة كبيرة ألفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها في أدوات الخط كالأقلام ، وطرق
بريها ، وأحوال الشق ، واللقط ، والدواة ، والمداد ، والكاعد ، وغير ذلك^٣ . وما يزال الخط
يتفرّع وينمو عملاً بمسنة الارتقاء الى اليوم .

^١ - كشف الظنون ج ١ ص ٤٦٦ .

^٢ - كشف الظنون ج ١ ص ٤٦٧ .

أما أدوات الكتابة فكانت مختلفة الأشكال ، فالقلم كانوا يصنعونه من القصب ، وأما الحبر فكانوا يصنعونه من مسحوق الفحم أو من الهباب مذاباً من سائل لزج كالصمغ أو نحوه . وأما القراطيس فأقدم ما كتب به العرب من أول الإسلام الرق [الجلود] ، وكتبوا أيضاً على الأقمشة وأشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطي ، وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الإسلام . وإذا تعمّر ذلك كتبوا على الخشب أو العظام أو على قطع الخزف أو على الأحجار . ولما فتحوا مصر اتخذوا البردي فكان أكثر مكاتبات الأمويين على البردي والقباطي ، وفي دار للكتب المصرية آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها في بعض أنحاء مصر ، وقد ظهر عليها قبلي ، والكتابة لا تزال ظاهرة عليها .

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد ، والذي أشار به الفضل بن يحيى البرمكي فاصطنعوه ، والأرجح أنهم أخذوه عن صناعة الصين لأن الصينيين برعوا في صناعة الورق قبل الميلاد ، فلما فتح المسلمون ممرقند أخذوها عنهم لكنهم لم يجتهدوا في تعاطيها إلا أيام الدولة العباسية إذ ضاقت الترقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات ، فلما نشر الفضل باصطناعه ، فأنشأوا له المصانع في بغداد والتشام وغيرها من عواصم الإسلام .

وعن العرب أخذ العالم صناعة الورق ، لأن أهل أوروبا لما أفاقوا من سباتهم في الأجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي ، وانتقلت صناعة الورق إلى أوروبا عن طريق الأندلس ، فقد كان للعرب مصانع لصناعة الورق في شاطبة وبلنسية وطليلة . فلما دخلت الأندلس في حوزة الأفرنج استبقوا تلك المصانع ، ثم نقلت من أسبانيا إلى سائر أنحاء أوروبا ، ومن أقدم المخطوطات العربية على الكاغد نمحة من كتاب ' غريب الحديث ' في مكتبة ليون الجامعة . يظن أنها كتبت في أوائل القرن الرابع^١ .

وخلاصة القول فالعرب ظلوا يكتبون إلى أواخر الدولة الأموية على الجلود والرقوق درجاً ، فكانت دقات الحكومة عبارة عن نفاث من الجلد ، فلما أفضى الأمر إلى العباسيين وقام أبو العباس المتفاح بالأمر ، واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدقار من الأكرج إلى الكتب ، فظلت الحكومة تدون في كتب من الجلد ، إلى أن تصرّف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في أيام الرشيد ، فاتخذ الكاغد [الورق] فتداوله الناس من بعده ، وظلّوا مع ذلك أجيالاً يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والخراساني^٢ فضلاً عن

^١ - حرر في زمان ، تاريخ تمدن الإسلام ج ٣ ص ٢٥٠ .

^٢ - المعرفت ٤٠ .

الكاغد يصنعونه كراريس أو دفاتر وكان بعضهم يفضل الرقاع عليها ، كالفارابي الذي كانت كُتُبُه يحفظها على الرقاع^١ .

هذه هي قصة القلم العربي على اختصار ، وتحتاج الى تفصيل وتفرع لأنها طويلة وغنية ، ولئن تناول العرب المسلمون بعض التنازل من غيرهم ، واقتبسوا بعض الاقتباس فلا يعيبهم ذلك طالما انقلبوا الأساندة للعالم .

❖ الدعوة الى إصلاح الخط العربي :

صدر عن دار "حروس برس" في طرابلس كتاب للدكتور أميل يعقوب بعنوان " الخط العربي ، نشأته ، وتطوره ، مشكلاته ، دعوات إصلاحه " وقد تضمن هذا الكتاب الأبواب والفصول الآتية :

١. نشأة الخط العربي ومشكلاته .
٢. نشأة الكتابة والخط العربي .
٣. تطور الخط العربي وانتشاره .
٤. مشكلات الخط العربي .
٥. دعوات إصلاح الخط العربي .
٦. الدعوة الى معالجة مشكلة الحركات .
٧. الدعوة الى معالجة تعدد رسم الحرف الواحد .
٨. الدعوة الى معالجة مشكلتي الحركات وتعدد رسم الحرف الواحد معاً .
٩. الدعوة الى الحروف اللاتينية في الكتابة العربية .
١٠. مشكلات الإملاء العربي .

وشهد العرب في العقود الأولى من هذا القرن دعوات إصلاحية عدة تناولت مختلف جوانب اللغة العربية ، وقد أثمرت بعض هذه الدعوات ، وفشلت دعوات أخرى ، وأكثر الدعوات الإصلاحية تناولت الخط العربي ، وخاصة عندما كثّر الناعون على العربية صعوبة خطها ، وبعد أن اقترح عبد العزيز فهمي عن مجمع اللغة العربية في القاهرة تبني الحرف اللاتيني في الكتابة ووافقه كثيرون على هذه الدعوة وعلى رأسهم طه حسين المصري ومسيّد عقل اللبّاني، فدرس المجمع اقتراحه ، ثم قرّر طبعه مع ما دار حوله من مناقشات لعرض ذلك كله على الدول العربية مخصصاً جائزة قدرها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تبسير الكتابة،

^١ - ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧ .

وقد بلغت الاقتراحات المئات ، وأكثر دعوات الخط العربي مثلاً للجدل والنقاش كانت الدعوة الى الحرف اللاتيني ، نظراً الى ما كتب حول هذه الدعوة ، ولأن سائر الدعاوات مكنت أصحابها عن اقتناع أو غيره ، أما هي فما فتئت كالحية الرقطاء تظل برأسها من حين الى آخر ، حتى إذا استتطمناً برزت طارحة نفسها على أنها الحل الوحيد للقضاء على مشكلات الخط العربي جميعاً ، ونسي أصحابها أو تناسوا أن أضرارها أكثر من حسناتها . خاصة أنها تقطع الصلة بين حاضر الأمة العربية وماضيها ، وأنهم بعض أصحاب هذه الدعوة بالشعوبية ، وبغيرها من اللعوت التي نرمي بها من يخالفنا الرأي ، أو من يطعن علينا بدعوة إصلاحية . معظم هؤلاء الدعاة الى الإصلاح لديهم خلفيات مشبوهة وخاصة أنهم غربيون يضمرون سوء اللغة العربية ولكل ما هو إسلامي ، هناك البعض منهم لا يمكننا إلا أن نحسن الظن بهم لأنهم لا يبغون لهذه اللغة إلا الخير والصالح ، وهم إن أخطأوا في دعوتهم فحسبهم أنهم حاولوا ، ومن حاول فأخطأ له أجر واحد ، ومن حاول فأصيب له أجران .

وكيفما انقلب الأمر فإن الدعوة الى اللاتينية انطلقت بأولى خطاها على أيدي بعض المستشرقين الذين لا يريدون للعربية خيراً ، ولا للتراث الإسلامي حفظاً ، أولئك المستشرقون ربما ، أو يقيناً لم تكن نواياهم على صفاء في تذليل الصعوبات في اللغة العربية ، أما دعائهم العرب فمعظمهم أخذهم الانبهار بالغرب ، واستلكتهم ضعف الثقة بلغتهم وثرثرتهم ، ويمكننا أن ننتع بعضهم بالعمالة وخدمة العدو ، وإن كان محمد قنصل قد أحسن الظن بهم وذهب الى القول بعدم جواز اتهام هؤلاء بالعمالة أو الإمبريالية وغيرها من اللعوت التي يحلو لنا رمي من يخالفنا الرأي بها ^١ .

إن الداعين الى اللاتينية قد عميت أبصارهم أو تعامت عن رؤية ما يقترب على هذه الدعوة من أضرار جسيمة ، فوقعوا في أخطاء منهجية بالغة إذ بينوا حسنات دعوتهم دون سيئاتها ، وإن كان الذين تصدروا للدعوة الى اللاتينية وهجموها لم يخل موقعهم من أخطاء منهجية فهم يدل أن يظهروا عيوب الدعوة الى اللاتينية بحذ ذاتها ويكشفوها راحوا يكشفون صعوبات الإملاء اللاتيني ، مشككين على الإملاء الفرنسي والإنجليزي بصورة خاصة ^٢ . بعض هؤلاء أتوا في تصنيفهم للحرف اللاتيني بحجة لو تمنع فيها الناظر لوجد أنها عليهم لا لهم .

^١ - محمد قنصل ، مدخل جديد الى تعليم القواعد العربية ، حرمه شهر العدد ١٣٤٢٤ تاريخ ١١/١٢/٨٠ ص ١١ عمود ١ و ٢ .

^٢ - أنظر مثلاً مجمع اللغة العربية ، تيسر الكتابة العربية ص ٤٨ - ٥٢ . ومحمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ،

يقول مازون عبود في ردّه على الحرف اللاتيني ^١ :
" ودعاة الحرف اللاتيني ماذا تقول فيهم ؟ إنهم يطلبون للتسهيل ليقعوا في أشد الصعوبات فمن ممّا ومنهم يحسن ضبط الكلمات حتى يكتبها بالحرف اللاتيني " .

إن مازون عبود يتخذ جهلنا باللغة ذريعة للوقوف في وجه الحرف اللاتيني ، علماً بأن هذا الجهل يعود في بعض أسبابه الى خلوّ خطّنا من الأحرف الصائتة ، وهو لو تعلّمناه محرّكاً ، أو لو كان مكتوباً بالحرف اللاتيني منذ بدايته لخف هذا الجهل كثيراً ^٢ .
وفصل الداعون الى هذه الكتابة مغالين أشدّ المغالاة في إظهار حسناتها رغم أنها شرّ خطر على اللغة العربية نفسها ، وعلى الناشئة ، إن معظم هذه العيوب أظهرها الذين دافعوا عن الحرف العربي ، وخاصة أعضاء اللغة العربية في مناقشتهم لاقتراح فهمي ^٣ .

❖ اقتراح فهمي :

' لقد لاحظ المسلمون في الصدر الأول ، ما تلاحظه - الآن - من أن هذا الرسم " العثماني " مصيبة على العربية ، لأنه مضلّ ، لا يشخصها ، ولا يقي من تصحيفها ، وتغيير أصل المراد بعباراتها ، فعالجوا الأمر أولاً : بالنقط ...

ولا زال - أي بعد النقط والشكل - بين رسم القرآن ورسم غيره من المكتوبات فرق غير قريب ، ولا زالت مصيبة الرسم قائمة لم يحلّها الشكل الذي أفلس بإجماع العارفين ، ولا زالت هذه المصيبة مائعة من إمكان قراءة العربية قراءة صحيحة ، موخّدة الأداء لدى جميع القارئین ...

على كل بلد عربي أن يجعل من نهجتها العامية لغة مستقلة ، قائمة بذاتها ، لها نحوها وصرفها ، وتكون هي المستعملة في الكلام الملفوظ ، وفي الكتابة معاً .

إن هذا الرسم ، على ما في مظهره - الآن - من جمال ، لهُر عَلة العلل ، وأسن الذاء ورأس اللبلا .

^١ - مازون عبود أدب لبناني نقاد عبق ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٦ م ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م عمل في التدريس والصحافة أصدر نحو خمسين كتاباً .

^٢ - المجموعة الكاملة لفرّان شكّال ص ٤٠٧ .

^٣ - أبحر في عدة اللسان : معجم اللغة العربية " تيسر لكتابة العربية " ص ٤٥ - ٦٩ ، ونوبس خطيل - نغمة اللغة العربية ومنتزوع الحروف الثلاثة ، مجلة المنطق ج ٤٠ ، العدد ١ ، كانون الأول ١٩٤٤ جروت ص ٩ .

إنه سرطان : أرمز فشوة مظهر العربية ، وغشى جمالها ، ونقر منها الولي القوي
والخاطب الغريب ، ولبي إذ أقول: سرطان فإني أعني ما أقول ، لأنه كالسرطان حساً ومعد
* لقررت أني لست مكافأ باحترام رسم القرآن ، ولست ألقي عتلي لمجرد أمر بعض الناس .
كلهم ، يرينون إلغاء عقولهم ولا يميزون بين القرآن العظيم ، كلام القديم ، وبين رسمه
السذيف الذي هو من وضع الوثنيين القاصرين * .

ثم يقول :

١. إن الله تعالى : لم ينزل به من سلطان ، ولم يفرض علينا التعمد له برسم القرآن .
٢. إن صورة هذا الرسم التي كانت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكتب بها
المصاحف كانت صورة بدائية سقيمة ، قاصرة خيف من قصورها أن تضلل المسلمين
في قراءة القرآن . فسارع الخليفة عبد الملك بن مروان ... الخ . ما يذكر من مراحل
النقاط والشكل .
٣. ولأن رسم القرآن ونشئ ، لأنه منقول عن النبطيين ، كما قال المستشرقون .

أما كيف أريد أن أرسم القرآن ؟

إذا كان أول ما يهمني ، هو المحافظة على سلامة أداء القرآن ، فأرأيي بالبداية ، إنما
هو رسم القرآن بهذه الحروف اللاتينية ، وما أضيف إليها من العربية وإنني أعلنك
بهذا مطمئن الضمير ، مراقباً لله تعالى وحده ، فيما أقول ، وأعلن به ، " إذا هب الهنابون
صنّعين قلّتين :

إن هذا حرام لمخالفته لإجماع المسلمين ، الذين تواضعوا على رسم القرآن بالحروف
العربية ، فإني ما يجب به هؤلاء الهنابون :

أولاً : إن المسلمين قد خرقوا الإجماع ثلاث مرات حينما وضعوا الشكل والنقط .
ولست أعرض عليهم في خرق الإجماع ثلاث مرات ، فليهنأ إنما أرائوا الإصلاح ما
استطاعوا ، والإجماع القاسد لا حجة فيه على أحد من المسلمين .

وأنا أيضاً أريد الإصلاح ما استطيع فأبدل الحروف اللاتينية من الحروف العربية ،
أكفي الناس سوء رسم العربية الذي يشكو منه الناس أجمعون .

ثانياً : إن الاعتراض بمسألة " الإجماع " هو تكأه العاجزين ، وهم أناس مقلدون غف
المقول إذا صرعهم الحق لمنموا أشلاءهم ، وهولوا لاجئين الى قنس الدين ، والدين في
قداسه كما يعرف رجاله المحترمون ، لا شأن له برسم كتابة العربية .

وهم في كل حركة وسكينة ، هكذا يفعلون ، ترهيباً للبسطاء ، وإيهاماً وخداعاً باسم
الدين ، والله يشهد أنهم لكاذبون

هذا هو الإجماع - الذي براه هو - لا يجوز التبتة ، أن يعطل مصلحة من مصالح
المسلمين ، بل إنه إذا كشفت ظروف الأحوال عن ضرره بالمجموع ، وكان في إطراره
والاستبدال به خير للمسلمين ، فإن واجب الحكم الشرعي : أن يأمر بإطراره ، والاستعاضة
عنه من الأنظمة والأحكام بما يحقق مصلحة الاجتماع .

والى هذا الواجب أشاروا الى قواعد منها : الضرورات تبيح المحظورات
هذا هو مركز الإجماع ، الذي يقولون عنه عند المسلمين ، وإذا كانت طريقتي في
رسم العربية ، ورسم القرآن ، تزيل الضرر ، وتحقق مصلحة المسلمين تمام التحفيق ،
فأعطني من زيادة الكلام في وهنة هذا الاعتراض .

ثم يقول :

" إذا كانت الحروف العربية وثنية منقولة عن الوثنيين ، فإن اللاتينية : إنما انتقلها عن
النصارى ، وهم أهل كتاب ، أقرب من الوثنيين إلينا نحن المسلمين " .^١

❖ مناقشة وردود :

هذا الاقتراح هو أغرب ما قيل في معرض الدعوى حول رسم المصحف .
هذا الاقتراح المشبه أو القاصر تقدم به صاحبه الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في
جلسته المنعقدة في ١٩٤١/٢/٢ ، والذي نادى فيه بأن نكتب اللغة العربية بالحروف اللاتينية ،
ولم يكن من المجمع إلا الاعتراض على هذا الاقتراح ، حتى أصابه الانتثار ، وطواه النسيان
منذ ١٩٤٤ .

هذا الاقتراح ، والاعتراضات عليه ، طبع ضمن مطبوعات مجمع فزاد الأول تحت
عنوان " تبسير الكتابة العربية " .

أن يرسم المصحف حسب القواعد الإملائية العربية الحديثة فهذا مطلب ، أما أن يكتب بالحرف اللاتيني فهذا هو الخطر المزدوج ، إنه الخطر على المصحف خاصة ، وعلى اللغة العربية عامة .

لا بد لهذا الاقتراح من مناقشة درءاً لاستغلال الأيدي للمغرضة أو السانجة ، وقد يستغل المغرضون أباطيله ، وينخدع السانجون بزيف أقاويله .

من كان له رغبة في قراءة الاقتراح نفسه فعليه بالرجوع الى " تيسير اللغة العربية " . وإذا كان لنا أن نبحث في هذا الصدد ، فمنهجنا يحدد بنكر الفقرة التي يعبر فيها المؤلف عن رأيه كاملاً واضحاً دونما أي تصرف أو اختزال مع ذكر أدلته إن كان له من أدلة ، ثم نتبع ذلك بالرد العلمي حسب ما نرى ، وباختصار مضغوط .

أولاً :

يقول فهمي بأن المسلمين في الصدر الأول قد لاحظوا بأن الرسم العثماني مصيبة على العربية لأنه مضلل ، فعالجوا الأمر أولاً بالنقط

والذي هو اليقين ، إنه لم يلاحظ أحد من المسلمين الأول ما يدعيه فهمي ، وليس من ذيل على ذلك ولا مستند أو وثيقة .

يقول ابن الجوزي قديماً :

" إن كتابة المصحف مما يدل على عظيم فضل الصحابة في علم الهجاء ... " .^١

والذي لاحظته العقاد حديثاً :

" أن رسم الكتابة ، بما فيه رسم المصحف ، ليس مصيبة على العربية ، والأمر على عكس ذلك ، لأن هذه الأمم ، كانت أقوى وأرفع ، يوم كانت كتابتها أعسر وأقرب الى اللبس ، والاختلاط ، لقلة الشكل والإعجام " .^٢

ولولا هذا الرسم لأصاب غيره من الكتب السماوية من تزييف ، يقول تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " . وللحفظ من الأسباب ما هو على أيدي أهل القرآن وأصحابه بما كان لهم من تدوين ورسم .

^١ - المؤرخ: التنجيني في علوم العربية ١٧/١ .

^٢ - تيسير الكتابة العربية ص ١٧ .

فكيف يكون هذا الرسم مصيبة على اللغة العربية ، وكيف يكون مضللاً وغير مشخص لها ؟

ثانياً :

يكرر في أكثر من مواطن ، في كتابه يتقدم نقط الإعجام على الشكل فيما فعله التاجعون ، الى جانب أن العلاج بالنقط لم يكن خوفاً على الناس من بقاء الرسم هكذا خالياً ، ولكنه كان خوفاً على الرسم من لحن الناس الذي ينتشر بينهم .
لقد حكم بأن الشكل قد أفسد في حل مصيبة للرسم في حين أن الشكل كان له نجاحه في مهمته وفي فترته وفي ما وضع لأجله .

ولئن صحت الرواية عن زياد ، فإن وحدها كقيلة بالرد على فهمي ، نقول الرواية بأن زياد بن أبيه قال لأبي الأسود الدؤلي :
يا أبا الأسود : إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت ألسن العرب ، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله تعالى^١ .

لم يقل لأبي الأسود : إعراب كتاب الله حتى لا تعجز هذه الحمراء كتابته ، ويفسد ألسن العرب رسمه .
لقد كنن للدافع الأول والأخير هو حماية القرآن ورسمه من اللحن الذي امتلك الأكسفة ليعظم خطره ، ويشتد ويله ، ويتقنى مرضه .
حين أصبح النقط ضرورة قرآنية ، والشكل حاجة مصحفية عربية بسبب لحن الناس استعمل كل منهما بدل إهمال ، وقد أفادوا الكثير ، بل كانوا عملية إنقاذ في تلك الفترة ، وإن كان ذلك لا يحل مشكلة المصحف في هذا العصر .

نحن لا نقول بأن الرسم العثماني هو توقيفي ومنزه عن النقص بل نقول بأن هذا الرسم لا زال مانعاً من إمكان قراءة قرآنية صحيحة ، موحدة الأداء لدى معظم المسلمين .
إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية في محنها الصعبة بنظمه ومعانيه ، بفصاحته وبلاغته وسلامة قراءته ، ووحدة أدائه .

^١ تاريخ خزانة : مرقاني ص ٦٨ .

ثالثاً :

للكارثة المدمرة للعربية وللغة القرآنية هي غرض صاحب الاقتراح الذي يدخل إليه بهذه المقدمات الخاطئة والمفاهيم المعوجة .

ما هو غرض فهمي من اقتراحه ؟

إنه يريد لعلاج هذه المصيبة التي يراها أحد شئئين أو هما معاً :

الأول : أن تجعل كل بلد عربية من لهجتها العامية لغة مستقلة ، قائمة بذاتها ، لها نحوها وصرفها ، وتكون هي المستعملة في الكلام المفوظ ، وفي الكتابة معاً .

ألمت ترى أن صاحب الاقتراح بينه وبين اللغة العربية الأم علاقة عدائية ؟

وهل هذا العلاج سوى إبعاد العرب جميعاً عن القرآن الكريم ، ولغته العربية ؟

فإذا كان على العرب أن يتحولوا إلى عاميتهم منصرفين عن لغة القرآن ، فكيف بالمسلمين غير العرب .

الثاني : أن تكتب العربية والقرآن بحروف لاتينية ، وهو الاقتراح الذي أهمل بطلانه منذ عام ١٩٤٤ وكأنه يعالج الداء بالداء .

لطالما كان توجهنا الدائم بأن يكتب القرآن حسب القواعد الإملائية الحديثة وذلك للتيسير على كل قارئ للقرآن ، لكن أن تنتهي الدعوات التي يقال عنها إصلاحية ، إلى الكتابة بلحرف اللاتيني ، فهذا خلط ووهم ، أو هو ذو خلفيات مشبوهة من شأنها محاربة العربية والقرآن معاً .

قد يكون هذا الرسم علة تحتاج إلى علاج لكن أن ينقلب العلاج داء أشد خطراً ووبلاً ، إنه لمردود ومرفوض . يقول ^٦ :

ولسانك نفسه قاتلاً :

” أما كيف أريد أن أرسم القرآن ؟

” إذا كان أول ما يهمني ، هو المحافظة على سلامة أداء القرآن ، فأرسي بالبداهة ، إنما هو رسم القرآن بهذه الحروف اللاتينية ، وما أضيف إليها بالعربية ” .

^٦ - تيسر الكتابة العربية ص ٢ .

^٧ - حروف اللاتينية ص ٢٥ .

هذا هو غرضه الأساسي من اقتراحه الذي لم يصبه النجاح وإن كان لم يعدم له نصيراً
بعضه إن في المجتمع وإن في خارجه ، إن في مصر ، وإن في لبنان وغير لبنان ^١ .

إن الذي يهمّ فهمي في اقتراحه هو كتابة العربية ، وكلمات القرآن بالحروف اللاتينية.

ويذهب بنا اليقين إلى أنه ينبغي من اقتراحه المحافظة على سلامة أداء القرآن كما
يتماذى به الزعم . إنه يعلن اقتراحه ويعلن أنه مطمئن الضمير بهذا الاقتراح ، ونحن نسأله :
ما هي السلامة التي تحيط بالقرآن في أدائه ، وتجعله مطمئن للضمير ؟
فأعضاء المجمع ، وغيرهم أظهروا الأضرار البالغة التي تلحق باللغة العربية عامة ،
في تنفيذ هذا الاقتراح .

فالأضرار إنما تطلّ القرآن واللغة العربية معاً .

ما هي الدوافع التي تبعث فيه ارتياح الضمير واطمئنانه ؟
أهو مراقبة الله ، وطلب مرضاته كما يدّعي ؟ إنه لنفاق
أم هو محاكاة الترك في نبذ الرسم للعربي ؟
إن علي الجارم لديه الخبر اليقين في قوله ^٢ :

لست أرى ما فعله الترك ، وجهاً للعدول عن الرسم العربي :
أولاً : لأن الترك لم يجهروا كتابتهم ، كما يراد أن يفعل بنا ، بل تركوا كتابة العربية ،
وهي ليست كتابتهم .

ثانياً : إن للترك ميلاً لتتقية لغتهم من كل ما هو عربي ، فنحن لا نقيس أنفسنا بالترك ،
ولا بغيرهم ، أم أنه ذلك الدافع هو تنفيذ مخطط خبيث ، سواء تنبّه له أم لم يتنبّه ، وإن حسم
بنا الظن نقول : بأنه محبّ جاهل .
ولكن قديماً قيل : عدوّ عاقل خير من صديق جاهل .

هذه الدعوة ، أو هذا الاقتراح يمكن حصر أضراره بالآتي :

^١ - الخس الصور هامس ص ٣٨٤ .

^٢ - تيسر الكتابة العربية ص ٥٤ .

١. إنها أول ما تطلال القرآن بلغته ، وإنها لأمر خطير في سلبياته أن ينعكس ضرر هذا الاقتراح على القرآن الذي هو كتاب عقيدتنا وتشريعنا ، وهو معجم لغتنا وفصاحتنا .

٢. إنها تقطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية والإسلامية وبين ماضيها ، إذ تحول عاجلاً أم آجلاً بين الأجيال القادمة ، والانتفاع من التراث العربي الذي هو جزء من كيان الأمة العربية والإسلامية ، وأحد مقوماتها الأساسية ، وقطع الصلة بالتراث ، لا يؤدي إلى ضعف الوحدة العربية والإسلامية فحسب ، بل يحرمنا أيضاً من مكتبة ثمينة ونفيسة تركها الأسلاف ، فيها ثمرات عقولهم ، ونتائج بحوثهم ، وتوليف أيامهم ، ودواوين شعرائهم ، وبنات أفكار كتابهم ، ووصف أحوالهم ، وربما يرى بعضهم أنه بالإمكان تلافي هذا العيب بترجمة الكتب العربية إلى الرسم الجديد إلا أن الترجمة فات أوانها ، إذ لو جاءت قبل النهضة العربية أيام العباسيين لأمكن قبولها ، أما اليوم فإن خزائن الدول العربية مجتمعة قد تعجز عن رصد الأموال اللازمة لنقل كل التراث إلى الخط اللاتيني ، خاصة أنه قد طبع من للكتب العربية ، بعد اقتراح فهمي ، أضعاف ما كتب بالرسم العربي ، منذ نشأة هذا الرسم حتى زمن اقتراحه .

٣. تضطرننا إلى زيادة الحروف حتى تبلغ ضعفها في كلمات كثيرة ، فإذا أردنا أن نكتب الفعل [كتب] المكوّن من ثلاثة أحرف ، بالرسم اللاتيني يكون على هذه الصورة katabo ، أي أن عدد الحروف يتضاعف فيصبح ستة ، وهذه الزيادة في الحروف ، تؤدي بلا شك ، إلى إسراف في الحبر والورق والوقت المجهول ونفقات الطباعة .

٤. تؤدي إلى زوال فنون الخط العربي وزخرفته ، ففي الخط العربي مزية قل أن توجد في خطوط الأمم الأخرى ، وهي إمكانية زخرفته على وجوه عدة ، ولقد استطاع الكتّابون المجددون والمزخرفون أن يستخرجوا منه أنماطاً زخرفية غاية الإبداع . يقول دونمسون روس :

إن حروف العربية مرنة سهلة ، لها في النفوس ما للصور من الجمال للفنّ ، ولا سيما حين تنقش على مداخل المباني أو الأضرحة سواء أكانت ثلثاً ، أو كوفيّة ، أو نسخاً^١ .

١ - آخر مقالة " أثر اللغة العربية في العمارة الإسلاميّة " مجلة الرسالة ، العدد ، نيسان ١٩٣٣ بيروت ص ٢١ .

٥. تيسر للقراءة دون الكتابة ، رغم أن الكتابة هي الأصل فيما يقرأ ، ولا شك في أن الخطأ في النطق أهون ضرراً من الخطأ المكتوب ، لأن كتابة الخطأ تحافظ على خطأ النطق ، فضلاً عن أنها تسجله وتثبته .

وهكذا فلا بد في جميع الأحوال من إتقان اللغة إتقاناً جيداً تنتفي معه حاجتنا إلى الحرف اللاتيني كي نقرأ قراءة صحيحة .

٦. لا تعيننا البنية من النقط والشكل ، وإنما تعود بنا إلى النقط في بعض الحروف ج ، خ ، ض ، ظ ، غ ، I ، J ، وإلى ما يشبه الشكل في بعض الحروف الأخرى .

٧. لا تساعد الأجانب على تعلّم لغتنا لأنهم يواجهون في هذه الطريقة حروفاً عربية غريبة عليهم ، وحروفاً لاتينية معقدة على غير ما ألفوه .

٨. لا تنقص عدد أشكال الحروف في الآلة الكاتبة ، بل تزيدها ، ذلك أن عدد صور الحروف العربية أربعة وستون حرفاً في هذه الآلة ، أما في طريقة فهمي فإن هذا العدد يرتفع إلى السبعين ، إذ أن عدد حروف هذه الطريقة خمسة وثلاثون ، منها تسعة وعشرون حرفاً مقابل الأحرف العربية ، وستة أحرف لاتينية [X,G,I,P,G,C] أضافها فهمي لكتابة الأعلام الأجنبية والمصطلحات العلمية وغيرها مما نعرفه .

ولكل حرف منها شكلان : كبير majuscule وصغير minuscule .

تشوّه الكتابة بخلطها الحروف العربية بالحروف اللاتينية .

قد نفد الإيقاع الخاص بالقصيدة ، فتؤدي بالتالي إلى فساد أوزان الشعر ، وإن كان فريجة يعتبر الكتابة عرضاً طارئاً ، في اللغة وليست من اللغة ، أي مجرد إناء للغة^١ .

يقول فريجة في هذا الصدد :

ليست الكتابة من اللغة بشيء ، كما أن الرموز الموسيقية ليست من الموسيقى في شيء . لا بد من الإشارة إلى أن تغيير هذا الإناء ، وخاصة في اللغة العربية ، يؤدي إلى المساس بالمحتوى نفسه .

^١ - انظر أبيس فريجة ، نحو عربية مبسّرة ، ص ١٩٠ .

١٠. يقول ماسينيون :

أنه فكر بعد نجاح مصطفى كمال في إبدال الحروف التركية بالحروف اللاتينية في تركيا بإمكانية تعميم عمل كمال على إيران وسوريا ، لكنه ما لبث أن رأى أن 'لبننة' الخط العربي يؤدي إلى تقويض بنية الخط العربي ، وروح الثقافة العربية والخط العربي الذي هو الفن التجريدي الخاص بالمسلمين .

١١. قد تطرح باضطرارها إلى وضع أشكال لاتينية جديدة لحروف عربية لا نجد نظائر لها في اللاتينية ، مشكلتين :

أولاهما صعوبة القراءة في هذا الجيل على الأقل .

ثانيهما مشكلة الفوضى في الكتابات المقترحة ، ذلك أن هذه الطريقة وليدة اجتihad شخصي فهي بالتالي ، مدعاة لاقتراحات عدة تطورها .

ودليلاً على ما نذهب إليه أن الاختلاف في ابتكار صور للحروف التي لا نجد لها مثيلاً في اللاتينية ، قد ظهر عند داع من دعاة الحروف اللاتينية ، أعنى به سعيد عقل . ولمعرفة هذا الاختلاف تكفي المقارنة بين حرفه اللاتيني المقترح في كتابه 'بارا' ، شعر ، الذي صدر سنة ١٩٦١ ، وكتاب شعراء فينيقي - آيات وصور - الذي كتب سعيد عقل مقدمته ونشره في بيروت ، مطبعة ومنشورات قدوس ١٩٦٧ .

١٢. إنها لا تمنع من تعدد اللهجات ، ومن اختلاف القراءات للكلمة الواحدة ، وخاصة إن كانت هذه الكلمة في ' اللهجة العربية المحكية المشتركة ' التي يقترحها فريحة ، والملاحظ أن الحرف اللاتيني لم يحل دون تشعب اللغة اللاتينية الى عدة لغات ، كما أنه يمنع نشوء اللهجات المختلفة في كل هذه اللغات .

وهكذا نرى أن طريقة عبد العزيز فهمي في الكتابة تبقى على معظم عيوب الخط العربي ، وهي إن جاءت لتساهم بحل بعض مشاكل هذا الخط ، فما برحت تطرح لنا مشاكل أكبر ، لعل من أهمها ، مشكلة قطع الصلة بين مستقبل الأمة وماضيا ، وهذه المشكلة وحدها - في نظرنا - كافية لرفض أية دعوة الى اللاتينية .

❖ معنى النقط والإعجام والشكل :

وزد في كتب اللغة كأقرب الموارد وغيره :

أعجم الكتاب ، خلاف أعربه ، أعجم الكتاب : نقطه ، أي إزالة عجمته وإبهامه .
بوضع النقط والحركات .

نقط الحرف نقطاً : أعجمه وجعل له نقطاً .

شكل الكتاب : قيّده بعلامات الإعراب .

يستفاد مما ذكرنا أن الإعجام وهو سلب الإبهام ، أعم من أن يكون بالإعراب ، أو
بنقط الحروف المتشابهة ، كالباء ، ولقاء لإزالة اللبس بينها .

ويستفاد أيضاً أن النقط خاص بإزالة الإبهام بواسطة النقطة في الحروف المتشابهة ،
أما الشكل فهو خاص بعلامات الإعراب كالضمة والفتحة والكسرة ، وفي التواريخ مشاهد
مختلفة على ما ذكرنا .

❖ مواد الكتابة العربية :

واختيرت المواد التي يكتب عليها العرب في بادئ الأمر من بيئتهم ثم اختلفت باختلاف
الزمان بعد ذلك ، فقد كتب العرب في الجاهلية وصدر الإسلام على المواد التالية :

١. العصب الكراتيف : وكانت أكثر مواد الكتابة شيوعاً ، نظراً لتوفرها في البيئة الصحراوية . والعصب جمع عسيب ، وهو السعفة أو جريدة النخل حين تجف وينزع خوصها . والكراتيف جمع كرنافة وهي أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة .
 ٢. الأكثاف والأوضاع : وهي عظام الكتف والضلوع في الإبل والأغنام .
 ٣. اللخاف : وهي الحجارة الرقيقة البيضاء .
 ٤. الرق والأديم والقضيم : وهي كلها أنواع من الجلود .
 ٥. السهاريق : صحف بيضاء ، من القماش مهرق ، والكلمة في الأصل هي فارسية ، وهي ثوب حريري أبيض يسمى بالصمغ ويصقل ثم يكتب عليه .
- وقد استمر استخدام هذه المواد في عهد الرسول وصحابته في كتابة القرآن ، إلا أنه بعد فتح مصر أضيفت إليها مواد جديدة .

٦. البردي : معروف أن البردي نبات كان ينمو في مصر القديمة والوسيلة على ضفاف النيل ، يبلغ في بعض الأحيان مترين طولاً ، وكان الورق يصنع من ساق النباتات حيث تقسم الساق إلى شرائح طويلة ، ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتغصى بشيء ثقيل ، فتساعد المادة الصخرية الموجودة بالنبات على الالتصاق ، ثم تطرق وتصفل ، وكانت القطعة تلحق بالقضعة لتصير لفافة كبيرة تبلغ ثلاثين ذراعاً أحياناً في عرض شبر ، ويكتب على أوراق البردي من وجه واحد ، وهو الوجه الذي تكون فيه الألياف أفقية لتساعد القلم على المضي في الكتابة ، وقد انتشر هذا الورق من مصر إلى الدول الأخرى ، وبقي المادة الرئيسة في الكتابة طوال العصر الأموي ، وخلال الفترة الأولى من العصر العباسي ، وكانت أوراق البردي على شكل لفائف ، ومن هنا كان شكل الكتاب ، ولم يتحول الكتاب العربي من اللفافة إلى الشكل القفري إلا في زمن أبي العباس السفاح (١٣٦ هـ) على يد وزيره خالد بن برمك (ت ١٦٣ هـ) .

٧. الورق : وفي عصر الرشيد دخل الورق كمناقص خطير للبردي ، ومن المعروف أن مخترعه هو الصيني [تساي لون] في عصر الامبراطور [هوتاي] سنة ١٠٥ م . وكان العرب يحلّون سمرقند سنة ٧٥١ م ، وقد حاولت جيوش الصين طردهم منها ، لكن انغزو الصيني ردّ على أعقابهم ، ووقع في الأسر كثيرون ، منهم كانوا يجيدون صناعة الورق فعلمها العرب منهم ، وأسسوا مصنعاً في سمرقند ، ثم انتقلت هذه الصناعة بعد ذلك إلى بغداد ، حيث أسس الفضل بن يحيى البرمكي وزير الرشيد مصنعاً للورق ، ثم إلى الشام وفلسطين ، فالمغرب العربي منه إلى الأندلس ، فبقية أنحاء أوروبا ، ثم إلى الولايات المتحدة بعد ذلك .

ويروي أن الرشيد أمر ألا يكتب الناس إلا على الورق ، لأن التجلود ونحوها تقبل المحو والتزوير بخلاف الورق فإنه متى محي منه قسد ، وإن كشط ظهر كشطه .

ولكن ظهور الورق في العالم العربي ، وصناعته في بغداد منذ أواخر القرن الثاني لم يؤثرا إلى اختفاء البردي والرقوق وانعدام استخدامهما في الكتابة بين يوم وليلة ، فمن عصر الجاحظ كانت الرقوق موجودة إلى جانب الورق إلا أنها كانت في طريقها إلى الاختفاء لأنها - كما يقول - جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن كان يوم كثير الندى استرسلت فامتكت ، ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد ، وتشنج قبيح ، وهي أثقل ريحاً وأكثر ثمناً ، وأحمل للغش بغش الكوفي بالواسطي ، والواسطي باليسري ، وتعتق لكي يذهب ريحها ، وينجاب شعرها ، وهي أكثر عقداً وعجزاً وأكثر ضباطاً وأسقاطاً ،

والصفر إليها أسرع ، وسرعة انسحاق الخطر فيها أتم ، ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير . وعلى الرغم من كل هذه العيوب التي يأخذها الجاحظ على الرقوق فإنه يعترف بأنها أقوى صموداً لعوامل التلي ، وأحمل للحك والتفسير وأبقى على تعاور العارية وتقلب الأيدي ، ولرّد يدها ثمن ولطرسها مرجوع ، والمعادن منها بنوب عن الجدد " مما جعلها مدة صالحة لأن يكتب فيها حساب الدواوين ، وتسجل عليها الشكوك والعهود والشروط وصور العقارات ونماذج النقوش . وهكذا نرى أن الرق ظل يستعمل الى جانب الورق حتى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان ثمة من يفضلته عليه وخصوصاً في كتابة الأمور الحيوية التي يراد لها طول البقاء وكذلك ظل البردي موجوداً كمادة للكتابة وخصوصاً في مصر ، ولكنه كان يقل تدرجاً حتى انعدم مع أوائل القرن الرابع الهجري .

❖ أدوات الكتابة :

١- القلم : كان العرب في الجاهلية - كما كان الإنسان البدائي - يستعملون أدوات حادة ينقشون بها كلماتهم في الحجارة ، أو الخشب ، وفي بعض الأحيان كانوا يكتبون بالفحم ، أو الحكك [الطباشير] أو أي نوع من الرصاص وجدوه في الصحراء ، ولم يجهل العرب القلم بدليل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر للقلم ، وكذلك في الشعر الجاهلي ، وقد عرف القلم بأسماء كثيرة منها البراع والمذير وكانت الأقلام في بدئ الأمر ، تصنع من السعف أو القصب أو الغاب أو اللقصب ، وكان الغاب أو القصب يقط ويبري أو يقلب ، ومن هنا كان اشتقاق اسم القلم من التقليم أو البري ، وكان من لوازم الناسخ والأقلام في العصور الوسطى العربية :

- أ- وهي السكين التي تبرى بها الأقلام ، وكانوا ينصحوون بعدم استخدامها لغرض آخر سوى البري .
- ب- المقط : أو المعصمة ، وهي قطعة صلبة من الحجارة أو الرخام يبرى عليها القلم الاستواء البري .
- ج- المقلمة : وهي المكان الذي توضع فيه الأقلام سواء أكانت متصلة بالداة أم منفصلة عنها .
- د- المفروشة : قطعة من خرق الكتان أو الصوف تفرش تحت الأقلام .

١ - صح الأعمى ج ٢ ص ٤٧٥ .

- الممصة : وكانت تسمى الدفتر أو هي آلة تتخذ من خرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صنف أو حرير أو غير ذلك من القماش ذاته يمسح بها القلم عند الانتهاء من الكتابة حتى لا يجف عليه الحبر فيفسد .

٢- المداد : اشتق اسمه من الفعل "مدّ" أي ما يمدّ به الدواة الكاتب ، وقد يسمّى حبراً من الفعل "حبر" الشيء ، أي يترك عليه أثره . وكان المداد أو الحبر في البداية يستورد من الصين ، كما كان يصنع في بلاد العرب من العفص والزرّج والصمغ ، أو من السناج [الدخان] ، وأجود للدخان ما أخذ من سخام النفط ، العفص حمل شجرة البسوط تحمل ستة بلوطاً وستة غصناً ، وهو مادة سوداء غنيّة بما نص التّيتيك إذا نفقت في الداخل سودت الشعر . والزجاج الأخضر هو كبريتات الحديد ، أما المقادير وطريقة الصناعة فكانتا على النحو التالي : ٣ أرطال سخام النفط [تتحلّ وتصفّى] ٣٠ أمثال ماء ، أرطال من العسل ١٥٠ درهماً من الملح ١٥٠ درهماً من الصمغ ١٠٠ دراهم غصن .

ويمزج هذا كله في وعاء ويوضع على النار حتّى يتماسك ، وبعد ذلك يبرد ويستخدم ، وكان حبر الدخان ينسب الورق ولا يصلح للجلود والرق لأنه ن كما يقول ابن السميد البطليوسي في كتابه الاقتطاب : قليل للثبث فيها ، سريع الزوال عنها ، بينما الحبر المطبوخ أو الحبر الراسي كما كان يسمّى في ذلك الحين ، هو المفضل في الكتابة على الرق .

٣- الدواة أو المحبرة : وفي العصر الجاهلي ، والقرون الأولى للهجرة كانت الدوى تصنع من الخشب أو الفخار ، وبعد أن تقدّم الزمن ، أصبحت تصنع من المعادن كالنحاس والحديد ، أو من الزجاج ، ثم من الألبوس المحلّى بالذهب ، وكانت مجالس الكتّاب وللعلماء تزخر بالدوى ، حتّى لقد قدّر بعض المؤرخين الدوى التي وجدت بين أيدي الكتّاب في أحد المجالس بأكثر من خمسمئة دواة .

٤- الخط : وكان الخط الكوفي هو الغالب في كتابة القرآن ، والكتابات التذكارية لما يتميز به من طابع هندسي يضفي عليه من الجلال ما يتفق مع مكانة تلك الكتابات في النفوس، أما سائر الكتابات العادية فكانت تكتب بخطوط تميل لى الاستدارة ، ولقد شهدت القرون الأربعة للهجرة جميع مراحل تطور الخط العربي ابتداء من قلم الطومار

الذي وجد منذ أوائل العصر الأموي ، حتى خطوط ابن مقلة [٢٧٢ - ٣٢٨ هـ] التي كانت كما يقول الثعالبى في كتاب ثمار القلوب ، " تجلّ عن الوصف ، وتجري مجرى السحر " .

❖ علامات الترقيم :

ولم يعرف من علامات الترقيم في القرون الأولى للهجرة سوى النقطة ، أو ما يقوم مقامها كأداة للفصل بين الجمل ، ويذكر ألف جرومان أن النسخاخين العرب قد استعاروا الدائرة التي نصادفها بأشكال مختلفة في المصحف من اللغة البهلوية ، وكانت النقطة عبارة عن دائرة ، وقد لاحظ الدكتور الطوجي أن الدائرة كانت تستخدم مجردة أحياناً ، كما في مخطوطتي كتاب الانتصار لابن الخياط ، وكتاب أخبار سيبويه المصري لابن زولان بدار الكتب . وفي أحيان أخرى يكون بداخلها نقطة كما في مخطوطات سرّ النحو ومسائل الإمام أحمد ومشكل القرآن .

ويخرج خط من منتصف الدائرة أو دائرتان مماستان وربما كانت النقطة أو العلامة التي نصادفها داخل الدائرة أو خارجها من صنع القراء لتحديد المكان الذي وقفوا عنده في القراءة ، ثم أصبحت تقليداً بين النساخ بعد ذلك تألقاً وتزيّداً .

وفي المخطوطات المتأخرة نصادف اختفاء الدائرة وظهور النقطة فقط للفصل بين الجمل ، ونصادف أيضاً مرة أخرى وجود فواصل ونقطتين .

❖ زخرفة المخطوطات القرآنية وتحليتها وتذهيبها وتجليدها :

أما تحلية المخطوط وزخرفته فقد كانت تقصد لذاتها ، وكانت هذه الزخارف في بداية الأمر مجرد خطوط بسيطة ، لم تلبث أن تطورت الى رسوم هندسية لها أصول وقواعد ، واتخذت أحياناً أشكالاً نباتية فيما عرف بالأرابيسك ، والحقيقة أن المصاحف كانت مجالاً خصباً لهذه الزخارف ، لأن الرسامين تحرّجوا من رسم أشكال آدمية وحيوانية فيها ، فتوسّعوا في استخدام الذهب والألوان كالأحمر والأخضر والأزرق .

ويقودنا ذلك للحديث عن التذهيب ، فهو أول ما وجد بالمصاحف ، وفي مواضع الزخرفة منها على وجه الخصوص كما يقول ابن النديم في الفهرست ، حيث يذكر أسماء

المذهبيين للمصاحف في عصره وما قبله ، ولم يلبث للعرب أن نقلوه الى الكتب الأخرى ، وأغرقوا في استخدامه ، فكتبوا المصاحف بماء الذهب ، ويذكر المقرئ في الخط أن أعداداً هائلة من المصاحف المذهبة كانت في خزانة العزيز الفاطمة ، ولم يقتصر على المذهبيين العرب على تذهيب صفحات المخطوطات فقط ، وإنما تعدى ذلك الى تذهيب الجلود أيضاً ، وكان فن التذهيب هو أول الفنون التي تعلمها الإيطاليون من أساتذتهم المسلمين حسب رأي سفندال كما ورد في كتاب تاريخ الكتاب ، ولقد كان التذهيب عادة المرحلة الثالثة في صناعة المخطوط بعد مرحلتى الكتابة والتزيين بالصور والرسوم ، وكانت وظيفة المذهب مكتملة لوظيفة الخطاط والرسام .

أما تجليد المخطوط فقد كان المصحف هو أول كتاب يجلد حتى منتصف القرن الثاني للهجري لأنه كان أول كتاب عربي يضع على شكل دفتر ، ومنذ أن أخذ شكل المصنفات شكل الدفتر هذا ، بعد أن ظل فترة طويلة على شكل لفافة أخذ ميدان التجليد يتسع ويجذب للناس إليه . وجدير بالذكر أن العرب أخذوا هذا الفن في صورته البسيطة عن الأقباش ، ثم وجنوا عند أقباش مصر رقيّاً في هذا المضمّن ، فلم يجنوا بأساً في أن يقتبسوا فنهم بعد أن دخلت مصر تحت راية الإسلام .

وقد تجلّت مظاهر التأثير بالتجليد المصري في استعمال أوراق البردي المقوى في تغليف المصاحف والكتب ، وخاصة ما كان منها صغير الحجم ، بينما ظل الخشب هو المادة التي لا غنى عنها في تجليد المصاحف الكبيرة ، وكانت ألواح الخشب هذه تحلى بألوان مختلفة من الزخارف ، وربما طعمت بالعظم والعاج .

وفي فهرست ابن النديم نجد ذكراً لمبعة من المجلّدين على رأسهم ابن الحريش الذي كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون ، مما يشير الى أن التجليد كان قد أصبح في زمن المأمون فناً مستقلاً عن غيره من الكتاب ، وكان يحترفه رجال أولو خبرة ودراية .

ودخل الجلد في صناعة التجليد العربية منذ أواخر القرن الثاني ، وكان المجلّدون العرب يبطنون للكتب من الداخل بالبردي والرق ، وربما بالغوا في ذلك فيطنوها بالقمّش أو الحرير .

❖ الخط القرآني في عصر الرسول ﷺ وأمية الرسول ﷺ :

ونزل القرآن في بلد لا علاقة له بالكتابة إلا مع الأقل من أبنائه ، ولئن كان البعض من هؤلاء الأبناء يلمون بالكتابة فإن ذلك بحدود ، وإن ذلك لا إجادة فيه ولا إتقان ولا إحكام كما ورد في نصوص تاريخية كثيرة.

ابن خلدون يقول:

" كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع ، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجارة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها " .

❖ اللغة العربية كانت على انتشار ورفي حين نزول القرآن:

إن اللغات التي اتصلت بالعربية قديماً هي السريانية والعربية والفينيقية والآشورية والبابلية والحثية.

وحين نزل القرآن الكريم كانت النبطية في مصر واليونانية في الشمال الإفريقي ، والنبطية في العراق ، والفارسية في فارس ، والروحية في الشام.

إن اللغة العربية حينذاك ، كانت الأرقى ، والأكثر عراقاً من اللغات السامية كالكلدانية والآشورية والفينيقية والعبرية ، حيث كانت اللغة العربية قد بلغت مرتبة كمالها ونضجها ، بينما تلك اللغات كانت لا تزال في خطاها الأولى ، أو مراحلها الأولى من التطور .
وكما كانت اللغة العربية هي الأرقى بين تلك اللغات للشقية ، كانت لهجة فريش التي نزل بها القرآن الكريم ، هي الأرقى بين سائر اللهجات العربية.

يقول " إرنست رينان " :

لا نعلم شيئاً للغة العربية التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج ، وبقيت حافظة لكيانها ، خالصة من كل شائبة ، لم تعرف لها في كل أطوارها لا طفولة ولا شيخوخة " .

^١ رسائل "باحث تحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ٢٥٢ .

^٢ مستشرق فرنسي: كتابه: "تاريخ العام للغات السامية".

ويتابع ريفان قائلاً :

" لقد استغاض انتشار اللغة العربية ، فاستولت على أوسع المصافات ، وأبعد البلدان ، أجل لقد كان لليونانية واللاتينية مثل حظها أن تصبحا لغتين عالميتين تتبعان عقيدة دينية ، وتشران أنظمة سياسية تطّبت على قباني الشعوب والأجناس والمشارب ، في توحيد الكلمة ، وتعريف الغاية ، فشاعت اللاتينية من إسبانيا إلى الجزر البريطانية ، ومن نهر الرين إلى جبال الأطلسي ، وشاعت اليونانية من صقلية إلى شواطئ دجلة والفرات ومن البحر الأسود إلى بلاد الحبشة ، ولكن ما أئذ ضالة هذا الانتشار إذا قوبل بانتشار اللغة العربية التي تناولت إسبانيا والقارة الإفريقية حتى خط الاستواء ، وسيطرت على آسيا الجنوبية ، واقتحمت جميع دول البلقان ، شاملة كاسوفيا^١ .

لهذه اللغة طريقتها العجيبة في التوليد ، وأسلوبها اللافت في الاشتقاق. إن آخر هذه اللغة يتصل بأولها في نسيج متناسق متلاحم ، دون أن يبهيم على الأجيال ما خلفه السلف من تراثها.

هذه كلمة " كتب " لو تناولنا مشتقاتها مثل: كاتب ، وكتاب ، ومكتوب ، ومكتب ، ومكتبة لوجدنا أن الحروف الأصلية موجودة في كل من هذه المشتقات ، وإن معنى الكتابة متوفر فيها.

أما اللغات الأوروبية فلا توجد ، أحياناً كثيرة ، صلة بين كلمات الأسرة الواحدة ، فكلمة "كتب" في اللغة الإنكليزية [write] ، والكتاب [book] ، ومكتبة [library] ، ولا علاقة بين حروف هذه للكلمات.

هذا كله جعل اللغة الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل ، لتنتفي الصلة اللغوية بين ماضي هذه اللغة وحاضرها.

أليس شكسبير هو من ألباء القرن السابع عشر؟

رغم ذلك فالجمهرة من المثقفين اليوم لا يكادون يفهمون لغته إلا بصعوبة !

^١ - مستشرق فرنسي: كتابه: التاريخ العام لغات البشرية.

نعم، ذلك الغموض والالتباس مرجعه اختلاف النطق بين جبل وجبل ، ونمو اللغة بطريقة مختلفة عن طريقة الاشتقاق العربي ، وإلى انقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في معظم الأحوال.

لقد كانت اللغة للعربية بعيدة الأثر ، في اللغات المعاصرة للإسلام ، شرقية كانت تلك اللغات أم غربية.

وتجلى هذا الأثر الفاعل بوضوح إما بالإحياء والاستمداد كما حدث للغات التركية والفارسية والسواحلية ، وإما بالإفناء والإبادة كما حدث للغات القبطية والسريانية والعبرية. وإما برفدها اللغات بمئات الألفاظ كما حدث للغات الغربية: الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية والألمانية.

فاللغة العربية غنية للدلالات ، غنية المفردات ، متنوعة الاشتقاقات والتصريفات.

فاللغة العربية هي لغة اشتقاق ، تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في اللغات التي ترسم بالحروف اللاتينية.

لعل هذا الأثر البالغ ناتج عن الاختلاط وعن هذا الغنى الواسع في اللغة العربية ، والفقر البالغ في تلك اللغات.

فلو كانت لنا مزايلة العربية باللغات الاشتقاقية كالإنجليزية والفرنسية ، لوجدنا أن العربية لها خصوصياتها ولها ميزاتها التي تتلاءم أكثر وحاجة العلوم.

لقد اصطلحت اللغة العربية في سالف الزمان بالعلوم على تنوعها فلم يكن بها قصور أو عجز ، إنما انطلقت بكل يسر واقتدار تلبي الحاجة ، وتكون الأساس في حركة التطوير لكل علم فاللغة العربية على سعة بالمقارنة مع غيرها.

إن عدد كلمات كل من اللغة الفرنسية والإنجليزية لا يتجاوز المائة ألف من الكلمات خلافاً للغة العربية التي يبلغ عدد موادها أربعمائة ألف مادة لا كلمة. ومعجم لسان العرب يشتمل على ثمانين ألف مادة ، والمادة تنفرع إلى كلمات ، فلو فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفة أو منصرفة لبلغ عدد ما يشتمل منها نصف مليون كلمة.

وبعملية إحصائية ، لا نجد في مختلف لغات البشر لغة اشتقاقية ، غنية بمفرداتها كهذه اللغة . إن هذه اللغة بسبب غناها وسعتها كان فيها للمعاني المتقاربة مفردات خاصة بكل معنى ، مهما كانت درجة ذلك التقارب .
إنها لغة تحسب للفكرة والخطورة الحساب ، إنها اللغة المميّزة بتنوع الأساليب ، وتنوع العبارات .

أليس المعنى الواحد يمكن تأويله في هذه اللغة بتعابير مختلفة؟
أليس هناك من وسائل تعبيرية كالحقيقة والمجاز ، كالتصريح والتلميح ، كالتعريض والكناية؟

لجهل أو تجاهل ، لطوية صافية أو خبيثة ، أطلّت علينا منذ أواخر القرن الماضي دعوات تتادي بالتغيير لمعالم هذه اللغة ، وتحمل معاون للهدم لصروحها الفصيحة ، مما يؤدي إلى القضاء عليها .

الاستعمار دائماً هو الاستعمار عسكرياً واقتصادياً، ودينياً ، وثقافياً ، ولغوياً ، وأخلاقياً . وحمل الاستعمار لواء تلك الدعوات الهدامة بأيدي غربيين استعماريين ، وبأيدي شرقيين إسلاميين أو من بلاد الإسلام هم زبائنه أو هم مخدوعوه ، أو هم جماعة الانبهار المطلق به .

إن الاستعمار منذ يومه الأول في ديارنا الإسلامية كانت له خطته الكاملة لمواجهة اللغة العربية وإيقافها وإلغائها ، واتخاذ الوسائل لتحقيق غاية أسلمية هي هدم قيمها ومفاهيمها، والتشكيك بقرنها العربي المبين .

إن المائة والخمسين الأخيرة من السنوات قد شهدت هذه الدعوات الذكوية أو الغيبية ، الخفية أو الواضحة ، الجاهلة أو المتجاهلة ضد اللغة الفصحى .

نقد استطارت في ظل الاستعمار الدعوة إلى العامية ، واللهجات المحكية المحلية ، واللغات القديمة ، والحروف اللاتينية .

لقد ظهرت محاولات مختلفة ، ودعوات متباينة تحاول إحياء ما مات من اللغات القديمة كالقبطية في مصر ، إذ ظهر من يهتم بجمع الكلمات العربية العامية التي لها أصلها القبطي . وتعلت الصيحات المشبوهة بدعوة المصريين إلى التماس لغتهم القديمة وإحيائها ، ونيسوا مغرورين أولئك الذين زعموا بأن اللغة العربية هي لغة أجنبية ليس لها من تاريخنا شأن ، وأن مصر عليها بالعودة إلى لغتها القديمة والأصل .

من خطة الاستعمار المحاربة للفتنة وسيطرته على التعليم والمدرسة ، ليطرد هذه اللغة من المدارس والجامعات ويقيم مكانها اللغات الأجنبية ، ويحيي اللهجات ، ويدفعها بقوة لتصبح اللغة البديلة.

ألم بضطهد القسّ نوجلاس نفلوب ، المستشار الإنجليزي في وزارة المعارف المصرية ، اللغة العربية ورجالها؟

ألم يعمل على إلغاء المقررات والكتب التي كانت تدرّس قبل الاحتلال واستبدالها بأخرى؟

أليس ذلك سبيلاً لإضعاف اللغة ، وتوطئة للقضاء على القرآن العربي المبين ، والذي هو غاية المنتهى في لائحة المخططين ، كما فهم العاملون باللغات ، والمدركون خلفيات تلك الحملات؟

وكما كانت وسائل التعليم محاولات لهدم اللغة العربية الفصحى كانت محاولات أخرى ، إن في الاقتصاد ، وإن في المحاكم المختلطة ، لتغليب لغة المستعمر ، وإحياء اللهجات العامية أو الإقليمية ، ودفعها بالإحاح لتتقلب لغات منفصلة تستخدم ، إن في الكتابة ، وإن في التعليم.

ولعل أظهر هذه الدعوات خطراً تلك المحاولة التي تدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية.

وأول من قبل هذه النظرية الخطيرة المستشرق الهولندي الذي اقترح عام ١٩٢٩ على الحكومة المصرية كتابة العربية بالحروف اللاتينية.

وتلاحقت بعد ذلك الدعوات من أهل الاستشراق ، ومن المتفرجين من أهل البلاد الذين يريدون كيداً لهذه اللغة.

وكان عبد العزيز فهمي المصري أول عربي حمل لواء تلك الدعوات وتقدم باقتراحه المعروف إلى المجمع اللغوي المصري عام ١٩٤٤ ، متمنياً على المجتمع أن يتبنى هذا الاقتراح.

ولاستمر الاستعمار سواء كان فرنسياً أم بريطانياً يخذي تلك التيارات والدعوات ، حتى إذا انحسر الظل لهذا الاستعمار نهضت قوى أخرى بهذه الدعوات ، وهذه المحاولات من هذه القوى الشريرة الصهيونية العالمية ، والتنفوذ الأميركي الذي نشط في العقود الأخيرة من هذا القرن.

يقول محمد جبر :

” تسلم الأميركيون علم محاربة اللغة العربية عام ١٩٤٥ ، ودعوا البعض إلى زيارة أميركا. فعاتبوا فيها عاماً أو أكثر من عام ، ثم عادوا يدعون إلى التعليم باللغة العامية والتخلي عن التعليم بالعربية الفصحى ، وكان هذا سبباً في أن الجيل الذي تلقى تعليمه منذ عام ١٩٤٥ ، وبالطريقة التي ابتكروها ، والتي من شأنها البعد عن العربية الفصحى ، كان هذا الجيل لا يكاد يكتب كلمة واحدة صحيحة ، ولعل هذا هو السبب في انصراف هذا الجيل عن القراءة الأدبية إلى قراءة التافه من الكتب العامية.

ولو تحولنا إلى الصهيونية لوجدناها قد عمدت في السنوات العشرين الأخيرة إلى تحريف للقرآن وتزويره في الطباعة كما أشرنا سابقاً ، كما عمدت إلى محاورة خلق جو من الاحتقار للغة العربية بتحقيق القائمين بها ، وبهذا تلقي الصهيونية بخطتها مع دلول قبل ثمانين عاماً.

ولا ننسى أن الاستعمار والصهيونية كما كانا يحقدان على اللغة كنا في نفس الوقت يعملان على تشويه الإسلام ويعملان على نكرانه وحياء ورسالة.

كما أنه ينبغي أن لا ننسى ما كان لدوائر التبشير ، ونشاط الإرساليات من امتحان للغة العربية الفصحى ، لأنها لغة القرآن ، وما كان لهذه الدوائر ولهذه الإرساليات من دعم للعامية. وخلق تيار عامي في الأسلوب الغربي.

وكانت المرحلة اللاحقة في هذا النشاط ، هي مرحلة الأئب المهجري الذي نما هذا النمو ، ونهج هذا النهج.

وفي الخمسينيات ظهر كتاب شعراء من لبنان واصطنعوا هذا الأسلوب في الشعر والشعر ، ولحق بهم بعض من كتاب العرب ، وما زال أسلوبهم يكشف عن هويته. لكن اللغة العربية بقيت صامدة منذ محاولة تنريكها حتى أيامنا بفضل القرآن ، وبفضل أصالتها وقدرتها على التحدي والمواجهة ، وإذا بها تصفع وتخزي كل من يريد بها شراً وكيداً.

تلك المحاولات قد أصابها الفشل الذريع لتبقى اللغة العربية الحصن الممنع إزاء الدعوة اللاتينية ، وإزاء الجو العام الذي أشاعه دعاة العامية بما نشروا من كتب

الأزجال ، والمواويل ، والأغاني والقصص العامية ، والأحداث ، والأغاني الشعبية. فاللغة العربية الفصحى كانت ولم تزال ، وستبقى اللغة الأم ، لغة الكتابة والمنبر والشعر .

ألم يكن دفاع دعاة العامية بالفصحى دليلاً على اللفتل والتساقط ؟
إنهم دعاة اللهجة العامية في النكتة المقروءة الذين أثاروها حرباً شعواء ضدّ الفصحى، أو ضدّ اللسان العربي المبين الذي هو لغة القرآن الكريم ، قد خسروا حربهم مع الجولة الأولى ، بل إنهم لم يستطيعوا أن يستخدّموا في معركتهم ذلك السلاح المغلول ، فلجأوا إلى الفصحى في ذودهم عن العامية المنهالكة .

هؤلاء الدعاة الهذلمون حسبهم ما قاله فيهم نيلسبازا :
" إنني لأعجب لفئة كثيرة عدّوها من أبذاء هذا الشرق العربي تنفرط من عقد قوميتها .
ويتظاهر أفرادها بتقهم الثقافات الغربية تقهّماً تليماً ، فهم يعجزون بابتعادهم عن لغة تحولهم وغرائزهم ، ولكم رأيت في هذه البلدان العربية أناساً يخدعون أنفسهم ليقال عنهم إنهم متمتّون راقون متعلّون إلى أسمی درجات المدنية " .

وهذا هو "فتنجو" يخلص النصيح للعرب قتلاً :
"على العرب أن يقاوموا الدعاية المؤلمة التي تطالبهم بالتخلّي عن شرفهم وثقالتهم وإيمانهم ، وأن يستسلموا إلى القوى المستعمرة ، ورؤوس أموال البنوك ، وأن يخضعوا لطريقتهم في التفكير والعمل إلى تلك المندنية الزائفة التي لا تؤمن بالله ، وتطمع في إخضاع العالم لـجو" من المخنارات الأمريكية المكتوبة بنغة إنجليزية سقيمة ، وستسقط جميع هذه المصنوعات المقلدة الزائفة في وقت قريب ، وليقلوم العرب ويثابروا ، فالعلم في حاجة إليهم ، وعلى العرب أن يتمسكوا بلغتهم: تلك الأداة الخالصة من كل شائبة ، والتي نقلت الإنتاج الفكري العالمي من غير محاولة نقصه أو خفضه".

ولتخذ هؤلاء الدعاة للقضاء على اللغة العربية حججاً واهية باطلة ، من هذه الحجج:

كما أنه ليس لنا أن نسمي النثر شعراً تبريراً لعجز وإفلاس ، أو لمجرد الانبهار بالغرب ومعطياته.

إن الوزن لا يعيق السجية ولا يصدّها لأن الشعر هو مرآة النفس ، بل هو تعبير
تفيض به هذه النفس أحاسيس وخواطر ، ليصدر بطريقة فنية يكون لها من الفعل والتأثير
الكثير .

الحق يقال إن الغاية الأخيرة لهؤلاء المفروضين هي محاربة اللغة العربية الفصحى
بذاتها ، والدسّ على أساليبها ، والانتقاص من قدرها وخصوصياتها .
إنهم يبعون الفُرقة بين أبناء العربية الذين يتكلمونها ويكتبونها ، وإنهم يعملون على
إحداث القطيعة بين أبناء الشعب العربي الواحد .

وهل يمكن للتفاهم بين أبناء القطر العراقي والمصري واللبناني وغيره من الأقطار
العربية باللغة المحكية المحلية ؟

ولا ننسى أن القرآن هو المستهدف من هذه الدعوات في آخر مطافها ، فإلقرآن عربي
مبين . فإذا كانت القطيعة بين العرب وقسمهم المشترك الذي هو لغتهم ، فأين تنتهي علاقتهم
بالقرآن ؟ بل أين تنتهي علاقة المسلمين بالعرب ، وعلاقة المسلمين بالمسلمين ، وعلاقة
المسلمين بالقرآن .

فالنصد عن العربية هو صدّ عن القرآن ، وطمس لمعالجة مضامينه ، وإخفاء لمعانيه
وحقائقه ، وتشكيك بعقيدته وشريعته اللتين هما زاد البشرية على مساحة كل الزمان وكل
المكان .

ليمت هؤلاء بغيظهم :

فالقرآن مكفول حفظه ، مضمونة صيافته :
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰحْفَظُونُ﴾ .
﴿إِنُّ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ .

إن جهود أعداء القرآن ألخت على إخضاع نظم القرآن ونسجه لقواعد الإعراب التي
وضعوها لتظهر الصعوبة في فهمه والتعامل معه من خلال صعوبة القواعد الإعرابية ،
وكأنهم يتعمون القرآن بالتبعية لهذه القواعد للقاصرة أحياناً .

وبالدراسة الموضوعية نجد أن القرآن هو للقواعد والأصول ، هو المعجز في نفسه
ونظمه ومعانيه .

إن القرآن هو الأعظم بين مصادر الإعراب ، بل ومن أجله وضعت علوم الصرف
والنحو ، إنه وحده الذي حفظ لغة العرب الفصحى من الاندثار ، من القرآن نستقي القواعد ،

وعلى أساسه نضع الأصول طالما هو الأصل ، وما عداه فروع تصدر عنه ، يقول نجيب حداد :

لولا القرآن لبادت لغة قريش ، وبانت في عداد اللغات الميتة.

لولا القرآن لاعتلّ اللسان العربي ، ولولاه لاعتور العربية كثير من اللسان الأعجمي أو لخالط هذا اللسان الخطأ والزلل من وجوه عديدة.

يقول الأستاذ فيليب دي طرازي:

إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصيلة وحفظها على قيد الحياة ويحفظها على مر الدهور ، ومستوى اللغات الحيّة المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حيّة لكثير من سالف العصور إلاّ العربية ، فستبقى بمنجاة من الموت ، وستبقى حيّة في كل زمان ، مخالفة التواميس الطبيعية التي تمرّ على مائر لغات البشر ، ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية.

فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الذي تحتمي به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن ، وعواصف السياسة المعادية ، وفسانيسها الهدامة.

ويقول الأستاذ جوستاف برونيباوم:

" عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها «قرآناً عربياً» وما من لغة تستطيع أن تضاهي اللغة العربية في شرفها ، وسعتها ، وجمال الصوت فيها ، وثروتها في المترادفات ، وزينتها في الدقة وإيجاز التعبير ، وفيها من الكنايات والمجازات والاستعارات ما يدفعها فوق كل لغة بشرية ".

وبذلك يبقى القرآن مرجعاً أبدياً ما يكون عن النبل منه ، وإن بلغ النقص والتأمر عليه وعلى لغته ما بلغ.

ويقول حرجي زيدان:

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون للكتابة إلا قبيل الإسلام، مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة ، وأشهر تلك الأُمم في اليمن ، كتبوا في الحرف المسند ، والأنباط في الشمال كتبوا في عرف النبطي¹ .

¹ - تاريخ تمدد الإسلام.

يقول ثالث:

«الخط عند العرب كان مجهولاً قبيل ظهور الإسلام والغارات ، صرفهم عن ذلك ،
ونعني بهؤلاء العرب عرب الحجاز الذين ظهر فيهم رسول الله ﷺ^١ .

ألا يدل قوله تعالى على أمة للرسول وجماعته في هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة : الآية-٢ .

وإنها لأمة مشتركة بين محمد وجماعته ولا سبيل إلى نكرانها أو الشك في وقوعها.
لم يكن لمحمد إلمام بالقراءة أو الكتابة وذلك تبعاً لبيئته الأمية والبدوية. يقول تعالى:
﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْتَوْنُ﴾ المائدة : الآية-٥٠ .
لا ثقافة إلا ضئيلة ولا معرفة إلا ضيقة.

كان العرب يلمون بعلوم بدائية أولية هي نتاج التجربة اليومية لإنتاج البحث
والتحصيل والاختبار الطويل.

فالطب كي وأعشاب وقطران وتجبير وفصد ووقاية.

والتاريخ علم بالأسلاب ، ومعرفة بالأيام والحروب.

والجغرافيا معرفة بممالك الصحراء وأسماء الرياح.

والفلك دراية بأسماء النجوم ، ومواقع الكواكب ، ومنازل القمر ، والمنة القمرية.

والأدب خطب وأمثال وشعر ترسله البديهة ، ويتعاطاه الارتجال.

الجزيرة منغلقة ومقطعة ، ولا يعرف أهلها ما يجري خارج حدودها إلا ما يتسرب إليها مع
التجار العائدين الذين كانت لهم رحلة الشتاء والصيف إلى سوريا واليمن والعراق والحبيشة ،
وما تلك بالمعرفة لثني تغني ، وما ذلك إلا النزر اليسير الذي يدخله تحريف وإضعافات غير
موثوقة.

لا إحاطة بتاريخ الشعوب الغابرة ، ولا معرفة بشرائعهم ودياناتهم ، لم تشهد في
منزله ولا خارج منزله ، قبل النبوة أو بعدها ، أنه كان يستعمل قلماً في تصنيف
أو تدوين.

^١ - دائرة المعارف الإسلامية ، لوجندو ج ٢ ص ١١ : حفظ.

إن أمية الرسول هي من آيات نبوته ، كيف لأمي أن يأتي بالقرآن المعجزة؟
كيف له أن يتلوه بحرفه ونصته دون خطأ في الزيادة والنقصان لو ألقاه محمد مرتجلاً؟
بل وكيف لم يكن نفي أو اعتراض من الأعداء على الآيات التي تشير إلى أمية محمد؟
محال أن يكون متعزفاً لدى الأعداء والأصدقاء لدى الأقربين من الأهل والعشيرة أن محمداً
يجيد القراءة ويلم بالكتابة؟

كيف يتحدث محمد ﷺ بهذا القرآن للبشرية في كل زمانها ومكانها ببلاغته التي هي نسيج
وحدّه؟

ما هي الأسباب التي جعلت هذا الكتاب يحمل نبوءات مستقبلية جازمة تحقق بعضها كما في
آية «غلبت الروم»؟
أليس في القرآن إشارات خاطفة إلى كشفه للعلم الحديث؟

إن القرآن هو كتاب عقيدة صافية وأخلاق فاضلة ، وتشريعات محكمة ، وعبادات
سليمة ومعاملات إيجابية صالحة.

كيف لمحمد الأمي في البيئة الأمية أن تكون مآتيه هذا القرآن وهذا الإسلام لو لم يكن
ذلك وحياً يوحى ، وتنزيلاً سملوياً إلى البشر؟

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾
المنكبات : الآية-٤٨ .

﴿وَكُنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَنزِي مَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ﴾ الشورى:
الآية-٥٢ .

هذا هو الظاهر من إطلاقت القرآن ، وأنه لم يكن فرق بين العرب وفارس وغيرهم
في هذا الشأن بل كان أمراء إيران ممنوعين ديناً من الكتابة والقراءة. لا شك أن النبي لم
يكتب طيلة عمره ، بل كان له كتابه الذين يكفونه المؤونة باستمرار. لقد نقل بعض
المحدثين:

" إن النبي ﷺ قد كتب في صلح الحديبية مع سهيل بن عمرو جملة " ابن عبد الله "
بعد أن محا كلمة " رسول الله " ولكن هذا النقل معارض بخبره ، مما يدل على أنه لم يكن
يعرف للكتابة ، بل أمر علياً أن يكتب ، وأن يأخذ يده ويضعها على المورد الذي يريد محوه.

" إن النبي ﷺ أمر علياً: أن يكتب عقد الصلح بخطه ، فقال: اكتب يا علي: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو: هذا الكتاب بيني وبينك يا محمد ، فافقحه بما نعرفه ، واكتب: باسمك اللهم ، فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين (ع) : أمح ما كتب ، واكتب باسمك اللهم. فقال أمير المؤمنين: لولا طاعتك يا رسول الله ، ما محوت: بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم محأها ، وكتب: باسمك اللهم ، فقال له النبي ﷺ : اكتب: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، فقال سهيل: لو أجبتك في الكتاب الذي بيننا إلى هذا لأفررت لك بالنبوة ، أمح هذا... إلى أن قال: فقال له النبي ﷺ : أمحها يا علي فقال : يا رسول الله ، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة ، فقال له: فضع يدي عليها ، فمحأها رسول الله ﷺ بيده ، ثم تمم أمير المؤمنين (ع) الكتاب^١ .

يلاحظ من هذه الرواية أن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة فضلاً عن الكتابة ، ونعود إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِهِمِينَكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُنَظِّلُونَ﴾ والآية إن دلت على أمر فإنيما تدل أن الرسول ﷺ لو كان يقرأ ويكتب كتاباً لقالوا إنما جمعه من كتب الأولين ، وليس وحياً ، وشكوا في نبوته ، أما إذا كن لا يقر على القراءة والكتابة ، وهو يعيش فيما بينهم ، ويرأى منهم وسمع ، وهم مطلعون على أميته ، فلا مجال لهم للارتياب والشك في الكتاب الذي يأتيهم به من عند الله ، وكان لا بد لهم من تصديقه. ولعل ما ورد عن الشريف المرتضى من أن الآية تدل على أن النبي لم يكن بحسن الكتابة قبل النبوة، ولما بعدها فالذي نعتقه أنه يجوز عليه أن يكون عالماً بها وبالقراءة ، ويجوز كونه غير عالم بهما من دون قطع بأحد الأمرين صحيح ولا بأس به^٢ .

❖ معنى الأُمِّي :

الأُمِّي هو من ليس له كتاب ديني ، وقد ورد في التوراة ما يرادف هذا المعنى بصورة الأُميين ، ولا يبعد أن يكون هذا جريباً على مصطلح اليهود الذين سكنوا جزيرة العرب.

^١ - الإرشاد ، ج١، غروة - خمسية.

^٢ - مجمع البيان في تفسير الآية.

فالأمي ، كما نصّ عليه أهل اللغة: من لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، أو الكتابة فقط على قول بعضهم. ففي مجمع البحرين:

الأمي: في كلام العرب: هو الذي لا كتاب له من مشركي العرب: قيل هو نسبة إلى الأمّ ، لأن الكتابة مكتسبة ، فهو على ما ولدته أمّه من الجهل بالكتابة.

وقيل: هو نسبة إلى أمّة العرب ، لأن أكثرهم أميون ، والكتابة فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم... وعلى هذا ، فتكون كلمة أمي مأخوذة من الأمة ، بمعنى الجماعة.

وفي أقرب الموارد:

الأمي: من لا يعرف الكتابة ، ولا القراءة ، نسبة إلى الأمّ ، لأن الكتابة مكتسبة ، فهو على ما ولدته أمّه من الجهل بالكتابة... .

والظاهر: أن العرب في هذه الأيام يستعملون كلمة أمي ، ويريدون بها الجاهل بالقراءة والكتابة معاً ، على ما نقله لي بعضهم.

استنتاج : لم يكن العرب أهل كتاب وقراءة قبل الإسلام بوجه علم.

وليس في هذا المذهب من الغلو شيء ، فالكتابة كانت نادرة أدواتها لدى الجاهليين ، لذلك كانوا يعتمدون الذاكرة في حفظ آثارهم ورواية آدابهم ، معروف أن الجاهليين كانوا موسومين بالأميّة ، مشهورين بها ، لا يدرون ما الكتابة وما الخط ، وجاء القرآن يتحدث عن أمييتهم هذه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة: الآية-٢.

لكن مما لا ريب فيه أن شمال الجزيرة العربية قد عرف القراءة والكتابة ، وأن مكة بمركزها التجاري الممتار قد شهدت من القارئين للكتابيين قبيل البعثة أكثر ما شهدت المدينة.

نحن لا نملك من الحجج والبراهين العقلية والنقلية ما نؤكد به كثرة القارئين الكتابيين في تلك الفترة من حياة العرب ، ولا شيء يدعونا إلى الغلو في أمر الكتابة ، واعتقاد كثرتها في شبه الجزيرة إلا أن يصيبنا من الجهالة العمياء ما يغربنا باتباع المستشرقين الذين يزعمون أن وصف العرب بالأميين في القرآن ، في سورة الجمعة ، في الآية السالفة لا ينافي معرفتهم للقراءة والكتابة. فما الأمي عندهم إلا الذي يجهل للشرعية الإلهية ، وما كان محمد ﷺ أمياً إلا لأنه نبي هؤلاء الأميين الوثنيين الذين لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله ،

فكتبوا كتاباً بليديهم. ولعل تفسير «الأميين» على هذا النحو جاء في بعض روايات الطبري عن ابن عباس ٢٩٦/١ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَاتِي﴾ [البقرة: ٧٨] . ووجد المستشرقون في هذا التأويل مبرراً لزعمهم أن رسول الله ﷺ كان كتاباً قارئاً ، وأن وصفه بالأمية كوصف العرب بها ، لا ينافي معرفة العرب بها .

وكان يحسن المستشرقين أن يقرأوا تفسير الطبري في الصفحة نفسها ليروا أنه يضمف هذا الرأي.

والواقع أن هذا الربط المضطرب بين «الأمي» عندما يوثق به النبي ﷺ وبين «الأميين» وصفاً للعرب ، ليس من المنطق في شيء لأنه تجزئة لا مبرر لها في أصل اللغة، ولا وحي السياق للفظ قرآني واحد ينبغي تفسيره بمعنى واحد لا بمعنيين متباينين ، فالأمي هو الذي يجهل الشريعة الإلهية ، أو هو الذي يجهل القراءة ولكتابة ، ومن هنا يكبر خطأ المفسرين الذين أوتوا «الأميين العرب بجهلة الشريعة الإلهية على حين أوتوا النبي * الأمي» بالذي لا يعرف القراءة والكتابة ، أما خطأ المستشرقين فمركب مضاعف ، لأنهم عوتوا فيه على رأي ضعيف شطروه شطرين ، ثم امنوا ببعضه ، وكفروا ببعض ، وجاؤوا على الأثر بآراءهم الصيباني: فأما العرب — بزعمهم — فهم أميون لجهلهم الشريعة الإلهية ، وأما النبي فأمي نسبة إلى هؤلاء الجاهلين ، لتعليمه إياهم شريعة الله ، فهو نبي هؤلاء الجاهلين ، أو نبي هؤلاء الأميين.

فهل بعد هذين التفسيرين من تناقض؟

إنما نفتننا من هذا الهذيان وضوح النص القرآني ، فهو أصرح من أن يؤول ، ولفظ «الأمي» وفيه سواء أكان وصفاً للعرب أم للنبي ، لا يعني إلا الذي يجهل القراءة والكتابة ، وهو ما فهمه جمهور المفسرين ، وما عليه علماء الأمة إلى يومنا هذا^١ وحينئذ لا يكون في وصف العرب «بالأميين» غلو في جهلهم للكتابة ، إذ الأمية بهذا المعنى كانت غالبية على كثرتهم ، وإنما يكون للغلو يقيناً في ادعاء كثرة الكتاب وأنواتهم بين العرب ، وفي الزعم القائل إنهم لم يجهلوا للكتابة بل جهلوا شريعة الله لأن أحداً من الباحثين لم يأت ببرهان على هذا الرأي العقيم^٢ .

^١ - راجع تفسير الطبري ٢٩٦/١ .

^٢ - راجع علوم الحديث ومصلحه : د. صبحي الصالح ص ٣٠ .

وعوداً على بدء نقول: إن الجاهليين كانوا على أمية ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا قلة، قرشيون تعلموا الخط ودرسوه قبيل الإسلام ، وكان ذلك كان إرهاباً من الله وتمهيداً للرسالة المحمدية ، وتسجيل الوحي المنزل عليه بالقرآن ، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه ، وأبعد عن ضياعه ونسيانه.

وأطل الإسلام إطلاكلته المشرقة المصلحة ، فحارب فيما حارب أمة العرب ، وعمل على محوها ، وطفق يعلى من شأن الكتابة ، ويرفع من مقامها:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: الآيات: ١-٥ . وفي سورة " ن " يحلف العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون ، إذ يقول:

﴿وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لِّكَ بِمُعْجِزٍ﴾ اللطم: الآيتان ١ - ٢ .

وهذا من أروع ألوان للتبنيه إلى جلال الخط والكتابة ومزاياها.

ألم يدفع الرسول أصحابه دفعاً ليعلموا الخط ويحذقوا الكتابة ، ويهيء لهم السبل بكل ما يقدر؟

ألم بأسر المسلمون في معركة بدر سبعين من المشركين ، وجعل الرسول ﷺ فدية الأسير الذي يلم بالقراءة والكتابة أن يعلمها لعشر صبية من أبناء المدينة؟

أليس بهذه الفدية قد جعل الرسول القراءة والكتابة صنوين للحرية وعديلين لها؟ ولعل هذا هو منتهى ما تصل إليه الهمم في تحرير شعب أمي من رق الأمية!

وفيما يختص بأمية الرسول ﷺ وعدم أميته قيل:

إن النبي عرف القراءة والكتابة في حجته ، وعلت كلمته ، وعجز العرب في مقام لتحذي عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الذي جاء به ، وكان الحكمة في ذلك هي الإشارة إلى شرف الخط والكتابة ، وأن أمة الرسول ﷺ في أول أمره إنما كانت حالاً وقتية اقتضتها إقامة للنيل والإعجاز واضحاً على صدق محمد في نبوته ورسالته ، وأنه مبعوث الحق إلى خليفته ، ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم لميئون ، لراجت شبهتهم في أن ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأثر نظر في الكتب وبحث .

١ - سائل الثرفان لثرفاني ١/٣٦٤.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَلَا يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾
 المنكوبون: الآية - ٤٨ .

قال: الألويسي بعد تفسيره لهذه الآية ما نصه:

" واختلف في أنه ﷺ أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا؟ فقيل إنه لم يكن يحسن الكتابة، واختاره البغوي في التهذيب ، وقال : إنه الأصح ، وادعى بعضهم أنه ﷺ صار يعلم الكتابة بعد أن كُنْ لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية. فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام تعرف الكتابة حينئذ. وروى ابن أبي شيبه وغيره " ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ ونقل هذا للشعبي فصّحه وقال: سمعت أقواماً يقولونه ، وليس في الآية ما ينفيه ، وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال ﷺ : " رأيت ليلة أُسريّ بي مكتوباً على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر " . ثم قال: ويشهد للكتابة أحاديث ، وما ورد في صلح الحديبية: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب: " هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله " .

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذرّ عدي بن أحمد الهروي. وأبو الفتح النيسابوري ، وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، ونما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة ومب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه ، وكتب به إلى علماء الأضراف ، فأجابوا بما يوافقهم ، ومعرفة الكتاب بعد أمّيته ﷺ لا تنافي المعجزة بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم " ، وقد ردّ بعضهم على كتاب الباجي بالحديث النبوي الشريف الصحيح: " إنّ أمة أمّية لا تكتب ولا تحسب " .

وكيفما انقلب الأمر فالمسألة نظرية ، والحكم فيها ينبغي أن يكون لما رجح من الأدلة، وبقينا أن أدلة أمّية الرسول يقينية قطعية ، وكل ما عداها ظنية ، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً.

^١ - معاهل المرفان للترقياني ١/٣٦٤ .

﴿ كِتَاب مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ :

وكان عدد الكتاب حين أطلَّ الإسلام قليلاً ، قيل بأنه دخل الإسلام وفي قریش مبعة عشر رجلاً كلهم يكتب^١ .

وأما كِتَاب المدينة فعندهم كان على قول أبي عبد الله الزنجاني: بضعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة ثم عندهم^٢ .

ولكن هذا العدد القليل من الكتاب لم يتوقف عند هذا الحد بل تجاوزته إلى حدٍ مثير للاهتمام ، لعل السبب في ذلك هو حدّ النبي ﷺ لأصحابه باستمرار على تعلّم الكتابة خاصة ، والتعلّم عامة. ولعل فداء الأسرى لأول مرة في التاريخ يكون تعليم مبادئ القراءة والكتابة كما حصل مع أسرى بدر.

إن عدد كِتَاب الرسول سواء كانوا كِتَاب وحي أم كِتَاب رسائل كان ستة وعشرين كاتباً ، وعن محكي سيرة العراقي ، اثنين وأربعين ، وعن أبي عبد الله الزنجاني: أنهم كانوا ثلاثة وأربعين ، ولكن كِتَاب الوحي كانوا ستة فقط.

إن فالذين كانوا يلمّون بالقراءة في الصدر الأول من الإسلام قد كانوا قلة ، وأما الذين كانوا يلمّون بالكتابة فقد كانوا الأقل.

إن الحاجة إلى تدوين القرآن وحفظه من الضياع حمل النبي على أن يستعين بأي كان ممن يعرف القراءة والكتابة طاملاً لا سبيل إلى مخالفة لنصّ الوحي ، وطالما كان للتأكيد من صحة ما يكتب ويؤن.

ولقد كان الاختلاف بيناً في الروايات التي ذكرت الكتاب بأشخاصهم وعددهم ، ولعل ذلك الاختلاف يعود إلى الخلط بين أولئك الذين كانوا يكتبون الوحي ، وبين الذين كانوا يكتبون للنبيّ الرسائل والعهود ، وإن ننس لا ننس أن التعصبات المذهبية قد لعبت دورها في هذه الروايات لتذكر من تذكر ، وتهمل من تهمل.

^١ - ملاوي بسند عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهيم المدوني ، فتوح البلدان ، القسم الثالث ص ٥٨٠ .

^٢ - تاريخ القرآن ص ٥ .

ورد في الاستيعاب في ترجمة أبي بن كعب:

أنه كان من المواطنين على كتابة الرسائل عن النبي ﷺ عبد الله بن أرقم الزهري ، وكان الكاتب لعهوده إذا عاهد ، وصلحه إذا صالح علي بن أبي طالب .

ومن كتب للرسول أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص ، وحنظلة الأسدي ، والعلاء الخضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن سلمة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن أبي ملول بن المغيرة بن شعبة ، وعمر بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة ، قال الواقدي: فلما كان عام الفتح وأسلم معاوية كتب أيضاً .
* انتهى ما في الاستيعاب .

وكيفما انقلب الأمر فالإسلام لم يذخر وسعاً ، ولم يألُ جهداً في الحث على تعلم الكتابة، ألم يقل القرآن الكريم: ﴿زِنِ الْقُلُومَ وَمَا يَسْتَفْهِمُونَ﴾ القلم: الآية ١ .
حيث أقسم سبحانه بالقلم ، فما أعظم القلم وأشرفه حين يقسم الله به ؟

للم يقل القرآن أيضاً:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: الآيات ١ - ٥ ، لتبقى العلوم مستمرة مع الأجيال بخيرها وعظمتها.

وأما الرسول فله في الحث على طلب العلم والكتابة أقوال وأقوال ، وحسبنا في هذا الشأن موقفه في غزوة بدر من الأسرى حيث أوحى بهم خيراً وكان إطلاق سراحهم موهوباً بتحقيق واحد من ثلاثة:

١ . دفع المال لمن يملك المال.

٢ . تعليم عشرة صبيان من أبناء المدينة لمن يعلم بقراءة وكتابة من الأسرى.

٣ . إطلاق سراح كل من لا يملك مالاً ، ولا يلم بقراءة وكتابة دون لقاء ودون شرط.

أليس في ذلك مؤشر لأهمية العلم وشرفه لدى الرسول ﷺ . لقد روي عن جابر عن عمر ، قال:

" أمر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً ، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء ، دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة ، فعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداؤه " .

فالكثابة عند الرسول استحال فداء للأسرى ووعداً بالحرية ، وإنه لإعلان منه ﷺ إلى شرف الكتابة ، ومجد القلم وعظمته.

نقد قال في كلماته القصار :

" قيداوا لعلم بالكتابة " .

ونقل عن أهل بيته الطاهرين قولهم :

"إنه إذا وضعت الموازين ، فتوزن دماء الشهداء ، مع مداد العلماء ، فيرجح دماء العلماء على دماء الشهداء " .

❖ الخطوط في عصر النبي ﷺ :

يمكننا في هذا الشأن أن نلاحظ عند العرب في عصر النبي الخطوط الآتية :

١ . كان لأهل اليمن خط يعرف : بالقلم المسند أو الحميري ، وإنه لخط مستغرق في القلم.

يقول الدكتور راميلار :

" وجدت في اليمن كتابات مبنية ، وقد أرسل بعضها إلى أوروبا سنة ١٨٢٠م وهي ترجع إلى عصر المغنيين ، أقدم الأمم العربية ، وعاصمتهم معين " .

وقال ابن خلدون :

كان لحمير كتابة تسمى المسند ، حروفها منفصلة ومنهم تعلمت مصر الكتابة العربية " .

^١ طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٤٠ .

^٢ مروج الذهب ، موهج كلمات الرسول ، وسندرك احكامك ج ١ ص ١٠٤ ، وكسر العمال ج ٥ ص ٢٢٧ ، وسند أحمد ج ٢ ص ٢٤٩ ، وكشف الظنون ، ج ١ ص ٢٨٠ .

^٣ سفينة البحار ، مادة : علم .

^٤ تاريخ قرآن [فارسي] ص ١٤٤ .

^٥ النخبة ، تفضل الدكتور ج ٤٨٠ .

٢ . ويرد الدكتور جواد علي قائلاً:

" ويظهر من عبور الباحثين على كتابات بالمسند: أن قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصل والأول عند العرب ، وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير أن التمييز بالنصرانية ، الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن أدخل معه القلم الآرامي المتأخر ، قلم الكتانس الشرقية ، ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أتباعاً وأتباعاً " .

٣ . وكان للأنباط الذين كانوا يقطنون في شمال الحجاز قلم يسمى بالقلم النبطي ، ويغرق في القلم أيضاً.

يقول الدكتور جواد علي:

" إن العرب صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر ، وذلك قبل الإسلام ، لاختلاط العرب الشماليين ببني إرم ، فتأثروا بهم ، وبأن هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت إلينا مدونة نبطية متأثرة بالعربية " .

كما يقرر فريد وجدي:

" بأن الأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وأثروهم باقية إلى الآن في ضواحي حوران والبلقان... " .

ويتابع الزنجاني قائلاً:

" وعلى رأي الأفرنج لخط العربي يقسم قسمين:

أحدهما: كوفي ، وهو مأخوذ من نوع السرياني ، يقال: لسطر نجيلي ، ونسخي ، وهو مأخوذ من النبطي ، ثم قال في هامش الكتاب: إن محكمة الأنباط امتكت من دمشق الشام إلى وادي القرى قرب المدينة شمالاً ، وجنوباً من بلادية الشام إلى خليج السويس شرقاً ، وغرباً ، فشملت غرب جزيرة العرب ، وجزيرة سيناء...^١ .

^١ - انفصل في تاريخ العرب ص ١٥٣ .

^٢ - انصد نفسه .

^٣ - تاريخ المسند الإسلامي : زبدان ، ص ٥٨ .

^٤ - تاريخ السريان قلم النبطي ص ٢٤ .

والذي كان ملاحظاً أن الخطين ، النبطي والمسند ، استمرّا شائعين ومعروفين إلى أن ظهر الإسلام ، غير أن الخط النبطي كان يستعمل في المراسلات والمكاتبات التجارية ، والمسند كان يستعمل في الكتب وخاصة في الكتب المقدسة^١ .

يقول جرجي زيدان: لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابة إلاّ نفراً قليلين ولم تكن كتاباتهم بالأحرف العربية المعروفة اليوم ، وإنما كانوا يكتبون بالأحرف العبرانية اقتباساً من اليهود في جملة ما اقتبسوه منهم ، وكان ممن كتب العربية بالقلم بالعبراني ورقة بن نوفل ، ابن خال خديجة زوج النبي ، أو بالأحرف النبطية ، نقلاً عن هاجر إليهم من الأنباط في القرون الأولى للميلاد فرأوا من سلطان الروم^٢ .

❖ الخط القرآني في عهد الرسول ﷺ :

وشاع في ذلك العصر خطان: المسند المتبدّل بالكوفي ، والنبطي المستبدل بالنسخ. والذي تؤكد الروايات للتاريخية هو أن القرآن قد كتب أولاً بالنسخ المتولد من النبطي ، ثم بالكوفي المتولد من المسند ، وكان اسمه الخط الحيري ، إلى أن ظهر ابن مقلة في أوائل القرن الرابع لينقلب الخط للنسخي على قاعدة فنية تصلح لكتابة المصاحف ، وبذلك دونت المصاحف وكتب بعد ذلك بالخط النسخي على قاعدة فنية تصلح لكتابة المصاحف ، وبذلك دونت المصاحف وكتب بعد ذلك بالخط النسخي الجميل ، بعد أن كانت تكتب بالكوفي على مدى قرنين من الزمن ، وإليك الشهيد:

١ . يقول الدكتور جواد علي :

ولا يستبعد أخذ أهل مكة خطهم المدور ، المسمّى بالنسخ من حوران ، إن بين البتراء والعلا اللذين سكن بهما النبط ، وبين مكة اتصال وثيق... إلى أن قال: فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة القرآن أيضاً وهو ولد القلم النسخي. وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين ، الذين عنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا أن الخط العربي الذي دون به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر^٣ .

^١ - بحث في تاريخ القرآن وعلمه ، أبو الفضل عمر عثماني ص ١٤٥ .

^٢ - جرجي زيدان ، تاريخ المسند الإسلامي ، مجلد ١ ص ٦٤٣ .

^٣ - المعجل : ص ١٧٢ .

٢ . وورد عن الجاحظ قوله:

" لا يخرج الخط من الجزم والممسند... فالممسند خط العربية الجنوبية ، والجزم خط أهل مكة ، والمدينة ، وعرب العراق ، وغيرهم من العرب الشماليين " .

إن العرب كانت تسمي الكتاب العربي: الجزم. ولما جاء الإسلام ، وكتب كَتَبَهُ الوحي بقلم أهل مكة ، لنزول الوحي بينهم ، صار القلم المكي هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ ، وبما أن الجزم هو خط أهل مكة ، وأن هذا الخط هو خط النسخ الذي هو خطنا اليوم ، وأن كتبه الوحي قد رسموه بقلم أهل مكة ، فالقرآن قد رسم في عصر الرسول بالخط النسخي.

٣ . يقول الزنجاني: إن كتبة الوحي كانوا يكتبون الوحي بالخط النسخي ، لكن لم تكن لذلك الخط الجودة ، ولا الإتقان إلى أن أطلّ ابن مقلّة بالتحسين والتذهيب لهذا الخط فانقلبت المصاحف تكتب بعد بالخط النسخي المتقن .

الشكل القرآني:

❖ معنى الشكل :

الشكل القرآني هو الإطار الخارجي للنص القرآني ، وهذا الإطار هو عبارة عن رسمه وإعجابه ونقطه ، وما صاحب ذلك من جهد وتطوير منذ للكتبة الأولى للمصحف .

وهذا كله أمر يختلف عن القرآن نصاً متعبداً بتلاوته ، فالقرآن ألفاظه ومعانيه وتشريعه ومراميه ، بسوره وآياته متواترة متكاملة ، وشكله هو صورته للمصحفية التي تواضع عليها الناس في الرسم والإعراب والنقط والإعجام للدلالة على ألفاظه في النطق ، وعلى هيئته وتركيبه في التلفظ ، فهو تسجيل ثانوي للوحي الأول ، بما يؤدي إلى صورة حقيقته المثلى حينما يقلى بالأسن معاداً كما أنزل .

وارتباط هذه الظاهرة الشكلية باللفظ المنزل على النبي وحياً سماوياً لم تأخذ طابع الصدفة أو صيغة اللغوية ، وإنما كان أمراً إلهياً مقصوداً إليه

وجهداً رسالياً معنياً بالذات ، ليتضافر على حفظ القرآن ، برأً بوعده بالحفظ والصيانة ، عاملاً:

الحفظ في الصدور والرسم في السطور ، واقترن هذا الأمر بأول نزول الوحي وأوشك على الكمال عند جمع الناس على لغة قريش في القراءة المصحفية زمن عثمان ، ولكتابة نصّ متكامل لهذا التوحيد في المصحف المتداول إلى اليوم مرسومة ، إلا أن ذلك النص – مضافاً إلى تنويته بالخط الكوفي القديم – جاء مجرداً من النقط والشكل ، ليحتل ما صحّ نقله ، وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ إذا كان الاعتماد على الحفظ ، لا مجرد الخط .

إن الشكل هو العلامات التي تدل على الفتح والكسر والضم والسكون والتثوين ، أو هو الرموز الكتابية التي تضبط حركات الأحرف أو تدل على إعراب الكلمة.

وقد بدأ الشكل أول مرة بوضع نقطة مدوّرة فوق أول الحرف للدلالة على الحرف ، ونقطة تحت آخره للدلالة على الكسر ، ونقطة على آخره للدلالة على الضم ، ونقطتين علامة السكون ، أما الإعجام لغة فهو الاختيار والتمييز ، يقال عجمت العود فوجدته حنأً ، أي فحصت قوته واختيرتها.

والإعجام في الكتابة يعني تمييز الحروف المتشابهة في الرسم ، كالباء والقاء والناء وكالهاء والحاء والجيم ، وكالمين والشين ، وكالصاد والضاد ، والعين والغين ، والدال والذال ، والراء والزّين...

إن شكل الكتابة هو رديف لإعجامه ، فالإعجام هو النقط. قال صاحب القاموس: «... والكتابُ إني وشكَلُ الكتاب: أعجمُهُ ، كشكَلَهُ كأنه أزال عنه الإشكال» ثم شاع استعمال الشكل في خصوص ما يعرض للحروف من حركة أو سكون ، والمناسبة بين المعنيين ظاهرة لأن في كل منهما إزالة لإشكال الحرف ودفعاً للبس عنه.

نسطاني : لصانف لإشارات ٦٤/١ ، راجع تاريخ القرآن ، محمد حسين الصمير ص ١٣٠ .

❖ أنواع الخط :

قال الزركشي :

الخط ثلاثة أقسام :

- ١ - خط جرى ما أثبتته اللفظ ، وبسقط ما عداه ، وهو خط العروضيين .
- ٢ - وخط جرى على العادة المعروفة وهو الذي يتكلم عليه للنحوي .
- ٣ - وخط يتبع به الاقتداء السلفي ، وهو رسم المصحف^١ .

فالأول: الخط العروضي:

وهو ما اصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشعر ، واعتمادهم في ذلك على ما يقع في السمع دون المعنى ، إذ المعتد به في صفة العروض إنما هو اللفظ ، لأنهم يريدون به عند الحروف التي يقوم بها الوزن ، متحرراً ، وساكناً ، فيكتبون النونين نوناً ساكنة ، ولا يراعون حذفها في المواضع ، ويكتبون الحرف المندغم بحرفين ، ويحذفون اللام مما يدغم في الحرف الذي بعده ، كالرحمن ، والذاهب ، والضارب ، ويعتمدون في الحروف على أجزاء التفصيل^٢ .

مثاله:

فكل رداء يرتنيه جميل	إذا المرء لم يندس من اللوم عرضه
فكل رداً يرتنيه جميلو	إذا لمرء لم يندس من اللوم عرضهو

وهذا هو الخط الوحيد الذي تراعى فيه المطابقة التامة بين المنطوق والمكتوب.

والثاني: ويسمى الرسم الإملائي:

وهو الرسم الذي وضع علماء البصرة والكوفة قواعده مستمدين ذلك من المصحف العثماني ، ومن علمي الصرف والنحو^٣ .
إن قواعد هذا الرسم ، وإن كانت قد فصلت وبوت ، إلا أنه لم يتفق عليها واضعوها ، وهي عرضة للتغيير ، والتبديل ، ومنظورة مع الزمن^٤ . هذا الرسم هو الذي نمتعله في كتاباتنا العادية.

^١ - لرحمان ٣٧٦/١ .

^٢ - مفتاح السعادة ٩٣/١ .

^٣ - مصطلح غني ، نتيجة الإملاء وقواعد الترتيب ص ٥ .

^٤ - د. لب السعيد: إجماع الجرمي الأول ص ٣٨١ .

أما الثالث:

فهو رسم المصحف الذي نحن بصدد دراسته ، ويطلق عليه أيضاً الرسم العثماني ، وهو الرسم المخصوص الذي كتبت به حروف القرآن وكلماته ، أشاء كتابة القرآن في جميع مراحلها للكتابة التي كان آخرها كتابته في عهد عثمان .
وسمي هذا الرسم بالعثماني نسبة إلى نسخ عثمان التي وزعها في الأفق والأمصار ، ونسبة إلى الطريقة التي رسمت بها هذه المصاحف في عهده .

❖ اهتمام العلماء برسم المصحف:

ورسم المصحف علم وفن:

لقد اهتم العلماء بهذا الرسم في جانبته العلمي اهتماماً بالغاً ، ليصنفوا فيه المصنفات المختلفة قديماً وحديثاً . من هؤلاء العلماء:

١ - أبو عمرو الذاني [ت ٤٤٤هـ] وكتابه " المقنع " الذي يعتبر من أكثر الكتب شمولية ، ومن أجمعها في الحديث عن رسم القرآن .

٢ - أبو داود سليمان بن نجاح [ت ٤٩٦هـ] وكتابه " التنزيل " .

٣ - الشاطبي [ت ٥٩٠هـ] وقصيدته الشهيرة " عقيلة أتراب القصاصد في أبيه المقاصد " .

٤ - أبو العباس المراكشي المعروف بابن البناء [ت ٧٢١هـ] ومصنفه النفسي " عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل " الذي يعتبر من أندر الرسائل في موضوعه .

٥ - الشيخ سيد بركات بن يوسف عريشة البوريني من رجال القرن الرابع عشر ، وكتابه " الجوهر الفريد في رسم القرآن المجيد " .

٦ - وكذلك الشيخ رضوان بن محمد المخللاتي ، والشيخ محمد أبو زيد ، والشيخ محمد بن خلف الحسيني ، والشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ، والشيخ محمد بن علي والضباع وغيره من الذين ألفوا في علوم القرآن ، وكان لهم حديث في رسم القرآن .

وقد شاعت العناية الإلهية أن يظل شكل القرآن متجاوباً ، مع اختلافات الرسم في كل العصور ، ومتجانساً مع عملية التطوير الكبرى للخط العربي ، فقد دأب المتخصصون

بصياغة الخطوط وطرائقها أن ينقل من جبل إلى جبل مطابقاً للأصل الكوفي مع إضافة الأشكال التطويرية زيادة في الإيضاح ، ورفعاً لتلك تلكتباس ، وكان ذلك متواتراً طيلة أربعة عشر قرناً من الزمن ، فما وجدنا في طول العالم الإسلامي وعرضه نصاً قرآنياً يخالف نصاً آخر ، ولا مخطوطاً يعارض مخطوطاً سواء ، حتى هيأ الله تعالى الطباعة لتزود المسلمين بل الناس أجمعين بملايين النسخ من القرآن الكريم ، وبمختلف الطبعت الأنيقة والمذهبة والمحكمة ، هي تعطر كل بيت ، وتشرّف كل منتدى وتحتل صدر كل مكتبة. وكان دور الطباعة له أهميته في نشر القرآن في أوروبا ، والبلاد الإسلامية ، والوطن العربي.

لقد نشر القرآن مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية في حدود سنة ١٥٣٠م ، بيد أن السلطات الكنسية وقفت منه موقفاً متعصباً منزهة ، فأصدرت أمراً بإعدامه وإحراقه عند ظهوره ، ثم قام هنكلمان بطبع القرآن في مدينة هامبورغ عام ١٦٩٤ ، وتلاه (مراشني) ، بطبعه في بانو عام ١٦٩٨.

وقد ذكر كل من بلاشير وشزر وبفلمر أن أول طبعة إسلامية للقرآن كانت في سانت بطرسبورج بروسيا عام ١٧٨٧م وهي التي قام بها مولاي عثمان ، وبعد هذا قنعت إيران طبعتين حجريتين: الأولى في طهران عام ١٨٢٨م والثانية في تبريز عام ١٨٣٣م^١.

وفي مصر قام الشيخ رضوان بن محمد المشهور بالمخلّلاتي بكتابة مصحف عني فيه بكتابة للكلمات في ضوء الرسم العثماني ، وقدم له بمقنمة أبان فيها تحرير المصحف ورسمه وضبطه ، وطبع بمطبعة حجرية ، هي المطبعة البهيّة في القاهرة عام ١٣٠٨هـ^٢ ، وكانت هذه الطبعة الأولى من نوعها في القاهرة ، وقد استدركت عليها بعض الملاحظات.

وفي القاهرة عام ١٣٤٢هـ — ١٩٢٣م تشكلت لجنة عليا من مشيخة الأزهر ، مستعينة بكبار العلماء ، بإقرار من قبل الملك فؤاد الأول كان قوامها كل من: شيخ القراء المصريين محمد علي خلف الحسين ، وحنين ناصف العالم اللغوي ، ومصطفى عنائي ، وأحمد الإسكندري.

وقد اضطلعت هذه اللجنة بمهمة ضبط المصحف ورسمه وشكله ، وكتبت القرآن بإقرارها ، موافقاً للرسم العثماني وعلى قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ، برواية حفص

^١ - ط: صبحي الصاوي ، مباحث في علوم القرآن ، ص ٩٩.

^٢ - ط: عبد الفتاح القدسي : تاريخ مصحف الشريف. ص ٩١.

ابن سليمان الكوفي ، ثم طبعته طبعة أئيفة بالنسبة لزمنها ، تلقاها العالم الإسلامي بالغبطة وكان ذلك أساس انتشار طبعات القرآن الأخرى. ففي عام ١٩٢٤ تم طبع القرآن في مطبعة بولاق في القاهرة ، وكانت هذه الطبعة هي الطبعة الرسمية للقرآن في نظر المستشرقين^١ . وكان القرآن قد طبع بحجم صغير في عام ١٣٣٧هـ في مطبعة بولاق أيضاً ، وأعيدت طبعته في ١٣٣٤م ، ١٣٤٧^٢ .

واستمر طبع القرآن في الوطن العربي الإسلامي مقتصراً على مصر في أغلبية مشروعاته ، ثم قامت عدة دول بطبع القرآن طبعات هي أكثر أناقة مما قدمته مصر ، وكان ذلك في عصر تقدم الطباعة والآلات ومستلزماتها ، وتحسين الورق وازدهار الخطوط ، وكان ذلك حينئذ ، وفي بدايات النصف الثاني من القرن العشرين ، حينما استعانت هذه الدول بمطابع راقية في الدول الغربية لسحب ملايين النسخ من القرآن الكريم بأبهى حلة لا سيما في مطابع ألمانيا وبركاتها ، كان في طليعة من تصدى لهذا العمل من دول الشرق الإسلامي وغربه كل من: العراق وتركيا وإيران وسوريا والمغرب والجزائر وتونس وغيرها.

٢ من خصوصيات رسم المصحف:

١ . الحذف :

منه حذف ألف جموع السلامة ، كلفظة «العالمين» التي رسم في المصحف «العلمين» أي بدون ألف بين العين واللام.

٢ . الزيادة :

كزيادة الباء في كلمة «أيد» ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: الآية-٤٧] ، حيث كتبت أيد بياطين.

٣ . كتابة الهمزة :

وذلك في مثل الهمزة التي تقع أول الكلام حيث تصور ألفاً ، سواء فتحت نحو: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية-٦] ، أم كسرت نحو ﴿إِنَّكَ نَعْبُدُكَ﴾ [الفاتحة: الآية-٤] ، أم ضمت نحو: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: الآية-٦٧] .

٤ . الإدال :

إدال الألف ولوا ، ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥] .

^١ - هناك ملاحظة للمستشرقين إلا أن تولد ذلك بعنوان: نشر القرآن الرسمي [طبعة بولاق ١٩٢٤] بالنظر إلى قرينة أهل مصر ، نشرها في عنة

الإسلام ج ٢٠٠ بروكستان ، تاريخ الأدب العربي.

^٢ بروكستان ، تاريخ الأدب العربي ١١١/١.

٥ . الوصل والفصل :

مثل: فصل أن — المفتوحة الهمزة الخفيف النون — عن لا ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
هود: الآية ١٤ .

وكنذلك: وصل 'أين' ب'ما' ، ﴿فَإِيْمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة: الآية ١١٥ .
٦ . رسم ما فيه قراءتان فأكثر :

مثل كلمة "ما لك" من قوله تعالى ﴿مَلِكْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الفاتحة: الآية ٩ .
فقد اتفقت المصاحف على كتابتها "ملك" بدون ألف.

في هذه الكلمة القراءات التالية:

- أ . مالك ، بالألف مدًا ، على وزن مامع اسم فاعل من ملك ملكًا بالكسر .
- ب . ملك: بدون ألف ، على وزن سمع صفة مشبهة ، أي قاضي يوم الدين .
- ج . مالك: بفتح الكاف ، نصبًا على القطع ، أو منادى مضافًا ، توطئة "إليك
- د . ففتح "يوم الدين: بنصب اللام والكاف ، ونصب يوم ، جعله فعلاً ماضياً ، وهي قراءة أمير المؤمنين عليّ (ع) .
- هـ . ملك يوم الدين: بالنصب على النداء من غير ألف .

٦ . اختلاف القراءات:

منشأ هذا الاختلاف مرجعه هو:

- ١ . توهم القراء جواز القراءة على سبعة أحرف ، فمنهم من اختار القراءة على هذا الحرف ، ومنهم اختار ذلك ، فحدث الاختلاف بسبب ذلك ، وهو نظير الاختلاف الواقع بين من جمعوا القرآن على عهد النبي فيقال مثلاً: إن قراءة ابن مسعود تخالف النص المشهور في كثير من الآيات ، وذلك لأنه كان يبدل كثيراً من الكلمات بموافقاتها ، وكان ذلك غالباً لغرض الإيضاح والإفهام...^١

^١ بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ١٤١/١ ، ص ١٥٦ .

^٢ مكّي بن أبي طالب: ٢٨٦ ، ص ٧٥ .

^٣ نفس المصدر .

^٤ الشهيد في دراسات القرآن ج ١ ص ٢٥٦ .

قال ابن قتيبة إن ابن مسعود كان يقرأ: 'وتكون الجبال كالصوف المنفوش' بدل العين المنفوش. وعلم ذلك بأن العين هو الصوف ، هذا أوضح ، وأنس للإيهام^١.

٢ . إن المصحف العثماني ، كان خلواً من الإعراب والنقط ، ولذا كان ذلك الخلو منشأ لكثير من الالتباس والخطأ ، سيما لدى الناس الذين لم يدركوا النبي ﷺ وأدركوه ، لكنهم كانوا من غير العرب أو من العرب البعيدين عن العربية ، أما العربي الأصيل المدرك لزمان النبي ﷺ للحاضر في مجسده ، السامع منه فلا يحتل في حقه الإستهانة والخطأ... إلأ فيما شذ...

إن هذا الاختلاف الناشئ عن عدم النقط والشكل ، لم يكن لصالح المسلمين... فإنه أيضاً قد يؤدي إلى التغيير في المعاني ، استنباه المراد له في كلامه تعالى.

فلو نظر شخص ، لا معرفة له في كلامه تعالى: " وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته " ، وهي بلا إعجام ولا إعراب لاحتل في كلمة " بشراً " احتمالات متباينة ، بعضها له معنى ، وبعضها لا معنى له ، ولو أسقط منها ما لا معنى له لبقي له أيضاً العديد منها تستلزم الأقوال الكثيرة المختلفة:

فمنها أن يقرأها " نُشْرَأ " بضم النون والشين معاً.

ومنها أن يقرأها " نُشْرَأ " بضم النون وسكون الشين.

ومنها أن يقرأها " نُشْرَأ " بفتح النون وسكون الشين.

ومنها أن يقرأها " بُشْرَأ " بضم الباء وسكون الشين كما في قراءة عاصم على ما قيل ، وهو المطابق لضبط القرآن.

ولعل قسماً ليس بالقليل من الاختلافات بين القراء السبعة كان مرده إلى ترجيح كل منهم أحد الوجوه ، واعتماده عليه.

وهذا الاختلاف هو الذي تكفل أبو الأسود وتلميذاه برفعه ، والقضاء عليه ، كما تكفل عثمان برفع الاختلاف الناشئ عن تجويز قراءة القرآن على سبعة أحرف ، ونعم الذي فعلوه ، ونعمت المباهرة بمباركتهم ، وكأنها عملية إخراج من مأزق^٢.

^١ - "مسجد في دراسات القرآن ج ١ ص ٢٥٦ .

^٢ - راجع بحث في تاريخ القرآن ، مسر محمدني ، ص ١٦٨ .

وأقدم عثمان على توحيد المصاحف ونشرها في الآفاق ليحسم الأمر ، روى البخاري: عن أنس بن مالك: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف... إلى أن قال: ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوه ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ، أو مصحف أو يحرق^١ .

وفي فتح الباري: أن عثمان أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك ، وكان أمير أهل الشام على ذلك العسكر حبيب بن مسلمة الفهري ، وكان حذيفة من جملة من غزا معهم ، وكان هو على أهل المدائن ، وهي في جملة أعمال العراق... ثم قال: وفي رواية عمار بن غزاة: أن حذيفة قدم من غزوة فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين: أدرك الناس. قال: وما ذاك؟ قال: غزوت فرج أرمينية ، فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فيكفر بعضهم بعضاً...^٢

ولم ينتقد المسلمون عثمان بما فعل ، وتلقّوه بالقبول ، لأنهم رأوه صلاحاً للأمة ، وفيه حسم لمادة الفساد ، وما يوجب تفريق المسلمين... ويذكر بعض المحققين: أن عثمان جمع المسلمين على قراءة واحدة ، وهي القراءة التي كانت متعارفة بين المسلمين ، والتي تلقّوها بالتواتر عن النبي ﷺ^٣ .

ولكن المصاحف التي كتبت عن المصحف الواحد المسمى بالمصحف العثماني لما كانت خالية من الإعراب والنقط والشكل ، مع التباس بعض الكلمات ببعض حسب الرسوم الخطية التي كانت شائعة آنذاك ، ككلمة «ملك» و«مالك» فقد ظهرت اختلافات جديدة في

^١ - البخاري ، ج ٦ ص ٢٢٦ .

^٢ - فتح الباري ، ج ٩ ص ١٤ .

^٣ - تفسير البيان ، للإمام المحرقي ، ص ١٧١ .

القراءة بين المسلمين ، كانت أشدّ ولاءً ، وأكثر ضرراً من السابق ، وهو الاختلاف الذي تبلور في القراء السبعة ، أو الأزيد ، حيث قد اشتهر عنهم أن كل واحد منهم كان يخطئ الآخر ولا يجوز الرجوع إليه^١ .

يضاف إلى هذا الفساد فساد آخر في بعض القراءات.

❦ أبو الأسود الرائد في تنقيط المصحف: [ت ٦٩هـ]:

إن القرآن الكريم كان محفوظاً في السطور والصدور في أول الإسلام ، ولم يكن خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط ألفاظه ، ومضى من القرن الأول للهجرة نصفه ، والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا إعجام ، وكان الذي افتقروا إليه بادية ذي بدء هو الحركات ، وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلي واضع النحو العربي ، والمتوفى سنة ٦٩هـ.

نقد وضع أبو الأسود نقطاً تمتاز بها الكلمات ، أو تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم أنه وضع الإعجام والحقيقة أنه وضع نقطاً لتمييز الاسم ، من الفعل ، من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء ، والجيم من الحاء.

ويقول جرجي زيدان:

" والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه ، أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسم هي أم فعل أو حرف. مثل قولهم " كتب " فيمكن أن تكون اسماً جمع كتاب ، أو فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم أيضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن^٢ ، وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت إلى نقط مزبوجة لتتوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم. فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكتاب فقال له أبو الأسود :

" إذا رأيته قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإذا ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف " ، فكان العرب

^١ - مصاح تنقيح لغته للمعداني ، كتاب الصلاة ، باب القراءة ، ص ٢٧٤.

^٢ - نقب جرجي زيدان عن اللغة الشنيّة: ٢١.

^٣ - المفهرست: ٤٠.

بعد ذلك يستعملون هذه النقطة ، والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط ، وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجنوه في جامع عمرو بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف العالم ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحت كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها أبو الأسود^١ .

واختلف أهل العلم من المسلمين في مسألة الشكل ، وكان بعضهم يقول: " جرتوا القرآن ولا تخطوه بشيء " .^٢

وكره إبراهيم الحنفي الكوفي [ت ٩٦هـ] نقط المصاحف^٣ ، وكره جملة الزيادات التوضيحية في المصاحف كل من: محمد بن سيرين [ت ١١٠هـ] والحنس البصري [ت ١١٠هـ]^٤ .

ولعل ذلك الكره يعود لأسباب منها:

أولاً: خوفهم من التحريف.

ثانياً: المغالاة في تقديس الرسم الأول.

ثالثاً: العناية بالمصحف من حيث الحفاظ على شكله الأول.

لكن لننوي كانت له فتوى ليس بتجوز نقطه وشكله صيانة له من اللحن والتحريف فقط بل كانت الفتوى بأن هذا العمل مندوب مستحب^٥ .

ولم يصد الموقف السلبي من نقط المصحف إزاء حركة النقط والإعجام الواعية والمخلصة والجريئة ، فكان النقط منظماً وأميناً لتتيسر تلاوة القرآن ، ويصان القرآن من الالتباس والشبهات.

اختلفت الروايات حول أول شخص نقط المصحف وشكله ، فقول أبو الأسود الدولي ، وقيل نصر بن عاصم ويحيى بن سليم ، وقيل الخليل بن أحمد ، والمشهور أن الرائد الأول الذي أنجز هذا المبتكر الضخم هو أبو الأسود الدولي.

^١ جرحي زبدان ، تاريخ المصنف الإسلامي ج ٣ ص ٦١.

^٢ ط: أبو عبيد ، غرب الحديث ٤٩/٤ ، ط: ابن أبي عمير ، السيرة ، ١٠ ، السيرة ، ١٠ ، ١٦٠/٤ .

^٣ ط: النجاشي ، المحكم ، ١١ - تيسري ١٦٠/٤ .

^٤ ط: ابن أبي داود ، المصنف ، ١٤١ .

^٥ ط: القسطلاني ، لسان العرب ، ٣٣٢/١ .

وعالج أبو الأسود أولاً مسألة ضبط العلامات الإعرابية في المصحف احتراماً من اللحن ، وابتعداً عن العجمة ، ورعايةً لسلامة القرآن ، فاستعمل لذلك ما يفرّق فيه بين حالات الرفع والنصب والجر بالتثوين وبدونه ، وابتكر باجتهاد فطري منه طريقته الخاصة الأولى باستعمال النقطة للحركات ، بصورة مميزة ، عدداً ، وموضعاً ، ولوناً .

قال لكاتبه عبد القيس:

" خذ المصحف ، وصباحاً يخالف لونه مداد المصحف " ، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن اتبعت هذه الحركات غنة [أي تنويناً] فانقط نقطتين فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره " . وكان نقط أبي الأسود مدوراً كنقط الإعجام إلا أنه يخالفه في لونه.

يلاحظ من هذه الرواية أن أبا الأسود قد فرّق أو خالف بين لون المداد للمصحف ولون مداد الحركات التي جعلها نقاطاً. فالفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحت الحرف ، والضممة نقطة إلى جانب الحرف أو خلاله ، والتثوين نقطتين فوق الحرف.

وعن أبي الأسود أخذ العلماء هذا الفن من بعده وأدخلوا عليه بعض التحسين ، واستمر الأمر كذلك إلى أن جاء الخليل بن أحمد في العصر العباسي ، فتناول نقط أبي الأسود وصوّره في عدلٍّ صورته وأدخل عليه تحسيناً كثيراً.

لقد كان لعمل أبي الأسود لثران إيجابيان على اللغة عامة ، وعلى المصحف خاصة. فالنقاط كانت حركات إعرابية ، وكانت بلونها الذي يخالف اللون الأصلي الذي تون به المصحف ، فالنقاط هذه ساعدت في ضبط المصحف وفي توضيح لفظه.

إن الروايات التي تؤكد على أن أبا الأسود هو الذي نهض بهذا العمل الإنقاذي ، والذي يعتبر محطة حيوية وفنية كبرى في تاريخ المصحف واللغة ، إن الروايات في هذا الشأن مستفيضة وموثقة ، ولا سبيل إلى إثارة الشبهات حولها.

^١ د. محمد علي الصقر ، تاريخ القرآن ص ١٣١.

^٢ طه: السبائك ، أخبار الحوئين ١٦ + ابن السكيت ، المعجم ، ٤٠ + ابن الأثيري ، إضاح الوقف والابتداء ٣٩/١ + التقي بري ، صح الأحكام ١٦٦/١.

من هذه الروايات:

١ . أن الإمام علياً سمع قرناً يقرأ:

﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ التوبة: الآية-٣ ، بكسر اللام في لفظة "رسوله" وهذا كفر ، إذ كيف لله أن يبرأ من رسوله . فلم يكن من الإمام (ع) إلا أن تقدم من أبي الأسود ، وأوعز إليه بأن ينهض بعمل ينقذ المصحف " حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وباباً وقياساً ، بعد أن فقق له حاشيته ، ومهد له مهاده ، وضرب له قواعد^١ . " وقال له: أنح هذا النحو يا أبا الأسود.

٢ . قال ابن النديم:

«وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو عن علي بن أبي طالب. وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن علي كرم الله وجهه إلى أحد ، حتى بعث إليه زياد: أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ، ويعرف به كتاب الله ، فاستغفاه من ذلك ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ بالكسر ، فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا ، فرجع إلى زياد ، فقال: أفعل ما أمر به الأمير ، فليبعني كاتباً لئنأ يفعل ما أقول ، فأتى بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأتى بآخر ، فقال أبو العباس المبرد: أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن صممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فهذا نقط أبي الأسود^٢ .

٣ . قال المرزباني:

" وهو أن أبا الأسود مر بكلأ البصرة ، وإذا قرئ يقرأ : " إن الله بريء من المشركين ورسوله " ، وفي آخرين حتى سمع رجلاً قال: سقطت عصاتي. فقال : لا يحل لي بعد هذا أن أترك الناس ، فجاء إلى زياد^٣ . أو قال:

^١ أبو حيان التوحيدي ، حسان والذخائر ٢٦١/١ .

^٢ - مفهرست ، ابن النديم ، في أحسن التحويين وأسماء كتبه ص ٦٦ .

^٣ - أبو الأسود اسمه ظالم بن طائم ، أبو القاسم بن عمرو ، هو أحد أهل همدان والتمسحة من الشيعة الأولى من شعراء الإسلام وشيعة علي . قال ابن حلكان: وكان نازلاً في بني قيس مديصرة ، توفي ٦٩٩ هـ ، راجع: الكنى والألقاب ، النسي .

١ . لا يسعني إلا أن أضع شيئاً أصْلَحَ به لحن هذا ، أو كلاماً هذا معناه " .

٤ . إن زياد ابن أبيه طلب إليه أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم فشكّل أواخر الكلمات ، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة تحته ، والضمّة نقطة إلى جانبه ، وجعل علامة الحرف النون نقطتين^١ . وقيل إن زياداً أرسل إليه ثلاثين كاتباً للقيام بهذه المهمة^٢.

٥ . وقال أبو هلال العسكري:
" أبو الأسود أول من نقط المصحف "٣ .

٦ . وقال الحموي:
" والأكثر على أن أبا الأسود أول من وضع العربية ، ونقط المصحف "٤ .

٧ . وفي الإصابة في ترجمة أبي الأسود حرف اللطاء عن المبرد قال: أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ، وقد مثل أبو الأسود عن نهج له للطريق ، فقال:
عليّ بن أبي طالب.

٨ . وقال السيوطي:
" اختلف في نقط المصحف وشكله ، ويقال: أول من فعل ذلك أبو الأسود للدولي بأمر من عبد الملك بن مروان ، وقيل: الحسن البصري ، ويحيى بن يعمر ، وقيل: نصر بن عاصم ، وأول من وضع الهمز ، والتشديد ، والروم ، والإشمام الخليل "٥ .

٩ . ويذكر النقاشندي بأن:
" أول من نقط القرآن ووضع العربية أبو الأسود الدولي من تلقين أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه "٦ .

١ - فهرست الطبري ، ألف به ٢١٠/١ .

٢ - الأسدي ، نزهة الأذنيب في طبقات الأدباء ، ١٠ وما بعدها .

٣ - ضد: الرعايا ، تاريخ القرآن ص ٨٨ .

٤ - الأوّل ج ١ ص ١٣٠ .

٥ - قاموس الرحال لتسري عنه .

٦ - الإنشاد ، ج ٢ ص ١٧١ ، النوع ٧٦ ،

٧ - صبح الأعشى ، ١٥١/٣ .

١٠ . يقول أبو حيان التوحيدي:

‘ ابن علي بن أبي طالب (ع) سمع قارئاً يقرأ على غير وجه الصواب ، فسأه ذلك ، فتعتم إلى أبي الأسود الدؤلي حتى وضع للناس أصلاً ومثلاً ، وقياساً بعد أن فتح له حاشيته ، ومهد له مهاده ، وضرب له قواعد’ .

١١ . وعن يحيى بن يعمر أن أبا الأسود الدؤلي دخل على ابنته بالبصرة ، فقالت له: يا أبت ما أشد الحر [رفعت دال لشد] فظنّها تسأله وتستفهم منه أيّ زمان الحر أشد؟ فقال لها: شهرنا — [يريد شهر صفر كانت الجاهلية تسمي شهور السنة بهذه الأسماء] فقال يا أمير المؤمنين: ذهبت لغة العرب ، لما خالطت العجم ، وأوشك أن تظاوت عليها زمان أن تضمحلّ، فقال له: وما ذلك؟ فأخبره خبر ابنته ، فأمره فاشترى صحفاً بدرهم وأملئ عليه: الكلام كله من اسم وفعل وحرف ، جاء المعنى [وهذا القول أول كتاب سيبويه] ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفترعوها [وقيل لأبي الأسود الدؤلي من أين لك هذا العلم — يعنون النحو — فقال: أخذت حدوده عن عليّ بن أبي طالب (ع)]^١ .

١٢ . روي أن أبا الأسود دخل يوماً على أمير المؤمنين عليّ وهو في الكوفة فوجده مطرقاً متفكراً قلماً سألته عن سبب ذلك قال له : إنني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية.

وعاد أبو الأسود بعد فترة وجيزة ، فالتقى إليه عليّ برقعة أو صحيفة كتب فيها الأصول التي أرادها ومنها:
أن الكلام كله اسم وفعل وحرف ، والاسم هو ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما أفاد معنى ، وقال يومها لأبي الأسود: أتح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك... واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ، ومضمر ، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، وإنما تتفاضل العلماء بمعرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر^٢ .

ويقول أبو الأسود: إنني أضفت إلى ما وضع عليّ من أصول ، أبواباً:

^١ - الطبرجدي ، البصائر والذخائر ج ١ [إعداد ١٩٥٤ م] ص ١٧٥ .

^٢ - أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ١٩٨/٦ .

^٣ - أراد بذلك الاسم المنهني .

النعف ، والنعت ، والتعجب ، والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى " إن وأخواتها " فلما عرضتها على علي أمرني بضم " نكن " إليها... وكنت كلما وضعت باباً آخر من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية.

وكان أبو الأسود من الذين صحبوا علياً حتى كان من خاصته ، ومن الذين عرف عنهم محبتهم لأن البيت النبوي .

كما يروى أن أبا الأسود جلس ذات ليلة ينظر إلى السماء ، وهي تتلأأ بنجومها ، مزينة بكواكبها ، وكانت ابنة له بجانيه ، فقالت: ما أحسن السماء؟

وقدر أبو الأسود أنها تريد الاستفهام فاجابها: نجومها. فقالت أريد التعجب لا الاستفهام. فقال لها: قولي: ما أحسن السماء ، واقتحي فاك.... .

هذه الروايات يمكننا أن نلاحظ من خلالها الأتي :

— إنها بمجملها تفيد أن أبا الأسود هو الراصد.

— روايات متواترة مستفيضة ، والتواتر في الروايات يوقعها ويدعمها ، ويحملنا على الأخذ بها.

— الظاهر أن المبادرة كانت من أبي الأسود ، والإنصاف الأولي كان من أمير المؤمنين علي .

— أما ما روي عن طلب زياد وعبد الملك من أبي الأسود أن ينفذ العربية أو القرآن فأمراً تستبعد العداية بينهما وبين أبي الأسود ، كما تستبعد عزلة أبي الأسود ، وخفة العقيدة عند الرجلين ، فأبو الأسود كان من أصحاب أمير المؤمنين ، وكان يرجع بتلليل لحجته لعلي ، وكان يعيش بعيداً عن السياسة القائمة في عهده.

والعجب العجيب أن ترفض الروايات المستفيضة ويؤخذ بالرواية الواحدة لدى بعض الباحثين المعاصرين.

لا إخال إلا الهوى الأموي لا يزال إلى أيامنا يعمل عمله في الأحكام والمواقف.

أليس من الهوى الجامح الذي لا يستند إلى توثيق ، ولا إلى أي أساس علمي منهجي أن يستبعد كل ما تقدم به أبو الأسود الدؤلي مع نظائر الروايات على صدقه ، أو على شهرته على الأثر بعض الدارسين المعاصرين.

بعضهم يعتبر انفراد أبي الأسود في وضع النقط أمراً غير طبيعي ، وغير منطقي ، ولا ينهض على أساس عقلي ، وكأنهم يستكثرونه عليه إن لم يستكثروه ، بينما يعتبرون أن للحجاج عملاً رائعاً لا سبيل إلى إنكاره في الإشراف على نقط القرآن^١ .

وهل هؤلاء وتَقُوا ما ذهبوا إليه بمستند أو مصدر؟

ألم يكن أبو الأسود عالماً لا يشغله إلا العلم؟

ألم يكن موسوعي الثقافة بين أهل الثقافة في عصره؟

ألم ينصرف إلى العلم ليكون وحده الشغل الشاغل ، ولا عمل ولا نشاط له إلا العلم؟

ألم أن العلاقة الحميمة بين أبي الأسود وأمير المؤمنين هي التي أملت على هؤلاء المتفكرين أن ينكروا على أبي الأسود هذا الكشف العلمي ، هذه الخدمة التي أمدّها إلى المصحف أولاً وإلى اللغة العربية ثانياً؟

وبهذا يمكننا القول بأن القرآن في زمن الرسول ، وفي القرنين الأول والثاني الهجريين بالخط الكوفي ، ولإيهام الموجود في كثير من الكلمات في الخط الكوفي تداول الصحابة وغيرهم الحفظ والرواية والقراءة ، ورغم ذلك بقي شيء من الالتباس والإيهام للعامّة ، واختص الحفاظ والرواة بالقراءة الصحيحة فقط ، فلم يكن من الميسور فتح المصحف وقراءته بصورة صحيحة.

ومن هنا وضع أبو الـ، يد الدولي أسس علم العربية بإرشاد من الإمام أمير المؤمنين (ع) كما وضع فيما بعد بأمر الخليفة الأموي عبد الملك مروان.

وهكذا قلّ الالتباس ، وارتفع شيء من الإيهام ، إلّا أنه لم يزل بالكلفة ، حتّى وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي مكتشف علم العروض أشكالاً لكيفية تلفّظ تلك الحروف: المدّ ، التشديد ، الفتحة ، للكسرة ، الضمة ، السكون ، التثوين ، مع إحدى الحركات الثلاث ، الروم ، الإسماع ، وبهذا ارتفع الالتباس بالكلفة.

وكان قبل وضع الفراهيدي ، كما ورد في الاتقان ، تلك العلامات يشيرون بالنقاط التي الحركات ، فعوضاً عن الفتحة نقطة في أول الحرف ، وعوضاً عن الكسرة نقطة تحته ،

^١ - ط: سبى لصاح ، مباحث في علوم القرآن ص ٩٤ .

وعوضاً عن الضمة نقطة على الحرف في آخره ، ولكن هذه الطريقة كانت تزيد في الأشكال ، وتصاعف الالتباس في بعض الحالات.

❖ يحيى بن يعمر العدواني: [ت: ١٢٩] هو تقريباً ونصر بن عاصم الليثي [ت: ٨٩هـ]:

وهكذا كانوا يكتبون القرآن الكريم في زمن الرسول ﷺ والقرن الأول والثاني الهجري بالخط الكوفي ، ولإبهام الكائن في كثير من كلمات الخط الكوفي تداول الصحابة وغيرهم الحفظ في الصدور ، ورغم ذلك بقي شيء من الالتباس والإبهام للعامة ، واختصر الحفاظ والرواة بالقراءة الصحيحة فقط ، فلم يكن من الميسور فتح المصحف وقراءته بصورة صحيحة.

لنسب كهذا وضع أبو الأسود أسس علم العربية بإرشاد من أمير المؤمنين (ع) إلا أنه استمر بعض الالتباس والإبهام ، فكان تنقيط المصحف لإزالة هذا التباس التحاصل بين الحروف المتشابهة على يد يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم تلميذي أبي الأسود. فالمسلمون بعد أن استخدموا الحركات التي وضعها أبو الأسود وجدوا أن التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الأعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم ففسب عليهم للتمييز بين الأحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والثين والباء والثاء والناء ولصاد والضاد ، فتنبه لذلك الحجاج أمير العراق في أيام عبد الملك.

وأسلم الأقوال وأصحها أن نقط الإعجام الذي يفرق به بين ذوات الحروف وأضعه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر. وذلك حين كثرت الفتوحات الإسلامية أكثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم كثر تبعاً لذلك التحريف في لغة العرب ، وخيف على القرآن الكريم أن يمتد إليه بعض التحريف ، أمر عبد الملك بن مروان أن يعمل الحجاج على ألا تصل أسباب التحريف إلى حرم القرآن ، فاختار لتلك المهمة نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وكانا من أبرز علماء المسلمين في تلك الحقبة في فنون القراءات وتوجيهها وعلوم اللغة العربية وأسرارها ، فوضعنا تلك النقطة لنتمير به نقط أبي الأسود.

- يحيى بن يعمر العدواني الهجري ، أحد فرادى البصرة ، كان عالماً بالقرآن الكريم والحج ، ولغات العرب. قال ابن عسكنا: إنه كان من الشيعة الأول ، العادلين بأفضل أهل البيت من غير تلبس لغتي فضل من غيره ، وكما قال الحميري في بلدانه ، توفي ١٢٩هـ ، راجع: الحكي والألقاب . وقاموس الرجال. أمّا نصر بن عاصم الليثي ، فهو أحد فرادى البصرة ، أخذ عن أبي الأسود ويحيى بن يعمر . وأخذ عنه أبو عمرو بن هذيل ، توفي سنة ٨٩هـ [مباحث في علوم القرآن نقل عن ربيعة الرضائي].

والذي يمكن استخلاصه مما تقدم أمران:

الأول: أن الذي حدث في المصاحف أولاً هو نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود.

الثاني: الذي حدث في المصاحف ثانياً هو نقط الإعجام الذي وضعه نصر بن عاصم

ويحيى بن يعمر.

أما النقط المطول الحروف — اليوم بالشك — فقد وضعه الخليل بن أحمد ليكون عوضاً عن نقط أبي الأسود.

فقط الإعراب المساوي للضبط والشكل هو سابق في الوضع على نقط الإعجام لتقدم زمن أبي الأسود على زمن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر.

موضوع هذا النقط هو العلامات الدالة على ما يعرض للحرف من وضع حركة وتركها ومحلها ولونها.

أما فائدته فهي إزالة اللبس عن الحرف فلا يلتبس مشدّد بمخفّف ، ولا ساكن بمتحرك ، ولا مفتوح بمضموم ولا مكسور .

ولعل الفرق بين فني الرسم والضبط هو:

أولاً: إن رسم الكلمة يعتمد فيه على أمرين: أولهما: رعاية البدء بالكلمة. وثانيهما: رعاية الوقت عليهما. ولذلك أثبتت همزة وصل ألف الجلالة ، كما حذف تنوين اللذان من محمد في نحو: [محمد رسول الله] رعاية للبدء بلفظ الجلالة والوقوف على دال محمد.

هذا الحذف هو حذف تنوين المرفوع والمجرور مطلقاً ، وكذا المنصوب إن كان اسماً مقصوداً أو مختوماً بئاء تأنيث مثل: هدى ورحمة ، أو كان منتهياً بهمزة قبلها ألف نحو عطاء غير مجذوذ ، وماء غدقاً ، وفي غير ذلك يرسم تنوين المنصوب ألفاً نحو عطيماً حكيماً ، وإذا على خلاف فيها ، وألحق به نون التوكيد الخفيفة نحو وليكوناً ولنفسعاً.

والضبط كله مبني على وصل للكلمة بما بعدها إجماعاً إلا ما استثناءه علماء الضبط ، كعلامة الابتداء على ما سيأتي في همزة الوصل والبدء بها. ولهذا عُرِيت من الضبط تاء رحمة ونون ووضع ضبطها على الميم والراء في نحو [من هذا رحمة من ربّي] رعاية للوصل.

ثانياً: إن الرسم يتعلّق بحروف الكلمة إثباتاً وحذفاً وقطعاً ووصلاً.

والضبط يتعلّق بما يعرض لهذه الحروف من الحركة والسكون ، وذلك وصف للحرف .
ولمّا كان للوصف بجيء بعد الموصوف ضرورة تقدم الموصوف على صفته مناسب
أن تكون معرفة علم الضبط بعد معرفة علم الرسم .

ويقول ابن خلكان: ففرع الحجاج إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف
المتشابهة علامات تميّزها بعضها من بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع
النقاط لإفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، فعبر للناس زماناً لا يكتبون إلّا منقوفاً ، ولكن
مع استعمال النقط أيضاً كان يقع للتصحيف ، فأخذوا الإعجام فكانوا يبتعون النقط بالإعجام^١ .

وكان لجرجي زيدان ملاحظة على هذه الرواية نقول بأن هذه العبارة فيها التباس لا
يفهم المراد بها ، ولا للفرق بين التنقيط والإعجام وهما واحد ، ولا يعقل أن يكون المراد
بالنقط الحركات لأنهم إنّما عمدوا إليها لكثرة التصحيف ، أي اختلاف القراءة باختلاف النقط ،
فالظاهر أن النقط المذكورة هي من قبيل الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصراً هذا
لم ينقط إلّا بضعة حروف ممّا يكثر وزوده ، ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط
إلا بتنقيط الحروف كلها كما هي الآن وهذا ما عجزوا عنه بالإعجام^٢ .

وقد شوهد في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية ، كما يقول زيدان ، كتابة
عربية على صفحة البردي [البابيروس] مؤرخة سنة ٩١هـ وفيها إعجام ، لكنه قاصر على
الصور المتشابهة ، البناء للتمييز بين الباء والياء والفاء ، وصورة حرف الشين لتمييزه من
السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد ، كما شوهد أجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة
على رقوق صغيرة ، وعليها نقط حمراء للحركات ، ونقط سوداء للإعجام ، وقد تجد خطوطاً
قيمة منقطة ومحركة ، وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك . وشوهد أيضاً في دار الكتب
المصرية مصحف كوفي منقظ على هذه الكيفية في جامع عمرو ، بجوار القاهرة وهو من أقدم
مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبير بمداد أسود وفيه نقط حمراء ، فالتقطت فوق
الحرف فتحة وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفه أبو الأسود .

ويعود بنا الحديث إلى أن وضع نقط المصحف كان من وضع تميمي أبي الأسود
وهما ، يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وذلك لإزالة الالتباس والإبهام بين الحروف
المتشابهة ، ولقد وردت في ذلك روايات منها:

^١ - ابن خلكان ١٢٥ ج ١ .

^٢ - زيدان ، تاريخ تمدن الإسلام ، ج ٣ ص ٦٢ .

١. إن الذي عليه الجمهور أن الإعجام من عمل نصر بن عاصم ، فلما كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تميزهم بين الحروف المتشابهة ، وتفتي وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين المتشاكلة ، فزرع الحجاج إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات تميّزها بعضها من بعض ، فيقال: إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، إن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر كانا ممن أخذ العلم عن أبي الأسود ، نقطاً الإعجام بنفس المراد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط أستاذهما^١ .

٢. إن الحجاج أمر رجلين جليلين يعالجان هذا المشكل ، هما نصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر العدواني^٢ ويقال بأن الحجاج أصلح من الرسم العثماني في عدة مواضع حدثت بأنها إحدى عشرة كلمة فكانت بعد إصلاحه لها أوضح قراءة^٣ .

٣. الظاهر أن النقط المذكورة ، كما نكر البعض ، هي من قبيل الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصراً لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر^٤ .

٤. حكى أبو أحمد العسكري:
إن الناس الذين غيروا يقرأون بمصحف عثمان نيحاً ولربيعين سنة ، إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم كثر التصحيف ، وانتشر بالعراق ، فزرع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة^٥ .

٥. أضاف أتباع أبي الأسود علامات أخرى في الشكل ، فوضعوا ، مضافاً إلى ما تقدم ، للسكون جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه ، سواء كان همزة ، أم غير همزة ، ووضعوا لألف الوصل جرّة في أعلاها متصلة بها إن كان قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كان قبلها كسرة ، وفي وسطها إن كان قبلها ضمة^٦ . وكما يقول الزرقاني بأن لون المداد الذي كان يكتب به الكلام كان من هذين الشفصين الجليين اللذين نجحاً أيما نجاح في إزالة الالتباس بين الحروف المتشابهة ، حيث

^١ - انفصل في تاريخ العرب ج ٨ ص ١٨٧ .

^٢ - ساحت علوم القرآن نقلاً عن بغية الوعاة .

^٣ - قلت: ابن أبي دود ، كتاب التصحيف ، ١١٧ .

^٤ - حرجي زيهان ، تاريخ تمدن الإسلام ، ص ٦٢ .

^٥ - وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢ . في ترجمة الحجاج ، نقلاً عن العسكري في كتاب التصحيف .

^٦ - الزرقاني ، تاريخ القرآن ص ٨٨ .

أعجبا المصحف للمرة الأولى ، ونقّطاً جميع الحروف المتشابهة ، والتزمّا ألاّ تزيد النقطة في أيّ حرف على ثلاث...

فالعرب ، استندأ إلى هذه الروايات ، قد استختموا الحركات والإعجام في أولسط القرن الأول ، ولكنهم لم يقبلوا عليهما كل الإقبال ، بل استمروا يكرهونهما إلّا حيث يربنون التدقيق كالمصاحف. أما فيما خلا ذلك فكثروا يفضلون ترك النقطة ، لا سيما إذا كان للكاتب عالماً.

ويروى أنه عرض على عبد الله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال: ما أحسنه ، لولا كثرة شونيزه [أي نقطة].

ويروى كذلك قول يذهب إلى أن كثرة النقطة في الكتاب سوء ظن في المكتوب إليه. وحكي عن جعفر المتوكل أنه كتب إلى بعض عمّاله:
" أحصى من ذلك من الدّميّين ، وعرفنا بمبلغ عددهم " فوقع على الحاء نقطة. العامل من كان في عمله منهم ، وخصاهم فماتوا غير رجلين " .^١

وبقي الكتاب طيلة للتمنّ الإسلامي مخبرين بين الإعجام والإهمال. وكان الأبناء يستحسنون الإعجام في كتب العلوم ، ويستهجنونه في المراسلات ، ولذلك استحسّنوا مشق الخط في المكاتبات ، لأنهم لفرط إدلالهم في الصفة ، وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ويقتصرون على التلويح ، ويرون الحاجة إلى استيفاء الإنابة تقصيراً^٢.

وكيفما انقلب الأمر فقد استمر الخط القرآني تشكّله الدوائر ، أي النقطة ، التي دونت بلون يغاير لون الخط خشية أن تختلط بالحروف القرآنية وتعمج بعض حروفه نقط ، حتى جاء الخليل حيث أكمل شكل الخط العربي واستبدل النقطة المدوّرة بعلامات هي الفتحة والكسرة والضمة والسكون والتنوين ، ثم عقبه سهل بن محمد المعروف بأبي حاتم المسجستاني إلت ٢٤٨هـ] فألف كتاباً في نقط القرآن وشكله.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري بلغ رسم الخط ذروته في الإتقان والحدودة ، واتسع على أثره نشاط استقماخ القرآن ، وشاع الشكل الجديد من الخط والنقط والشكل في المصاحف حتى أيامنا.

^١ - كتب الفنون ، ج ٢ ص ٤٦٨.

^٢ - أدب الدنيا والدين ص ٥٢.

وبعد الإنجاز الكبير الذي أنجزه أبو الأسود ونمذائه ظهرت مشكلة اختلاط نقط الحروف التي وضعها أبو الأسود بنقط الحروف المتشابهة الرسم التي وضعها تلامذته ، بعد ظهور هذه المشكلة كانت المبادرة الخيرة والناجحة من العالم النحوي الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري ، تلك المبادرة هي ابتداع أشكال الحركات لتتميز بذلك الحركات عن الحروف ، حيث جعل الحركات حروفاً صغيرة بثل النقط ، وابتكر لكل حركة ما يناسبها في الشكل من الحروف. فالضمة واو صغيرة فوق الحرف ، والكسرة ياء مردفة تحت الحرف، والفتحة ألف مائلة فوق الحرف. وقد أصاب الخليل حظّ التوفيق أكثر حينما أضاف إلى الحركات ابتداع علامات الهمز والتشديد والروم والإشمام² . وسُمي بعد بالتنقيط المطول وهو المعروف عندنا اليوم بالشكل. وإلى ذلك أشار الخراز صاحب متن الذيل: مستقبلاً من زمن الخليل مشتهراً في أهل هذا الجيل³ .

والشاهد على أن الخليل هو الذي نهض بهذا العمل الجليل ما يلي:

١ . ما ورد في أن الخليل بن أحمد هو الذي أبدل التنقيط برموز أخرى هي الكسرة والضمة والفتحة... وصرّح في موضع آخر بأن الشكل الحاضر هو من وضع الخليل⁴ .

٢ . ما في الإتيان ، الذي قال: «فائدة: كان الشكل في المصدر الأول نقطاً ، فالفتحة على أول الحرف ، والضمة على آخره ، والكسرة تحت أوله ، وعليه سمّي الذاتي ، الذي اشتهر الآن: الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف ، وهو الذي أخرجه الخليل ، وهو أكثر ، وأوضح ، وعليه العمل... وقال في موضع آخر: أول من وضع الهمزة والتشديد والروم والإشمام ، لل خليل»⁵ .

¹- الخليل بن أحمد أفضل الناس في الأدب ، وقوته فيه حجة ، وهو غنّ عن علم لغرض ، وقضه أشهر من أن يذكر ، وكان يسمّى اللذهب. راجع خلاصة الإمام الخليلي.

²- راجع السبوي: الإتيان ١٦٠/٤.

³- الفضل في تاريخ العرب ج ٨/ ١٩٠.

⁴- وبغية مأخوذ من صور حروف الله: فالتحفة من الألف ، والضمة من تولى ، والكسرة من الهاء ، والشدّة رأس سين من شديد ، واليسكون [علامة احتنة] رأس حاء من حفيف. ولعلّ تسميتهم بالفتحة والضمة والكسرة مأخوذة من فتح المفتحين وضمتهم وكسره كما فعل أبو الأسود.

⁵- الإتيان ج ٢ ص ١٧١ ، النوع ٧٦.

٣ . ما ذكره الدكتور راميار: من أن العلامات الإعرابية ، الفتحة والكسرة والضمة ، من آثار الخليل^١ . ولعل الخليل نظر إلى الحروف من قبل وضع النقط لها فوجد أن ما فتح منها إذا أُنْبِيع تولّد من إشباعه عنه مدّ ، هو الألف ، وإذا أُنْبِيع ما كسر تولّد من إشباعه انباء ، وإذا أُنْبِيع ما ضمّ تولّد منه قواو ، فجعل الألف أصلاً للفتحة ، والياء أصلاً للكسرة ، والواو أصلاً للضمة.

إن إنجاز الخليل في هذا الشأن يحتلّ المرحلة الثالثة في تحسين الخط وتيسير قراءته ، وإبعاد احتمالات الالتباس فيه ، وحسبه من فصل وصفه للحركات الثلاث والهمزة والتنشيد ليسهم في تيسير قراءة القرآن.

❖ مرحلة ما بعد الخليل:

وتعتبر هذه المرحلة هي المرحلة الرابعة من مراحل التطوير للرسم القرآني من حيث ما من شأنه أن ييسر القراءة ، ويحسن الرسم.

ومع مسيرة الزمان وضع المهتمون برسم القرآن علامات للجزم ، وعلامات لألف الوصل ، وغيرها ، ثم تتابع الخطاطون المهرة فكان لهم اليد الفعّالة ، وكانت لهم الريشة المبدعة مما أضفى على رسم المصحف الرونق والجمال ، ومن هؤلاء خالد بن الهياج المشهور بجمال الخط والذي خطّ كتابة المحراب في مسجد النبي ﷺ كما قيل.

لقد كانت المصاحف تكتب بالخط الكوفي لقرنين من الزمان تقريباً ، وابن مقلة^٢ الذي كان مثيراً للإعجاب بخطّه ، قد كتب القرآن بالخط النسخي الجميل ، وزينه بالنقط والإعراب ، وسائر الرموز المعروفة في الخط القرآني ، واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهرت المطابع في أوروبا وتذهب بعض الروايات إلى أنص عرب الأندلس قد عرفوا الطباعة على الحجر والخشب كما يقول جرجي زيدان. لقد اكتشفت الطباعة في القرن الخامس، وأول كتاب عربي طبع هو كتاب السواعية ، وكان ذلك في إيطاليا ، بفانوا ١٤١٤م، أصدره للطباعة البندقي غريغوريوس ، ثم بعد كتاب السواعية ثم طبع للزبور ، ثم طبع القرآن في مدينة البندقية الإيطالية ، لكنه سرعان ما أحرق ، ورغم ذلك فالطباعة حملت إلينا خيراً كثيراً ، وأنتت دوراً هاماً في تسهيل الخط والقراءة مع سائر الرموز المطلوبة .

^١ - كتاب شفا لأبي عمرو الداني ص ١٢٢.

^٢ ابن مقلة تروى ٣٢٨.

^٣ - راجع بحث في تاريخ القرآن أبو الفضل عمدي ص ١٧٧.

وزيادة في الإيضاح يمكننا القول بأن المسلمين حين أباحوا لأنفسهم ضبط النص المصحفي في النقط والحركات وقواعد الهمز والتشديد أحدثوا النقط عند آخر الآية ، ثم لفواتح والحواف ، حتى قال يحيى بن أبي كثير:

" ما كانوا يعرفون شيئاً مما أحدث في المصاحف إلاّ النقاط الثلاث على رؤوس الآي^١. وكان هذا العمل إيداناً بمعرفة حدود الآية ، إذ يفصل بينها وبين الآية التي يليها بمؤشر نقطي ، تطوّر فيما بعد إلى شكل دائري ، يوضع في داخله رقم الآية ، وبذلك تمّ تكميل أعداد الآيات ، وضبطها في السورة الواحدة^٢ .

وعند المهتمّون بالرسم للقرآني بعد ذلك إلى كتابة الأخماس والأعشار ، وهو أن يدوّنوا بعد كل خمس آيات ، أو عشر آيات رقماً وعددها ، وكان قد كره ذلك جماعة من الأوائل على ما يدعى ، كابن مسعود ومجاهد والنخعي^٣ .

أليس في هذا مؤشر لحركة تطويرية في شكل المصحف؟ وهذه الحركة التطويرية لا يمكن أن تتعارض مع أصل ديني ، أو مع القرآن كوحى إلهي لأنها أمر شكلي إحصائي لا اعتراض عليها.

وأضيف إلى ذلك ، في ظل هذه الحركة ، كل ما له علاقة بأحكام السجود القرآني الواجب والمنسوب ، فوضعوا في الهوامش إشارات إلى مواضع السجود ، بحيث اتضح كونه شيئاً ، والنص القرآني شيء آخر لانفصاله عنه إلى الجوانب ، شأنه في ذلك شأن تعيين الأحزاب والأرباع والأجزاء ، وإشارات التجويد في مغايرة رسمها في المدار ، وإن كانت ضمن النص ، فما استحسنه البيهقي ، حيث قال:

ولا يخلط به ما ليس منه ، كعدد الآيات والسجود والعشرات والوقوف ، واختلاف القراءات ، ومعاني الآيات^٤ .
لقد لجأوا إلى تنويع لون للمداد لكل من الرسم والشكل والنقط للمساهمة في رفع الالتباس والإيهام.

^١ - السيوبي ، إتيان ١٦٠/٤ .

^٢ - تاريخ القرآن ، للدكتور محمد طه ص ١٣٥ .

^٣ - السيوبي ، إتيان ١٦٠/٤ .

^٤ - انصهر نفسه ١٦١/٤ .

قال الداني مرخصاً بما تقدم وسبقاً:

لا استجيز النقط بالسواد لما فيه من تغيير لصورة الرسم ، لا استجيز جمع قراءات شتى.

❖ هل رسم المصحف توقيفي أم اصطلاحى؟

وإذا كان لنا أن نتحدث عن رسم المصحف في شأن توقيفته وعدمها كان لها ملاحظة مذهبين اثنين ، أحدهما يقضي بأن هذا الرسم إنما هو توقيفي وبأمر إلهي ليس لنا أن نتجاوز أو نغير فيه ، والثاني يذهب إلى أن هذا الرسم إنما هو أمر اصطلاحى يعود القرار فيه إلى الإرادة البشرية التي لها الحرية كل الحرية في التغيير والتحسين كما حصلت المبادرات على أيدي الذين كانوا حريصين على التحسين والتطوير لرسم المصحف العثماني.

❖ المذهب التوقيفي:

ولبعض من أهل العلم إن سابقين وإن معاصرين مذهب يرى بأن الرسم العثماني للمصحف توقيفي ، لا مجال للعقل أن يتصرف فيه ، وليس من مجال لاجتهاد إن قديماً أو حديثاً أن يتدخل في شأنه.

إن اتباع حروف المصحف العثماني ، حسب هذا المذهب ، هو كالسنن القائمة لا يجوز لأحد أن يمتدأها أو يتجاوزها^١.

وحينما جمع القرآن على لغة قريش ، ووحلت للقرآن على حرف معين ، حصل اختلاف ، فقد قال الزهدي:

“واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه ، فقال النضر القرشيون: للتأبوت ، وقال زيد التأبوه ، فرفع اختلافهم إلى عثمان ، فقال: اكتبوه التأبوت فإنه بلسان قريش^٢ .

وفي رواية مماثلة:

“فإنما أنزل القرآن على لسان قريش^٣ .

^١ - صبرهان ، ٣٨٠/١ .

^٢ - ابن أبي دؤاد ، الصحاح ص ١٩ .

^٣ - طبرستاني ، صبرهان ٣٧٦/١ .

وما من شك أن يحصل الخلاف بين الكتبة بقدر تفاوت الضبط فيما بينهم . أو على نحو من اختلاف القائل فيما تكتب ، مما طبع أثره على الاختلاف في الخطوط.

والذي يصور لنا هذا المذهب ما ادعاه ابن المبارك في نقله عن شيخه عبد العزيز الدبائع أنه قال:

“ ما للصحابة وغيرهم في رسم القرآن ، ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبي ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة: بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار لا تهتدي إليها العقول ، وما كانت العرب في جاهليتها ، ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك ، ولا يهتكون بقولهم إلى ما في مصحف واحد بألوان مختلفة ، لأنه من أعظم التخليط والتغيير للرسم ، وأرى أن تكون الحركات والتتوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة ، والهمزات بالصفرة .

ولما كان رسم الآيات يكتب بالمذاد الأسود كتبت العلامات بالحمرة ، والهمزات بالصفرة ، ليكون ذلك على بينة من الأمر عند الخاصة والعامة ، أو ليكون عرفاً شائعاً عندهم. ويمكن اختصار هذه الحركة التي تنامت مع الأيام ، وهذا الضبط والتتقيق في الرسم المصحفي وشكله ، بأنه بعد كتابته في الخط الكوفي ، أضيفت النقط والحركات ، والهمز والتشديد ، والتخمين والتعشير ، والفصل بين الآيات وترقيعها ، ثم تطور الأخير إلى دوائر صغيرة ، وضع فيها رقم الآية بحسب تسلسلها من السورة ، ثم كتبت أسماء السور مع عدد آياتها في أول السورة ، وقبل لبسلة متخذة لذلك عنواناً بالاسم ، إحصاءً بالآيات ، ثم قسم هذا النص إلى ثلاثين جزءاً ، وقسم كل جزء إلى أربعة أحزاب ، وكان ذلك بإشارات هامشية ، وأرقام وكتابات جانبية رسمت غير مختلطة بالنص القرآني الكريم ، وإلى جانب هذا أضيفت علامات للتجويد والوقف ، ومواضع السجود ، وأمثال ذلك مما لم يكن معروفاً في عصر النبي ﷺ والأئمة والصحابة (رضي) ، وهي إضافات كانت غايتها الأولى والأخيرة هو الإيضاح الكثيف ، والبيان المفصّل ، ولم يخالف فيها الرسم المصحفي ، فقد بقيت صور الكلمات على هيئتها ، وحافظت على أشكالها كما وصفتها لنا كتب العلف في الموضوع^١.

^١ - حسري ، إيمان ١٦١/٤.

^٢ - راجع تاريخ القرآن لتذكّر السمع ، ص ١٣٧ ، وأهم هذه الكتب التي وصفت هذه التغيرات ، كتاب «الفتح في معرفة رسم مصاحف أهل الأمصار» ، لابي عمرو عثمان بن سعيد الدقاق [ت: ٤١٤هـ].

وكان نقّاط المدينة وأهل الأندلس ، يستعملون اللون الأحمر في نقط الحركات والسكون والتشديد والتخفيف ، ويجعلون اللون الأصفر للهمزات خاصة ، بينما كان النّقاط يستعملون الحمرة للحركات ، والخضرة للهمزات ، والصفرة للتشديد. بل إن بعض أهل العراق ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ، فكانوا يدخلون الحروف الشّواذ في المصاحف وينقّطونها بلون مخالف للنقط القراء المشهورة^١ .

وكما ظهر نقط الإعراب أول ما ظهر في بلاد الرافدين ، كذلك ظهر إعجام الحروف للتفريق بين المتشابه منها أول ما ظهر في البصرة. ولعل السبب في انفراد العراق بتطوير الكتابة العربية هو مجاورة أهله للمريان الذين كانوا ينقّطون كتابتهم آنذاك. ولكن اجتماع نقط الإعراب ونقط الإعجام في الكتابة ، كان أمراً معقداً ومجهداً للكاتب والقارئ على السواء ، ومن أجل هذا كان لا بد من عملية تيسير للكتابة العربية ، وفُتِر لها أن تتم على يد الخليل بن أحمد في العصر العباسي الأول ، وتتلخص هذه العملية بإبدال النقط التي وضعها أبو الأسود بالحركات الإعرابية التي نعرفها اليوم.

وهنا ينبغي ملاحظة أن ظهور تلك العلامات لم يقض على شكل حروف المصاحب بطريقة النقط القديمة ، فقد كان بعض الكتاب يتحرّجون من إدخال أي تعديل على الكتابة بصورتها التقليدية ، ونحن نلمس هذا الحرج الذي كان يخامر القصور في قول أبي عمرو الداني في كتابة المحكم ، ص ٢٢: " وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذي في الكتب والذي اخترعه الخليل في المصاحف الجامعة من الأمّهات وغيرها أولى وأحقّ ، اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين ، وإتباعاً للأئمة السلفين " .

واستمرّ الرسم العثماني للمصحف هو الأسس في خطّ المصحف حتى أيامنا وذلك نظراً لاكمال الصورة الأولى للمصحف ، وإن كانت النقلة للشكل من الخطّ الكوفي إلى الخط النسخي على يد ابن مقلة.

^٢ وتوجد الآن في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة القديمة أو قطع منها ، بعضها مكتوب على الرق ، وبالخط الكوفي القديم ، مجردة من النقط وللشكل ، ومن كثير ما ألحق بالمصاحف من أسماء السور وعدد آياتها وغير ذلك بحيث يبدو أقرب إلى الصورة التي كانت عليه المصاحف الأولى^٣ .

^١ - المحكم في نقط المصاحف للدان شيخ عمر حسن ، ص ٢٦ .

^٢ - نقل هذا الشكل عاتق بخاري ، عن حركة تسيير وغيره ، طبع: معاضرات في علوم القرآن ، ٩٣ .

وهناك اليوم كثير من الآثار المصحفية في المتحف للبريطاني في لندن مصنوعة بعناية فائقة وبحواجز زجاجية محكمة لا تصل إليها أيدي المشاهدين ، وقد أشير ببعضها إلى تواريخ قديمة ، ويمتد بعض منها إلى القرن الأول ، لكننا لا ندري إلى أي مدى هي موثقة.

❖ نتائج هذه الحركة الإيجابية:

ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم بوحدة كتابهم إلى السلف الصالح في صدر الإسلام ، ومهما أضيف إلى المصنف العثماني من علامات خارجية ابتكرها أبو الأسود وأتباعه ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، والحسن البصري ، والخليل بن أحمد ، وابن مقفة ، فإن نصه بقي وسيبقى خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويجدد بنا التوقّف عند الباعث الأول أو الحافز الأساسي لهذه الحركة.

إن وجود بعض الحروف الزائدة أو الكتابات القديمة التي اقتصررت على كتابة المصاحف وحدها هي في جميع نسخ القرآن المجيد اليوم ، المطبوع منها والمخطوط ، يعتبر شهادة وثيقة وبليغة انتقل بها البناء القرآني من جيل إلى جيل ، حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

وهذا الحفظ له أسبابه الإلهية البلاغية ، وله أسبابه البشرية ، حيث توفر له أهله الأمانة ، وأصحابه المؤمنون الموقنون.

فالرسول ﷺ : " ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " والأمانة والأصحاب والتابعون ، كل هؤلاء كانوا الحريصين على صيانة القرآن ، وكانوا الأمانة عليه ، والمبادئ كما هي بذاتها ، هي بأصحابها تقريباً.

فبواعث الخوف من اللحن في قراءة القرآن فرضت على المسلمين أن يبدلوا بتشكيل آيات المصحف ، قبل أن ينكروا في إعجام حروفها ، لأن القرآن لم يكن من صحف مكتوبة ، وإنما كان يصل إلى عقول المسلمين وأفتنتهم بطريق السماع ، ولذا لم يكن يخشى من للتصحيف بقدر ما كان يخشى من أن يلحن فيه الأعاجم الحديث العهد في الإسلام. ونتيجة لذلك قام أبو الأسود البصري بنقط المصاحف نقط إعراب ، ومن للبصرة انتقل النقط إلى المدينة ، ومنها إلى المغرب وبلاد الأندلس.

❖ أدلة المذهب التوقيفي:

واعتمد هذا المذهب ألواناً من الأدلة لتأكيد دعواه ، وتدعيم موقفه. من هذه الأدلة:

1- أولاً: القرآن الكريم.

2- ثانياً: السنة الشريفة.

3- ثالثاً: الإجماع.

4- رابعاً: الفقهاء.

5- خامساً: اختلاف رسم الكلمة الواحدة باختلاف مواضعها.

1- أولاً: القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَيِّتَ وَإِنَّا لَهُ نَحَافِتُونَ﴾ الحجر: الآية- 9 .

وتنزه الله عن الكذب ، فالآية تؤكد خلود القرآن وصيانة الله تعالى له بتأكيدات ثلاثة: الجملة الإسمية ، وإن ، واللام ، رغم أن الخبر الذي يرد عن الله لا يحتاج إلى تأكيد. إلا يعلم الله سبحانه ما يجب ، وما يجوز وما يستحيل حصوله من الأشياء ، إن في الماضي ، وإن في الحال ، وإن في المستقبل؟
إلا يعلم الله أن لقراء والحفظة للقرآن ، ميتلون: رحمة ، ونعمت ، وسنت وغيرها بالتاء عند الوقف بالهاء؟

لماذا تحذف الياء من كلمة "يؤت" في قوله تعالى:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية- ١٤٦] . ولماذا تحذف

الواو من كلمة «سندع» وكلمة «يمع» وكلمة «يدع» من غير جازم في قوله تعالى:

﴿سَدَّخِ الزَّيْنَبِيَّةَ﴾ [العلق: الآية- ١٨] .

﴿وَيَمْنَحِ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: الآية- ٢٤] .

﴿وَيَذِخِ الْإِنْسَانَ بِالْعَفْوِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: الآية- ١١] .

فلو كان رسم المصحف غير توقيفي ، وأن الصحابة يجوز لهم أن يرسموه كيفما تيسر لهم لكان الله كاذب الخير ، غير موثوق القول ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الدليل المنطقي هو على وضوح وجلاء ، وواجب التسليم لا يكابر فيه إلا جاهل بالقرآن ، وبمقدمات الاستدلال^١ .

إن الله ، الذي نكّل بحفظ كتابه ، لم يكن لبدع الخطأ يقع في كتابة أصل شريعته ، ولا يلهم نبيّه تصحيحه^٢ .

□ ثانياً: السنة الشريفة:

دون القرآن بين يدي النبي ﷺ .

— كان ﷺ يرشد كتبة الوحي إلى رسم الحروف ، ويطلب إليهم أن يكون الرسم واضحاً ، وينهاهم عن الأعوار والإخفاء .
— كثيرون هم رجال الصحابة الذين كانوا يكتبون في الصحائف كل آية حفظوها في صدورهم ، ويعرضونها على النبي ﷺ .

— غالباً ما كان الرسول ﷺ يملئ على كتّاب الوحي مباشرة ، فيدونون ما نزل بحضرته ، ويعرضون عليه مرة تلو مرة حتى يقرّهم^٣ .
— وكان الواحد من الكتبة يكتب ما يملئ عليه دون زيادة أو نقصان أو تبديل ، ولا تغيير لما أملاه وأرشده إلى كتابته بوحى من جبريل (ع)^٤ على الهيئة المعروفة ، وهو إن لم يكن يعرفها باصطلاح ، ولا بتعليم الناس ، فإنه يعرفها من جهة الفتح الرباني ، هي وأكثر منها^٥ .

— قال لأحد كتبة الوحي يوماً:

^١ - الفتوى الحمديّة.

^٢ - كتاب الجمع الصوري ، د. تيب السعيد ٣٧٧.

^٣ - تاريخ القرآن والمصاحف ص ٢٣.

^٤ - المدخل ص ٣٤٧.

^٥ - إرشاد عمران ص ٢٦.

" ألقى الدواء ، وحزف العلم ، وانصب الباء ، وفرق السين ، ولا تغور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك ، فإنه أنكر لك " .

— وأقر النبي ﷺ كتيبه على ما كتبه ، وكما نقل إلينا القرآن بهيئته وجوهه نقلاً متواتراً ، فكذلك الرسم قد نقل إلينا نقلاً متواتراً^١ .

— إن الله لا يقر نبية على خطأ ، وإن كتبه الوحي قد قرر عليهم الرسول ﷺ ، وتقريره حجة شرعية كقوله وفعله ، وإن كتب الكتاب على ما تبسر لهم .

من البداهة شرعاً أن الزيادة والنقصان في القرآن حرام ، فرسم القرآن بما يخالف الرسم الأول حرام .

وعلى هذا فتقريره ﷺ ، كتابة القرآن بالصفة المعهودة في كتب الرسم حجة شرعية^٢ .

— ولماذا لا نقول بأنه ﷺ كان يرشد كتاب الوحي إلى هذا الرسم ، بتعليم من جبريل ، أو بإلهام من الله سبحانه وتعالى ، والإلهام نوع من الوحي^٣ .

— كما يذهب البعض من أصحاب هذا المذهب إلى أن الإملاء بالوحي والتلقين من النبي ﷺ عمل هذا النحو لا يستلزم تعلم الكتابة — بالمعنى غير الثابت له — لأن الإملاء بهذا الشكل ، إيجاد وإعلام محض بهجاء الكتابة ورقومها بدون تعلم أو كما يقول القاضي عياض^٤ " أن يرزق علم هذا ، ويمنع الكتابة والقراءة " .

^١ - الزرقاني ، ماعقل طبرغان ١/٣٧٠ .

^٢ - نوره القرآن ص ٤١ .

^٣ - ملتقى اصدية ص ٣٣ .

^٤ - بحوث قرآنية مسودة أبو شهبة ص ١٦٠ .

^٥ - منهج الفرقان ١/١٤٧ .

^٦ - الشفاء ، ١/٢٣٦ .

— وقضاء الرسول ﷺ والقرآن لا يشك في كلمة منه أو حرف من حروفه أحد من الصحابة ، بل سارت به الركبان ، وشاع في أنحاء الجزيرة العربية كما يقول ابن تيمية في فتاويه^١ . وبهذا نقل على سبيل التواتر: كل من لفظ القرآن ورسمه ، فقد نقلوا عن الرسول ﷺ نقطة أولاً ، وإقراره على الرسم ثانياً نقل تواتر .

لبيست لسنة النبوية فعلاً وقولاً ونقيراً والسنة لا تجوز مخالفتها؟

١ ثالثاً: الاستدلال بالإجماع:

وما كاد الرسول ﷺ يتوارى حتى جُمع القرآن في صحف أبي بكر ، ودُون بالرسم نفسه الذي دُون به بين يدي الرسول ﷺ وأقر أصحابه عليه.

وعثمان في مصاحفه لم يكن فيه أي تغيير أو تبديل في رسم المصحف النبوي. وحين نسخ عثمان المصاحف أمر الناس بالانقصار على ما وافقها لفظاً ، وبمتابعتها خطاً ، ولذا أمر بما سواها أن يحرق^٢ .

إن عثمان ما كان منه إحراق للمصاحف إلا لأن رسمها مخالف رسم أبي بكر ، وكان إحراقها منه إعلاماً تاريخياً ، بأن كل ما يخالف هذا الرسم هو باطل مردود^٣ .

قيل بأن الذي يخالف رسم المصحف لا تجوز به القراءة لليوم لمخالفته خط هذا المصحف العثماني^٤ . كل هذا بمحض الصحابة وإجماعهم ، دون أن يخالف في ذلك أحد ، مع ما كان يتم به هذا العصر بالحرية في القول ، والمقول الفائقة^٥ .

وكما كان الإجماع على ما فعله عثمان ، كان الإجماع على ذلك في عصر التابعين ، حيث لم يكن من أحد أن يغير شيئاً في الرسم الأول ، بل ورد أنهم مُنذَوا قراءة من خالف رسم المصحف ، ومنعوه من القراءة به^٦ .

^١ - تنويه القرآن ص ٤١ .

^٢ - انكسار الدرّة ، ص ٣٥ .

^٣ - فتح المنان ص ٢١ ، تنويه القرآن ص ٤٧ .

^٤ - الإلهية ، ص ٣٦ .

^٥ - بحوث قرآنية ص ١٨٥ .

لقد توفر لرسم المصحف إجماع الصحابة ، وكانوا أكثر من اثني عشر ألف صحابي، ثم إجماع الأمة عليه ، بعد ذلك في عهد التابعين ، والأئمة المجتهدين^١ .

والإجماع حجة حسبما تقرر الأصول. ولئن كان من الجائز لصحابي أن يزيد في كتابته حرفاً ليس بوحى ، لزمنا أن نجوز لصحابي آخر نقصاً في حرف من الوحي ، إذ لا فرق بينهما «وحيئذ تتحلّ عدة الإسلام بالكلية»^٢ .

□ رابعاً الاستدلال باتفاق معظم الفقهاء على الالتزام به :

وكان لمعظم الفقهاء والعلماء اتفاق بصورة غير مباشرة على وجوب الأخذ بهذا الرسم ، والالتزام به ، بل وأتباعه ، فضلاً عن التزامهم — والأمة — له بالفعل حتى الآن^٣ .

١ — سنن الإمام مالك:

أرأيت من استكتب مصحفاً ، أترى أن يكتب على ما أخذه الناس من الهجاء اليوم؟ قال: لا أرى ذلك ، ولكنه يكتب على النكتة الأولى ، كتبة الوحي^٤ .
والذي يقصد من «النكتة الأولى» تجريدها من النقط والتشكيل ، ووضع على مصطلح الرسم من البديل والحذف^٥ .

قال أبو عمرو الداني معقياً على هذا الرأي ، بقوله:

« ولا مخالف له في ذلك من علماء الآية »^٦ .

كما سئل الإمام مالك عن الحروف في القرآن ، مثل الألف والواو:

أترى أن نغيراً من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟

^١ — متحد القريش ، تحقيق د. عبد الحفيظ الغرموي ، طبقات القراء، ٥٤/٢ .

^٢ — فتح القرقان ١/١٥٣ ، مناهل العرفان ١/٣٦١ .

^٣ — المصنع المصنوع ، ص ٣٧٩ .

^٤ — رسم القرآن الكريم د. عبد الحفيظ الغرموي ص ٣٣ .

^٥ — الحكم ص ١١ والمقتضب ص ١٠ .

^٦ — إرشاد القراء والكتاتيب ص ٢٢ .

^٧ — المصنع الثاني ص ٢٠ .

فقال: لا.

قال أبو عمرو الداني:

" يعني الواو والألف المزيديتين في الرسم لمعنى ، المعدومتين في اللفظ ، نحو الواو في "أولوا الأكباب" ولا أولات "و" الربوا " ونحوه " .

٢ - قال السخاوي:

والذي ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه بقاء الحالة الأولى ، إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى بعد الأخرى ، ولا شك أن هذا هو الأخرى ، إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولوية ما في الطبقة الأولى " .

٣ - قال ابن حنبل:

" تحرم مخالفة الخط خط المصحف ، للعثماني في واو ، أو ألف ، أو ياء ، أو غير ذلك " .

٤ - وفي شرح الطحاوي:

" ينبغي لمن أراد كتابة القرآن أن ينظم الكلمات كما هي في مصحف عثمان (رضي) لإجماع الأمة على ذلك " .

٥ - وفي كتاب " المدخل " لابن الحاج:

" ويتعين عليه - على كاتب المصحف - أن يترك ما أحدثه بعض الناس في هذا الزمان - وهو أن ينسخ المصحف غير مرسوم المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة - على ما وجد به " .

٦ - ويقول الإمام قنيسابوري:

^١ المنع ص ٢٨ .

^٢ الطحاوي ، إرشاد أعيان ص ٥٩ ، سائل السرفان ، ٢٧٢/١ ، تصحيف الشريف ، ص ١٠٠ .

^٣ "الزركشي ، المعجم ١/٣٩٩ .

^٤ "الطحاوي ، سمع الغالين ص ٢٠ .

^٥ ج ٤ ص ٢٦ الطبعة الأولى .

٦ - قال جماعة من الأئمة: إن الواجب على القراء ، والعلماء ، وأهل الكتابة ، أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله ﷺ ، وكتب وحيه ، وعلم من العلم - بدعوة النبي ﷺ - ما لم يعلم غيره ، فما كتب شيئاً في ذلك إلا لعله لطيفة وحكمة بليغة ، وإن قصر عنها رأينا .

٧ - ويقول الإمام مكي بن أبي طالب:

" وهذا الذي يخالف الخط ، لا تجوز لقراءة به اليوم ، لمخالفته خط المصحف ، وهو المنهي عنه "١ .

أ- وفي حواشي «المنهج» - في فقه الشافعية - كلمة «الربا» تكتب بالواو والألف كما جاء في الرسم العثماني ، ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة ٢ .

ب- وجاء في المحيط البرهاني - في فقه الحنفية - ما نصه:

" إنه ينبغي أن لا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني "٣ .

٨ - وقال البيهقي في شعب الإيمان:

" من يكتب مصحفاً ، فينبغي أن يحافظ على الهمزة الذي كتبوا به المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوا شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانةً منا ، فلا ينبغي أن نظنّ بأنفسنا استدراكاً عليهم "٤ .

□ خامساً: استدلال باختلاف رسم الكلمة الواحدة باختلاف مواضعها:

ومن الأدلة على توقيفية الرسم ، كما يرى المذهب التوقيفي هو أن الكلمة لقرآنية ، قد تكتب في بعض المواضع برسم ، وفي مواضع أخرى برسم آخر مع أنها هي بذاتها .

١- غريب القرآن ، وروايت القرآن ٤/١ .

٢- الإيمان ، ص ٣٦ .

٣- الرقائق ، مسائل العرفان ، ٣٧٢/١ .

٤- المسائل ، ٣٧٢/١ ، لمصنف الشريف ص ١٠١ .

٥- مسائل العرفان ٣٧٢/١ ، سيرة الطالبيين ص ١٩ .

والأسئلة على هذا المورد أو الاستدلال لا يتسع لها مجالنا وذلك لكثرتها. وحسبنا من ذلك ما يلي:

١ - كلمة "بسم" :

هذه الكلمة القرآنية وردت محذوفة الألف في كل فواتح السور ، وفي الأيتين ﴿ بسم الله مجراها ﴾ هود: الآية-٤١ .
﴿إِثْمُهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ النمل: الآية-٣٠ .

بينما هي مثبته الألف في قوله تعالى:
﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الواقعة: الآية-٩٦ .

وقوله تعالى:
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ العلق: الآية-١ .

٢ - كلمة رحمة:

ورسمت هذه الكلمة بالتاء المفتوحة في سبعة مواضع:

﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية-٢١٨] .
﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية-٥٦] .
﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ [هود: الآية-٧٣] .
﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [مريم: الآية-٢] .
﴿إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية-٥٠] .
﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ... وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: الآية-٣٢] .

أما سائر المواضع القرآنية فقد كتبت فيه هذه الكلمة بالهاء.

^١ - انظر التعليلات في كتاب ، جامع الأصول ، ٥ ، لب السعد ص ٣٧٤ ، وبحوث قرآنية ١٥٨ .

ولو كان الرسم اصطلاحياً لما كان لهذا الاختلاف من حصول أو وقوع ، ولكن لأنهم لا يسيرون على خطة من عند أنفسهم ، ولا يكتبون كيفما اتفق لهم ، بل يتبعون إرشادات الوحي ، كانت هذه المخالفات^١ .

ولو كان هذا الرسم اصطلاحياً ، ووجدت هذه الاختلافات لناقش بعضهم بعضاً في هذا الشأن ، ولا سيما أن الأمر يتعلق بالأصل الأول للإسلام ، وتوافر النواحي لحرية الرأي في هذا العصر^٢ .

ألم يكن زيد بن ثابت ، أحد كتّاب الوحي ، يطلب خنث جمع أبي بكر ما كتب بين يدي الرسول ليوافق رسمه الرسم الذي أقره الرسول ﷺ ؟

ألم يكن يطلب من الذين في حوزتهم صحف قرآنية أن يبرزوها ويقروها ، ويبينوا كيفية رسمها على مسع من الكتّاب والحفظة ، فإذا وافقوا عليها كتبها زيد على الرسم الذي عنده ، وإن خالفها أحد للكتاب في الرسم ، وأحد الحفاظ في القراءة كانت محل المقارنة والموازنة^٣ .

وتمّ الجمع للبكري ، دون مناقشات ، ودون أن ينكر بعضهم على بعض شيئاً ، إن قراءة ، وإن رسماً.

أما الجمع العثماني فلم يكن من رواية تقول بأنهم اختلفوا في رسم كلمة سوى ما حدث عند كتابة قوله تعالى:

﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ الْكُتُبُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكَ﴾^٤ .

لقد كان الاختلاف في رسم كلمة «التابوت» فقال زيد: «التابره» بالهاء ، وقال القرشيون: «التابوت» بالطاء المفتوحة ، لأنه كذلك في لغة قريش^٥ .

وسبب هذا الاختلاف كما يراه الشيخ الرحمانى:

أن هذا الحرف قد عراه طمس ، من طول المكث عند الصنيق بقية خلافته ، ثم عند الفاروق طيلة زمن خلافته ، ثم عند أم المؤمنين حفصة مدة من صور خلافة ذي النورين^٦ .

^١ - رسم القرآن الكريم ، د. عبد الحفيظ القرمانى ص ٣٧.

^٢ - بحث قرآنية ص ٥٨.

^٣ - جمع القرآن ص ٥٦.

^٤ - انصهر نفسه: ص ٥٦.

^٥ - فتح الباري ١٦/٣.

^٦ - الفتوى الخمسة ص ٣٧.

ولما اختلفوا ، رفعوا ذلك إلى عثمان فقال: اكتبوه بالثاء المفتوحة ، فبينا أنزل القرآن على لسان قريش^١ .

لو كان الرسم القرآني اصطلاحياً ، وكان كما تيمز للكتاب لما وقع هذا الخلاف في كتابة كلمة «التنوير» ولكتبها كل منهم حسب اصطلاحه الذي يعرفه دون رجوع إلى المشرف ، الذي لم يستند في اختياره حرف قريش لكتابة الكلمة ، مراعاة شيء سوى أن القرآن نزل بلسانهم ، وكانت كتابته الأولى توافق منطوقهم بأمر الوحي^٢ .

هذا هو المذهب التوقيفي في رسم المصحف الشريف بدعواه وأدلته قد استعرضناه على عجل. هذه هي نظرية التوقيفيين في هذا الرسم ، والتي تقضي بأن القرآن برسمه كما هو بنطقه وقراءته توقيفي ، اصطلاحياً.

رسم المصحف بين الإتياع والمخالفة والفوائد والمزايا:

ويستمر بنا الحديث عن المذهب التوقيفي في مسألة رسم القرآن ليطل علينا هذا المذهب ببيان الحكم في اتباع هذا الرسم ومخالفته ، كما يطل علينا بدعوى تظهر فوائده ، وتحصي مزاياه.

أما اتباع هذا الرسم فيتوزع الحكم فيه بين ثلاث:

الأول: مذهب الوجوب.

الثاني: مذهب الجواز.

الثالث: مذهب التحريم.

□ مذهب الوجوب:

أما الأول الذي هو مذهب الوجوب فيقضي بوجوب الالتزام بالرسم العثماني في كتابة القرآن وطباعته ، كما يقضي برحمة المخالفة لهذا الرسم^٣ وإن لم يدرك الحكمة من كتابته المخالفة لفوائد الكتابة الإملائية^٤ .

^١ - «منفتح» ص ٤ ، أبو عمرو بن العدي.

^٢ رسم القرآن - تكريم د. عبد الحفيظ طه ماضي.

^٣ مناقب العروان ٢٨٢/١ ، والمجمع الفقهي ص ٣٨٠.

^٤ تاريخ الفراءن وغرائب رسمه وحكمه ص ١٠٣.

— أدلة هذا المذهب:

لهذا المذهب أدلة وبراهين منها النقلية ومنها العقلية:

١ — القرآن الكريم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰحِفَظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] .

والحديث النبوي الشريف:

” إني النواة ، وحرف القلم ، وانصب الباء ، ورق السين ، ولا تعوز الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم ”.

وكذلك استدلل هذا المذهب بالإجماع الذي هو حجة حسبما تقرر الأصول. وقد جمع الصحابة والتابعون بعدهم على الأخذ بالرسم العثماني.

كما استدلوا باختلاف رسم الكلمة الواحدة باختلاف مواضعها ، فالكتابة لأنهم لا يسرون على خطّة من عند أنفسهم ، ولا يكتبون كيفما اتفق لهم ، بل يتبعون إرشادات الوحي بواسطة النبي ﷺ ، كانت هذه المخالفات.

٢ . إن الالتزام برسم المصحف هو احتياط لبقاء القرآن على أصله لفظاً وكتابة ، وخشية أن تمتد إليه الأيدي بالتغيير والتبديل في لفظه أيضاً.

٣ . وعدم اتباع هذا الرسم ينتج عنه انقطاع السند وضياح الكثير من اللغات الفصحى. ففي انقطاع السند ، الذي هو أحد أركان القراءة ضياح وإهمال لرسمة ، ورسمة العثماني الخاص هو للضمانة التي تحفظ قراءته بالسند ، بل هو الحصن المانع لقراءته بغير السند والندرية. ولو فقد الرسم لا يمكننا الاستدلال على اللغات الفصحى بالقرآن الذي هو أصلق الحديث .

٤ . ليس من الصواب في شيء إبدال رسمة برسوم أخرى لما في هذا الإبدال من تعريض القرآن للتغيير المستمر تبعاً للتغيير المستمر في القواعد الإملائية التي لم يحقّ واضعوها الاتفاق عليها.

أليس في هذا الإبدال مدعاة للخلاف والتغيير في رسم القرآن وتلاوته .

فلحذر الحذر من هذا الإبدال!

^١ صريح الفرقان ١/١٥٨.

^٢ عنوان البيان ص ٧٣.

إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح كما في قول.
كل هذا يفرض على المسلمين صيانة رسم القرآن ، ونزليه عن قواعد مختلف فيها
ومطلوب تغييرها .

يضاف إلى ذلك كما بقول حقي ناصيف:

بأنه غير مستغرب أو مستبعد ، بعد هذا التغيير أن يذهب أناس إلى استحسان لكتابة
المصحف بالحروف اللاتينية ، وآخرون إلى اختصاره ، وآخرون إلى إرجاعه للغة العامية ،
ليعم نفعه ، إلى غير ذلك^١ .

لأن هذا التغيير يؤدي إلى المفاسد ، ولا يحقق المصالح ، وتحقيق المصالح يمكن أن
يكون بغيره . لسبب كهذا أصدرت مشيخة الأزهر عام ١٩١٧ قرارها الحاكم بتحريم طبع ، أو
تداول بل مصادرة أي مصحف - في مصر - مطبوع بغير الخط العثماني.

٥ . لا بد من التمسك بالرسم العثماني للقرآن باعتباره ميراثاً إسلامياً ، وشاهداً من
شهود عصر النبوة^٢ .

٦ . لهذا الرسم فوائده وإيجابياته ، فلا بد من المحافظة عليه والأخذ به للانتفاع من
هذه الفوائد الاتصال بالسند القرآني ، ومعرفة القراءات المتعددة الواردة في اللفظ الواحد ،
وضمانة عدم التحريف في النص القرآني.

□ مذهب الجواز:

إن مذهب الوجوب هو ما قال به التوقيفون ، أما مذهب الجواز فهو الذي اعتمدته
الاصطلاحيون الذين كانت لهم في اتباع رسم المصحف أقوال ثلاثة هي:

١ . مذهب الجواز .

٢ . مذهب التفصيل .

٣ . مذهب التحريم .

^١ انجع المصري ص ٣٨٤ .

^٢ بحث: تاريخ المصحف لمحي ناصيف .

^٣ عبد الحكيم الخطيب ، مجلة الوعي الإسلامي ، عدد ٨٢ ص ٣١ .

❏ مذهب الجواز:

وهناك نفر من العلماء ذهبوا إلى القول بجواز كتابة المصحف حسب القواعد الإملائية المعمودة ، وقالوا:

إنه لا تحرم مخالفة الرسم العثماني ، كما أنه لا يجب الالتزام به في كتابة القرآن الكريم^١ . وأصحاب هذا المذهب يقولون مستنئين ، كما سبق أن ذكرنا ، بأنه:

ليس في نصوص الكتاب ، ولا في مفهومه ، ولا في نصوص السنة ، ولا في القياسات الشرعية ، أن رسم القرآن وضبطه ، لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحدّ محدود لا يجوز تجاوزه ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، ومن ادعى: أنه يجب على الناس رسم مخصوص ، وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنى له ذلك^٢ .

وقالوا على لسان كبيرهم ابن خلدون بأن:

للكتابة العربية في عهود الجمع القرآني لم تكن قد بلغت أشدها ، واستكملت نموها ، بل كانت في دور الطفولة والتدرج ، ولأن الكتاب لم يكن لهم دراية بغير الذي رسموه^٣ .

❏ مذهب التفصيل:

وهناك جماعة من العلماء ينتهي بهم الرأي أو الحكم إلى أن المصحف لا يكتب بالرسم العثماني إلا لخاصة الناس ، ويكتب لعامةهم حسب القواعد الإملائية الحديثة^٤ .

وينطلق هذا المبحث مستنداً على حجة نقول:

بأن العامة يخشى عليهم في القراءة من الالتباس والتخبط ، لذلك يحرم عليهم القراءة بالرسم العثماني ، ولا بد أن يكتب القرآن حسب القواعد الإملائية الحديثة دفعاً لالتباس وإشكال.

أما الخاصة من أهل العلم فيحضتهم هذا المذهب على اتباع الرسم العثماني لأنه لا خوف عليهم من الالتباس.

^١ - انظر المصحف الشريف ص ٩٣ ، متاعل العرفان ١/ ٣٧٣ البيان ص ٢٥٨ .

^٢ - متاعل العرفان ١/ ٣٧٤ .

^٣ - المقدمة ، ص ٢٧٢ .

^٤ - انظر المصحف الشريف ، ص ٩٣ ، اجمع الصواب ص ٣٧٢ ، متاعل العرفان ١/ ٣٧٨ ، البيان ص ٢٥٨ .

وبهذا تكون العناية بالإتقان على الهيئة الماثورة في رسمه ، عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، إذ لا يحمد من الأمة أن تهمل ما جرى عليه سلفها في كتابة القرآن ، حتى يندرس هذا الرسم ، ويضيع أو تصبح الكيفية التي كتب عليها القرآن في زمن النبي ﷺ وأصحابه ، ومن تلاهم من سلف الأمة ، مجهولة للمسلمين^١ .

فقداسة القرآن والعناية به وحمانيته من الخطأ فيه ومن إهمال شأن من شأنه ، كل ذلك يقضي بهذا التفصيل في كتابة القرآن الكريم^٢ .
في هذا الرسم يبدو التفسير للمبتدئين ، ولغير المتخصصين ، ولمن لا تساعدهم شواغلهم على معرفة الرسم العثماني.

كما يبدو المحافظة على الأثر للسلف الصالح في الإبقاء على هذا الرسم.
أما أن يبقى الأثر كآثر فلا ضير في ذلك لأنه يفيدنا في معرفة ما كان عليه السلف من استعداد في الخط والرسم ، أما الإبقاء عليه في القراءة العلمية لفريق دون فريق فليس من المستحسن في شيء ، فالتيسير هو لكل الناس ، ولماذا الإبقاء على ما هو خطأ؟

أليس في ذلك للجمود كل الجمود ، طالما القواعد الإملائية الحديثة تؤمن المصالح والتيسير لكل الناس؟

هذا الاتجاه الذي يدعو للمحافظة على الرسم العثماني لفئة خاصة من الناس لا ينجو أمام التمهين العلمي النقيض ، ولا يبعد أن يكون اتجاهاً فيه الكثير من السلبيات ، ومعالم الهدم.

٣- مذهب التحريم:

أما مقتضى هذا المذهب فهو التحريم في هذه الأيام أين يكتب القرآن بالرسم العثماني.

والذي يرى هذا الرأي هو العز بن عبد السلام^٣ وحجته بأن كتابة القرآن الكريم وفق ما يقتضيه الرسم العثماني قد يؤدي إلى اللبس ، والتخليط ، ووقوع الخطأ في قراءة القرآن

^١ رسم القرآن الكريم ، د. عبد الله الهرماني ص ٥٧.

^٢ البيان ، ص ٢٥٩.

^٣ إنباف فضلاء البشر ص ٩ ، البيان ص ٢٥٥ ، أجمع النووي ص ٣٧٢.

ممن لا دراية لهم به ، فذلك يجب تركه^١ ، إذ ما هي الحكمة — كما يقول بعضهم — في أن يقيد كتاب الله تعالى بخط ، لا يكتب به اليوم أي كتاب^٢ . وإنما كان ذلك في الصدر الأول ، والعلم غرض حي ، وأما الآن فيخشى الالتباس^٣ .

ولئن ذهب بنا الرأي إلى الأخذ بالمذهب الاصطلاحي ، ورسم المصحف حسب قواعد الإملاء الحديثة لإزالة الشبهة ورفع الالتباس والتخليط ، فإننا لا نرى بتحريم الرسم العثماني رداً على من زعم بأن هذا الرسم توقيفي وتحريم مخالفته.

إن الذي يستحسن في هذا الشأن إنما هو للكتابة حسب الأصول الحديثة للإملاء ، وليبق الرسم العثماني ولا حرج في ذلك طالما الرسم الملائم والميسر متوفر بين أيدي المحتاجين من قراء القرآن.

إن بقاء هذا الرسم هو الأولى يستمر وثيقة تاريخية نعرفنا بحال الرسم القرآني في ذلك العهد المبارك ، وتحيطنا علماً بالعيوب وبغير العيوب في هذا الرسم.

واجب علينا — استحساناً — العلم بكيفية رسم الصحابة للقرآن في المصاحف ، لا لأنهم لم يخالفوا القياس والأصول الإملائية ، ولا لكون هذا الرسم اصطلاحاً من الصحابة عن علم منهم قد تحقق ، بل لأن العلم بهذا الرسم الصحابي أو التاريخي ، حقيق على كل مسلم أن يلم به^٤ .

هذا الرسم لا يرشد إلى النطق الصحيح بألفاظ القرآن بسبب ما فيه من زيادة ، وحذف ، وإبدال حرف بحرف. لهذا السبب قد جاء على خلاف النطق ، ولهذا السبب لا يجوز لأحد أن يقرأ القرآن بدون أخذ له عن عارف بهذا الرسم^٥ .

وكيفما انقلب الأمر ، فإن تلاوة القرآن في الخط العثماني لا بد فيها من الكيفيات الخاصة الثابتة بالرواية والنقل ، وهي لا تعرف إلا بالتلقي والتعليم ، إذ ليس في الخط ما يرشد إليها ، كالمذم ، والإمالة ، والإظهار ، والإدغام ونحوها من الأحكام الخاصة بالتلاوة.

^١ بيان ، ص ٢٥٨.

^٢ مجلة الرسالة عدد ٩ تاريخ عام ١٩٥٠ ص ٤٠.

^٣ للإمام ، للركشي ٣٧٩/١ ، إنحاف فضلاء البشر ص ٩.

^٤ تاريخ التفرقة والمصاحف ص ١٢.

^٥ بيان ص ٢٥٨.

لا بد من التلقي ، والأخذ عن أهل العلم بهذا العلم ، لاختصاص ثلاثه بأحكام لا تعرف من مجرد الخط^١.

يقول الشيخ العز بن عبد السلام:

" لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة لنلا يوقع في تغيير من الجهال. ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لنلاً يؤذي إلى دروس العلم ، وشيء فقد حكمته القدماء ، لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين به ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة^٢ ."

وهذا الموقف كما هو موقف الزركشي في برهانه يجوز الكتابة على ما أحدثه الرسم حسب الأصول الإسلامية بجواز الكتابة العثمانية خلافاً لما نقل عن الإمام مالك أنه سئل: " هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا ، إلا على الكتابة الأول. قال في البرهان: قلت:

وكان هذا رأي المنع في الصدر الأول ، والعلم حي ، وأما الآن فقد يخشى الانقياس^٣ .

ويصرح الدكتور أبو شبة بنسبة «القول بالتفصيل إلى الشيخ العز بن عبد السلام عند عرضه هذا القول على أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ، إذ يقول:

والقائل بهذا الرأي الوسط: ليس رجلاً مغموراً بين العلماء ، وإنما هو الضليع: الأمر باليعرف ، والناهي عن المنكر ، وصاحب المواقف المشهورة ، مع الملوك والسلاطين والأمراء ، والذي لقب بحق ، بسلطان العلماء: العز بن عبد السلام.

كما حرّم البعض الكتابة المصحفية على غير القواعد الإسلامية كذلك حرّم بعضهم من لغة الرسم العثماني.

يرى القاضي عياض:

"... أن اتباع رسم المصحف واجب وجوباً قطعياً ، وأن مخالف هذا الرسم كافر ، حيث يقول: من نقص من القرآن حرفاً ، قاصداً لذلك ، أو بدله بحرف آخر مكانه ، أو زاد

^١ البيان ، ص ٢٥٩.

^٢ البرهان ، ١/ ٣٧٩.

فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف ، الذي وقع عليه الإجماع ، وأجمع على أنه ليس من القرآن عمداً لكل هذا: أنه كافر^١ .

كما يقول الخراز في منظومته * عمدة البيان في مرسوم القرآن * مؤيداً القاضي عياض في ما ذهب إليه بقوله:

وبعده جرّده الإمام	في مصحف ليقنتي الأنام
ولا يكون بعده اضطراب	وكان فيما رأى صواب
وقصة اختلافيهم شهيرة	كقصة اليمامة العسيرة
فينبغي لأجل ذا أن نقفني	مرسوم ما أصله في المصحف
ونقندي بفعله وما رأى	في جعله لمن يحطّ ملجأ
فواجب على ذوي الأذهان	أن يتبعوا المرسوم في القرآن
ويقننوا بما رآه نظرا	لما أتى نصّ به الشفاء
إلى عياضٍ أنه من غيرا	حرفاً من القرآن عمداً كفرا
زيادة أو نقصاً أو إن بدلا	شيئاً من الرسم الذي تأصلا

أليس من للمهاترة والسخف هذا التحريم ، وهذا الموقف العدائي من الكتابة المخالفة للرسم العثماني طالما هذه الكتابة لا تخالف نطقاً ، ولا تغير قراءة أو تلاوة؟ كيف نسمح لأنفسنا بنكفير من يخالف الرسم المصحفي وخاصة وأن فيه أخطاء وأنه غير متفق على وجوبه؟

يقول بعض العلماء المحدثين ومنهم الدكتور عبد الوهاب غزلان:

” حيث اتباع رسم المصحف غير متفق على وجوبه ، بل إن كبار العلماء وعظماءهم قالوا بجوازه ، ومنهم من ذهب إلى نوع من التفصيل... وأمر توجد فيه هذه الآراء المتعددة ، من علماء الأمة ، ولا شك أنه يكون محلّ سعة ، وسهولة ، ويسر ، فلا ينبغي للتشدّد فيه إلى حدّ التناكر والتأنيب ، والترشق بالفاظ الطعن والتجريح ” .

^١ الشفاء ٢/٢٦٤ .

^٢ مبدع مر ٢٥٩ .

أما الدكتور لبيب السعيد فيقول بأن:

‘ الأمر لا يستدعي هذا التكبير ، وبماير في رأيه رأي القضاء العربي الحديث ، إذ إن المحكمة الإدارية ، كما يقول: نظرت في قضية عاب فيها الأزهر على أحد المؤلفين نقد لرسم المصحف ، ثم رأت أن لا حرج في هذا النقد ، ما دام المؤلف — كما رأت المحكمة — قد عارض ، وجادل ، وناقش الآراء المختلفة ، مما يفسح معه المجال للقول بأنه سلك طريق البحث العلمي ، ولا عليه بعد ذلك إن كان يترك قولاً ، ويأخذ بقول ، أو يدع رأياً ، أو يستجيب إلى رأي ‘ ولكن الأستاذ موسى جار الله يرى:

‘ أن الكلمات المرسومة في المصحف على قسمين:

الأول: قسم يحتمل رسمه أكثر من قراءة ، وهذا يجب فيه الالتزام به ، واتباعه ، وتحريم مخالفته.

الثاني: قسم ليس فيه غير قراءة واحدة ، ولا يرى فيه ضرورة الالتزام به ، ولا وجوب اتباعه.

ولطالما الأولى كتابة المصحف حسب القواعد الإملائية ، وهو الأيسر أو الميسر ، فأنى لنا أن نكفر من ممارسه ، ويخالف الرسم العثماني ، اللهم إلا كانت غايته التحريف؟

وينبغي الوصول تدريجياً إلى ذلك التغيير لينتهي إلى تحريف الكلم عن مواضعه. فليرس القرآن أو ليضع على غير ما هو الرسم العثماني شريطة أن لا يخل ذلك بحكم من أحكام التلاوة ، وذلك تيسيراً على العامة ، وتنزيلاً له منزلة الصبغ ، كما أنه لا بد من المراقبة الساهرة والأمينه من هبئلت علمية نجفية وأزهرية وقمية وغيرها على طباعة المصحف ودور النشر في العالم وذلك للاطمئنان إلى النص القرآني ، وحتى لا يتسرب إليه تحريف إن بالزيادة أو بالنقصان.

إن لم تكن هذه المراقبة ساهرة بجدية وحرص فإنه لا يستبعد التحريف كما لا يستبعد اختلاف المسلمين في النصوص.

‘ وهذه إسرائيل نزلت إلى ساحة التحريف منذ فترة ليست ببعيدة وذلك عام ١٩٦٠م، وجئت في محاولتها الشيطانية توزيع النسخ المحرقة في المغرب ، وغانا ، وغينيا ، ومالي ، ودول إفريقية أخرى ‘.

‘ عتة آخر ساعة المصرية ١١ يناير ١٩٦١م.

لقد كان من الوسائل والمظاهر التحريفية التي اكتشفت:

إحداث أكثر من ألف خطأ مطبعي ولفظي في مائة ألف نسخة من القرآن الكريم ، وزعت في البلاد الإفريقية والآسيوية^١ .
حذف * لا * النافية من بعض المواضع ، ليكون المعنى عكس الذي نزل به القرآن الكريم^٢ .

حذف كلمتي * ليست * في الآية:
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنُصَارِيَ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَنُصَارِيَ لَنُصَارِيَ لَنُصَارِيَ﴾
شيء^٣ ﴿البقرة: الآية-١١٣﴾ .

حذف كلمة * غير * في الآية:
﴿وَمَنْ يَنْتَعِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
[آل عمران: الآية ٨٥] .

إبدال هذه العبارة:
* والله رحيم * بعبارة:
* والله عزيز حكيم * في الآية:
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ [المائدة: الآية-٣٨] .

إسقاط الآيتين ، ومنع تدريسهما في مدارس العرب والمسلمين في فلسطين المحتلة:
﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلَكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى
إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: الآية-٩] .

^١ جريدة الأهرام ، ديسمبر ١٩٦٠ .

^٢ جريدة الأحرار ، ديسمبر ١٩٦٠ .

^٣ وسطر بمحة من الإسلام حمادى الأخير ١٣٨٥هـ - ١٢ - ٩٥ .

^٤ نفس المقال .

^٥ انرجع نفسه .

والذي كانت تقصده إسرائيل فيما قيل وقتها هو صرف الأنظار عن جرائمها التي ارتكبتها في حق العرب بإخراجهم من ديارهم^١ .
ولا شك أن المسلمين بلغ بهم الاهتمام بهذا الحادث الخطير ما بلغ^٢ .

وكيف لا يهتمون ولا يتور بهم الحمن الديني وإسرائيل لم تتوقف عن اغتصاب الأرض ، وإخراج العرب من ديارهم ، بل تحولت إلى كتابهم الأقدس تعبت به وتحرقه؟
والقرآن ميزته بين الكتب السماوية إعجازه وخلوده وحفظه:
﴿إِنَّا نَحْنُ أَرْكَانُ الذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: الآية-٩] .

ومن هم المسمنون بدون قرآنهم ، وما هي ميزتهم ، وما هي مقومات شخصيتهم إن لم يستممكوا بالقرآن عروتهم الوثقى ، وكتابهم المبين الأمين؟

بحث وزير الأوقاف المصرية مع شيخ الأزهر الإجراءات الواجب اتخاذها ضد هذا العدوان الخطير ، ومنها تشكيل لجنة مشتركة لمراجعة المصحف المحرف ، وإبراز أخطائه ، وتحذير المسلمين من تداوله^٣ .

وأرسل شيخ الأزهر إلى الرئيس عبد الناصر برقية قال فيها:
" ...إن إسرائيل التي قامت على البغي والظفان والاعتداء على المقتدرات والمقتسات ، ما زالت تعيش في هذا العت ، وتحيا في إبطار هذا الظفان ، وأنها - بتحريفها القرآن الكريم - تريد القضاء على معتقداتنا وديننا وهي بذلك - تمارس ما كان عليه أبائهم من تحريف الكلم عن مواضعه ، ابتغاء كبت الدعوة الإسلامية وإعاقتها عن المسلمين في أنحاء الأرض يهرعون إليكم - وكلهم أمل في قوة إيمانكم ، وغيروكم على دينكم " أن تعملوا على حفظ كتاب الله ، فلتقوا في وجه هذا العدوان الأثيم.

" إن الأمة الإسلامية كلها من ورائكم... " .

^١ جريدة الجمهورية المصرية عدد ١ ديسمبر ، ١٩٦١ .

^٢ الجمع الصوني ، ص ٢٧٤ .

^٣ جريدة الأهرام عدد ٢٩ ديسمبر ، ١٩٦٠ .

^٤ عدد الأهرام نفسه ، وعدد الجمهورية نفس التاريخ .

وأمر مفتي الديار السودانية ، كل موظفي المحاكم الشرعية أو أصحاب المكتبات العامة ، بضرورة مراجعة المصاحف — قبل تداولها — للتأكد من سلامتها من التحريف.

وأصدر شيخ العلماء في السودان بياناً أهاب فيه بالمسلمين أن يتنبهوا لهذا الخطر ، وأن لا يقبل أي مصحف ، إلا إذا كان موافقاً عليه الأثر ، أو إحدى الهيئات الدينية الرسمية في البلاد الإسلامية^١.

وأصدرت الحكومة الأردنية بياناً استكرت فيه للتحريف ، وذكرت ما تآذى إليها من أن لإسرائيل عرضت على الدول الإفريقية — التي وزعت فيها المصاحف المحرمة — أن ترسل إليها مدرسين لتدريس اللغة العربية والنسخة المشوهة.

وظلّت الأردن من المسؤولين في البلاد العربية إحباط أعمال إسرائيل الشريرة^٢ ، وثارَت ثائرة أهل العلم والفكر في مختلف الديار الإسلامية وبخاصة في مصر ، لأنهم تلمسوا الخطر المحقق بقرائهم وعقيدتهم من هذه الحركة الإسرائيلية الخطيرة ، ونعود إلى قولنا بأنه ليس ما يمنع من كتابة المصحف في ابتداء الأمر ليقف المسلمون على كيفية هذه الكتابة ، ولا يكونوا على جهل بأوثوقيتهم.

وقيل إن جهل الناس بأوثوقيتهم ، وكيفية ابتداء كتابتهم ، يعد في ميزان العلم خسراناً^٣ ولكن شريطة أن لا يتناولها العامة من الناس حتى لا يكون الالتباس والإبهام ، وفي ذلك الخطر كل الخطر على عقيدتهم وشريعتهم.

مزايا رسم المصحف العثماني في شطريه التوقيفين:

ويرى هذا المذهب أنه قد خرج الرسم العثماني عن قواعد الرسم القياسي لأسباب منها ما عرف لنا حكمه ، ومنها ما غلب عاَ علمه ، ولم يكن ذلك من الصحابة كيما اتفق ، بل كن عندهم الأمر قد تحقّق^٤.

^١ جريدة النساء عدد ١٠ فبراير ١٩٦١.

^٢ جريدة الأحرار عدد ١٨ أبريل ١٩٦١.

^٣ المجمع الصوري ، ص ٣٩.

^٤ نثر شاد الحبرين ، ص ٣٢.

فلم يكن رسمهم اضطراباً أو جهلاً بأصول الكتابة - كما فهم بعض الباحثين - نتيجة لقلة دراستهم بفن الكتابة وأصوله ، أو نتيجة لبداة هذا الفن على عهدهم ، بل كان الصحابة واعين لعلل هذه الكتابة ، فاصدين فوائدها ، لكن بعضها غاب عنا سببها ، وقصر عنا رأينا .

وجاء في كتاب تاريخ القرآن و غرائب رسمه :

" بأن بعض العلماء : يرون أن الصحابة كتبوا المصحف بهذا الرسم لحكمة لم نفهمها ، وإشارة لم ندرکها ، من غير أن ينظروا إلى العلل النحوية أو الصرفية التي استنبطت بعدهم ، وأن هذه التعليقات ما هي إلا من قبيل الاستئناس والتلميح . لأنها لم توضع إلا بعد انقراض الصحابة رضي الله عنهم " .

من القدماء التوقيفيين الذين حاولوا تقليل هذه المخالفات ، وتعداد مزايي الرسم العثماني : أبو العباس الزركشي في كتابه " عنوان الدليل في مرسوم خط التزويل " والزركشي في كتابه الشهير " الدرهم " .

أما المحنتون الذين نهجوا هذا النهج فقد كان منهم الشيخ محمد على سلامة في كتابه " منهج الفرقان " ، والشيخ الزرقاني في كتابه " مفاهيل الفرقان " ، والدكتور محمد أبو شهبة في بحثه الذي قدمه لمجمع البحوث الإسلامية ببعض التعليقات .

أما المزايي لرسم المصحف العثماني في المذهب التوقيفي فتتوزع على الآتي :

أولاً : الدلالة على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة .

ثانياً : اتصال السند .

ثالثاً : الدلالة على أصل الحركة وأصل الحرف .

رابعاً : إفادة بعض اللغات للفصيحة .

خامساً : الدلالة على معنى خفي دقيق .

سادساً : إفادة المعاني المختلفة بطريقة واضحة .

^١ إرشاد السواد ، ص ١٥٤ .

^٢ انظر : بحوث قرآنية ص ١٦٠ .

أولاً: الدلالة على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة:

يقول الشيخ الزرقاني^١:

وذلك: أن قاعدة الرسم ، لوحظ فيها ، أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان ، أو أكثر ، كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين ، أو الأكثر .
فإن كان للحرف الواحد لا يحتمل ذلك ، بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات ، جاء الرسم على الحرف الذي هو خلال الأصل .
وذلك: ليعلم جواز القراءة به ، وبالحرف الذي هو الأصل .

وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به ، يقول تعالى:
﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾.

هذه الآية رسمت في المصحف العثماني [إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ] من غير نقط ، ولا شكل ، ولا تشديد ، ولا تخفيف ، ولا تنوين "إِنْ" و "هَٰذَا" ، ومن غير "ألف" ولا "ياء" بعد الذال من "هَٰذَا" ، ثم يقول:

ومجيء الرسم كما ترى كان صالحاً عندهم لأنه يقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة.

— القراءة الأولى: قراءة نافع ومن معه ، إذ يشكّون "نون" "إِنْ" ويخفّفون نون "هَٰذَا" بالألف.

— القراءة الثانية: قراءة ابن كثير وحده ، إذ يخفّف النون في "إِنْ" ويشدّ النون "هَٰذَا" بالألف.

— القراءة الثالثة: قراءة حفص ، وابن محيص ، إذ يخفّفان النون في "إِنْ" ، "هَٰذَا" بالألف.

— القراءة الرابعة: قراءة أبي عمرو ، بتشديد "إِنْ" وبالياء مع تخفيف النون في "هَٰذَا" ثم يتابع قائلاً:

فتبصر هذه الطريقة المتلى الضابطة لوجوه القراءات ، لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف ، أبعد منا نظراً وأهدى سبيلاً.

^١ انظر: معاني لغويات ١/٣٦٦.

^٢ "وقرأه ابن كثير وقراءة حفص هما نوضح القراءات في هذه الآية من لفظاً ومعناً ، كتب: إنياف لفضلاء البشر ص ٣٦٨.

وإزاء هذا التوجّه ألا يمكننا التساؤل قائلين:

بأن الأبعد نظراً ، هو الذي يقارن بين أمرين ، ويختار الأفضل بينهما ، فهل كان سلفنا الصالح ، كَتَّاب المصحف العثماني ، يعرفون النقط والشكل ، فأثروا تركهما ، لنصح القراءات؟

ألم يجمع المؤرخون الباحثون ، كما نقل الشيخ الزرقاني نفسه ، بأن كَتَّاب المصحف ، لم يكونوا يعرفون عن الشكل شيئاً.

ألا يمكننا التساؤل أيضاً بقولنا:

هل اتبعت هذه القاعدة في الرسم العثماني ، في المصحف كله ، أو في بعض الكلمات دون بعض؟

والحق يقال إن هذه القاعدة قد اتبعت في بعض الكلمات دون بعض ، وإلاً لكتبت كلمة «الصراط» بغير الصاد ، فلو أنهم يقصدون هذه الفائدة لعمّوها^١ .

ثانياً: اتصال السند:

يقول الشيخ الزرقاني :

حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور الرجال ، ولا يتكلموا على الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة.

وينضوي تحت هذه المزية فائدتان:

إحدهما: التوثق من ألفاظ القرآن ، وطريقة أدائه ، وحسن ترتيله وتجويده ، فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف مهما تكن قاعدة رسمه ، واصطلاح كتابته.

والثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ ، وتلك خاصية من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

ولنا أن نقول مؤكدين ما ذهب إليه بعض العلماء ، بأن هذه الفائدة تشبه في نظرنا رجلاً يقول: إني حرقت الحفر في الطريق ، لاحتاج إلى قيادتي ، ولتضطر إلى مساعدتي ، وهو يعلم علم اليقين — ونعم مثله — أننا لا نستطيع الاستغناء عن الاعتماد عليه مع تسوية الحفر.

^١ راجع الألفاء لخصان ص ٨٠.

^٢ سائر العرفان ، ٣٦٩/١.

أفلا يكون الأولى تخفيف العثرات ، وتسوية الحفر إن كان في استطاعته.
وهل رسم هذه الحروف رسماً مطابقاً للنطق ولقواعد الإملاء ، يعطّل التوثيق من
الفاظ القرآن الكريم ، وطريقة أدائه ، أو يساعد عليه .
ولقد خفيت على أهل العلم ، فكيف بالعمّة ، الأحكام القرآنية في هذا الزمان بسبب
الرسم العثماني المخالف في كثير من هجائه لأصول الإملاء العادية.
إن تلاوة القرآن حق تلاوته ينقصها الكثير الكثير من إجادة إخراج الحروف ،
وتحقيقها على الوجه السليم ، وينقصها الرسم المتوافق مع أصول الإملاء الحديثة التي هي
الأسهل والأسلم.

ثالثاً: الدلالة على أصل الحركة وأصل الحرف:

ويقول الشيخ الزرقاني:

أ- الدلالة على أصل الحركة مثل: كتابة ياء ، في قوله تعالى:
﴿وَيُنَادِي ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: الآية-٩٠] ، ويعلّل الدكتور أبو شبة لزيادة الياء في
هذه الآية بقوله: في زيادة " ياء " في هذه الآية: إشارة إلى أن: إيتاء ذوي القربى ، ينبغي أن
يكون محدوداً ، موصولاً ، غير منقطع ، فيكون فيه بهذه الزيادة تطابق بين اللفظ والمعنى .

ويقول الزرقاني: وكتابتها الضمة واواً ، في قوله تعالى:

﴿سَأَرْبِكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية-١٤٥] ، ويعلّل أبو العباس المراكشي
لزيادة الواو في هذه الآية:

بأنها للدلالة على ظهور معنى الكلمة في الوجود ، في أعظم رؤية للعيان ، ثم قال:
ويدل على ذلك أن الآية جاءت للتهديد .

ب- ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف: نحو الصلاة والزكاة.

إذا كتبنا هكذا " الصلوة " و" الزكوة " ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو. كل هذا
من غير نقط ولا شك كما سبق .

^١ راجع: لآلء حسار ، ص ٨٦.

^٢ بحوث قرآنية ص ١٦٥.

^٣ انصهر نفسه ، ص ١٦٣.

^٤ متاعل العرفان ١/ ٣٦٨.

ولنا أن نسأل في هذا الصدد بقولنا:

على فرض أنهم كانوا يعرفون الحركة ، وأصل الحرف ، فلماذا لم يضعوها في كلمات القرآن لتتوب عن الحركات.

فمثلاً ، لماذا لم يدلّوا على أصل الحركة في مثل قوله تعالى:

﴿اعْبُدُوا فِيهَا﴾ [الحج: الآية- ٢٢] .

وقوله تعالى:

﴿وَأَدْخِلْ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْبَيْتَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: الآية- ٣٣] .

ولماذا لم يدلّوا على أصل الحرف في قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: الآية- ١٨٣] . فكنتب الصوام مثلاً؟

ولماذا لم يدلّوا على أصل الحرف في مثل «قال» و «قيل» فكنتب قول؟

ولله العلم بأنهم لم يكونوا يقصدون شيئاً من هذا.

والذي نعتقد يقيناً بأن العرب قبل الصحابة لم يكونوا على معرفة بالنفط والشكل ، ولم يكونوا يصوّرون الحركات حروفاً ، ليكون الإعراب بها ، ولم يكونوا يصوّرون الفتحة ألفاً ، والضمّة واواً ، والكسرة ياء ، لتدلّ هذه الأحرف الثلاثة على ما تدل عليه الحركات في هذه الآية ، أو أصل ذلك الحرف في تلك الآية.

إن هذه الحالة لتعتبر ثغرة أو مطعناً في الرسم القرآني بل في دقة الصحابة ، وتوقيفية الرسم.

رابعاً: إفادة بعض اللغات المصححة:

يقول الشيخ الزرقاني^١:

مثل: كتابة هاء للتأنيث تاء مفتوحة ، دلالة على لغة طيبي.

ومثل: حذف آخر الفعل المضارع المعتلّ ، لغير جنزم ، كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^٢. وما في قوله تعالى:

^١ انظر معاني لغز القرآن ٣٦٨/١ . نعت قرآنية ص ١٦١.

^٢ وقد كتب [يوم يأت] بـياء في بعض المصاحف. قال السمين ، وهو الخوسه ، لأنها لام تكلمة ، وحذمت في بعضها اختراع بالكسرة عن الياء [إشعار فصول البئر ص ٢١٢].

﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَمْنَعُ ﴾ [هود: الآية-١٠٥] . حيث كتبت بحذف سبب.

ونو أنملنا هذا الرسم لصاح ، وبضياعه يضيع كثير من هذه اللغات للفصحى التي لا يمكن الاستدلال عليها حينئذ بالقرآن الذي هو أصدق الحديث.

ويقول الزركشي في برهانه معللاً مدّ التاء وقبضها ، مفرداً ذلك في فصل خاص ، حيث يقول:

هذه الأسماء — التي منها كلمة نعمة — لما لازمت الفعل صار لها اعتباران:

أحدهما: من حيث هي أسماء وصفات ، وهذا نقبض منه التاء.

الثاني: من حيث إن يكون مقتضاها فعلاً وأثراً ظاهراً في الوجود ، فهذا تمدّ فيه ، كما تمدّ في «قالت» ، و«حقّت».

وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة ، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة^١ .

وأخذ الزركشي يسوق الأمثلة على ذلك من رسم المصحف ، من هذه الأمثلة ، كلمة «رحمة» التي مدّت في سبعة مواضع للعلة المذكورة:

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية-٥٦] .

﴿وَنُنَظِّرُ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الروم: الآية-٥٠] .

﴿أَوَلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية-٢١٨] .

﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ [هود: الآية-٧٣] .

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ [مريم: الآية-٢] .

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: الآية-٣٢] .

وفي هذه الأمثلة كلمة "نعمة" التي كتبت بالهاء إلا في أحد عشر موضعاً مدّت بها:

﴿وَذَكِّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية-٢٣١] ، وآل عمران: الآية-١٠٣ ،

والمائدة: الآية-١٢ ، وإبراهيم موضعان: الآيات: ١١ — ١٣ ، والنحل ثلاثة مواضع:

الآيات: ٢٨ — ٣٤ — ١٤ ، ولقمان: ٣١ ، وفاطر: الآية-١٧ ، والطور: الآية-٢٩.

^١ منهج القرآن ١/١٥٨.

^٢ المرحان ، ٤١٠/١ وما بعدها.

ويتابع الزركشي قائلا:

والحكمة فيها بأن الحاصلة بالفعل في الوجود تمدّ نحو:

﴿وَلَيْنَ تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَخْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية-٣٤] ، وهذا بخلاف التي في

سورة النحل: ﴿وَلَيْنَ تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَخْصُوهَا﴾ ، كتبت مقبوضة لأنها بمعنى

الاسم ، بديل قوله: ﴿لَيْنَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: الآية-١٨] .

ومن ذلك "الكلمة" مقبوضة إلا في موضع في الأعراف:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْخُسْفَى﴾ [الأعراف: الآية-١٣٧] .

ومنها السنة مقبوضة إلا في خمسة مواضع حيث تكون بمعنى الإهلاك والانتقام الذي في الوجود.

﴿فَقَدْ مَضَتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية-٣٨] .

﴿فَقُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَنْبِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾

[فاطر: ٤٣] .

﴿قُلْ بِكَ يَتَفَقَهُنَّ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَةَ اللَّهِ﴾ [غافر: الآية-٨٥] .

﴿سَنَةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الإسراء: الآية-٧٧] .

ومنه بقيت ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ﴾ [الروم: الآية-٣٠] ، و﴿قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَتَكَ﴾ [التقصص:

الآية-٩] ، و﴿وَمَخْصِيَّتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: الآية-٩] .

ومنه "اللعنة" مثلت في موضعين في آية للجاهلة:

﴿ثُمَّ تَنْبِيهُلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية-٦] .

وفي آية اللعان:

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [النور: الآية-٧] .

ومنه للشجرة:

﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ﴾ [الدخان: الآية-٤٣] .

ومنه الجنة:

﴿وَجَنَّتِ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: الآية-٨٩] .

ومنه ابنة:

﴿ومريم ابنت عمران﴾ [التحريم: الآية-١٢] .

ومنه: امرأة هي في سبعة مواضع ، خمس منها من النساء:

﴿امرات عمران﴾ [آل عمران: الآية-٣٥] .

﴿امرات فرعون﴾ [القصص: الآية-٩] .

﴿امرات نوح﴾ [التحريم: الآية-١٠] .

﴿وامرات لوط﴾ [التحريم: الآية-١٠] .

﴿وامرات العزيز﴾ [يوسف: الآية-٢٠] .

هذه التاءات كلها محدودة ، كما يقول الزركشي ، تنبيهاً على فعل البعد والصحبة وشدة المواصله والمخالطة والاتلاف في الوجود والمحسوس ، وأربع منهن منفصلات في بواطن أمرهن عن يعولتهن بأفعالهن ، وواحدة خاصة واصلت بعلمها ظاهراً وبطناً وهي امرأة عمران ، فجعل لها ذرية طيبة ، وأكرمها بذلك وفضلها على العالمين. وواحدة من الأربع انفصلت بباطنها عن بعلمها طاعة لله ، وتوكلت عليه وخوفاً منه ، فنجّاهما وأكرمها ، وهي امرأة فرعون. واثنان منهن انفصلتا عن أزواجهما كفرًا بالله فأهلكهما ودمرهما ، ولم يتفقا بالوصلة الظاهرة ، مع أنها أقرب وصلة بأفضل أحبب الله. كما لم تضر امرأة فرعون وصلتها بالظاهرة بأخيئ عبيد الله. وواحدة انفصلت عن بعلمها بالباطن اتباعاً للهوى وشهوة نفسها ، فلم تبلغ من ذلك مرادها ، مع تمكنها من الدنيا واستيلائها على من مالت إليه بحبها وهو في قبضتها وبينها ، فلم يغن ذلك عنها شيئاً ، وقوتها وعزتها إنما كانتا لها من بعلمها «العزيز» ولم ينفعها ذلك من الوصول إلى إرادتها مع عظيم كيدها ، كما لم يصر يوسف ما امتحن به منها ، ونجاه الله من السجن ، ومكّن له في الأرض ، وذلك بضاعته لربه ، ولا سعادة إلا بطاعة الله ، ولا شقاوة إلا بمعصيته فهذه كلها عبر وقعت بالفعل في الوجود ، في شأن كل امرأة منهن ، فلذلك منّت تاءاتهن^١ فالزركشي يردّ للحكمة في هذا المذ إلى أن الحاصلة بالفعل في الوجود تمدّ ، ويمكننا أن نلاحظ الافتعال والتكلف في هذا التأويل ، وأنه ينسب إلى الصحابة ما لم يفكروا فيه ، وما لم يلتفتوا إليه.

إنها لعل وإهية ، ومحال أن يقصدها الصحابة ، إنما كانوا يكتبون حسب استعدادهم وما يحسنون من الرسم.

^١ الزركشي . الغمام ، ١/١٠٤١ نصل في مدّتها ، ونفضها .

أن يقال إنهم نجحوا في قصدهم المحافظة على تسجيل بعض اللغات الفصيحة في رسمهم للقرآن الكريم ، وأن يقال إن في فعلهم هذا كل الصواب فهم لم يسيروا في القرآن كله برسم واحد للحرف ، ورسموه في بعض المواضع بالرسم الذي يوافق لغة من لغات العرب ، وفي المواضع الأخرى بالرسم الذي يوافق بنية اللغات ، أن يقال أيضاً إنه لو لم يفعلوا ذلك ، وساروا في رسمه على نمط واحد ، لفهم مع ذلك ، أن ليس هناك من اللغات غير هذه اللغة التي يشهد لها هذا الرسم ، وأن يقال أخيراً ، إن في هذا الرسم ، وهذه الانشغالات من الحذف ، والذكاء ، واللفظة ، وبعد النظر ما فيه ، نقول: إن هذا القول فيه من التكلفة ما فيه ، وفيه من البعد عن الصواب ما فيه لأن الصعابة ، يقيناً ، لم تخطر ببالهم هذه الانشغالات إنما رسموه مباشرة ، وكل حسب استعداده وما يحسن ، يتناولهم الآيات متلوّة من الرسول ﷺ .

إن الذين رسموا المصحف العثماني من كتاب الوحي ، ورسموه كما كان مرسوماً بين يدي الرسول دون زيادة أو نقصان ، فلا سبيل إلى ما ذهب إليه الزركشي وأمثاله ، لأن كل ذلك يحتاج إلى كفاءة في الخطّة غير عادية ، وإلى معرفة محيطية بلهجات العرب ، وإلى تأمل وروية وأنى لهم ذلك؟

كل الذي ينبغي قوله هو أننا سمحنا لكتاب القرآن أن يكتبوا حرفاً بلغة طيبي ، وحرفاً بلغة خنيل ، فلم لم يسيروا في القرآن برسم واحد لهذا الحرف؟

لم رسموا كلمة نعمة في قوله تعالى:

﴿اذْكُرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنَ﴾ [الطور: الآية-٢٩] ، في الطور بناء مفتوحة أو رسموا نفس الكلمة في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: الآية-٦] ، بناء مربوطة في سورة إبراهيم؟

ولم حذفوا الباء من المضارع المرفوع في «يوم يأتي» ولم يحذفوها منه في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: الآية-١٠] .

إن القرآن الكريم نزل نطقاً ولفظاً ، بلغة فريش لأن كل العرب يلمتون بهذه اللهجة ، وليسوا من الغريبة عنها في شيء ، وما ذلك إلا ليفهمه جميعاً دون التباس وإشكال ، فكيف يجوز لنا أن نرسمه بكل الخصوط العربية أو اللهجات العربية ، ألا يتعارض ذلك مع أصل التنزيل وغاية التنزيل؟

أليس في ذلك للتعقيد والأشكال؟

خامساً: الدلالة على معنى خفي دقيق:

هذه الدلالة الكاشفة للمعاني ذات البعد ، تبدو في مواطن قرآنية منها:

١ . زيادة الياء في رسم كلمة " أيد " من قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: الآية-٤٧] .

إذ كتبت بيائين: بأيدٍ ، وذلك للإيمان والتعظيم لقوة الله التي كان عنها بناء السماء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي: "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى" ^١ .

٢ . زيادة الألف:

﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: الآية-٦٩] ، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ يُؤْمِنُذِرُ بِهِنَهُمْ﴾ [النجر: الآية-٢٣] ، فإن كلمة " جيء " رسمت في الوضعين بزيادة ألف بين الجيم والياء في مصاحف الأندلسيين ، واعتمادهم فيها على المصحف المدني العام^٢ فإن هذه الزيادة تسمى إلى التهويل ، والتخيم ، والوعيد ، والتهديد ، وأنه مجيء ليس على ما يعهد البشر ، فجاء الرسم لذلك على غير ما يعهدون^٣ .

٣ . كتابة هذه الأفعال الأربعة بغير الواو ، رغم أن القاعدة النحوية واللغوية تخالف هذه الكتابة: «يدعو» في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: الآية-١١]

«يمحو»: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: الآية-٢٤] .

«يدعو»: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكَرَ﴾ [القمر: الآية-٦] .

«سندعو»: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: الآية-١٨] ، حيث كتبت في المصاحف

عثمانية بغير واو .

^١ سائل العلم قال ، ١/٣٦٧ .

^٢ إتيان فضلاء البشر .

^٣ بحث قرآنية ص ١٦٢ .

قال الشيخ أبو العباس المراكشي ما معناه:

السّر في ذلك هو التنبيه إلى سرعة وقوع الفعل ، وسهولته على الفاعل ، وشدة قبول المنفعل للتأثر به في الوجود.

أما الحذف في الأول: فلإشارة إلى أن الإنسان يسارع إلى الدعاء بالشر ، كما يسارع بالدعاء إلى الخير ، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته ، أقرب إليه من الخير ، ولا سيما عند الغضب وثورة النفس.

ولأما السّر في حذفها في الثانية: فالإشارة إلى سرعة إهاب الباطل واضمحلاله.

والسّر في حذفها في الثالثة: فالإشارة إلى سرعة الدعاء ، وسرعة إجابة الداعين ، حينما يطلب منهم ذلك.

والسّر في حذفها في الرابعة: فالإشارة إلى سرعة الفعل ، وإجابة للزبانية ، وفيه أيضاً للتطابق في اللفظ بين المتجاورين ، فقبلها (فليدع ناديه) وكذلك الإشارة إلى أن استجابة الزبانية لسرع من استجابة " ناديه " ، وإزاء هذه الميزة التي تدعي يمكننا التوقف بسؤالين:

الأول: هل زيادة كل حرف ، في كل لفظ يدل على قوة الله تعالى وقدرته.

الثاني: هل نقص كل حرف من كل لفظ ، يدل على سرعة وقوع الفعل ، وسهولته على الفاعل ، وشدة قبول المتأثر به في الوجود؟

فلو كان الأمر كذلك:

لزيد حرف بعد دال «يد» في قوله تعالى:

﴿يُذِئِدُ اللّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية-١٠] .

ولحذفت الواو من قوله تعالى:

﴿يُحِوِاْ اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: الآية-٣٩] .

^١ بحث قرآني ص ١٦٦ .

^٢ راجع في هذا التالء الحساد ص ٨٢ وتاريخ القرآن وخراف رشمه ص ١٥٥ .

العجب العجب كيف لنا أن نقول بهذه التؤيلات ، المتسفة ، إن الصحابة كانوا يقصدونها ، بل كيف لنا أن نقبل بهذه التؤهمات .
فلقصاحبة أولاً وأخيراً لم يكونوا إلى هذا التكلف ، ولم يكن من مهماتهم إلا الرسم الشكلي حسب ما يحسنون لا أكثر !

ساساً: إفادة المعاني للمختلفة بطريقة واضحة:

في هذه الميزة وهذه الإفادة قال التوقيفون:

١ . نلاحظ قطع كلمة «أم» عن «من» في قوله تعالى:

﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: الآية-١٠٩] ، ووصلها في قوله تعالى:
﴿ أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: الآية-٢٢] ، إذ كتبت بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتبتا معاً ميماً واحدة مشددة.

فقطع «أم» الأولى في الكتابة: للدلالة على أنها «أم» المنقطعة بمعنى «بل».

ووصل «أم» الثانية في الكتابة: للدلالة على أنها ليس كذلك.

٢ . وقال بعضهم بأن لهذه الكلمة في وصلها وفصلها ، نواحي أخرى من الفوائد.

يقول الزركشي في برهانه: «أم من» بالفصل ، أربعة أحرف لا غير.

في النساء ، قوله تعالى:

﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: الآية-١٠٩] .

﴿ أَمْ مَنْ يَنْتَهِى ﴾ [التوبة: الآية-١٠٩] .

﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ [الصافات: الآية-١١] .

﴿ أَمْ مَنْ يَأْتِي أَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت: الآية-٤٠] .

فهذه الأربعة أحرف " من " فيها تقسم في الوجود بأنواع مختلفة في الأحكام بخلاف

غيرها ، وقد رسمت في الباقي موصولة ، مثل قوله تعالى:

﴿ أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: الآية-٢٢] ، ويذهب بالتوقيفين الرأي ، إلى أن المعاني التي يحصكها العلماء قد تتعدد ، وتتنوع والرسم

هو الرسم ، يحمل في طياته من المعاني ما لا يتكشّف إلّا لكل متأمّل فيه ، بعقل واع ، وقلب خاشع ، يبغى الوصول إلى هذه الأسرار المعجزة في هذا الرسم.

فإذا ما أصاب بعض العلماء فهم هذه المعاني الخفية ، فهذه من الله تعالى توفيق لهم ، وإذا ما أخطأ آخرون في فهمهم للمعاني الخفية التي تستكن وراء هذه الرسوم ، وفي تعليمهم لمخالفاتها ، فليس هذا بعيب في الرسم ، وإنما هو اجتهد ، وخطأ في الاجتهاد .
والحق يقال بأن الصحابة لم يكونوا يفرقون عند كتابتهم للمصحف ، بين أم المنقطة فيفصلونها ، وأم المتصلة فيوصلونها.

هذا التفريق لدى الصحابة محال. ولئن كان ذلك قد وقع فلماذا وصلوا «أم» المنقطة في خمس آيات متتاليات في سورة النمل؟ تبدأ في قوله تعالى:
﴿لَمَّا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [النمل: الآية-٦٠] ، والمفسرون قالوا بأن «أم» هنا منقطة لا متصلة إن هذا التفريق لم يدر بخاطر الصحابة ، ولم يكن لهم هذا التمييز لأنهم أولاً لا يحسنونه وثانياً كتابتهم مباشرة ليس لديها فسخة لرؤية وتأمل.

والذي نذهب إليه بأن هذا المنطق إنما هو تبريري معكوس يفتش أصحابه عن السبب من خلال النتيجة ، بل هو منطق مرضي لا يربط الأسباب بالمسببات ، بل لا يؤمن قبل أن يقتنع.

❖ الرسم الاصطلاحي في رسم القرآن:

وبعد الانتهاء من الحديث عن المذهب التوقيفي وأدلته نتابع الحديث لتكون لنا وقفة متأملة متمهلة إزاء المذهب الاصطلاحي.

وبعض من العلماء يقولون بأن الرسم القرآني اصطلاح من الكتبة الذين كتبوا القرآن في جمع عثمان ، ووافقهم عثمان عليه.

لم يفرض الله تعالى على الأمة من الكتابة شيئاً ، إذ لم يأخذ على كتاب الوحي ، وخطاط المصاحف ، رسماً بعينه نون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلّا بالسمع والتوقيف.

رسم القرآن ، د. عبد الحفيظ الغرموي.

ليس نصوص الكتاب ولا مفهومه: أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحدّ محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نصوص السّنة ما يوجب ذلك ، ولا دلّت عليه القياسات الشرعية ، بل السّنة دلّت على جواز رسمه بأيّ وجه سهل ، لأن الرسول كان يأمر برسمه ، ولم يبيّن لهم وجهاً معيناً ، ولا نهى أحداً عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف^١ . هناك كتّاب كانوا يكتبون الكلمة على مخرج اللفظ . ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن تلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، لسبب كهذا جاز أن يكتب بالحروف الكوفية ، والخطّ الأوّل ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تعوج الالتفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثّة ، وجاز أن يكتب بين ذلك^٢ .

وإذا كانت خطوط المصاحف ، وكثير من حروفها على اختلاف وتغاير ، وكان الناس قد أجازوا ذلك ، وأجازوا أن يكتب كل منهم بما هي عاقبته ، وما هو أسهل وأشهر من غير تأثير ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان^٣ .

وقيل أن نحول للاستدلال على سلامة هذا المذهب لا يمكننا إلا القول بمسائلين:

لماذا هذه الهالة الكبرى من التقديس لهذا الرسم؟

لماذا هذه المغالاة التي لا مسوغ لها؟

نحن لا نعارض التثويه بهذا الرسم ، ولكننا نعارض الغلو في تقديسه!

إن الذي يلاحظ هو أن هذا الغلو والتقديس ما هو إلا تعبير عملي عن احترام جيل الصحابة الذين كتبوا المصاحف عند توحيد القراءة ، وإن كانت تلك الكتابة من مخالفة لأصول الإملاء ، وقواعد الخط ، إذ الكتابة تصوير لنطق اللفظ ، والمعبرة بنطق ذلك اللفظ ، لا بتصويره.

^١ رسم القرآن الكريم ، د. عبد الحّيّ الهرماني ص ٤١ .

^٢ انصهر نفسه ، ص ٤٦ .

^٣ تنظر ماعز العرب ١/ ٣٧٣ ، المصحف الشريف ، ص ٩٥ .

إن الضرر في إخفاء صفة التقدّس على الكتبة الأولى ، لا يعضده دليل نصي ، وما قيل هنا وهناك من توقّف كتابة المصحف ، لا يستند إلى أساس من نقل أو عقل أو كتاب ، وليس فيه ما هو مرفوع إلى الرسول الأعظم إجماعاً ، بل كان منسجماً مع طبيعة ما يحسن الكتبة ، ممّا يؤدي إلى النطق الصحيح بالكلمات والآيات ، وهو أمر يرجع إلى مدى الجهد الذي بذله القدامى إملائياً وهجائياً في ضبط للرسم .

هذا الوضع الخاص لدى كل كاتب ليس له أن يؤدي إلا إلى الاختلاف بين الكتبة بقدر تفاوت الضبط فيما بينهم ، أو على نحو من اختلاف القائل فيما بينهم ، ممّا طبع أثره على الاختلاف في الخطوط والرسوم ، كما حصل الاختلاف في رسم كلمة التابوت ليحسم الأمر عثمان بقوله:

اكتبوه: التابوت لا التابوه ، فإنه بلسان قريش.

وأما الذي ذهب إليه ابن المبارك وأدعاه في نقله عن شيخه ابن العزير الدباع أنه قال: ' ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبي ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة ، بزيادة الألف ونقصاتها ، لأسرار لا تهتدي إليها العقول ، وهو سرّ من الأسرار خصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية... '.

□ أدلة المذهب الاصطلاحي:

ولهذا المذهب أدلة تتناسب مع واقع الحال للتفاوت بين الخطوط واستعدادات الكتبة ، ولا تتعارض مع الجوهر القرآني ولا تمتد بطائف من أدنى ، بل على العكس من ذلك كله فإنها تدافع عن الحركة التطويرية للشكل القرآني ، رفعاً للتباس ودفعاً لشبهات ، من هذه الآية:

— أولاً: ليس في نصوص الكتاب ولا في مفهومه ، ولا في نصوص السنة ، ولا في القياسات الشرعية ، أن رسم القرآن وضبطه ، لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحد محذور لا يجوز تجاوزه ، لذلك اختلفت خطوط المصاحف ، ومن ادعى أنه يجب على الناس

^١ تاريخ القرآن د. محمد قنصل ص ١٣٨.

^٢ طبرقان ، ساحل المرقاة ١/ ٣٧٦.

رسم مخصوص ، وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وألّى له ذلك .

أليس النبي ﷺ أمياً لا يحسن كتابة ولا قراءة ، ولا تهجئة ، فكيف لنا أن نقول بأن ما كتبه الكتاب وما رسموه كان بأمر النبي ونوحيه؟

ونطالما النبي ﷺ لا يدري بأصول الخط وهو لم ي لا يعرف الحروف وميزاتها في الكتابة فإن ما نسب ﷺ إليه بأنه قال لأحد كتبة الوحي:

" ألقِ القواة ، وحرفِ القلم ، وانصب الباء ، وفرّق السين ، ولا تُعَوِّرِ الميم ، وحسن الله ، ومذّر للرحمن ، وجود للرحيم ، وضع قلمك على أُنْثَى اليسرى فإنه أُنْثَى لك " إن هذا القول الذي نسب إليه موضوع لا أصل له طالما أنه لا يلم بصناعة الكتابة ، وفائد الشيء محال أن يعطيه.

ولا يذهبن بك الظن إلى أن في ذلك غشاضة أو انتقاصاً من مكانة النبي ﷺ ، فالأُمِّيَّةُ المحمدية هي شرف وفضل وهو على أُمِّيَّتِهِ يزكّي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ألم يقل القرآن: ﴿الْحُوّ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: الآية-٢) .

إن الرسالة المحمدية الخالدة والمعجزة اقتضتها الحكمة الإلهية مع الأُمِّيَّةِ المحمدية لدرء تخريصات المشركين ، ولترتيب المبطلين.

إن فصاحة النبي لا تجارى ، وبلاغته لا تبارى ، إذا قال: أما بعد فهو خطيبها.

ألم يؤت جوامع الكلم؟

ألم يمتلك فصل الخطاب؟

فكيف يجوز أن ينسب إليه هذا النص الذي لا ينهض إلا على الصنعة والتصنيع ، والتكلف والمغالاة؟

^١ المرقاة ، متاع المردان ١/٣٧٤.

^٢ المصدر ص ١٠ / ٣٧٠.

ولطالما الرسول ﷺ هو من نطق بالضاد ، ولطالما هذا النص على هذه السمات المتكلفة فليس لنا إلا أن نردّ هذا النص ونرفضه.

حسب هذا النص من السّخف القول وضع القلم على الأذن اليسرى لنحكم بانتقائه عن النبي ﷺ القائل: أنا أفصح العرب.

ما هي العلاقة الفنيّة أو غير الفنيّة بوضع القلم على الأذن اليسرى خلال الكتابة؟
إن نصّاً هذا شأنه من الضحالة والتفاهة وسوء النظم ، وارتباك التّأليف لا يصدر عن النبي ﷺ ذي الأفكار الجامعة ، والمعاني الخصبة ، والأماليب القادرة والممانعة.

وعلى فرض الصّحّة لهذا الحديث ، فإنه يتعلّق بطلب تحسين الخط لا بالرسم إلى جانب أن إقرار الكتابة المعتمد ، هو فرع العلم بالمكتوب ، وعلمه بالمكتوب غير ثابت^١.

— ثانياً: رسم المصحف ليس توقيفياً ، وإلا لكانت خطوط كتّاب الوحي واحدة ، وواقع الرسم القرآني يشير إلى اختلافات كثيرة في رسم الكلمات من ذلك: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فسبّح باسم ربك العظيم»، «أولئك يرجون رحمت الله»، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

وأجمع الصحابة على هذا الاختلاف وغيره وأقرّوه ، ولكن ليس لنا أن نفهم هذا الإجماع على أنه كان بسبب الرسم التوقيفي.

إن للخط صناعة من الصناعات ، وكل صناعة تقوم في أدائها على طرق معيّنة ، وكييفيات خاصة ، يتواضع عليها الناس ، ويسيرون بمقتضاها ، فكما لا يقال إن الصحابة أجمعوا على هذا النمط في البناء — مثلاً — فيلزم اتباعهم فيه ، فكذلك لا يقال في الخط^٢.

إن هذا الاختلاف ناجم عن أن كل واحد من الكتبة ، كان يكتب بما اعتاده وتيسر له.

^١ موسى شاعين ، الأمل ، الحان ص ٨٧.

^٢ طهاني ص ٢٥٢.

هذه حجة محتملة للأمريين ، والنليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، فلا يصح حجة لأحد.

ويحدّد الدكتور طريقاً للخروج من هذا الإشكال الذي وجده في كلام العلماء بقوله: لو ثبت أن هذا الاختلاف ، أي المخالفات في الرسم كان يقع منهم ، في غير القرآن كما وقع في القرآن ، لتعيّن أن هذا يرجع إلى الاصطلاح لا إلى التوقيف. ولو ثبت أن ذلك لم يقع منهم إلا في القرآن ، لتعيّن أن سببه التوقيف.

وليس لنا إلا القول بأن الاختلاف قد وقع في الرسم القرآني وغيره ، لذلك فهو اصطلاحى توقيفى.

— ثلثاً: إن القرآن ليس معجزاً بخطّه ورسمه ليتحدّى العرب بهذا الشأن ، وهل رسم القرآن بغير الرسم أو الخطّ الذي كان يعرفه أو يتلقاه الكتبة كلّ حسب استعداده ومعرفة؟

ليس من الصواب في شيء أن يقال بأن الرسم المصحفي معجز كنظم القرآن! إن القرآن المعجزة هو آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض منها سماء وهي منها كواكب! إن القرآن المعجزة ليس برسمه إنما بنظمه وإلا لما أحيل للعرب لأن يتلوه وإن يسمعه لكي يدركوه فيؤمنوا؟

ولماذا عاد الوليد الذي ذهب لقتل الرسول عندما سمع قرأناً يتلى وهو يقول: سمعت كلاماً أعلاه معذوق ، وأسفله مورق وما هو بقول البشر؟

لماذا آية واحدة كافية للمرء إذا تلاها أو سمعها ، أن يطمئن قلبه إلى الإيمان ويعترف بالفقران وحياً ، وبالإسلام ديناً؟ إن القرآن معجزة بتحديثه ونظمه وحسن تأليفه ، وروعة استعاراته ، وبُعد مجازاته ، وتوقّ بلاغته وفصاحته ، وروعة كذاياته وعباراته.

١٠ - حبره «فران» هي بكشوفه العلمية ، ونفاذه إلى الغيب وإزالة السائر عن المجهول واستقراء الأحداث والتاريخ للحكم على الحاضر والمستقبل لأن أيام التاريخ موصولة ولا فصل.

المعجزة القرآنية تشريع لحكم ، وبلاغة متفوقة ، وفصاحة خارقة ونظريات علمية ثابتة.

* إن القرآن معجزة بصورته الفنية التي اعتبرت اللفظة حقيقة والمعنى حقيقة أخرى ، والعلاقة بينهما حقيقة ثالثة ^١.

إن القول بإعجاز الرسم القرآني يشير إلى ضحالة الرأي ، وسخف القول.
ما هو الإعجاز في الخط ، وما هي أسرار الإملاء في ذلك الزمن وغير ذلك الزمن؟
كيف يكون الرسم معجزاً ويمكن إصلاحه وتحسينه؟
كيف يمكن أن يكون معجزاً وهو يحمل الأخطاء ، ولا يمتلك القاعدة الثابتة ، ويختلف بإملائه من كاتب إلى كاتب؟

ما هو السر أو اللغز فيه طالما فيه إبهام وخلط وفوضى؟
هل من الإعجاز في شيء زيادة الألف في كلمة وحذفها منها في موطن آخر؟
إن اليقين اليقين الذي لا ينطوي على ارتياب هو أن علة الرسم وعيوبه يعود لخطأ الكتاب في الإملاء.

إن النص القرآني متعبد بتلاوته لا برسمه ، والكتابة الأوائل رسموا القرآن بما يعرفون ، ولا يظالبون بأكثر مما أعطوا ، ألم يقل الرسول : * نحن أمة أمانة لا نكتب ولا نحسب ^٢.

ولكن كان في رسم الكتابة الأوائل للمصاحف منافيات ومخالفات لأصول الخط ، فإن ذلك لم يكن ليؤثر بالتعرض على المعاني بجذورها ، وعلى الألفاظ بمدلولها ، فالإملاء لا يغير نطقاً ، ولا يحرف معنى ، ولا يترك إبهاماً.

^١ تاريخ القرآن ، د. محمد السمعوني ، ص ١٤٦.

^٢ أخر شامة ، لمرشد الوعيز ص ١٢٩.

— رابعاً: واستدلّ التوقيفيون على ما ذهبوا إليه بأوائل السور ذات الحروف المقطعة لكل: أ، ص، ح، ع، ك، هـ، وقالوا إن رسمها توقيفي ومحال أن يكون غيره.

لكن الذي لا شك فيه أن هذه الحروف المقطعة قد اجتمعت الآراء، وتواترت الأخبار على أنها وحي إلهي ونص قرآني.

ثم افترق التابعون من السلف رسمهم فيها، تبركاً بما رسمه رسول الله ﷺ، وخير الخلق بعده المقتفون لوحيه، من كتب الله تعالى وكلامه، كما يقتضي لهذا العهد خطٌ وليّ تبركاً، ويتبع رسمه صواباً أو خطأ.

" وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك وأثبت رسماً، ونية علماء الرسم على مواضعه ولا تلتفتن إلى ما يزعمه بعض المغفلين، من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن يتخيل من مخالفته خطوطهم لأصول الرسم كما يتخيل، بل لكلها وجه وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم، أن في ذلك تنزيهاً للصحابة رضوان الله عليهم، عن توهم انقصر في قلّة إجادته الخط. يقولون في زيادة الألف في [الأذبحته] أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وحسبوا أن الخط كمال، فنزّوه عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خلف الإجارة من رسمه، وليس ذلك بصحيح.

واعلم أن الخط ليس بكمال في حقّه، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعيشية، والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين، ولا في الخلل، وإنما يعود إلى أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه، لأجل دلالته على ما في النفوس.

ولقد كان ﷺ أمياً، وكان كمالاً في حقّه، وبالنسبة إلى مقامه، لشرفه وتنزهه عن الصنائع العلمية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها ونيمت الأمية كمالاً في حقنا نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا.

وقد توقف البعض عن الموقف للخلدوني بغية توهينه وإضعافه^١ حين قالوا بأن ما ذهب إليه ابن خلدون " بأن الصحابة كانوا يجهلون قواعد الكتابة " ما فيه:

^١ ابن خلدون، مقدمة ص ٧٦.

^٢ د. عبد النبي تهرماني، رسم القرآن، ص ٤٥.

- ١ . أن كتاباتهم وخطوطهم — وما زالت لها بقايا — خالية من الخطأ الإملائي^١ .
٢ . أن كتاباتهم لا بد أنها — من الناحية المنطقية — كانت وفق القواعد الإملائية ، وإلاً اعتورها اللبس^٢ .

٣ . تمييزهم بين عمر وعمره بزيادة واو في الثاني وإحاقهم إياها في «أولئك» فرقا بينه وبين «إليك» وذلك مما يدل على عنايتهم بدفع الخطأ في فهم الكتابة^٣ .

ولو تأملت لم اختاروا «الواو» علامة للتفرقة بين الأسمين دون غيرها من الأحرف الهجائية لظهر لك نكأؤهم للمفرط ، وقوة تفكيرهم في ذلك ، فإنه لن يصلح لهذا غير حرف «الواو» فقط^٤ .

٤ . إن الكتابة قد بلغت قبل الإسلام مبلغاً به تغنى العرب في ضروبها ، حتى وصلت إلى الصحابة على أيدي أناس مجيدين فيها ، مالكين لناصيتها ، وقد أتتها الصحابة ، أخذاً بروح الإسلام ، وموقفه ، ودعوته ، إلى كل تقدم حتى كان الذين كتبوا فهم الغاية القصوى في الحقن بالهجاء^٥ .

هذه الحروف هي بمعانيها رموز وبمدلولاتها إشارات ومقاصدها ليست مباشرة ، لذلك اجتهد في شأنها المجتهدون ، واختلف في أمرها المفسرون والمأولون:

لكن أليست قرآناً والقرآن معجزة؟

ليس من الموضوعية ، ولا من المنهجية العلمية إن في قليل وإن في كثير أن نقارن بين الرسم القرآني الذي جاء على رسمه الكتبة الذين ليس لهم إلا طريقة بشر .

أين وجه التحدي والإعجاز في الطريقة البشرية وهي التي تحتاج إلى إصلاح لما فيها من ثغرات؟

لئن الرسم القرآني الشكلي إنما هو مرهون باستعداد الكاتب وما يحسنه . وما يحسنه الكتاب هو على تفاوت في الاتقان والضعف .

^١ تاريخ القرآن وغرائب رسمه وسكه ص ١١٨ .

^٢ تفكيك لأي عمرو الذي ص ١٧٧ .

^٣ جمع الصوتي ص ٣٨٠ .

^٤ تاريخ القرآن وغرائب رسمه ص ١١٧ .

^٥ منهج القرآن ص ١٤١/١ .

— خامساً: لم يكن للكتابة النضج المأمول ، ولا الإتقان المطلوب في عهود الجمع ، ولم تكن الخطوط قد استكملت نموها ، وبلغت شأوها ، وانتهت إلى غيبتها في الإتقان ، إنما كانت لا تزال ضمن دائرة الطفولة والتكوين والتدرج.

إن الكتاب لم يكونوا قد امتلكوا الحنق والمهارة ، ولا النضج والإتقان ، إنما كانوا لا يزالون طلاباً صغاراً يخطئون ، ولا تتجاوز دراستهم ما تناولوه من قواعد وأصول لطريقة بشر في الرسم الخطّ.

إن غاية ما رسموه ، وما بلغوه في الكتابة هو ما تيسر لهم معرفته ، وما كانوا يحسنونه.

وكان لابن خلدون الثقافة ، هي على نوح ، إلى الرسم القرآني ، ليزيل ما أبهم ، ويسلط الأضواء الكاشفة على مسألة هذا الرسم بتحقيق دقيق ، ودراسة واعية تحسن الحكم ، وتكون فصل الخطاب ، لينتهي منذاً بالتعصب للرسم العثماني ، وسؤياً حركة التطوير والإنماء لهذا الرسم بقونه:

" كان الخط العربي لأول الإسلام ، غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان ، والإجادة ، ولا — بالغ — إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة ، والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع ".

وانظر ما وقع من أجل ذلك في رسمهم المصحف: حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة في الإجادة ، مخالفة الكثير من رسمهم ما تقتضيه رسوم صناعة الخط عند أهلها.

ولم يكن ذلك الرسم منهم حيث اتفق بل لأمر عندهم قد تحقق ' .

١ . ويتحدث الألويسي قائلاً:

" والظاهر أن الصحابة كانوا متقنين رسم الخط ، عارفين ما يقتضي أن يكتب ، وما يقتضي أن لا يكتب ، وما يقتضي أن يوصل ، وما يقتضي أن لا يوصل... إلى غير ذلك " لكن خالفوا في بعض المواضع لحكمة.

^١ إرشادات الفركام ص ٢٩ ، وإرشاد الخيران ص ٣٢ .

ولأستاذ محمد طاهر الكردي تعليق على قول الألويسي يقول:

" في بعض المواضع من القرآن الكريم ، ورسم كلماته ، فالألويسي وهو العالم المتبحر ، وصاحب التفسير الكبير ، لا يقول هذا إلا بعد النظر والتحقق ، وإن لم يذكر الشواهد التي تؤيد قوله . ويقول هذا الاعتراض بأنه من الثابت أنه ليس لازماً في الكتابة العربية أن يوافق المنطوق المكتوب دائماً إلا في العروض ، لذلك لا يجوز القول بأنهم أخطأوا في هذا الرسم حين لم يكن هذا الرسم متوافقاً مع الرسم الإملائي ، مثل مائة ، مائتان ، ثلاثمائة إلى تسعمائة حيث زيدت الألف كتابة بينما لا يظهر لها في النطق صوت .

ويقول الدكتور لييب السعيد:

" على أن هذا الرسم الذي عده بعضهم دليل جهل الصحابة بالخط هو عند آخر آية ذهنية قوية لهم في علم الهجاء خاصة^١ .

إن يقول الجوزي:

" إن كتابة الصحابة للمصحف مما يدل على عظيم فضلهم في علم الهجاء خاصة وتوقب فهمهم في تحقيق كل علم^٢ .

ولطالما أن هذا المرسوم في المصحف على أيدي الصحابة هو نفسه ما كتب بين يدي النبي ﷺ ، فإن التوقيفية واضحة ، " ثم يتحكك فيها إلا ابن خلدون — كما يقول حنفي ناصيف — في القرن الثاني ، وبعض رجال الأثر في القرن الرابع عشر ، وليس أحد من هؤلاء إماماً مجتهداً ولحمد لله^٣ .

هذا هو اعتراض الذين خطأوا نظرية ابن خلدون بكل أدلتهم وحججهم ، واستشهاداتهم ، لكننا نقول بأن ابن خلدون كان محققاً برأيه ، دقيقاً بحكمه ، مصيباً بمذهبه ، إنه كان واضح الأبعاد في إلقاء التبعية على من يتصور أن الخط كمال مطلق في حد ذاته ، وأن فقدانه يشكل نقصاً جلياً ، وعيباً لا يطاق ، وصوبوا في كتابته من أخطأ ، وليس الأمر كذلك .

^١ تاريخ القرآن وخرائب رسمه ص ١١٧ .

^٢ إشاع المصنوع ص ٣٨٣ .

^٣ مصر المرافع الفنية في علوم العربية ١٧/١ .

^٤ انظر بحث رسم المصحف ، حنفي ناصيف مجلة المنطق عدد ثور يوليو ١٩٣٣م .

لأن الإخلال ببعض قواعد الخط ، وجملة من أصول الإملاء ليس نقصاً بحقيهم ، بل هي الطاقة ، وجهد المقدور ، والتعظيم لمنزلة الصحابة ، لا يعني أن نغض الطرف عن خطأ هجائي ، وأصل إملائي ، فممنزنتهم شيء ، وحقائق الأمور شيء آخر ، ولهذا كان ابن خلدون فيما قنمه من رأي جريئاً في الحكم ، وسخياً في العرض ، وواقعياً في المبادرة^١ .

ويطن علينا القسطلاني [ت: ٩٢٣] قائلاً:

" بأن أكثر رسم المصاحف موافق لقواعد العربية ، إلا أنه قد خرجت أشياء عنها اتباع مرسومها ، والوقوف عند رسومها ، فمنها ما عرف حكمه ، ومنها ما غاب عنا علمه^٢ . ثم إن الرسم ينقسم إلى قياسي وهو موافقة الخط للفظ واصطلاحي ، وهو مخالفته ببدل أو زيادة أو حذف أو فصل أو وصل للدلالة على ذلت الحرف ، أو أصله أو قرعه أو رفعه ليس ، أو نحو ذلك من الحكم والمناسبات^٣ .

فالقسطلاني غايته في قوله هو أن رسم المصاحف بمعظمه موافق لقواعد الإملاء العربي وأصول الخطوط ، وما خرج عن ذلك يجب اتباعه في نظره ، وفي هذا الرأي علو لا سند له ولا أصل.

إن الرسم المصحفي اصطلاحى ولا ريب ، تواضع عليه الكتاب الأول ، واشتمل على مخالف الخط للفظ في وجوه البدلية والزيادة والنقصان والحذف والفصل والوصل ، وكان ذلك شائعاً في جملة من الحروف ، لا سيما في إبدال الألف ياء ، وزيادة الألف بعد واو الجماعة الداخلة على بعض الأسماء ، وحذفها بعد جملة من خطوط الرسم المصحفي.

أما السيوطي في إتقانه فقد حصر أمر الرسم المصحفي في الحذف والزيادة والهمز والإبدال ، وما فيه قراءتان فكتب بأحدهما^٤ .

نحن لا يمكننا الأخذ بالمذهب التوقيفي الذي جسده البيهقي وقرره بقوله:

" من كتب مصحفاً فنبغي أن يحافظ على حروف اللهاء التي كتبوا فيها المصاحف ، ولا يخالفهم ، ولا يغير ممّا كتبوه شيئاً ، فإنهم أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة ممّا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استداركاً عنهم^٥ .

^١ تاريخ القرآن ، محمد الصغير ، ص ١٤٣ .

^٢ القسطلاني ، لطائف الإشارات ١/ ٢٨٥ .

^٣ السبوي ، إعراب ١/ ١٤٧ .

^٤ الأزرقي ، هوام ١/ ٣٧٩ .

وللباقلائي [ت: ٤٠٣هـ] موقف فكري منطبق ناجح في هذا الشأن ، موقف يتوافق مع طبيعة الأشياء ، مع فطرة الأشياء ، موقف يرى بأن الشيء الذي لا يفرض فيه أمر لا يستتبع منه حكم ، وما لا وجه له لا يحند بوجه مخصوص. يقول:

' وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذ لم يأخذ على كُتّاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره ، أوجبهم عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه: أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، واحد محدود ، ولا يجوز تجاوزه ، ولا في نصر السنة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل لأن رسول الله كنن يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجهاً معيناً ، ولا نهى أحداً عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لتعلمه بأن ذلك لاصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفيّة والخط الأول ، وأن يجعل اللّام على صورة الكاف ، وأن تعوج الألفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم ممّا هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأنيب ولا تنكير ، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم في القراءة والأذن ، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات واللعقود والرموز ، فكل رسم دالٌّ على الكلمة ، مفيد لوجه قراءتها ، تجب صحته ، وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت. وبالجملة فكل من ادّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجّة على دعواه وأنّى له ذلك ' .

ولعلّ الزيت قد حسم الأمر بليجاز القول:
الغرض من كتابة القرآن: أن نقرأ صحيحاً لنحفظه صحيحاً ، فكيف نكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب ، وما الحكمة أن يقيّد كلام الله بخط لا يكتب به اليوم أيّ كتاب ' .

^١ طلب: محمد عبد العظيم الزرقاني ، مهمل القرآن ٣٧٢/١ وما بعده.

^٢ مجلة لمرسالة العصرية ، عدد ٨ يناير ١٩٥٠.

وهذا هو عز الدين بن عبد السلام يجمع بين الجرأة والمحافظة في إن ، إنه من دعاه للتطوير لرسم المصحف رفعا لمشاكل القراءة عند السحدين ، وكما هو من دعاء الاحتفاظ بالرسم العثماني كجزء من التراث الذي يجب أن لا يهمل ولا يطوى ، وذلك إجلالاً وحباً للأقمنين في جهادهم وعطائهم.

يقول: " ولا يجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة ، لنلاً يوقع في تغيير من الجهل ، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لنلاً يؤدي إلى دروس العلم ، وشيء أحكمه القدماء لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قنم لله بالحجة " .

❖ تنكير واستخلاص:

بعد هذه الدراسة المجلى للمذهب التوقيفي والاصطلاحي من حيث الغاية والوثائق والبراهين لا بد لنا أن ننتهي إلى قرار يتناسب مع المعقولة وينسجم مع الموضوعية والتجرد، فالمذهب التوقيفي لا يصح أن نأخذ بأسبابه ، ولا أن نعتده في شأن الرسم للقرآني لموامل وأسباب انتهينا إليها ، من هذه الموامل والأسباب:

أولاً: إن الرسم المصحفي لم يرد فيه حديث واحد ، ولا أشار إليه الرسول بمناسبة ، فأنى له أن يكون توقيفياً؟

ما روي عنه أنه قال لأحد كتبة الوحي:

" ألقى الدواة ، وحزف القلم... وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكرك لك ، إنما هو قول موضوع ولا سند له في نظمه وأرتبائه ، وتكلفه إزاء فصاحة النبي ﷺ وبلاغته ، ألم يقل ﷺ يوماً: " أنا أفصح للعرب " .

ما شأن هذا القول بالفصاحة وللصناعة تمتلكه ، والتكلف بُنيته؟

ثانياً: الرسول ﷺ أمي لا يلزم بقراءة أو كتابة فكيف له أن يعلم الكتابة هذا الرسم للقرآني للخاص ، والذي فيه الإملاء الصواب والخطأ؟

قال يوماً: " نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب " والقرآن الكريم يخاطبه مقررًا:
" وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك " ويقول:
" هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين " .

ولطالما النبي ﷺ أمي فليس من المنطق في شيء أن تكون له مثل هذه الإشارات التعليمية أو التوجيهية في الخط.
هل فاقده الشيء يعطيه؟

ولماذا تعتبر أمية النبي ﷺ انتقاصاً من قدره ، العكس هو الأصح. أمي هو خاتم المرسلين ، ورسالاته هي قفل الرسالات لأنها كمالها وتمامها.

أمي هو أفصح من نطق بالضاد!
ولا غضاضة لو أخطأ الصحابة ، ورسما القرآن كما يحسنون ، وكما هو استعدادهم:
نحن لا ننكر فضلهم المجاهد ، ولا ننكر عليهم بلاءهم حين نقول بصطلاحية الرسم القرآني ،
ويأن الكتابة كانت لهم أخطاءً وهم فيه.

ثالثاً: لماذا اختلفت خطوط الكتاب؟
ولماذا رسومهم ليست على قاعدة واحدة وثابتة؟
ما الحكمة الإلهية من رسم كلمة «رحمة» تارة بالهاء المربوطة وتارة بالهاء المفتوحة؟
ما الحكمة من كتابة «سعوا» مرة بالآلف ، ومرة خلواً من الألف؟ وكذلك الشأن في
كلمة «الصلاة» التي رسمت بالآلف والواو.
لعل أظهر شهيد وأقواء على اصطلاحية الرسم القرآني هو هذا الاختلاف ، وهذا
التباين.

رابعاً: إن القول بإعجاز القرآن في رسمه لا يتفق مع الواقع في ثغراته وأخطائه ، لا سبيل
إلى القول بهذا الإعجاز طالما هناك قابلية للتحسين والتطوير .

وقد كان التجارب القرآني مع اختلافات الرسم على مساحة كل القرون أو العصور ،
ونسجاً مع حركة التطوير الهائلة للخط العربي على أيدي رواده وفنانيه.
واستمر المتخصصون بفنون الخطوط وطرائقها وأساليبها ينقلونه من جيل إلى جيل ،
ومن قرن إلى قرن مطابقاً لأصل الكوفي مع إضافة الأشكال التطويرية لتوفير الإيضاح ،
ورفع الانقباس ، ودفع الشبهة.

فالنصوص القرآنية — على تحسين شكلها ، والتدخل لسنّ ثغرات إملائها وهجائها —
استمرت متواترة طيلة أربعة عشر قرناً دون أن يخالف بعضها بعضاً ، ودون أن يتعارض
مخطوط مع مخطوط حتى كانت للطباعة المباركة التي كانت الوسيلة الكبرى في نشر النسخ
القرآني بملايينها بين المسلمين ، وبطبعات أثينة ، ومنها المذهبة والمحكمة ، وتأخذ مكان
الواجهة والصدارة في أيّ من المكتبات في العالم الإسلامي.

فالرسم القرآني بهذا الواقع محال أن يكون نتاجاً لغير ما يحسن الكاتب ، ومحال أن
يكون إلا اصطلاحياً يتناسب مع ما تواضع عليه كتيبه ، وما كانوا مهيينين له.

خامساً: لعل التحقيق الخلدوني كان هو الأدق ، وكان هو الموضوعي ، وكان هو للكاشف
للحالة التعصبية المتسجنة لدى أصحاب المذهب التوقيفي في مسألة الرسم العثماني.

هؤلاء التوقيفيون الذين رأوا بأن الخط كمال مطلق يحدّد ذاته ، وأن فقدانَه يترك فيه
العيوب والنقص ، حتى أنهم صوّبوا من أخطأوا فيه.

فالخط في نظرية ابن خلدون ، لم يتوفر فيه الإتقان والأحكام ، ولم يمتلك الجودة
والنضج في عصر صدر الإسلام. وذلك لبداءة العرب وبعدهم عن أسباب الحضارة.
واقفّى التابعون من السلف ما رسمه الصحابة تركاً وتيمناً باعتبار أن الصحابة هم
خير خلق الله بعد الرسول ﷺ .

وإذ بابن خلدون يتهم أولئك الذين اعتقدوا بامتلاك الصحابة للاحية للخطوط ، وأنهم
أجانبوا الرسم ، وأحكموا الخط والشكل ، إذا به يتهمهم بالغفلة والقصور والتعصب.
فالخط في نظرية ابن خلدون ، ليس كمالاً في الصحابة ، لأنه من جملة الصنائع
المدنية المعاشية ، والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق.

ألم يكن النبي ﷺ أمياً؟

أل تكن الأمية كمالاً ﷺ في حقه ومقامه لأنه منقطع إلى ربه ، بينما هي نقص في حقنا لأننا متعاونون على الحياة الدنيا ، ومتعاونون على الصنائع العملية لأنه لا حياة بدون هذا التعاون.

وكيفما انقلب الأمر ، فالإخلال ببعض قواعد الخط والإملاء لا يضرهم بمقامهم شيئاً ولا ينال من كرامتهم في حال.

المسألة من أولها إلى آخرها هي إمكانية الصحابة في الخط ومقدورهم على الرسم والهجاء.

وإذا كانت للصحابة المكانة المرموقة في نفوسنا من حيث أسبقيتهم الإيمانية والجهادية فلا يذهبن بك اللحن على أنهم كلمة في الصنائع العملية والفنية لينقلب خطهم متقناً ، ورسمهم كاملاً ولا تعقيب عليه. ولئن كانت لهؤلاء الصحابة المنزلة الرفيعة في ميزاننا فلا نعي أن لا نبادر إلى تحطنتهم في الخط إن أخطأوا ، ولعل ذلك لا يتفق مع تعاليم الإسلام وتوجيهاته.

بهذا الذي قرره ابن خلدون كان جريئاً واعياً ، وكان واقعياً موضوعياً ، وكان صريحاً وواضحاً للأمور في نصايها رغم أنه من أصحاب النقل لا العقل في مثل هذه الشؤون حيث قال بعجز العقل عن إدراك الجواهر والطبائع ، واقتصره على إدراك الظواهر.

سادساً: ونجاح أي نجاح ، قد أصاب قول البيهقي بأن ما لم يفرض فيه أمر ، لا يستنبط منه حكم ، وما لا وجه له لا يحدّد بوجه مخصوص.

لقد قلل بأنه ليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه ، ولا في نص السنة ، ولا في إجماع الأمة ، ولا في القياسات الشرعية أثر يقول بأن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحدّ محدود لا يمكن تجاوزه.

وكيف ذلك وكثير من حروف المصحف المختلفة الشكل والرسم ، والذاس قد أجازوا أن يكتب كاتب بما هو استعداده من غير تأنيب أو تنزيه؟ إن نظرية البيهقي التي تقول بجواز كتابة المصحف بأيّ خط اتفق طالما تلك الكتابة تنل على ألفاظ القرآن ، وتصح عن قراءته ، ولا تتعارض مع نطقه. هذه النظرية هي على قوة حجة ، ووضوح موقف ، وتذهب مذهب الصواب.

ما أشدَّ تهافت مغفلة القسطلاني وتساقطها!

كيف يصح له ولأمثاله القول بأن رسم المصاحف موافق لقواعد اللغة العربية ، إلا أنه قد خرجت أشياء عنها ، يجب علينا اتباع مرسومها ، والوقوف عند رسومها؟ بل كيف يعلم موقفنا حين نتبع الأخطاء الإملائية؟

وإنها لمغالاة وتطرف ، وإنه لهوس في الموقف ، ونزوة في العاطفة ، وتقديس بلا مبرر ، فالقرآن بإعجازه وتحتيته هو بمعانيه وألفاظه ، بمقاصده ومراميه ، لا برسمه وإملائه. ماذا يلزم في القرآن من ضير أو غضاضة لو كتب بأي خط أو هجاء طالما لفظه واحد، ونطقه واحد؟ فالقرآن لم يرسم برسمه ، ولم يوضع بشكله ، إلا لأن ذلك هو المعروف والمتداول في العصر الأول.

فاليبهيقي وأضرابه من الذين قالوا بأن كل من كتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا فيه المصاحف لأنهم أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استزاداً عليهم ، فاليبهيقي وأضرابه هؤلاء ليسوا على الوعي المأمول ، ولا على العقلانية المرتجاة ، إنما يخبطون خبط عشواء ، ويتيهون ضياعاً في حمى التزمّت والانغلاق ، حيث لا يقدرون الأمور حق قدرها.

هؤلاء لا يكرّمون للصحابة ، إنما ينالون منهم حين يقصرون الرسم المصحفي على رسمهم له ، رغم ما كان عليه هذا الرسم من أخطاء ومعائب! إن الغرض من كتابة القرآن أن نقرأ صحيحاً لنحفظه صحيحاً ، فكيف نكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب؟ وما الحكمة أن يفقد كلام الله بخط لا يكتب به اليوم أي كتاب على حد ما يقولونه الزيات الأديب والمفكر؟

وينتبه بنا للقول في رسم المصحف على إيجاز بأن الرسم القرآني اصطلاح لا توقفي ، لذلك نقول بالناية الفنية ، والرعاية التنموية التطويرية في رسم القرآن ، وإتقان الخط والرسم لينحول إلى الطباعة التي تسرع بنشره في العالم كله ليحتفي به على غير حدود

وبعنى به دون شروط إن في الكتابة والشكل والرسم ، وإن في التلاوة والحفظ والطباعة
والنشر إنه لكتاب تنزل من حول العرش ، فالأرض به كواكب ، والسماء به آيات كتاب:
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: الآية-٤٢] .

ضبط كلمات القرآن الكريم:

□ تعريف الضبط:

الضبط لغة: هو بلوغ الغاية في حفظ الشيء.
والضبط اصطلاحاً: هو علم يستدل به على ما يعرض للحرف من حركة وسكون
وشدّ ومدّ ونحر ذلك ويرادفه الشكل.
□ للنقط:

يقسم إلى نوعين اثنين: نقط إعراب ، ونقط إعجام.
— نقط الإعراب: هو ما يدل على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون أو شدّ أو
مدّ أو غير ذلك وهو بهذا المعنى مساوٍ للضبط والشكل.
— نقط الإعجام: هو ما يدل على ذوات الحروف تمييزاً لها عن بعضها إذا اتّحدت
صورها كالباء والطاء والحاء والخاء والذال والذال ، أو تغايرت كالفاء والقاف والنون والياء ،
فيكون النقط حينئذٍ فرقاً بين معجمها ومهلها.

❖ علامات الضبط خمسة:

إن العلامات التي تضبط بها الكلمات هي خمس:

◀ أولاً: الحركة.

◀ ثانياً: السكون.

◀ ثالثاً: الشدّ.

◀ رابعاً: المدّ.

◀ خامساً: الهمز.

كل واحدة من هذه العلامات عند الضبط بها كيفية مخصوصة ووضع مخصوص ،

ولون مخصوص.

◀ أولاً: الحركة

الحركة ثلاثة: فتح - ضم - كسر .

— الفتح: هي ألف صغيرة مبطوحة ممتدة من اليمين إلى اليسار وتوضع فوق الحرف المحرك بها وإنما كانت مبطوحة لنأخذ ثلاثين بالألف التي هي أصلها — وكانت صغيرة لتفريق بينهما — ولتظهر مزية الأصل على الفرع.

— الضمة: واو صغيرة وتوضع فوق الحرف المحرك بها ، وقيل أمامه.

والمختار: الذي عليه العمل هو الأول في كل من الفتح والضمة.

— الكسرة: هي ياء مردودة إلى خلف ، وهي الياء المقصورة ، وتوضع تحت الحرف المحرك بها.

وهذه الحركات الثلاث تشمل ضبط كل محرك سواء أكانت حركته حركة إعراب أم بناء أم نقل أم تخلص من التقاء الساكنين ، وإلى ذلك أشار الخراز في متن الذيل:

القول في أحكام وضع الحركة	في الحرف كيفما أنت محررة
فتحة أعلاه وهي ألف	مبطوحة صفر وضم يعرف
واو كذا أمامه أو فوقاً	وتحت الكسرة ياء تلقى

ثانياً: السكون

واختلف علماء الضبط: هل يفتر السكون إلى علامة تدل على سكونه أم لا؟

ذهب بعض من نقّط العراق إلى عدم احتياج الساكن إلى هذه العلامة ، وذهب غيرهم إلى القول باحتياجه إلى علامة تضبطه ، واختلف القائلون بذلك في علامته وموضعه.

ذهب أبو داود في اختياره إلى أنه دائرة [طقة] صغيرة توضع فوق الحرف الساكن منفصلة عنه [لأنه] نشرح لك صترك] وهو مذهب أكثر نقّط المدينة ، وعليه العمل عند المغاربة وبعض المشارقة.

واختلف في أصل مأخذه على هذا المذهب:

لو قيل: أخذ من دائرة صغيرة وهي الصفر عن علماء الحساب إذ الأصل في موضعه بين العددين الدلالة على خلو منزلته من العدد ، فكذاك علامة السكون على الحرب للدلالة على خلوّه من الحركة.

وذهب الخليل بن أحمد وأصحابه إلى أن علامته رأس جيم أو حاء أو خاء توضع فوق الحرف المسكن منفصلة عنه [ألم تشرح لك صدرك] وعليه العمل عندنا.

واختلف في أصل مأخذه على هذا المذهب:

ف قيل: رأس جيم أخذت من لفظ جزم ، ولعل ذلك أن الجزم معناه القطع ، وفي السكون قطع الحركة عن اتصالها بالحرف.

وقيل: رأس حاء من لفظ استرح إذ في النطق بالسكون راحة عن نقل النطق بالحركة.

وقيل: رأس خاء من خفيف إذا الساكن أخف من المتحرك.

وذهب بعض أهل المدينة وبعض النحاة إلى أنها هاء مشقوقة [هــ] مستديلة بأن السكون والهاء من خواص الوقف.

وممن من قال: علامته جرة صغيرة هكذا: إذ معنى قولهم: إلا أنهم أسقطوا رأس الخاء وأبقوا مطتها ، وهذا مذهب نقاط الأندلس ، كأنهم أرادوا مذهب الخليل فأسقطوا رأس الخاء وأبقوا جرتها ، وقد يحسن هذا مع نقط أبي الأسود الدؤلي.

والسكون إن كان أصلاً في الوقف فإن الهاء تزداد وقفاً للسكت في نحو: بم — لم — فيم — عم — كتابي — مالي.

ويختلف وضع علامة السكون باختلاف صفة الحرف إظهاراً وإدغاماً ، وغير ذلك.

« ثالثاً: الشذوذ »

والذي ينبغي ملاحظته أنه لم يخالف أحد ممن يؤخذ برأيه من علماء الضبط بأن انحرف المشدد يفتقر إلى علامة تدل على تشديده سوى نفرٍ من أهل العراق ذهبوا إلى أنه لا علامة للشذوذ ، لكنهم رغم ذلك فاتهم بضبطون المشدد ويتركون غيره [الحق أحق أن يتبع] ، وأنكر هذا جمهور المحققين. وقد اختلف علماء الضبط في صورة علامة الشذوذ وموضعها.

فالخليل بن أحمد وأصحابه ونقاط المشرق ذهبوا إلى أنها رأس شين غير معرفة ولا منقوطة توضع فوق الحرف المشدد [أنه تعالى جد ربنا] وهي مأخوذة من كلمة شديد ، وكأنهم استغنوا بالحرف الأول عن بقية الكلمة على حد قول الشاعر:

نادوهم إذ أنجموا الاتا قالوا جميعاً كلهم ألقا

يريد في الشطر الأول: ألا تركبون ، وفي الشطر الثاني: ألا فاركبوا ، فاكتفى بالحرف الأول فيهما عن الكلمتين.

واختار هذا أبو داود لمن يضيبط بالحركات المأخوذة من حروف المد لكون مخترعهما واحداً هو الخليل بن أحمد ، وعليه للعمل.

ولا يكتفي بوضع علامة التشديد فوق الحرف المشدد بل لا بدّ معه من الحركة التي يستحقّها من فتح وضم وكسر.

وعلى المذهب الراجح من وضع الفتحة والضمة فوق الحرف المحرك بهما اختلف في موضعهما من التشديد ، هل توضعان فوقه أو تحته؟

ذهب الداني ومن معه إلى أنهما يوضعان فوقه [الله وليّ الذين آمنوا] وعلى ذلك العمل.

ومبرّر هذا: أن كلاً من للفتح والفتح ، لما تواردا مع التشديد على محل واحد من الحرف ودلت الحركة على التحريك فقط ، ودلت علامة التشديد على التحريك والتشديد استوجبت لزيادة مزيّتها اقرب من الحرف.

وأما الكسرة والضمة يجعلها أمام الحرف فلم يتوارد على محل واحد من الحرف ، جعلت للضمة أمام الحرف مجاورة للتشديد ، وجعلت للكسرة تحته [هو الحق مصدّقاً].

والقول بوضع للكسرة فوق الحرف وتحت الشدة [مصدقاً] هو قول ضعيف.

وذهب نقاط المدينة وتبعهم نقاط الأندلس إلى أنها دال قائمة الجناحين توضع فوق الحرف إن كان مفتوحاً ، ومنكّسة إلى أسفل إن كان مضموماً ، وتحتة منكّسة إن كان مكسوراً [الحق من ربك].

ومأخذها على هذا المذهب من دال شد ، ورجحوه على الشين لأنه ينكرار الدال يوجد ثلث الكلمة وللاكثر حكم الكل واختاره الداني.

أقوال:

— الأول: الاختصار على علامة التشديد ، إذ في وضعها وصورتها بيان للمراد من الحركة والتشديد. واختار هذا أبو داود مستدلاً بأن الأصل عدم وجود هذه الأشياء في المصاحف القديمة ، وقد حدثت للبيان ، وما يحصل للبيان يستغنى عما سواه.

— الثاني: الجمع بينهما تأكيداً للبيان ، وعلى هذا القول توضع علامة الشدة في أي جهة من الحروف سواء كان مرفوعاً أم مفتوحاً أم مكسوراً.

— الثالث: التفصيل بين أن يكون الحرف المشدّد آخر كلمة أو لا ، فإن كان آخر كلمة جمع بينهما لأن الأطراف محل للتغيير ، وإن لم يكن آخر كلمة اكتفى فيه بالشّد [الله ولي الذين آمنوا — أنت ولي في الدنيا والآخرة] واستحسنه الداني وإلى ذلك الإشارة بقوله:

والتشديد حرف الشين	
أمامه أو تحته أو أعلاه	ويجعل الشكل كما قلناه
يكون إن كان يكسر أسفله وفوقه	وبعض أهل الضبط دالاً جعله
يكون لا امتراء من أمامه	فتحاً وفي انضمامه
وفي سوى الأعلى منكسار	طرفاه فوق قائمان
منزلها والبعض منهم لشكلا	من غير شكل لما تنزلا

٢٠ رابعاً: المدّ

المدّ: وفي المدّ اختلف علماء الضبط ، هل يفتقر الحرف الممنود إلى علامة تدلّ على مدّه أم لا؟

وزهد نفاط العراق إلى عدم احتياجه إلى ذلك اكتفاءً بقيام سبب المدّ من همز أو سكون مقام العلاقة الدالة عليه.

وزهد الجمهور إلى إنكار ذلك ، وقالوا بأنه لا بدّ للممنود من علامة تدلّ عليه. بناءً على ذلك فعلاية المدّ جرّة بأخرها ارتفاع قليل [٧] وتوضع فوق حرف المدّ إذا جاوره همز أو وقع بعده سكون تتبهاً على مدّه ، زائداً على مقدار المدّ الطبيعي^٢.

^١ سواء تقدم عليه مثل: امن أو تأخر عنه متصلاً بحرف المدّ مثل: جاء أو منفصلاً عنه مثل: يجوز أنصار الله.

^٢ ومقداره حركات الحركة الأصغر كـ عر، عر، ف.

وهي مأخوذة من كلمة مذ بعد طس ميمها وإزالة الطرف الأعلى من داتها.

وتجعل علامة المذ منفصلة عن كل حرف من حروف المذ الثلاثة التي يجمعها لفظ (أنوحيا) ، وهي الألف ، ولا يكون قبلها إلا مفتوحاً ، والواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها وإختلف في وضع العلامة من حرف المذ على مذهبين:

— الأول: أن يكون وسط العلامة مقابلاً لحرف المذ منفصلاً عنه.

— الثاني: أن يكون بدء العلامة مقابلاً لحرف المذ ماراً به إلى ما بعده.

والمحققون على المذهب الأول ، واختاره أبو داود وعليه العمل ، وإلى ذلك الإشارة بقوله:

وفوق واو ثم ياء وألف	
وساكن أدغم أو إن أظهر	مطّ لهمز بعدها تأخر
في مذّه ونحو ولو السوء	كذا الورش مثل ياء شيء
ألحقها حمرا لجعل للمطّ	وإن تكن ساقطة في الخط

« خامساً: الهمز »

وينحصر الحديث عن الهمزة:

— أولاً: في هيئة الهمزة وصورتها.

— وثانياً: في لونها.

— وثالثاً: في موضعها وحركتها.

• هيئتها: اختلف أهل الضبط فيها على مذهبين:

— الأول: أنها نقط منور كنقط الإعجام [.] ، سواء كانت محققة أم مخففة.

وإليه ذهب نقّاط المصاحف ، ووجهه بأنها تقتصر غالباً إلى ما تصوّر به ، فأشبهت الحركات في عدم مفارقتها للحروف ، وإلى ذلك الإشارة بقوله:

أعمر لغة بمعنى الضبط والدفع ويستعمل مصدرًا بمعنى القفل بالهمزة. يقال همزة تكلمة إذا نُطقت فيها همزة. ونسبت كذلك لاحتياجه عند القفل به إلى ضغط الصوت ودفعه لإسراجه من أقصى الحلق واضرر والشر مترادفان عند سبويه والجمهور. وقال الخليل وجماعة التبر اسم للهمز الحنف. وهل همز حرف أو لا؟ الصحيح أنها حرف ، وإن لم توضع له صورة ، خلافاً لعمود فيها عده من قبل مشكل والضبط.

القول في الهمز وكيف جعلنا
محققاً ورد أو مسهلاً
فضبط ما حقق بالصفراء
نقط وما سهل بالحمراء

— الثاني: أنها عين صغيرة [ع] ، وهو مذهب النحاة وكتب الأمراء.

ووجهه بأن يستدل على موضع الهمزة من الكلمة بالعين فيقال في رأس وسأل: رعى وسعل والعمل في أيامنا على تصويرها رأس عين صغيرة [ء] إن كانت محققة ونقطاً مدوراً [.] إن كانت مخففة بالتسهيل بين بين ، أو بالإبدال حرفاً محركاً دون ما خفف منها لإسقاط أو بالنقل أو بالإبدال حرف مد على ما سيأتي في بحث ضبط المهموز من المقصد الثاني.

• لونها: أما لونها فيتبع حالها ، وذلك أن الهمزة لا تخلو: إما أن تكون محققة أو مخففة.

فإن كانت محققة صورت بمداد أصفر حيث جاءت ، أولاً ، أو وسطاً ، أو طرفاً نحو [إنا برؤاء منكم] وكيف صورت ، ألفاً ، أو واواً ، أو ياء نحو [بدأ — موجلاً — لئلا] جعلت لها صورة أم لا [بالمؤمنين رؤوف رحيم] سواء سكت نحو ، سواءك أو تحركت بأيّة حركة نجد: [إنا وجننا أباناً على لمة] جاء مفردة كما تقدم ، أم مجتمعة مع غيرها في كلمة أو في كلمتين: [أنذرتهم ، جاء أمرنا].

وإن كانت مخففة فإما أن يبقى أثرها أو لا.

والأول نوعان: المسهلة بين بين ، والمبدلة حرفاً محركاً.

والثاني ثلاثة أنواع: المحذوفة والمنقولة والمبدلة حرف مد.

وضبط الأول تصوير الهمزة بالأحمر^١ وعدم تصوير الهمزة في الثاني لعدم وجود الهمزة عند الحذف ، ولذاهاها بالنقل إلى حرف آخر ، ولأن المبدلة حرف مد أصبحت بهذا الإبدال أجنبية عن الهمز.

• موضعها وحركتها: سنظم بالحديث عنهما في بحث ضبط المهموز.

■ بيان ضبط ما يضبط من الكلمات.

■ لهذا الموضوع مباحث مختلفة.

^١ ونسب اليوم على رسمها بقلم دقيق نظراً لحال الطباعة وعدم إمكان ذلك.

— أولاً: كيفية ضبط المحرك.

— ثانياً: كيفية ضبط الساكن و المشد.

— ثالثاً: كيفية ضبط الممدود.

— رابعاً: كيفية ضبط المختلص والمشم والممال.

— خامساً: كيفية ضبط المظهر والمدغم والحرف الواقع بعدهما.

— سابعاً: ضبط المهموز.

— ثامناً: ضبط ألف الوصل والابتداء بها.

— تاسعاً: ضبط ما حذف رسماً.

— عاشر: ضبط ما زيد رسماً.

— عاشراً: مبحث في أحكام اللام ألف.

— أولاً: كيفية ضبط للمحرك:

ويقصد بالمحرك هو ما خلصت حركته ، ولم يكن مهموزاً ، وذلك لإخراج حركة المشم والممال لأن حركتهما ليست خالصة.

وقد سبق الحديث في مبحث الحركة أن الفتحة هي ألف صغيرة ، وأن الضمة وإو صغيرة ، وأن الكسرة ياء صغيرة. كل واحدة من هذه الحركات الثلاث توضع منفردة في ضبط الكلمة إن لم يلحقها تنوين ، فإن لحقها تنوين زيد عليها مثلها ، حيث يضاف إلى الفتحة فتحة ، وإلى الضمة ضمة ، وإلى الكسرة كسرة لبيان أن بعد الحركة نوناً صغيرة تسمى تنويناً: كما ورد للفرار:

تمت إن أتبعته تنويناً فرد إليها مثلها تنويناً

والفرق بين نون التنوين والنون الأصلية أن التنوين يأتي بعد تمام الكلمة ، والنون الأصلية تجيء أولاً ووسطاً وطرفاً. ولما كان الفرق بينهما لفظاً فرقوا بينهما خطاً ، فرسموا النون الأصلية نون نون التنوين ، ولما لم ترسم نون التنوين احتيج إلى علامة تذكّر عليها ، فركزوا الحركة التي قبلها للدلالة عليها. وكان الأولى أن يثبت عليها بالسكون لسكونها ، لكن الناقط الأول لم يضع للسكون علامة اكتفاء بترك العلامة في الدلالة عليها ، وقد سمّي ما يلحقه التنوين منوناً [طبيعاً — حكيماً].

أما المنون فهو إما أن يكون مقصوراً نحو: قرى — مفتري — فتى ، وإما أن يكون غير مقصور: فإن كان غير مقصور ، فلإما أن يرسم ألفاً نحو: [عليماً] ، وإما أن لا يرسم ألفاً وهو ثلاثة أنواع:

— الأول: ما آخره همزة وقبلها ألف ماء — افتراء.

— الثاني والثالث: نحو رحمة وهو مما ختم بئاء تأنيث ونحو رحيم.

وإن كان مما رسم ألفاً [عليماً — حكيماً] ففي ضبطه أربعة مذاهب:

— المذهب الأول: أن توضع علامتا للحركة والتنوين فوق الألف منفصلتين عن [عليماً].

هذا المذهب هو مذهب نقاط المدينة والكوفة والبصرة ، وبه عمل المغاربة.

— المذهب الثاني: أن توضع العلامتان فوق الحرف قبل الألف [عليماً] ، وهذا هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره بعض المشركفة ، وعليه العمل في أيامنا.

— المذهب الثالث: أن توضع علامة الحركة على الحرف وعلامة التنوين على الألف.

— المذهب الرابع: أن توضع علامة الحركة على الحرف ثم تعاد مع علامة التنوين على الألف ، والمذهبان الأخيران ضعيفان.

وإن كان من نوع: ماء وافتراء ففي ضبطه ثلاث مذاهب:

— الأول: أن تجعل الهمزة بعد الألف ، وعلامتا النصب والتنوين فوقها ، ولا يلحقها شيء [ماء].

— الثاني: جعل الهمزة بعد الألف وبعدها ألف صغيرة ملحقة بها وتوضع العلامتان على الألف الصغير [ماءاً].

وقد اصططح المتقدمون على تصوير هذه الهمزة بمداد أصفر ، وبعدها ألف صغيرة فوقها العلامتان على ما ذهب إليه أبو محمد اليزيدي ، والذي عليه العمل في عصرنا تصويرها بقلم دقيق نظراً لحال الطباعة الآن.

— الثالث: زيادة قبل الألف ألف صغيرة والهمزة بينهما وفوقها العلامتان [مناً] في صورة [ماء] على هذا المذهب ألفان ، الأولى صغيرة وهي الواقعة قبل الهمزة وقد اصططح المتقدمون على تصويرها بمداد أحمر ، والألف الثانية الواقعة بعد الهمز والمبدلة من

التنوين وهى المعروفة عندهم بالكحلاء ، ولعلها سميت بذلك لتصويرها سوداء بمداد المصحف ، ولا يخفى عليه العمل اليوم نظراً لحال الطباعة وهو رسمها بقلم دقيق.

وإن كان مقصوراً ، أى كل اسم منون كتب ألفه ياء ، فحكمه في الضبط أن تجري فيه المذاهب الأربعة التي في نحو [عليما] ، ومثله [من ربا] بالروم على القول بكتابتها بالواو وشذوذاً ، سواء أكان مرفوعاً [سحر مفترى] أو منصوباً [سمعنا فتى] أم مجروراً [في قرى محصنة] ، والذي عليه العمل في المقصور هو ما عليه العمل في [عليما].

وإنى ذلك لشار الخراز بقوله:

وإن تقف في النصب	هما عليه في أصح الكتب
سواء إن رسم أو إن جاء	وهو ملحق كنحو ماء
وإن يكن ياء كنحو مفترى	هما على الياء كذا النص سرى

وقد أجزوا نون التوكيد في [ليكونا ، ولنسفن] ونون [إذا] الجوابية مجرى التنوين ، وذلك لمشابهتهما للتنوين في وقوعها طرفاً ساكنين ولإبدال نون التوكيد ألفاً ونون إذا ألفاً في الوقف كتبنا ألفاً لذلك.

ثم اعلم أن حروف الهجاء ، إما أن تقع بعد تنوين وإما أن تقع بعد نون ساكنة أصلية، فإن وقعت بعد تنوين فذلك التنوين إما أن يتحرك بالكسر تخلصاً من التثنية ساكنين أولاً ، فإن لم يتحرك لذلك فإما أن يقع بعده حرف من حروف الحلق أو حرف من حروف [يرملون] أو الباء ، أو حرف من حروف الإخفاء الخمسة عشر عند الجمهور. فإن وقع بعده حرف من حروف الحلق للمنة التي هي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء فحكم حركته عند الجمهور التركيب مطلقاً.

• التركيب: هو جعل علامة التنوين مع علامة الحركة فوق المنون واحتمل أن تكون العليا للتنوين وأن تكون السفلى [سمياً – عليماً – قوم – هاد – حكيم – عليم].

أما وجهه فهو أنه لما بعد مخرج التنوين عن مخرج حرف الحلق في اللفظ ، إذ هو من طرف اللسان وذاك من الحلق جاء الضبط بالتركيب للإشارة إلى تباعدهما خطأ كما تباعدا لفظاً. وإن لم يقع بعده حرف من حروف الحلق فحكمها الاتباع إجمالاً.

- **الاتباع:** هو جعل العلامتين متتابعتين بحيث تكون علامة للتونين أمام علامة الحركة ،
والأخيرة منهما للتونين [قوماً صالحين – عليك معتكز – عليم قدير].

ووجهه أن بقية حروف الهجاء لا تبعد عن مخرج للتونين بعد حروف الحلق ، إذ تلك الحروف منها ما يدغم ومنها ما يخفى ومنها ما يقلب ، فجاء الضبط بالاتباع للإشارة إلى أن اتباع علامة التونين لعلامة الحركة تقريب له من تلك الحروف خطأً كقرب مخرجها لفظاً.

- وأما حكمها تفصيلاً: فينحصر الكلام فيه في ثلاثة أشياء ، وذلك لأنه إما أن يقع بعد التونين حرف من حروف [يرملون] أو [الباء] أو حرف من حروف [الإخفاء] والخمسة عشر عند الجمهور ، وعند أبي جعفر سبعة عشر بإدخال الغين والخاء.

فإن وقع بعده حرف من حروف [يرملون] فإما أن يدغم فيما بعده إدغاماً تاماً تذهب معه ذات الحرف وصفته ، وإما أن تدغم إدغاماً ناقصاً تذهب معه ذات الحروف دون صفته. فالأول في حروف [ترمل] وقد عبروا عن هذا بحروف [لم نر] ونحن نستحسن هذا لسهولة، والثاني في حرفي [وي] ، فإذا وقع بعده حرف من حروف [ترمل] فضبطه وضع علامة التشديد مع حركة الحرف فوق المدغم فيه حيث لا سبب يبرر تركها [يومئذ ناعمة – غفور رحيم – هدى للمتقين – هدى من ربهم].

والشذ بعد في هجاء لم نرى وغيره فعره كيف جرى

ووجهه التنبيه على إدغام للتونين فيما بعده إدغاماً تاماً بحيث صار من جنس ما بعده، وإذا وقع بعد أحد حرفي [وي] أو بعد حرف من بقية حروف الهجاء ، سوى [ترمل] فضبطه أن يعرّي من علامة التشديد دون الحركة سواء أكنن مما يظهر عنده للتونين كحروف الحلق أم مما يقلب عنده وهو الباء أم مما يخفى كحروف الإخفاء ، لم مما يدغم فيها إدغاماً ناقصاً محرفي [وي] أما ضبطه على قراءته فكضبط حروف [ترمل] بعد التونين [قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى].

فإن وقع بعده باء ، ففي ضبطه وجهان على الاختيار:

- الوجه الأول: جعل علامتي التونين والحركة متتابعتين [وإله عليم بذات الصدور].
- الوجه الثاني: وضع ميم صغيرة عوضاً عن علامة التونين تنبيهاً على قلبه ميماً عند الباء [وإله عليم بذات الصدور].

وعوض إن شئت ميمًا صغرى . منه لباء إذ بذلك يقرأ

وقد اقتصر الداني على الأول واختار أبو داود الثاني وعليه العمل.

وقد ذهب بعض المشارقة إلى الخلط بين مذهبي الداني وأبو داود فوضعوا ميمًا صغيرة على لباء [عليهم بما] وهو ضعيف لأن الميم وضعت عوضاً عن التنوين ولا يجمع بين العوض والمعوّض وإن وقع بعد حرف من حروف الإخفاء فقد علمت من سبق أنه يعزى من علامة التشديد وأن الحركتين حينئذٍ بالاتباع [قوماً صالحين].

أما إذا تحرك للتنوين بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين [محظوراً انظر] فالعمل عند محققى المتأخرين على التركيب إلا في [عاداً الأولى] [للنجم: الآية-٥٠] ، على قراءة نافع ومن وافقه فيالاتباع لإدغام التنوين على قراءتهم وعدم تحرك التنوين.

وإن وقعت حروف الهجاء بعد نون أصلية ساكنة فلباء:

أن يقع بعدها حرف من حروف الحلق أولاً:

فإن وقع بعدها حرف من حروف الحلق: فضيبتها وضع علامة السكون عليها إذ حكمها الإظهار واللسان يقرعها عند التلظظ بها فكان ضيبتها بالسكون منبهاً على بعد مخرجها عن مخارجهم ، وفرع اللسان لها ولا فرق بين أن تكون النون مع حرف الحلق في كلمة نحو [مذه وعنه] أو في كلمتين [من علم] ونحو [من آمن] عند غير ورش.

أما عنده فضيبتها بالحركة دون السكون لتحركها بالنقل على مذهبه ونحو [من غل — ومن خير] عند غير أبي جعفر في كل نون ساكنة وقع بعدها غين أو خاء.

أما عنده فضيبتها بتعريفها من السكون كما إذا وقع بعدها سائر حروف الإخفاء ، وإن لم يقع بعدها حرف من حروف الحلق فضيبتها إجمالاً تعريفها علامة السكون دلالة على عدم قرع اللسان لها إذ لا وجود لها في اللفظ وصلاً لأنها إما مدغمة أو مقبوبة أو مخفأة والضيبط إنما ينشأ على الوصل بخلاف الرسم فإنه مبني على رعاية البدء بالكلمة والوقف عليها كما مر.

• ولما تفصيلاً: فالواقع من بقية حروف الهجاء بعد النون الساكنة ، إما حرف إقلاب وهو [لباء] لا غير وإما أحد حروف الإدغام [يرملون] ، إما أحد حروف الإخفاء الخمسة عشر على رأي الجمهور فإن وقع بعدها لباء ففي ضيبتها مذهبان:

— المذهب الأول: تعريتها من السكون [منبتاً — أن بورك] واختاره الداني.
— المذهب الثاني: وضع ميم صغيرة مكان للسكون إشارة إلى قلبها [منبتاً — أن بورك] واختاره أبو داود عليه العمل.

لقد كانت ميماً لقرب مخرج الميم من الباء ، ولمواخاة الميم للتونين في الغنة. وذهب بعض المشاركة إلى التفتيق بين مذهبي الداني وأبي داود مجمع بين علامتي السكون والإقلاب [أن بورك] ولا يؤخذ به لأنه جمع بين العوض والمعوّض.
وإن وقع بعدها حرف من حروف [يرملون] فإما أن تدغم فيه إدغاماً تاماً كحروف [يرمل] وإما أن تدغم إدغاماً ناقصاً محرفي [و ي].

فإن وقع بعدها ما تدغم فيه إدغاماً تاماً كحروف [يرمل] فضبطها بتعريفها من السكون وتشديد ما بعدها ووضع علامتي التشديد والحركة عليها [من مأل الله — من ناصرين — من رزق — من لذلك رحمة].

ومثل ذلك إذا وقع بعدها أحد حرفي [و ي] عند خلف من روايته عن حمزة — لعدم بقاء الغنة عند الواو أو الياء. وإن وقع بعدها ما تدغم فيه إدغاماً ناقصاً: وهو الواو والياء في لفظ [و ي] عند غير خلف من روايته المذكورة ، ففي ضبطه وجهان على للتخيير:

— الوجه الأول: أن توضع علامة التشديد على الواو والياء للدلالة على إدغام النون فيهما ، وتوضع علامة للسكون على النون للدلالة على أن الإدغام فيهما ناقص لبقاء غنة النون [من يقول — من وآل] وعليه عمل المقاربة.

— الوجه الثاني: تعرية النون من السكون للدلالة على إدغامها فيما بعدها ، وتعرية الواو والياء من علامة التشديد دون الحركة للدلالة على أنها لم تدغم فيما بعدها إدغاماً تاماً [من يقول — من وآل] وعليه العمل عندنا.

واعلم أن هذين الوجهين فيما إذا كانتا من كلمتين ، إما إذا كانتا من كلمة واحدة [الدنيا — وقنوان] فضبطها كما إذا وقع بعدها أحد حروف الحلق لإظهارها.

وإن وقع بعدها أحد حروف الإخفاء: فضبطها عند الجمهور بتعريفها من السكون ، وتحريك الحرف الذي بعدها بحركته [أن صدّوكم — ينصركم الله] وكذلك نحو [من غل] ومن خير عند أبي جعفر لألّهما من حروف الإخفاء عنده ، وإلى ذلك أشار بقوله:

وَحَكَمَ نُونٌ سَكَنَتْ أَنْ تَلْقَى	سكونها عند حروف الحلق
وَعِنْدَ كُلِّ سِوَاهُ تَعْرِى	وإن نشأت صوّرت فيها صغرى
مَنْ قَبْلَ بَاءٍ ثُمَّ شَدَّ يُلْزَمُ	في كل ما التّونين فيه يدغم
وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ إِذَا أَبْقِيَتْ	غَنَّتْهُمَا عِنْدَهُمَا اثْبَتَا
عَلَامَةُ التَّشْدِيدِ وَالْمَكُونِ	إن شئت أو عرهما والنونا

— ثانياً: كيفية ضبط الساكن والمشدّد:

واختلفت مذاهب علماء الضبط في وضع علامة السكون على الساكن من الحروف وأشهرها مذهبان:

— المذهب الأول: أن توضع علامة السكون على المظهر إشعاراً بأنه مظهر ، وإن اللسان يقرعه [من آمن — من عمل صالحاً فلنفسه] وأن يعرى ما عداه من الحروف سواء أكان مدغماً أم مخفياً للدلالة على إدغامه أو إخفائه [إن ينصركم الله فلا غالب لكم].

— المذهب الثاني: أن توضع على جميع الحروف الساكنة من غير استثناء نحو [إن أنت إلا نذير] والعمل على الأول.

وهناك مذهب آخران منهما من يضعها على الجميع مع تمييز علامة سكون الممدود عن سكون غيره ، ومنهما من يعرى حروف المد دون غيره.

— المذهب الثالث: كيفية ضبط الممدود.

- علامة المد: هي جرة بأخرها ارتفاع قليل توضع حرف المد إذا جاوره همز أو وقع بعده سكون تنبيهاً على مدّه زائداً على مقدار المد الطبيعي.

وتختلف كيفية ضبط الممدود تبعاً لاختلاف حالة المد ، وذلك أن حرف المد إما أن يكون ثابتاً رسماً نحو [جاء — والحاقة ما الحاقة] أو غير ثابت رسماً نحو [شفعوا — والظعن]. فإن كان ثابتاً رسماً فإمّا أن يجاوره همز أو يقع بعده سكون. فإن جاوره همز فإمّا أن يتقدم الهمز على حرف المد أو يتأخر عنه.

فإن تقدم الهمز على حرف المد نحو [أمن وإيماناً وأوتوا] فلا توضع علامة المد على حرف المد إلا عند إشباعه فقط لورش — ولم توضع في حالة للتوسط حتى لا يلتبس بحالة الإشباع لورش.

وقد أجزوا هذا الحكم أيضاً في حرف اللين كياء شيء وواو سواؤنكم والسموء حالة الابتاع لورش . وإن تأخر الهمز عن حرف المد - فإباً أن يقع معه كلمة ، وذلك نوعان :
 ما حقق همزة نحو [جاء وجئ وقرء] .
 وما غير همزة بالتسهيل وهو اللاني عند من سهل همزة ، أو بالحذف نحو [هؤلاء إن - أولياء أولئك - إذا شاء أنشره] عند من أسقط أولى الهمزتين المتلاصقتين مع وجه المد .

وبما أن تقع الهمزة في كلمة والمد في كلمة أخرى نحو [قالوا أنا - وفي أنفسكم] فتوضع علامة المد فوق حرف المد في هذه الأنواع عند من مده دون من قصره . وإن وقع بعده سكون فإباً أن يثبت وصلاً ووقفاً أولاً .
 فإن ثبت وصلاً ووقفاً وضعت علامة المد على حرف المد سواء أكانت ما بعده مدغماً [الحاقّة ما الحاقّة] أم مظهراً وذلك في [محياي] على قراءة من أسكن الياء .

فإن ثبت وصلاً فقط كمسكون لفظي الجلالة والحمد في [أفي الله شك - وقالوا الحمد لله] أو وقفاً فقط نحو [وإليه متاب - إهدنا الصراط المستقيم] فلا توضع عليه علامة المد لأن سكون لفظي الجلالة والحمد في الأول إنما يظهر عند وصلهما بما قبلهما دون البدء بهما - وحرف المد قبلهما لا وجود له لفظاً إلا في الوقف دون الوصل ، ولذهاب السكون عند الوصل في الثاني ، والضبط إنما يبنى على الوصل كما علمت . وإن كان حرف المد غير ثابت رسماً، أي محذوفاً فإباً أن يقع بعده همز أو سكون أو لا .

فإن وقع بعده همز أو سكون ، ففي ضبطه وجهان :
 للوجه الأول : أن يلحق ذلك الحرف المحذوف لتجعل عليه علامة المد سواء بعد حرف المد همز متصل نحو [شفّعوا - والنبیین - وليسوا] أم منفصل نحو [السوأي أن - فأووا إلى - لا يستحي - أن يضرب - به - إن كنتم - تأويله - إلا] ومثله [فنن أضرب من - إلى - الداع - إذا - إن ترن - أنا] عند من أثبت الياء فيهن [وعليكم - أنفسكم] عند من وصل الميم . وكذلك إن وقع بعد حرف المد سكون : نحو [والصفت أتحنوني] .

الوجه الثاني : أن لا يلحق ذلك المحذوف وإنما يكتفى بعلامة المد في موضع المحذوف سواء وقع بعده همز أم سكون نحو [شفّعوا - فأو إلى - والصفت] ، وعليه العمل به اليوم

وصرح أبو داود باختيار الأول وصدر به الداني عند الكلام على الوجهين فدل ذلك على اختياره له .

وإن لم يقع بعد همز ولا تكون كصلة التاء في نحو [إن ربه كان به بصيرا] ، وكصلة ميم الجمع في نحو [ومما رزقناهم ينفقون] وكالياء الزائدة في نحو [يوم تأت لا تكلم - عسى أن يهين ربي] فالكاتب مخير بين إلحاقها من غير وضع علامة مد عليها [إن ربه كان به بصيرا] وبين تركها والاكتفاء بوضع علامة المد في موضعها [إن ربه كان به بصيرا] .

وهذا التخيير مما انفرد به أبو داود وليس للداني في ذلك إلا الإلحاق وهو الأصح المعمول به . وقد قالوا على ذلك ما لا نص فيه عن الشيوخ مما اجتمعت فيه بقاء حذف ثانيهما ، نحو [والله لا يستحي من الحق - أنت ولي في الدنيا والآخرة يحيي ويميت] مما لم يقع بعده همز ولا تكون ...^١ .

فإن وقع بعده همز نحو [إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما] فهو داخل في وجوب إلحاق المحذوف وعدم إلحاق . وكل ما ذكر إذا كان الساقط والمحذوف من حروف المد في غير فواتح السور .

فإن كان في فواتح السور فقد انعقد إجماع علماء الضبط على عدم إلحاق المحذوف ، وهل توضع علامة المد عليه أم لا ؟
ثم يرد عن المتقدمين فيه نص .
واختلف فيه المتأخرون .

منهم من قال : لا توضع لعدم ورود النص به عن المتقدمين ، فليعلم أن نص المتقدمين على النقط دون النص على حكم هذا دليل على عدم الأخذ به .
ومنهم من قال : توضع رعاية للفظ ، ولا عبرة بعدم وجود حرف المد رسماً .

والصحيح الأول وإن جرى العمل غالباً على الثاني . والقائلون بوضعها اختلفوا في موضعها من الحرف الممدود .

^١ - اكتمى بعض المشاركة في ضبط هذا بعدم إلحاق مع ضبط الحرف الواقع قبل حرف المد بضمة مدفوعة إن كان مضمراً ووض كسرة قائمة إن كان مكسوراً [إن كان به بصيرا] .

ف قيل : توضع فوقه [المـ] .

وقيل : توضع أمامه [لم] والعمل على الأول وإلى ذلك الإشارة بقوله :

وإن نشأ إلحاقها تركنا	ومطـة موضعها جعلنا
ومثل هذا حكمها يكون	إن لم يكن همز ولا مسكون
في كل ما قد زدته من ياء	أو صلة أتتك بعد الهاء

رابعاً : كيفية ضبط المختلص والمشم والمعال

الاختلاس : تحديده : الإختلاس والاختفاء مترادفان .

وعرقه الأهوازي بقوله : هو النطق بثلاثي الحركة .

وقيل : اختلاس هو الإسراع بالحركة بحيث يحكم للمسامع عليها بالذهاب مع أنها كاملة .

والمختلص : هو ما قرئ بالاختلاس تنبيهاً على أن الأصل في ضبطه السكون

كاختلاس العين [نعما] و [لا تعدو] مما حركته مشوبة بالسكون [ولعلهم] لم يتعرضوا لضبط الاختلاس في أرني وأمركم عند الأخذين به لكون حركته لم تثبت بسكون .

الاشتمام : هو عند القراء نوعان :

الأول : إشتمام الكسرة بالضم .

الثاني : الإشارة بضم الشفتين فيما نصّ فيه على هذا الاشتمام بخصوصه أو المراد هنا النوع الأول دون الثاني .

تحديده : هو النطق بحركة تامة مركبة من حركتين ضمة وكسرة إفرأ لا شيو عاً ،

وجزاء الضمة مقدم وهو الأقل ، ويليه جزء الكسرة وهو الأكثر وقرئ به في قيل

وأخواتها : وهي جى وحيل وسيئت وسى وسوق وغيض .

وقيل في تعريفه : هو النطق بحركة تامة ممتزجة من ضمة وكسرة شيو عاً ، والأصح تعريفه الأول .

الإمالة : هي عند القراء قسمان : محضة وغير محضة .

المحضة : هي تقريب الفتحة من الكسرة والألف من الياء ، وتسمى بالإمالة الكبرى وبالأضجاع .

غير المحضة : هي ما بين الفتح والإمالة المحضة . ويقال لها: بين بين ،
وتسمى بالإمالة الصغرى وبالنقليل .
والممال : هو ما قرئ بالإمالة .

ولما كان النطق بهذه الأنواع الثلاثة يخالف النطق بما حركته خالصة إذ حركة
المختلس مختلطة بالسكون ، وحركة المشم كسرة مختلطة بضمة ، وحركة الممال فتحة مشوبة
بكسرة احتيج في كل واحد من هذه الأنواع إلى علامة يتميز بها في ضبطه .

لقد ذهب جماعة إلى تعريفها من الشكل [أبو داود] . وذهب آخرون إلى نقطتها ' ،
واختاره الداني وعليه العمل .

ووجهه أنه إذا لم ينقط قد يظن الناظر أن تعريفه من النقط سهو من النقاط فيحركه
بحركة خالصة . أما وجه اختيار أبي داود فهو أن هذه الأشياء لا تؤخذ من الخط ، وإنما
تؤخذ مشافهة من الشيوخ ، فتعريفها تحمل على السؤال مما يستحقه الحرف المعرى من
العلامة الدالة على كيفية النطق به ، وذلك أتق في التلقي وأحوط في الأداء .

وبيان ضبط هذه الأنواع الثلاثة ، المختلس والمشم والممال على ما ذهب إليه الداني
أن ضبطه من هذه الأنواع الثلاثة ، إما أن يكون مختلساً ، أو مشمّاً ، أو ممالاً .

فإن كان مختلساً :

فإنه توضع نقطة فوق الحرف الذي اختلست حركته إن كان مفتوحاً كعين [لا تعدوا]
وتحت إن كان مكسوراً كعين [نعم] .

وإن كان مشمّاً : توضع النقطة أمام الحرف [قيل] .

وإن كان ممالاً : فإنما أن تثبت الإمالة وصلّاً ووقفاً أو وقفاً فقط .

فإن ثبت وصلّاً ووقفاً فضبطه وضع نقطة تحت الحرف الممال عوضاً عن فتحه
للدلالة على إمائه ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون الإمالة فواتح السور نحو [طه - يس -
حم] أو غيرها . رائية [كالمدر والأبرار] أو يائية [كموسى وعيسى] ثبتت ألفه رسماً

١ - ينسب أن تكون النفاضة التي تعمل علامة المشم والممال وتختلس مرعبة حالة الوسط حتى لا يلتبس فقط بالأعمام .

[كالحسنى والهدى] أو حذفت [الكافرين - خطاياهم - اجتياهم - هده] وسواء أكانت الإمالة كبرى أم صغرى .

وإن ثبتت وفقاً فقط [الهدى اثنتا - عيسى ابن مريم - موسى الكتاب] فالعمل على ضبطه بالحركات لذهابها وصلأ ، والضبط إنما يبنى على الوصل كما علمت .

ملاحظة :

بقي ضبط النوع الثاني من الإشمام الذي هو الإشارة بضم الشفتين ، وبقي كذلك ضبط الروم ، وهو للنطق ببعض الحركة كما بقي ضبط السكت .

ولم أر من نبه على ذلك من علماء الضبط في غير [تأمنا] على ما سيأتي .

ولعلمهم تركوا الكلام على ذلك :

أولاً : لأن السكت ليس بحركة ولأن الإشمام في النوع الثاني إشارة إلى الحركة ، وهم إنما يتعرضون لضبط ما تحرك أو سكن بالحركة والمكون ولا وجود لهما في هذين النوعين .

ثانياً : لأن الروم إتيان ببعض الحركة وهم إنما يتكلمون على الحركة الكاملة سواء كانت خالصة أم مختلطة بغيرها .

والفرق بين حركة الروم وحركة الاختلاس وحركة الإشمام في النوع الأول ما يأتي :

الأول : الروم :

هو الاتيان ببعض الحركة خالصة مما يشوبها .

الثاني : الاختلاس :

هو الاسر لها بالحركة بحيث يحكم السامع عليها بالذهاب مع أنها كاملة ، وهذا الفرق على التعريف لثاني ، والفرق على التعريف الأول أنه النطق بثلاثي الحركة ومع ذلك فهي مشوبة بالحرف .

ثالثاً : الإشمام :

هو النطق بحركة تامة مركبة من حركتين ضمة وكسرة إفرزاً لا شيوعاً ، وجزء الضمة مقدم على جزء الكسرة ، ولما كان كل من المختلص والمشم حركته كاملة تعرضوا لبيان الكلام على ضبطها دون مواها مما لا حركة معه كالسكت والإشمام في النوع الثاني ، وكذا الروم لأن ما فيه بعض الحركة .

ملاحظة :

استحدث بعض المتأخرين وضع [س] صغيرة على عوجا ومرقدا وفي من راق
وبل ران للدلالة على السمكت عليهن وليس ذلك في شيء من فن الضبط ، وإليه الإشارة بقوله :

وكل ما اختلس أو يشم	فالشكل نقط والتعري حكم
وعوض الفتحة الممالاة	بالنقط تحت الحرف للإمالاة
أو عره والنقط في إثممام	سن وسينت هو من أمنم

خامساً : كيفية ضبط المظهر والمدغم والحرف الواقع بعدهما

المظهر : هو ما قرئ بالأنظار

ضبطه : هو جعل علامة السكون فوقه ، وتحريك ما بعده بما يستحقه من فتح
وضم وكسر ، ولا حاجة لوضع علامة التشديد عليه .
يستوي في ذلك ما اتفق على إظهاره نحو [ربنا أفرغ علينا صبرا] وما
اختلف في إظهاره نحو [قد سمع] إذا أريد ضبطه على قراءة من أظهر
للدال .

المدغم : هو ما قرئ بالادغام

وهو قسمان لأن الحرف المدغم إما أن يدغم فيما بعده ذاتاً وصيغة بحيث
يصيران حرفاً واحداً مشدداً ، وإما أن يدغم فيما بعده ذاتاً لا صفة .

فالأول : يسمى إدغاماً تاماً :

وحكم ضبطه : تعرية الحرف المدغم من السكون تنبيهاً على كمال إدغامه
فيما بعده ، وجعل التشديد على المدغم فيه تنبيهاً على إدغام ما مثله فيه ،
سواء تماثل الحرفان نحو [وإنكر ربك] أم تقارباً نحو [وقال رب زدني علما]
أو تجانساً نحو [قد تبين للرشد من الغي] .

يستوي في ذلك ما اتفق على إدغامه نحو [الرحمن - اضرب بعصاك - وإن
عنتم عذبا - وقالت طائفة] وما اختلف في ادغامه نحو [اتخذتم - وإذا تأتيهم
- بل ضلوا - ولقد ضربنا - حملت ظهورهما - ويعذب من يشاء] إذا أريد
ضبطه على قراءة من ادغم ، وأما على قراءة من أظهر فكضبط المظهر .

والثاني : يسمى إدغاماً ناقصاً :

كإدغام الطاء في التاء من [أخطت وبسطت وما فرطتم] ، وفي ضبطه وجهان :

وحرك الحرف الذي من بعد	حسبمبما يقرأ ولا يشتد
وعر ما بصورته أذغمته	وككل حرف بعده شددته
ثم الذي أذغمت مع إبقاء	صوت كطاء عند حرف التاء
صور مكون للطاء إن أردنا	وشدندن بعده حشراف التاء
أو عر إن شئت كلا للحرفين	والأول اختير من السوجهين

سادساً : ضبط المهموز :

تصوير الهمزة :

صورت الهمزة على أنها رأس عين إن كانت محققة ونقطاً مدوراً إن كانت مخففة .

حركاتها : فالهمزة إما أن تكون محققة . وإما أن تكون مخففة .

المحققة : فإن كانت محققة وضعت الحركة عليها كسائر الحروف .

المخففة : وذلك في خمسة أنواع ، لأن الهمزة المخففة إما أن تخفف بالاسقاط ، وإما أن تخفف بالتسهيل بين بين ، وإما أن تخفف بالإبدال حرفاً وهو نوعان :

الإبدال : حرف مد ، والإبدال إما حرفاً محركاً ، وإما أن تخفف بالنقل .

فإن خففت بالاسقاط أو التسهيل بين بين ، أو الإبدال حرف مد فلا حركة لها ، لأنه لا وجود للهمزة في النوع الأول وحركة الهمز في النوع الثاني والثالث غير خالصة .

وإن خففت بالإبدال حرفاً محركاً نحو [لئلا ولأجلا] فإنها تحركت بحركاتها كالمحققة ، وقيل لا وتعمل على الأول .

وإن خففت بالنقل فحركاتها على المنقول إليه ، ولكل ذلك ضبط خاص سيأتي تفصيله .

أما كيفية ضبط الهمزة المسهلة بين بين ، فإنها إما أن تكون مفردة أو مجتمعة مع همزة أخرى .

فإن كانت مفردة نحو [أرأيتم - وها أنتم] فكيفية ضبطها نقطة مدورة على الألف^١
 [أرأيتم] فإن كانت الألف محذوفة كآلف أرأيتم على القول به ألحقت الألف وجعلت النقطة
 على رأسها [أرأيتم] وقيل^٢ يكفي بالنقطة [أرأيتم] والعمل على الأول .

وإن اجتمعت مع غيرها ، فإما أن يجتمعا في كلمة أو كلمتين :
 فإن اجتمعا في كلمة فإما أن يتفقا صورة أو يختلفا ، فإن اتفقا كباب [هأنذرتهم] على
 قراءة التسهيل فيهما .

فضبطهما نقط مدور على رأس الألف دلالة على التسهيل فيهما [أنذرتهم^٣ - الله
 خير] .

الأول : وضع علامة السكون فوق الطاء وعلامة التشديد مع الحركة فوق التاء [
 أحطت - بسطت - ما فرطتم] وعليه عمل المقاربة .
 الثاني : تعرية الطاء من السكون والتاء من التشديد دون الحركة [أحطت - بسطت -
 ما فرطتم] وعليه العمل عندنا .

وكما اختلف أهل الأداء في إدغام القاف في الكاف من [نخلفكم] سورة المرسلات ،
 اختلف كذلك علماء الضبط في ضبطها .

فمن ذهب إلى أنه إدغام تام كالثاني ومن تبعه فضبطها على مذهبهم تعرية القاف من
 السكون ووضع علامة الشدة مع الحركة فوق الكاف [نخلفكم] .

ومن ذهب إلى أنه إدغام ناقص كابن شريح ومن تبعه ، فضبطها على مذهبهم كضبط
 [أحطت وبسطت] .

ولما ضبط الميم عند الباء في الاخفاء الشفوي في نحو [ومن يعتصم بالله] فقلعمل فيه
 على تعريتها من السكون ومن تشديد الباء دون حركتها [ومن يعتصم بالله] كضبط النون
 الساكنة إذا وقع بعدها أحد حروف الاخفاء .

^١ ... لما فيها الفسرة الخفيفة ، وتسهيلها بين الفسرة وبين حركتها لم يذهب بكل الفسرة وما أبدل حرفا محركا بلفاء حركة الفسرة له
 مكانها ببقية . وهذا بخلاف ما أبدل حرف مد للفتحة الفسرة وذهب حركتها وما جن به أجنبي الفسر .

^٢ - ولا نص من هذا للتقدمين وضاهر كلام العالم التنسي في شرح المغرر التمييز بين إختلاف الألف ووضع النقطة عليها والاكتماء
 بالنقطة .

^٣ - هذا الضبط مبني على أن المسورة هي الفسرة الثانية .

واعلم أن ضبط الحرف للواقع بعد حروف الهجاء ، ومن فواتح السور يختلف باختلاف ما قبله ، وذلك أن ما قبله ، إما أن يكون مظهراً أو مخفياً أو مدغماً .

فإن كان مظهراً كـ [ص ، والقرآن] وفاء [ق والقرآن] والميم الثانية من [السم ، ذلك للكتاب] ونحو ذلك ، فضبط الحرف الذي بعده بالحركة التي يستحقها غير مشدد .

وإن كان ما قبله مخفياً كنون عين ، من فاتحتي مريم والنورى ، فـضبطه كـضبط المظهر من غير نفقة ، والفرق بين الإظهار والإخفاء إنما يظهر في ضبط الـمـسـكـن وترك ضبطه وللحرف الـمـسـكـن هنا في الإخفاء غير موجود رسماً .

وإن كان ما قبله مدغماً وهو نوعان :

الأول : ما أدم إدغاماً تاماً كـ [صاد من كهيص] ذكر في فاتحة مريم عند من قرأ بالادغام^١ وكون طسم في ميمها من فاتحتي القراء والفصص عند من قرأ به^٢ هم : فضبطه عند المدغمين تشديد ما بعده [كهيص ذكر رحمة ربك] .

الثاني : ما أدم إدغاماً ناقصاً :

مثل نون [يس والقرآن الحكيم] عند من قرأ بالادغام^٣ وكـ [نون من] والقلم [عند من قرأ به^٤ .

فضبطه تعرية ما بعده من علامة التشديد ، والعمل على ذلك عند المقاربة وبعض المشاركة .

وذهب آخرون إلى تجريد كل ذلك [كهيص ذكر رحمة ربك] وعليه العمل عندنا ، وإلى ذلك كله أشار بقوله :

القول في المدغم أو ما ظهر فمظهر مـكـوـنـه مـصـور

وإن اختلفا ، فإما أن تصوّر المعجولة من جنس حركتها أو لا .

^١ هو أبو عمرو وابن عامر والكلبيون نحو عاصم .

^٢ وهم جميع القراء سوى حمزة وأبي جعفر .

^٣ وهو ابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان والـكـسـائـي والـيـزـارـي وـجـعـفـر .

^٤ هو نافع وعاصم واليزي وابن ذكوان في إحدى الروايتين عنهم .

فإن لم تصور من جنس حركتها كيبب [أعله - وأعزل] ممّا صورت فيه إحدى
الهمزتين فقط . فالمختار ، موافقة لمذهب القراء في ضبطه جعل نقطة مدوّرة على السطر
بعد الألف علامة على التسهيل [أعله - وأعزل] .

واختار الخراز في هذا المورد جعل نقطة صفراء على الألف ونقطة حمراء على
السطر دلالة على التسهيل [أعزل] وتحكمه يد الناسخ لئلا يسهل في الطباعة اليوم .

أما غير المختار فهو أن تجعل النقطة قبل الألف موافقة لمذهب الكسائي [أعزل]
وإن صوّرت من جنس حركتها كيبب [أنفكأو أونبكم] ممّا صورت فيه الهمزة المسهلة ،
فضبطه جعل للنقطة موضع المسهلة فوق الواو وتحت الياء دلالة على التسهيل [أعفكأ -
أونبكم] واستحسن هذا الوجه لموافقة اللسان وعليه العمل وإلى ذلك أشار بقوله :

وكل ما من همزتين وردا	في كلمة بصورة قد أفردا
فقل صورة للأولى منهما	وقيل بل هي إلى ثانيهما
وذا الأخير اختير في المنقّين	وأول الوجهين في المختلفين
ففي اتفاق تجعل المبينة	من قبلها وفوقها الملية

يلاحظ أن القدماء لم ينفصوا على هذا الحكم ، وإنما نكروا في باب [أنفكأ] وأونبكم]
وجهين :

أولهما: جعل دائرة على الواو والياء ، وجعل نقطة أمام الواو وتحت الياء [أنفكأ
- أونبكم] واستحسن هذا الثاني :

وجهه أن النقطة علامة المسهلة والدائرة لتوهم زيادة الواو والياء ، إذ قائل
ذلك وجهه يرى أن هذا الموضع ليس محلاً للواو والياء ، وإنما محله الألف ،
لأن الأصل تصوير الهمزة بما قبله ، ولم تجعل ألفاً لنلا يجتمع صورتان ،
فكان الواو والياء زائدين عنده ، فجعلت عليهما الدائرة لهذا .

وثانيهما : تحرية الواو والياء من النقطة والدائرة ، واستحسنته أبو داود لأن الأداء يؤخذ مشافهة ، والتحرية توجب الموزان والبحث ، وزاد التجبى وجهاً ثالثاً : وهو الاكتفاء بالنقطة عن الدائرة واعتبارها علامة للحركة .

وكـل ما من همزتين وردا	فـي كلمة بصورة قد أفردا
فـيـل صورة للأولى منهما	وقـيل بـل هـى إلى ثانيهما
وذا الأخير اختير في المتن	وأول السوجهين في المختلفين
ففى اتفاق تجعل المبينة	من قبلهما وفوقها الملبنة

ملاحظة :

مثل ذلك : { واللاتي } فإنه مما صدرت فيه الهمزة المسهلة وفي ضبطه وجهان :

الأول : كـباب { أنفك } .

والثاني : الاقتصار على الدائرة { واللاءى } .

وإن اجتمعا في كلمتين :

فـضبطه جعل نقطة متوارة في موضع المسهلة بمداد أحمر على اصطلاح المتقدمين ، ومداد المصحف نظراً لحال الطباعة اليوم ، سواء اختلفا كـباب { جاء إخوة ويشاء إلى وجاء أمة } ، أم اتفقا نحو { إذا شاء أنشره - وهؤلاء إن - ولولياء أولئك } على سبيل تسهيل الثانية فيهن .

وكذلك { هؤلاء إن - وأولياء أولئك } على وجه تسهيل الأولى على ما اختاره أبو داود وعليه العمل .

وذكر بعضهم في نحو هؤلاء : إن أولياء أولئك على قراءة قائلون وجهاً آخر وهو جعل صورة حمراء في موضع المسهلة من جنس حركتها واواً إن كانت مضمومة ، ويساء إن كانت مكسورة مع جعل نقطة فوق الواو وتحت الياء دلالة على التسهيل .

تنبيه :

كيفية ضبط [التنبي إن - والتي إلا] سورة الأحزاب ، وكذا [بالسوء إلا] سورة يوسف ، على قراءة من أبدل الهمزة ، يكون بتعريف الواو والياء من علامة التشديد والحركة لعدم وجود المدغم فيه رسماً ، ولا توضع النقطة الذالة على الهمزة فيها ، لأن شرط الهمز المبدل حرفاً محرراً أن لا يؤدي الإبدال إلى الإدغام .

وعلى هذا لا توضع النقطة على نحو [للنسي] عند من قرأ بالادغام ، هذا في كيفية ضبط الهمزة المسهلة بأنواعها .

وأما كيفية ضبط ما أبدل من الهمز حرفاً :

فإنَّ أن يبدل حرفاً محرراً ، وإما : أن يبدل حرف مد .

فإن أبدل حرفاً محرراً فضبطه جعل نقطة مدورة في موضع الهمزة المبدلة للدلالة على إبدالها حرفاً محرراً سواء كانت الهمزة في كلمة [لنلا ، ولأهب لك ، وباب مؤجلاً ويؤخذ] أم في كلمتين كـ [من وعاء أخيه ، وبأسماء ألقني] ، وباب [يتساءل إلى ، وهؤلاء إن ، واليغاء إن] على سبيل إبدال الهمزة الثانية من جنس حركة ما قبلها .

وإن أبدل حرف مد نحو [أرايتُم ها أنتُم] وباب [أأنذرتهم وعاءه خير] ، وثانية الهمزتين المتتقتين من كلمتين [كجاء أمرنا] وكذلك الهمزة الساكنة المبدلة مداً نحو [عاملن - يؤمن يؤخذ - ينز - الذنب] على قراءة الإبدال في جميع ذلك ، فضبطه ترك النقطة في موضع كل تلك الهمزات لأنها بالإبدال صارت أجنبية عن باب الهمز . ومثل ذلك المد المدخل بين الهمزتين في نحو [أأنذرتهم] عند من قرأ به .

موضعها :

أما موضع الهمزة فلا يخلو حالها : إما أن تكون مفردة أو مجتمعة في كلمة .
فإن كانت مفردة ، فأما أن تكون لها صورة أو لا .

¹ - وهذا مأخوذ من كلام اللاد وانقصر أبو داود في [لأهب نك] على جعل هاء حمراء على الألف للدلالة على أن الياء عند من قرأ بها مبدلة من الفرة ، واختاره القليل ، وعليه عمل أكثر المتأخرين .

² وانقصر على هذا الشيخان وأخبار التنحيسي جعل هاء حمراء في موضع الفرة في نحو من وعاء أخيه ، ووزن حمراء في نحو : يا أسماء ألقني ، وأبكره الذي مثلاً لا تكون للهمزة الواحدة صورتان ، وعلى هذا إذا لم يكن لكناية صورة حاز جعل حرف من جنس ما تحركت به في موضعها غير هؤلاء باغلة .

فإن لم تكن لها صورة في المصاحف فحكمها أن توضع على السطر لأنها أصبحت مستقلة كسائر الحروف ، سواء وقعت أو لا نحو [ءامن] أم وسطاً نحو [أخرج شطئه فنأزره] أم آخرأ نحو [يخرج الخبء] .
ويستوي في ذلك الهمزة المحققة كالأمثلة المذكورة والمخففة بالاببدال حرفاً محرراً نحو [هؤلاء ءالهة] والمسهلة بين بين نحو [أعله] .

ثم إن وضعها في السطر مشروط بأن لا تكون هناك مطة كما في [شطئه] ، فظاهر كلام الداني ، وصريح كلام أبي داود اتصال الهمزة بالمطة اتصالاً لا يقطعها عنها [شطئه] وعليه العمل .

وإن كانت لها صورة فإما أن تكون ساكنة أو محررة ، فإين كانت ساكنة فضبطها أن توضع فوق صورة الهمزة رأس عين في المحققة ونقطة مدورة على المخففة إذا خفت الهمز .

وإن كانت محررة فضبطها أن وضع رأس عين أو نقطة فوق صورتها إن كانت مفتوحة سواء وقعت أولاً نحو [أمدا] أم وسطاً [واسألوا] أم آخرأ [بدأ] .
ووضع ذلك من تحتها إن كانت مكسورة سواء وقعت أولاً [إنما إلهكم الله] أم وسطاً [سئل] أم آخرأ [من شاطئ - لؤلؤ] .

ووضع ذلك من فوقها إن كانت مضمومة سواء صورت واواً [من يكلمكم] أم ياء [وينشئ] أم ألفاً [نبا الذين ' - أولئك - أولوا] . والمسهلة بين بين ، والمبدلة حرفاً محرراً كالمحققة في كل ذلك .

وهل تتصل الهمزة بصورتها ؟ أو يفصل بينهما بياض ؟
للداني في ذلك قولان ، والمختار عنده الاتصال والعمل على الانفصال ، [بدأ] .

وإن اجتمعت في كلمة :
فإما أن يجتمع همزتان أو ثلاث همزات ، فإن همزتان في كلمة ، فإما أن تصورا معاً أو تصورا إحداهما .

^١ - وحوز بعضهم الاكتفاء بحركة الهمزة دون هبتها إذا صورت ألفاً مطلقاً نحو [بدأ وسأ] سورة النوبة .

فإن صورتاً معاً [قل أونينكم] فضبطهما وضع رأسي عين على كليهما
محققين ونقطة منورة على ثانيتهما مخففة على نحو ما تقدم . وهذا عند غير من نقل
حركة الهمز إلى الساكن قبله .

وإن صدرت إحداهما : فهل الصورة للأولى أو الثانية ؟

نقد اختلف في ذلك على مذهبين :

الأول : مذهب الفراء وهو أن الصورة للأولى دون الثانية بتصويرها لصدارتها ولأنه
جاء بها لغرض .

الثاني : مذهب الكسائي وهو أن الصورة للثانية دون الأولى لأن الأولى زائدة على
أصول الكلمة فهي أولى بحذفها وعدم تصويرها .

وقد أخذ علماء الضبط بكلا المذهبين ، فاختاروا مذهب الكسائي في المتفتحين
في الصورة فيدخل فيه باب [ءامن - وءأنزرتهم - وءالله خير] ودخول باب [ءامن]
في قسم المتفتحين دون المختلفتين هو ما عليه أهل الضبط ، وضبطه هكذا [ءامن]
واختاروا مذهب الفراء في المختلفتين في الصورة فيدخل فيه باب [ءله - وءأنزل] .

ثم ثانية الهمزتين إما أن تكون محققة وإما أن تكون مخففة ، فإن كانت محققة
فضبطها على المختار في المتفتحين هكذا [ءأنزرتهم] ، وإن كانت مخففة ، فإما أن
تحذف بالتسهيل بين بين أو بالإبدال أو بالنقل .

فإن خففت بالتسهيل بين بين فضبطها هكذا [ءأنزرتهم] ولا نقط عليها عند
من أبطل من غير إبدال ألف ، وسيأتي حكمها عند من أدخل .

وفي ضبط للمحققة والمخففة بالتسهيل على غير المختار وجهان :

أحدهما : [ءأنزرتهم - ءأنزرتهم] .

ثانيهما : مثله إلا إنك تلحق ألفاً حمراء أو صغيرة تحت الهمزة أو النقطة
[ءأنزرتهم - ءأنزرتهم] .

وزاد بعضهم وجهاً ثالثاً وهو إلحاق ألف حمراء أو صغيرة تحت الهمزة الأولى وإن
خففت بالإبدال : فإما أن تكون الثانية منهما همزة وصل وهو [ءالكرين - وءالسن - وءالله

خير [مما وقعت الأولى فيه همزة استقهام ، ففي ضبطه وجهان مبنيان على وجهي القراءة فيه .

فعلى قراءة من يبذل ضبطه [ءالكرين - وءالئن - وءآله خير] .
وعلى قراءة من يسهل ضبطه [ءالكرين - وءالئن - وءآله خير] .

وأجاز بعضهم هذا الحكم في كل همزتين مفتوحتين اجتماعاً في كلمة ، وبعد ثانيتهما ساكن ، وليست أولاهما همزة وصل قياساً على ما تقدم نحو [ءأنت] .

وإن لم تكن الثانية منهما همزة وصل ، وأريد ضبطه على قراءة من يدخل ألفاً بين الهمزتين ، سواء اتفقتا أم اختلفتا^١ كـ [ءأنزرتهم - وأعله - وءأنزل] ففي ضبطه وجهان على المختار^٢ :

الأول : إلحاق ألف صغيرة أو حمراء على اصطلاح المتقنين أو صغيرة على ما هو عليه العمل اليوم ، قبل المصورة منهما في المنفتحتين وبعدها في المختلفتين [ء- أنزرتهم - وأعله - وأ- منزل] ولا يخفى ضبطه على قراءة من يدخل تحقيقاً وتسهيلاً .

وإن خفت بالنقل فضبطها وضع حركتها على الساكن قبلها على ما تقدم فـ [الهمزة المفردة [إن أنت إلا تنذر] .

أما ما اجتمع فيه همزتان من كلمة ، فإما :

أن يقع قبل الأولى منهما حرف ساكن صحيح منفصل ، وإما :

أن يقع قبلها تنوين ، فإن وقع قبلها ساكن صحيح فضبطها عند من نقل حركتها وضع حركة الهمزة على الساكن الصحيح قبلها وإسقاط الهمزة ووضع جرّة في موضعها [قل - أنتم - قل أوئبكم] .

وإن وقع قبلها تنوين فضبطها إسقاط الهمزة والحركة معاً ، ووضع جرّة في موضعها [رحيب - أشقتهم - وحاجزاً - أعله] .

^١ - ذكر ما حكم همزتين المنفتحتين وإن كان الحكم في حكم همزتين المنفتحتين لكون الحكم فيهما واحداً .

^٢ - وضبطها على غير المختار [أنزرتهم - بإله] على فروع الأول وعلى الثاني [أنزرتهم - ءآله] .

وأما ضبط المختلفين على المختار ففيه وجهان :

أولهما : [أعله - أعزل] مع مراعاة للثانية وهيئتها تحقيقاً وتسهيلاً .

ثانيهما : مثله غير أنه تلحق بـاء صغيرة أو حمراء على اصطلاح المتكلمين في باب [أعله] رواواً صغيرة أو حمراء في باب [أعزل] مع مراعاة مكان الهمزة من صورتها على ما تقدم من القواعد السابقة ، والراجع الأول وعليه العمل ، أما على غير التراجع فكهذا [ءإله - ءإنزل]

فإن اجتمعت ثلاث همزات : ولم ترسم فيها إلا صورة واحدة وهو [ءألتهنا] بالزخرف [وءآمنتكم] فعلماء لضبط رأوا فيه خمسة أوجه أولها : [ءآمنتكم] ، وإلى ذلك كله أشار بقوله :

ونقطه أمنهما حمراء	وفي اختلاف فوقها الصفراء
واو بنحو قد أعزل	وإن تشأ فاجعل هنا ما سهلاً
حمراً وألتهنا في الزخرف	والياء في الباقي من المختلف
الحكم في فيهن كما تقدم	وقوله آمنتكم مستفهما

سابعاً : كيفية ضبط ألف الوصل والابتداء بها ، وضبط النقل عند الآخذين به :
والحديث منحصر في هذا البحث في قضايا ثلاث :
الوصل - الابتداء - النقل

أولاً : الوصل :

سبق لنا القول : أن الضبط مبني على الوصل ، ولم ير الأئمة إهمال همزة الوصل عند سقوطها في اللفظ بل وضعوا لها علامة تدل على سقوطها وصلاً غير أنهم اختلفوا في هيئتها وموضعها .

هيئتها : لقد ذهب أكثر المغاربة إلى أنها جرة صغيرة [-] واستحسن الداني جعلها دارة صغيرة [•] .

واختلف المشارقة في هيئتها ، فذهب بعضهم إلى أنها دال مقلوبة [۷] .

وذهب بعض آخر إلى أنها رأس [صاد] صغيرة [ص] وعليه العمل عندنا .

موضعها : وأما موضعها فتابع لحركة ما قبلها .

فعلى مذهب أكثر المغاربة توضع فوق الألف إن كان ما قبلها مفتوحاً [هو -
الحى] وتحتها إن كان مكسوراً [والله العزة وإرسوله وللمؤمنين] وفى
وسطها إن كان مضموماً [وله ا - لمثل] .

أما على ما استحسنته الداني وما ذهب إليه المشاركة على اختلافهم فعلى الألف بطلقاً
سواء فتح أو كسر أو ضم ما قبلها ، وصورتها [لا تبدل لخلق الله تلك الحدين القسم - لا
تبدل لخلق الله تلك الدين القيم] .
ولا عبرة للحرف الموجود رسماً للمسايط لفظاً نحو [تائه - أفي الله شك - محظور
أنظر - وانكروا الله] .

وخص بعض العلماء علامة للوصل بما يمكن الوقف على ما قبله [إن الدين عند الله
الإسلام] دون غيره نحو [بالله - وتائه] .
ثانياً : الابتداء :

وأما الابتداء فالقياس يقتضي أن لا تجعل له علامة بناء على أن الضبط مبني
على التوصل ، وهو مذهب المشاركة ، وعليه العمل عندنا ، وذهب غيرهم
إلى اتخاذ علامة له .

وعلى هذا لا تخطو الألف المبدوء بها : إما أن يمكن البدء بها والوقوف على ما قبلها
أولاً .

فإن لم يمكن البدء بها والوقوف على ما قبلها ، وذلك عند ستة أحرف جمعت في
قولهم [فكئ وتب] فلا ضبط لها أصلاً [فالله - كالطود - لابنه - والتين والزيتون - تائه -
بسم ربك] .

وإن أمكن البدء بها والوقوف على ما قبلها فعلامة ضبطها نقطة خضراء موضوعة
حركة ألف التوصل لو ابتدئ بها ¹ وتجعل فوق الألف إن فتح ما قبلها نحو [قال تائه] ²

¹ - ومعنى ذلك أن هذا الضبط بما يكون عند الابتداء بهم [تشكر في - وانظر] غير متبعة بما قبلها كما أن أول كتابه قوله تعالى
" اشكر في ونواله بك بل انصهر " أنظر كيف فعلوا بهم على بعض " أما إذا بدلت الكتابة بقوله أن اشكر في في معطوفاً انظر
فيعين وضع علامة التوصل لرواقته للقياس وعلامة الابتداء على غير القياس لئلا يخط على الرصد كما علمت .
² - وضعت النقطة على لفظ التوصل وكذا الأمانة بعدها ، وإن علمت ما قبلها فيكون أوضح لتستقيم .

وتحتها إن كسر ما قبلها [إن ارتبتم] وأمامها إن ضم ما قبلها [أن أشكر لي - محظوراً -
نظر] . وتكون منفصلة^١ في كل هذه الأحوال عن الألف وإلى ذلك كله أشار بقوله :

القول في الصلة عند الوصل	وحكم الابتداء ثم النقل
فصلة للحركات تتبع	فوقه من بعد فتح توضع
وتحت إن كسرة وسطه	إن ضمة كذا أتت مرتبطة
وإن تتون تحته جعلتا	ووسطاً إن ثالثاً ألزمتا
ضما ووضع ضم الابتداء	نقطع كوضع الشكل بالخضراء
أمامه إذا يضم ابتدأت	وفوق إن فتح وتحت إن كسرت
وحكما لورثهم في النقل	لحكمها في ألفات الوصل
فدوقه أو تحته أو وسطا	في موضع الهمز الذي قد سقطا

ثالثاً : النقل :

وأما النقل فالكلام فيه منحصر في علامته وموضعها .
علامته : أمّا علامته فجرة [-] ، وذلك إن الهمز المنقول تسقط حركته وصلّاً وتثبت ابتداء
فصارت كهمزة الوصل ، فجعلت فيه الجرة للدلالة على سقوط الهمزة عند النقل ، كما
جعلت علامة همزة الوصل عند الوصل .

وقد فرقوا بينهما في العبارة ، فصموا علامة الوصل صلة للمناسبة ، وتركوا علامة
النقل على اسمها الأصلي الذي هو جرة .
موضعها : أما موضعها فلا يخلو الهمز المنقول حركته ، إما أن يكون له صورة أولاً .
فإن لم يكن له صورة ، فضبطه وضع جرة قبل الألف على السطر [حميم - إن
فاكهة - امنين -- ومن - امن رحيم - اشتقتم] .

إن كان له صورة فإما :

أن ينفصل الهمز عن الساكن قبله نحو [قد أفلح] أو يتصل به نحو [رداء] ولازم
التعريف نحو [الأرض والإيمان] .

^١ وقبل ترسلها لها إن ضم ما قبلها وليس بمشهور عنهم ، وقد قيل أن علامة الابتداء في الألف المكسورة تحت الألف وفي الألف
المضمومة أمامها للفرقة بين علامة الوصل وعلامة الابتداء ، فهما ، وليس بذلك ، فإن علامة الوصل دائرة صغيرة أو دال مقلوبة أو رأس
صاد صغيرة وعلامة البدء نقطة خضراء كما علمت .

فإن اتصل به فلا جرّة عليه على ما ذكره علماء الضبط وعليه العمل :
وإن انفصل الهمز عن الساكن قبله فالعمل على ضبطه على حسب حركة الحرف
الذي قبله .

فإن كان مفتوحاً فجرّة فوق الألف في نحو [قد أفلح] وألم أحسب الناس وكبداً
أحسب [.

وإن كان مكسوراً فتحت الألف نحو : [من إملأ - وجميعاً إن الإنسان] .
وإن كان مضموماً ففي وسط الألف نحو : [قل - وحي - لأي يوم أ - جلت] وإلى ذلك كله
أنما يقوله :

وإن يكن مسكن من قبل
تسقطها من بعد نقل شكلها
صح فحكمها لورش نقل
وجرة تجعل في محلها

ثامناً : كيفية ضبط ما حذف رسماً :
إن الحروف المحذوفة من رسوم المصاحف قسمان :

ما كثر حذفه وهو حروف العلة الثلاثة التي هي الألف والواو والياء .
وما قلّ حذفه وهو النون الساكنة ، وجاء الحذف في النون لكون صورتها كصورة بعض
حروف المد .
ولما كانت هذه الحروف توجد لفظاً لا رسماً ، احتيج إلى التنبيه عليها بالحق صورة
المحذوف منها حتى لا تتوهم ، قوطها خطأ ولفظاً .

والحذف في حروف العلة يكون لثلاثة أسباب :

أولها : لاجتماع مثلين .

ثانيها : للاختصار .

وثالثها : لوجود عوض عن المحذوف .

فإن كان الحذف لاجتماع مثلين ، فلا يخلو :

إما أن يكون أول المثلين ساكناً أو مضموماً أو مشدداً .

فإن كان أول المثلين ساكناً ، وكان الثاني أصلياً أو جيء به للدلالة على الجمع وقدر
ثبوت الأخير فالحكم في ضبطه التمييز بين إلحاق الأول وتركه سواء أكان المثلان الفين وهو

[تراء الجمعان] أم ياعين وهو في [النبيين] على قراءة نافع أم ولوين وهو [ليسوا] ، وأما [تراء] فهو مما اجتمع فيه الفن ، أولاهما لبناء وزن تقاعل ، ثانيتهما أصلية ، وهي مبدلة من لام الكلمة ، واصل [تراء تراءيا] على وزن تقاعل تحركت الياء وفتح ما قبلها فقلبت ألفا فصارت تراء . وقد اتفقت المصاحف على رسمه بألف واحدة .

وجوز الشيخان أن تكون المحذوفة هي الأولى أو الثانية وضبطه على حذف الأولى [تراء أو تراء] فالتكيفيات ثلاثة والعمل على الأخير منها .

وأما [النبيين] على قراءة نافع فهو مما اجتمع فيه ياء أن الأولى جيء بها في بناء فصيل وهمزته أصلية من بنية الكلمة في نبى وجمعه نبيون رفعاً ونبيين نصباً وجراً ، فيأوه على هذا علامة على جمعه وإعرابه ، أما الياء الثانية فقد جيء بها علامة على الجمع والاعراب . وقد اتفقت المصاحف على رسمه بياء واحدة أيضاً .

وجوز أن تكون المحذوفة الأولى أو الثانية ، ورجح أبو داود حذف الثانية ، وضبطه على حذف الأولى هكذا [لنبيين] أو هكذا [النبيين] وعلى حذف الثانية [النبيين] . فالتكيفيات ثلاثة ، وللعمل على الأولى ، وأما [نيسوا] على قراءة الحجازيين والبصريين وحفص وعاصم ، فهو ما اجتمع فيه ولان ، الأولى التي بعد السين عين للكلمة ^١ ، والثانية ضمير جماعة الذكور .

وقد اتفقت المصاحف على حذف الأولى وإثبات الثانية [ليسوا] أو هكذا [ليسوا] ، وعلى حذف الثانية ، وإثبات الأولى [ليسوعوا] ، فالتكيفيات ثلاث والعمل على الأولى ، وإلى ذلك أشار بقوله :

القول في نقص من الهجاء	إن شئت أن تلحق بالحمراء
أول ما الثاني به قد تحلا	علامة للجمع أو إن أصحلا
نحو النبيين تراء ثم ما	أولهما ضمنت ففسى الثاني كما
هذا ليكون وإن شددتسا	كنحسو الأميمين والتزمتسا
أن تلحق الأخرى إذا ما حذف	في ما به أولاهما قد مكنت
وإن حذف ما عليه بنيا	اللفظ قولسه ما وورى

^١ - أصلها يسوع ، على وزن يعل ، نكتت حركة تراء إلى الساكن لجلها لم أسند إلى ضمير الجماعة فعصار يسوعوا ، وقالوا لأنزل عن الكلمة الثانية راء الجماعة .

وإن كان أول المثليين مضموماً فحكم ضبطه ثانيهما للتخيير بين إلحاق صورته وعدمه ، ذلك في نحو [يلوون وورى] .

أما [يلوون] فهو ما اجتمع فيه واوان أولهما عين الكلمة ، وثانيهما علامة الجمع . وقد اتفقت المصاحف على رسمه بواو واحدة ، وجوز أن تكون المحذوفة الأولى ، وأن تكون الثانية ، وضبطه على حذف الأولى [يلوون] وعلى حذف الثانية [يلسون] أو [يلسوون] ، فالتكفييات ثلاثة والعمل على الأخيرة . وأما [وورى] فهو ما اجتمع فيه واوان أيضاً ، أولهما واو وارى مبنياً للمعلوم ، والثانية جىء بها ساكنة لينائه للمجهول .

وقد اتفقت المصاحف على رسمه بواو واحدة ، وجوز أن تكون المحذوفة الأولى ، وأن تكون الثانية ، وضبطه على حذف الأولى [وورى] وعلى حذف الثانية [وورى] أو [وورى] ، فالتكفييات ثلاثة والعمل على الأخيرة .

ملاحظة :

جاءنا بالزخرف حكمه عكس الحكم في [وورى] ، وضبطه [جئنا] أو [جئنا] أو [جئنا] فالتكفييات ثلاثة والعمل على الأولى .
وإن كان أول المثليين مشدداً : نحو [للذيين] على قراءة غير نافع ، نحو [الحوارين ، وربانيين والأمين] ف ضبطه كما في [يلوون] ، وصورته هكذا [الأمين] أو هكذا [الأمين] أو هكذا [الأمين] .

وإن كان الحذف للاختصار ، فحكمه إلحاق صورة المحذوف في موضع دل النطق على موضع حذفه وذلك بشرطين :

الأول: أن يكون الحذف وسطاً [العالمين] و [بينت] و [إبراهيم] و [صالح] .
الثاني : أن لا يمكن ما بعده [صافات] .

فإن سكن ما بعده جاز ترك الإلحاق ووضع علامة المد موضع المحذوف [والطير صفت وكذا محى] عند من قرأ بالاسكان ، والعمل على الأول .

وهذا الحذف خاص بالآلف دون الواو والياء لعدم حذفهما من الوسط اختصاراً ، وإنما يحذفان طرفاً في الزوائد ، وفي الصلة نحو [لنن آخرتي] ، [فيه هدى] على قراءة المكين ، ونحو [عليهم أنزرتهم] عند من قرأ بصلة الميم .

وإن كان الحذف لوجود عوض عن المحذوف من واو أو ياء : فحكمه إلحاق صورة المحذوف فوق عرضه بشرط أن لا يقع متطرقاً وبعد سكن ، وضبطه [وأقيموا الصلوة وأنوا الزكوة - وقال موسى ربي - فيهديهم اقتده - وأخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين] . فإن وقع متطرقاً وسكن ما بعده نحو [قال عيسى بن مريم - أتينا موسى الهدى] فلا إلحاق فيه .

ويلحق بما تقدم ما يأتي :

[ادارتم ، وإيلافهم ، ومن سورة الانفال ، وباب يستحي وباب تسوى ، ورويا المعرفة ، وأولياء إذا أضيف واتصل بضمير ، [جزاءه] سورة يوسف ، ونون [ننجى] الثانية [وتأمنا] من يوسف .

فيتعين إلحاق ألفي [ادارتم]^١ التي بعد الدال والراء ، وضبطه [ادارتم] وكذلك ياء [إيلافهم] ترسم حمراء أو بقلم دقيق متصلة باللام بعدها [إيلفهم] وجوز اللبيب إلحاقها مردودة [الفهم] وعليه العمل .

وكذلك تلحق الياء الأولى فوق الخط بين الحاء والياء من [حى] بالأنفال على قراءة من فك الادغام^٢ [من حى] وكذلك باب [يستحي] يضبط على القول بحذف الأولى [يستحي -] وعلى حذف الثانية [يستحي -] وعليه العمل .

أما باب [تسوى] ففي ضبطه ثلاثة مذاهب :

الأول : [تسوى] والثاني [تتوى] والثالث [تسوى] والمختار الأول ، وإلى ذلك أشار بقوله :

والباء من إيلافهم وترسم	والحقن ألفي ادارتم
حمرا أو لا بيباب حتى	ثاني ننجى يوسف الانبيا

إلى أن قال :

ونون [تأمنا] إذا الحقته فانقط أماما أو به عوضه

^١ - لأن من باب تتاعل من افتراء وهو الجمع ، فأغشت الألفات بحافة توهيم أن يكون من باب افتعل فيكون من اشتداده .

^٢ - عند من قرأ تلك الادغام وهم ثلثتان وابن كثير ، وقد ألحق الياء مراعاة لحركتها إذ لم يبعد وجود حركة بغير حرف يعوم به .
وتنشد عليه .

تنبيه :

هذه المذاهب الثلاثة تجري في كل ما اجتمع فيه مثلاًن ، أحدهما صورة للهمزة نحو [رعا ، ومناب ، وتبوعا ، ومستهزعون ، ومتكئين ، ومسئولا] وصورته [ريسا ، رييسا ، ومنلب ، مآب ، مسئولا ، مسئولا] وضبط بقية الأمثلة لا يخفى .

وأما رؤيا المعرف : وهو الرعا ورؤياك ورؤياي ، ففي ضبطه مذهبان :
الأول : الاستغناء بصورة للهمزة [الرعا ورعاي] .
الثاني : الحاق الواو تحتها [للرؤيا - رؤياي] والعمل على الأول .

وأما [أولياء] المضاف المتصل بالضمير وهو في ستة مواضع :

أوليؤهم الطاعوت [للبقرة ، الآية ٢٥٧] .

أوليؤهم من الانس [الأنعام ، الآية ١٢٨] .

إن أوليؤه [الانفال ، الآية ٣٤] .

نحن أوليؤكم [فصفت ، الآية ٣١] .

إلى أوليائهم [الأنعام ، الآية ١٢١] .

إلى أوليائكم [الاحزاب ، الآية ٦] .

فقد اختلف في صورة همزته ، فقيل ثابتة ، وتميل محذوفة ، وفي ضبطه على القول الأول مذهبان :

الأول : [أوليؤهم] وعليه العمل .

الثاني : [أوليؤهم] وعلى الثاني مذهبان .

الأول : [أوليؤهم] .

الثاني : [أوليئهم] .

أما جزؤه بمسورة يوسف : ففي ضبطه المذاهب الأربعة المتقدمة في [أولياء] والعمل فيه على الثاني منها [جزؤه] .

أما النون الثانية من [ننجى] بمسورة يوسف والأنبياء على قراءة من أثبتها^١ قتلده^٢ صوريتها في الرسم في موضع النطق بها حمراء أو بقلم رقيق [نجي] ومثلها في ذلك نون [للنظر ولننصر] على القول بأنهما مرسومان بنون واحدة .

وأما [تأمنا] : ففي نونها ثلاث قراءات ، المحض والاشمام والروم ، وضبطها على النون المحضة لا يخفى .

وفي ضبطها على قراءة الاشمام وجهان :

الأول : أنها نقطة بين الميم والنون للدلالة على الاشمام [تأمنا] .

الثاني : أنها جرة .

واختلف في موضعها : قيل : قبل النون [تأمنا] وقيل : بعد النون [تأمنا] . وعلى قراءة الروم وجهان أيضاً .

الأول : نون حمراء أو صغيرة بين الميم والنون [تأمسان] .

الثاني : وضع نقطة بين الميم والنون [تأمنا] وعليه العمل .

تاسعاً : كيفية ضبط ما زيد رسماً :

وسبق بنا القول أن ما يزداد من حروف الهجاء في رسم المصاحف ثلاثة :

الألف - الياء - الواو .

ولا بد لزيادة هذه الحروف من علامة تدل على أنها ساقطة خطأ ولفظاً ، عند بعض المشاركة العلامة هي [X] وهو ضعيف .

أما الصحيح المعمول به فهو : أنها دائرة صغيرة توضع فوق الحرف المزيد منفصلة عنه على الصحيح ، [لأُنبِئْهُ] وقيل متصلة به .

أما الألف التي تحتاج إلى علامة تدل على زيادتها فقد وقعت في عشرة أنواع :

وتحصر في ثلاثة أشياء :

الأول : إذا جاورت الألف همزة مفتوحة أو مكسورة سواء وقعت قبل الهمزة أم بعدها

وهو ثلاثة أنواع :

^١ - أثبتها لي يوسف عمر بن عمر وعاصم ويعقوب ، ون الأنبياء بن عمر وشعبة .

الأول : [لأهب على قراءة الباء] .

الثاني : ابن .

الثالث : إذا ولنسفعاً وليكوناً .

الرابع : لكنا وأنا والظنونا والرسولا والسبيلا .

العمل على تجريد الأنواع الثلاثة الأول من العلامة ، ووضع دائرة صغيرة مستطيلة [هـ] على النوع الرابع بشرط أن لا يقع بعد الألف ساكن ، فإن وقع بعدها ساكن أمملت مطلقاً [أنا التنذير] .

أما الباء التي تحتاج إلى علامة تدل على زيادتها فقد وقعت في ثلاثة أنواع :

أولاً : زينت بعد همزة مكسورة لم يقتضها ألف [أفاهن مات] سورة آل عمران ، [أفأين مت] سورة الأنبياء ، [من نبأى المرسلين] سورة الأنعام ، وفي ملأ المجرور والمضاف إلى الضمير على الأرجح .

ثانياً : زينت بعد همزة مكسورة قبلها [تلقاءى] وأخواته [كئناى] ومثله [السلاى] على القول بزيادة الباء فيه .

ثالثاً : زينت بعد باء ساكنة [تأييد] سورة اللذاريات ، على ما هو المختار .

أما [يأتينكم المفتون] سورة القلم ، فضبطه أن تعرى الباء الأولى من العلامة مع تشديد الثانية للإدغام وهو الصحيح المعمول به .

وأما الواو التي تحتاج إلى علامة تدل على زيادتها فقد اتفق الرسام على أنها وقعت في أربع كلمات مبنوءة بهمزة مضمومة [أوئو - وأئت - وأئلى - ولولاء] . كيف تصرقت ، وفي [ساوريكم] سورة الأعراف والأنبياء . [ولأوجلتم] سورة طه والشعراء . وكذا [هؤلاء] ما عند للنحاة وصورته عندهم [هءولاء] لأن الواو عندهم زائدة مثلها [أولاء] [لولى] وليس معمولاً به عندها .

وإلى ذلك كله الإشارة بقوله :

من ألف أو واو أو من باء
كقوليه لأنبهن لا إلى

القول فيما زاد في الهجاء
فكل ما الألف فيه أدخل

باللام صورة وقيل المنفصل	وشبهه مما بقي فالمتصل
وتأينسوا وشبهه مجيئاً	وزيد في مائة وجائ
وبابه في الربوا في امرؤا	ويعنوا والفرد ثم تفتنوا
وبابه والواو في أولاء	وزيد أيضاً ياء من أناءى
للفرق بينه وبين الأيدي	وأخر الياعين من بأييد
من فوقه علامة أن أزيذا	فدلالة تنزرم ذا المزيد
وعن أولاً لما قد يدعم	وشدد الثاني من بأيكم

عاشراً : أحكام اللام ألف :

إعلم أن اللام ألف حرف مركب من حرفين متعاقبين أحدهما لام والآخر ألف ، وفي أعلاه طرفان وفي أسفله دائرة أي حلقة صغيرة وصورته [لا] .
وقد اختلف الخليل بن أحمد والأخفش الوسط في أي الطرفين هو الألف .

لقد ذهب الخليل إلى أنه الأول ، وذهب الأخفش إلى أنه الثاني ، واختار عامة المغاربة الأول ، واختار المشاركة الثاني ، ويترتب على هذا الخلاف خلاف آخر في كيفية ضبطه .

ويتلخص ما ذكره في أربعة أحكام :

الأول : حكم الهمزة التي صورت لُفّاً معانقة للام [الإسلام - الإحسان - الأرض] ، فعلى مذهب الخليل توضع الهمزة فوق الطرف الأول [اءلأرض] وعلى مذهب الأخفش توضع فوق الثاني [الأرض] .

الثاني : حكم المد إن كانت الألف للمعانقة مدّاً [لا إله إلا الله] فعلى مذهب الخليل توضع المدّة فوق الطرف الأول [لا إله إلا الله] وعلى مذهب الأخفش فوق الطرف الثاني [لا إله إلا هو] .

الثالث : حكم الهمزة المتأخرة عن الألف [لأملأن وامتلأن ولأمة ولأعيلاف] فعلى مذهب الخليل [لأملأن] وعلى مذهب الأخفش [لأملأن] مع مراعاة ما تقدم في باب الهمز من تحقيقه وتخفيفه .

الرابع : حكم الهمزة المتصلة نطقاً بالألف المعانق للام سواء تأخرت عن الألف [هؤلاء] لم تقدمت عليها [لأكلون ، والأمرؤن] فعلى مذهب الخليل تجعل الهمزة هكذا [هؤلاء لاكلون] وعلى مذهب الأخفش تجعل [هؤلاء ، لأكلون] ولإلى ذلك كله أشار بقوله :

الحكم في الهمزة منه مختلف	القول فيما جاء في لام ألف
وهمز أول هو المعمول	ف قيل ثانية وقيل الأول
لأجل همز كائن من بعد	وهذه إن كان ما يمد
فظفر خطأ كما قد رسم	أذ أصله حرفان نحو ياءها
فحكمه كما مضى لا يختلف	وإن ذا الهمز في نفس الألف
مؤخراً وقيل إن تقدما	وبعد لا ألف إن رسا
أو حركات ومن السكون	وكل ما ذكرت من تنوين
من صلة من واو أو من ياء	والقلب للياء وما للهاء
ومطمة ودارة المزيد	ونحو يدع الداع والتشديد
مع الذي اختلسته بالحكم	ونقط تأمنا وما يشم
هذا تمام الضبط والهجاء	لن نجعل الجميع بالحمراء

خاتمة :

نبه كثير من المتأخرين على حكم الياء المتطرفة .
وقد اختلفت أراؤهم هل هي موقوفة أي معرفة إلى قدام [ى] وهو المعروف عندهم
بالنوقص أو معقوفة أي مردودة إلى خلف [-] وهو للمعروف عندهم بالعقص .
أما الداني فلا نص عنده على شيء من ذلك وأما أبو داود والتجيبى والليبي والبلسى
وغيرهم فقد نكروا في قوله تعالى [فأنكروني أنكركم] أن ياءه في بعض المصاحف وقص
وفي بعضها عقص .
وهذه الياء فيها قراءتان للفتح والاسكان ، وقد استحب أبو داود العقص لمن قرأها
بالاسكان .

واعلم أن أنواع الياء المتطرفة ثمانية : وتتخصر في ثلاثة :
أولاً : متحركة^١ وهي بثلاثة أنواع :

^١ - المراد بالحركة هنا حركة إعراب فتح وإن ولي الله بأوه مفتوحة شكلاً وإن كانت بحروزة إعراباً بالإضافة .

مفتوحة ومكسورة ومضمومة .

ثانياً : ساكنة وهي نوعان :

ساكنة حية^١ وساكنة ميتة .

ثالثاً : منقبة .

رابعاً : صورة للهمزة .

خامساً : زائدة .

فالمتحركة المفتوحة مثل [إن ولي الله] والمكسورة [فيأي آلاء ربك تتملأ] والمضمومة [الله ولي الذين آمنوا] والساكنة الحية نحو [نواتي أكل] والساكنة الميتة [الذي خلقتني] والمنقبة [الهدى] وصورة الهمزة [كل امرئ] والزائدة [من نبأى] .

والذي يؤخذ من كلامهم في حكمها ، أن الياء المفتوحة والمنقبة يجوز فيهما الأمران والوقص أرجح ، والمضمومة يجوز فيها الأمران ، والمكسورة والساكنة بنوعيهما يجوز فيهما الأمران والعقص أرجح ، والمصورة والزائدة يتعين فيهما العقص .

وفد بقي من أحكام هذه الياء أنها لا تنقط :

نقد أجمع نقاط المصاحف على ترك نقط الياء المنطرفة سواء وقعت موقوفة أم معقوفة أم مبتدئة من ألف ، كما تركوا نقط الياء إذا كانت صورة للهمزة مطلقاً^٢ سواء وقعت منطرفة [كل امرئ بما كسب رهين] أم متوسطة [فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت آمن هو قالت آتاه الليل ساجداً وقائماً يجوز الآخرة ويرجون رحمة ربه] .

تنبيه :

سبق لك أن علامة الاشتمام والاختلاص والإمالة نقط مدورة ، ولكنه يحسن في هذه العلامات أن تكون نقطة مربعة خالية الوسط [ه] .

^١ - المراد بحياتها ظهورها عند الإسكان فبعضها إذ ليس مظهرها في الذي كظهرها في نواتي أكل .

^٢ - وذهب النحاة إلى أن كل همزة صوّرت بـ هـ ، يجوز نقطها الإحالة تخفيفاً بالإبدال بـ ، بأن وقعت بعد كسر مفتوحة أو ساكنة كحافظه وعر أو بعد فتح مكسورة كائنه أو بعد كسر مضمومة كسهننود على مذهب الأحنش . أما ما عرفت بالنسبيل بين كسائي وحاتم وقائل ، وكذا بين وقع في الجمع بدلاً عن حرف مد زائد في الفرد كفلاند أو كان بدلاً عن همزة كسائي ونحوه فلا بأس وبليس ذلك مذهباً لنقاط المصاحف بل هو مذهب محوي كما علمت .

ثم إن جميع العلامات التي تقدم ذكرها سوى ما نصّ معها على أن تكون ذا لون خاص ينبغي أن تكون بالمداد الأحمر ليعرف المطلع عليها أنها حدثت بعد عصر الصحابة ، وإن العلماء الذين تقدم ذكرهم أحدثوها لزيادة الضبط والانتقان وقد اكتفى أهل عصرنا برسمها بقلم دقيق تمييزاً لها ، وهذا أيسر من تعداد الألوان في دور الطباعة .

تكملة :

استحدث بعض العلماء علامات يضعونها فوق بعض للكلمات لبيان مكان الوقف على الكلمة وحكمه ، ولا علاقة لذلك بفن الضبط وإنما أثّرنا أن نختم بها الكتاب تنميماً للفائدة ، وقد عنى العلماء قديماً بتلك العلامات .

وليس لدينا دليل واضح يحدد لنا أول من وضعها من الذين عنى بذلك أخيراً العالم للشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخلائى في المصحف الذي كتب كلماته على قواعد الرسم، وعنّى فيه ببيان عدد آيات كل سورة في أولها على مقتضى مذاهب علماء العدد وقد طبع هذا المصحف في سنة ١٢٠٨ هـ .

وقد قسم فيه الوقف إلى ستة أقسام كاف وحسن وجائز وصالح ومفهوم وتام . وقد أشار إلى الوقف الكافي بكاف صغيرة [ك] أو [>] توضع فوق الكلمة . كما أشار إلى الوقف الحسن والجائز والصالح والمفهوم والتام بحاء وجيم وصاد وميم وتاء صغيرات توضع فوق الكلمة دلالة على أن الوقف حسن أو جائز أو صالح ... إلخ .

وظل الأمر على ذلك إلى أن ألفت لجنة برئاسة الشيخ محمد علي خلف الحسيني شيخ المقارئ المصرية في عهد ملك مصر ، فؤاد الأول ، للنظر في طبع المصحف على نفقته مع العناية به ، فنهضت اللجنة بما عهد إليها على أكمل وجه وقد قسمت الوقف إلى خمسة أقسام : الأول : ما يلزم الوقف عليه ولا يصح وصله بما بعده ، ووضعت له علامة ميم مفردة [م] .

الثاني : ما يصح الوقف عليه والابتداء بما بعده كما يصح وصله بما بعده ، غير أن الوقف عليه أرجح من وصله بما بعده ، وضعت لذلك علامة [قلى] وهي كلمة منحوتة أصلها الوقف أولى .

الثالث : كالثاني غير أن وصله بما بعده أرجح من الوقف عليه ، ووضعت لذلك علامة [صل] وهي منحوتة أصلها الرصل أولى .

الرابع : ما يجوز فيه الوصل والوقف من غير ترجيح لأحدهما على الآخر ووضعت لذلك علامة [ح] .

الخامس : ما لا يصح الوقف عليه والابتداء بما بعده ، فإن وقف عليه لضرورة كانقطاع النفس أو نحو ذلك ، نعين على الفرائد الرجوع لوصله بما بعده ووضعت علامة [لا] للدلالة على أن الوقف عليه لا يصح ، ولم تر اللجنة التي ألّفت أخيراً لإعادة طبع المصحف أن تغيّر تلك العلامات لإلف الناس لها وتعودهم عليها ^١ .

وإذا كانت تلك العلامات بعيدة عن فن الضبط ، فأبعد منها بالنسبة لهذا الفن الكلام على جواز أو كراهية كتابة السور مكياً ومنذياً وعدد آياتها ورسم علامات الجزاء والأرباع والخموس والعشور والسجّدات وأرقام الآيات وفواتح السور وخواتيمها .

ونختصر : فنقول بأن علامات الوقف ومصطلحات الضبط هي :

- و : تفيد لزوم الوقف .
- لا : تفيد النهي عن الوقف .
- سط : تفيد بأن الوصل أولى مع جواز الوقف .
- لق : تفيد بأن الوقف أولى .
- ج : تفيد جواز الوقف .
- هـ : تفيد جواز الوقف بأحد الموضعين وليس في كليهما .
- : للدلالة على زيادة الحرف وعدم النطق به .
- : للدلالة على زيادة الحرف حين الوصل .
- : للدلالة على سكون الحرف .
- م : للدلالة على وجوب الإقلاب .

^١ ألّفت هذه اللجنة في شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشاذلي من العلماء : عبد الفتاح القاضي المشرف العام على ١٠٠٠ ألف الفرائد ، وعبد المحسن الأستاذ في كلية اللغة العربية : وعبد الحليم بسيوي مدير مكتب شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الحجاج شيخ الفرائد المصرية . هذه اللجنة هضمت بمهارة على أكمل وجه وتلاشت في طائفة ما لوحظ على اللجنة السابقة فاستحقت بما قدّمنا من جهد شكر ناعماً ونساء خاصة .

: للدلالة على إظهار التنوين .

④

: للدلالة على الإدغام والاختفاء .

و < ن : للدلالة على وجوب النطق بالحروف المتروكة .

س : للدلالة على وجوب للنطق بالمعين بدل الصاد وإذا وضعت بالأسفل فالنطق بالصاد أشهر .

~ : للدلالة على لزوم المد للزائد .

: وضعها تحت الراء للدلالة على إمالة الفتحة إلى الكسرة وإمالة الألف إلى الياء ووضعها

قبيل النون المشددة تدل على الأثمام [ضمّ الشفتين] كمن يريد النطق بالضمّة .

• : وضع هذه الإشارة فوق الهمزة الثانية تدل على تسهيلها بين الهمزة والألف .

- : تعرية الحروف من علامة السكون مع تشديد الحرف التالي يدل على إدغامه كاملاً

وتعريته مع عدم تشديد للتالي يدل على إخفاء الأول عند الثاني .

✽ : للدلالة على موضع السجود ، أما كلمة وجوب السجود فقد وضع فوقها خط .

* : للدلالة على بداية الأجزاء والأحزاب وأنصافها وأرباعها .

ا : للدلالة على نهاية الآية ورقمها .

من مصادر هذا البحث في ضبط القرآن :

ممن الذيل في ضبط القرآن للخراز [أبيات قواعد الضبط] .

السبيل إلى ضبط كلمات التنزيل في فن الضبط للشيخ أحمد أبو زيتحار ، والمدرس بمعهد

القراءات بالأزهر الشريف .

البرهان للزركشي .

عبد الفتاح القاضى : تاريخ المصحف الشريف .

المصاحف لابن أبي داود .

ايضاح الوقف والابتداء للإبشاري .

كتاب للنقط لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني .

رسم القرآن الشريف الدكتور عبد الحي الغرمانى .

المقتع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني .

مناهل العرفان للزرقاني .

الوحي المحمدي في أوروبا الوسطى

لعل أوروبا الحديثة في موقعها من الوحي المحمدي هي نفثة من نفثات أوروبا الوسطى من . تحت الجنوح عن الحق ، والتعامل مع هذا الوحي بخفية مسمومة مشبوهة ، يضاف إلى ذلك الوعي الأكثر في الإيديولوجية المحاربة للإسلام ، حسب هذا الموقف من ضعف هو هذا الخلل بموضوعيته حيث لا موضوعية فيه .

هناك موازين ومناهج واحدة لدراسة لية ظاهرة ، ولا يجوز التخلّف عن هذه المناهج ولا التعاطي مع غير هذه للموازن ، بل لا يجوز أن تعدد الموازين والمناهج لتعدّد أشخاص هذه الظاهرة . وإلا فكيف يكون الحكم على الحق بأنه الحق والباطل بأنه الباطل ؟

هناك موازين للحق ، وموازن للباطل ، يقول أمير المؤمنين (ع) :
لا نعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله !

والوحي له موازينه التي تدل عليه سواء كان مع نوح وإبراهيم ، أم كان مع موسى وعيسى ومحمد . من خلال قراءة ظاهرة الوحي بشروطها وموازينها يمكن الحكم على أشخاصها بأنهم أنبياء أو متنبئون ؟

ما يدعيه الذي يعرض على ظاهرة الوحي بموازينها ليكون الحكم اليقيني ، والقرار المكين إن بالرفض وإن بالقبول ! وأوروبا ، إن هناك وإن هنا ، لم تسلك هذا السبيل ، ولم تتبع هذا النهج ، قرارها بشأن الوحي المحمدي لم يكن منطبقاً عن قراءتها لظاهرة الوحي عامة ، ولا عن قراءتها لظاهرة الأنبياء السابقين الذين أمنت بهم بالمقارنة مع ظاهرة الوحي المحمدي ، حيث أنكرتها .

وأختت أوروبا بالوحي مع الأنبياء ، والرسل أجمعين وأمنت به إلا مع محمد رغم وحدة هذا وتمائله ، ورغم بشارة السابقين بالنبوة المحمدية ورغم تصديق القرآن لما جاءت به هذه الترسلات ، ورغم أن القرآن هو دليل ذاته ، وليس مجالنا الآن قراءته كمعجزة وكوحي .

وكما أن الصهوة الإسلامية الحديثة باندفاعها وقوتها حملت الآخرين ، ومنهم أوروبا ، على دراسة الإسلام لمعرفة عوامل قوته وعطائه ، فإِنَّ عناصر القوة الإسلامية التي كانت السبب المباشر في تحجيم المشروع الصليبي وهزيمته في الحروب الصليبية وأطماعها ، قد أشعرت بالحاجة الغربية إلى معرفة الشرق الإسلامي ، واستبطن ثروته الإسلامية .

والأظهر من ذلك ، أن تلك الحملات الصليبية الهوجاء ساهمت أيضاً ، في تكوين صورة سلبية ومشوهة عن الإسلام تثبى لرغبات الوسط للشعبي الأوروبي وتغذيتها ، لإحكام الظاهرة العدائية نحو الإسلام وتعبيتها .

ولئن كانت هناك دراسات موضوعية تتجاوز حاجات الوعي الشعبي ، وإيديولوجية الدولة والكنيسة ، وذلك للإلمام بالعقيدة الإسلامية ، وما تركه أهل العلم والفلسفة الإسلاميون وفي طليعتهم ابن سينا والغزالي وابن رشد ، لئن كانت هناك مثل هذه الدراسات الموضوعية ، فإن الصورة الغالبة عن الإسلام كانت هي السلبية التي تظهر الإسلام الخطر والعدو ، وذلك تبريراً لسياسة أوروبا العدائية إزاءه وكيفما انقلب الأمر فالتحول الغربي للتعرف على الإسلام أخذ سبيله في أشد اللحظات الغربية المتوجسة خوفاً من الإسلام .

لقد كانت الغاية من الدراسة الغربية للإسلام معرفة مكان قوته تبريراً للهزيمة الصليبية في مرحلة أولى من جانب ، ومساهمة في تكوين نظرية لاحقة ومتكاملة تعمل عليها في إظهار أن الإسلام ينطوي على ضعف وثغرات من جانب آخر ، وذلك لمواجهة بمسائل أخرى قادرة على النيل منه ، وأخذه بتلابيبه .

فالقرن العاشر الميلادي ، لا القرن التاسع عشر ، هو الذي بدأ بالضغط لتكوين صورة عن الإسلام العدو بعد الصراع الذي باشرته أوروبا ضد العالم الإسلامي .

إن النواة التاريخية للاستشراق كانت من صناعة هذه الفترة وهذه المرحلة لا من صناعة القرن التاسع عشر ، كما يذهب إليه البعض .

لكن لا يذهبن بك الظن إلى أن مناهج الدراسة هذه ، وإمكانياتها ، ومساثلها كانت متكافئة متساوية في المرحلتين .

فالغاية واحدة هي إخضاع الإسلام والالتفاف عليه ، والنيل منه ، لكن الوسائل قد تباينت ، ومناهج الدراسة قد اختلفت باختلاف المرحلتين وظروفهما وإمكانياتهما .

انطلاقاً من هذا الاعتبار يمكننا التوقف عند البعثة التبشيرية إلى أسيا الصغرى
لتنصير المغول ، ويمكننا الحديث عن محاولات وجهود رايموندس ليلوس المتوفى في تونس
عام ١٣١٤ خلال قيادته لإحدى الحملات .

ما هو مشروع رايموندس ؟

لعل مشروعه ينطلق من دراسة اللغة العربية بعد تأسيسه لمعهد [ميرمار] الرهباني
١٢٧٦ ، وليس لذا نرى أن تنسى الدور الكبير في صياغة مقررات المجمع الكنسي الذي انعقد
في فيينا ١٣١٢ ، ذلك للمجمع الذي كان من جملة توصياته إنشاء عدد من الكراسي الجامعية
في اللغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية في كل من باريس ، واكسفورد ، وبولونيا ،
وأفييون ، ومالمنكا^١ .

وكان عن هذا التوجه لطباع للظاهرة المعرفية في الغرب بالروح الصليبية تجاه
الإسلام لتكون الخطوة الاستشرافية الأولى من الألف ميل مشحونة بالخلفيات المشبوهة ،
ومفعمة بالاحتقار والتشويه إن للإسلام وإن للمسلمين .

من هذا المفهوم يمكننا أن نذهب إلى أن الدراسات الاستشرافية على الأعم الأغلب ،
لم تكن من الموضوعية في شيء ، بل كانت محكمة بشحنات عصبانية ، ونوجحات سلفية ،
لتعمل عملها في مشاعر الناس ، ومواقفهم السلبية من الإسلام .

" لقد خلقت هذه النظريات المعرفية جمهوراً واسعاً نهماً إلى صورة إجمالية ، تركيبيّة،
ومرضية عن إيديولوجيا الخصم كمنظومة أفكار ، إن العقائد المرئية من الخارج تظهر ما
تريد أن تكون بالنسبة لمؤيديها : الجوهرية ، لكن الجمهور كان بحاجة إلى أن تكون الصورة
المقترحة مع تبيانها لها صفات الإسلام الكريهة ، بشرحها إياه بشكل فظ ، قادرة أيضاً على
تلبية ميوله الأدبية نحو الرائع ، الملحوظة والمروقة في كل إنتاج العصر " .

وأن تتضمن الصورة الخصائص الغربية الأشد برزواً ، والتي أمكنها أن تلتفت نظير
الصليبيين في علاقتهم مع المسلمين ، فضلاً عن ذلك ، كما أن كل حركة إيديولوجية تكون
لنفسها تاريخاً مقسماً يعلل بشكل تعاقبي ظهورها كعلاج ضروري لشروط العصر ، وكما
حتمى للتاريخ البشري ، يضع مؤسسيها كشخص يتمتع بمواهب استثنائية ، ذاهبة في تمجيده

^١ - راجع تاريخ الاستشراق ، وكتاب : المستشرقون ، نجيب العقيقي ، ثلاثة أمراء بشر دار المعارف القاهرة ، كذلك كتاب : بداية
الإسلام ، مكسيم رود نسوف ، نشر دار الشؤون بوزن ١٩٨٢ ، وكتاب الاستشراق ، إدوارد سعيد ، دمشق ١٩٨١ .

إلى حدّ التأليه أحياناً ، كذلك فكل حركة مقابلة تقرأ جوهر الطابع الضّارّ لخصمها في هذا التاريخ المقدّس الذي صار شيطانيّاً وفي النشاط المشوّم للمؤسّس^١ .

من هذا النشاط الغربيّ الأوّل ، الذي حاول أن يضع الإسلام بين يدي محاكمة تاريخية، وينطوي على رغبة في القضاء عليه ، وإخراجه من دائرة الغربي وروحانيته ، من هذا النشاط " كومينديا دانتي " وقصائد [لوجيت] الانجليزي .

فالكمينديا الإلهية الدانتية ترسم جحيماً هرمياً مقسماً إلى مناطق تسمع ومساحة كل منطقة تأخذ بالضيق وهي في طريقها إلى القاع .

هذه " الكومينديا " جعلت لكل واحدة من الخطيئات منطقة خاصة بها ، ووضعت الخطايا والمناطق في ترتيب ينقسم بدوره إلى ثلاثة مجالات : الشهوة ، والعنف ، والخداع ، وهي إشارات ترمز إلى الكائنات الثلاث في التصنيف المسيحي ، وهي الانغماس في الشهوات ، والعنف والغش ، وفي هذا الجحيم ، يضع دانتي الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمّه الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، ويختار لهما مكانة خاصة تكشف إلى حدّ بعيد مدى الكراهية المتأصلة في نفسه ، والتي كانت همومه أن يبرزها تجاه الإسلام ، والتي غابتها تغذية نفوس الغربيين وشحنها بمشاعر الانتقام من عنفوان الإسلام ، وإمكانية تحقيقه في دائرة الواقع .

في النشيد الثامن والعشرين ، وفي الوادي التاسع من الدائرة الثامنة للجحيم ، يظهر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد أُنزِلَته الكومينديا الدانتية إلى منزلة الشر التي رسمها على صورة جيوب كالحة مظلمة تحيط بمعقل إبليس في الجحيم ، لذلك وقيل أن ينقّي دانتي برسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بمرّ أولاً على الدوائر السبع السابقة التي تجمع مذنبين أقلّ شأنًا في خطاياهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم فئة المنقسمين في حب الشهوات وللخلاء والشرهين والهرطقيين والغاضبين والمنحرفين والمجدفين ، ولا يأتي بعده سوى المزيّفين والخونة ذلك قبل أن نصل إلى الدرك الأسفل والأخير من الجحيم ، حيث يقيم إبليس ، وعليه فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفقاً لمخطط دانتي ، ينتمي إلى نظام هرمي من الأمور ، في الفئة التي أطلق عليها دانتي تسمية باذري الفتنة والشقاق .

أما الصورة التي يعنّب بها وهي عقاب سرمد في الجحيم ، فقد ظهرت على شكل مثير للنتقار والاشمئزاز ، فقد شقّ إلى قسمين ، على نحو منكر لا ينتهي ، ابتداء من الذقن

^١ - كتاب لا حادبة الإسلام ، نشر دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ ص ٦٠ .

والتهاء بالشرح كما يصفه بيرميل نفستخت ضلوعه " دون أن ينسى وصفه المروع الذي تظهر من خلاله [أحشاء محمد وإفرازات أمعائه]^١ .

ويشطح الخيال الدائتي من منطقتات الصورة المراد رسمها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم سلفاً ، ولا يظهر هذا الخيال ولا هذا الوصف بمعزل عن هذه الصورة .
وإن الوقائع التي تسردها هذه الكوميديا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم توضع بين يدي التقييس النقدية ، وللتحivصات العلمية ، والقواعد التاريخية ، بل هذه الوقائع هي من فعل الأفكار التي غلبتها خدمة السياسة لعصرها وتمثلاته المختلفة .

إن دائتي عندما رسم الصورة المحمدية لم يكن بحاجة إلا لصياغة صورة خرافية مما يخلج في الوعي من ردود فعل أو بالأحرى عما ينبغي أن يتشكل في هذا الوعي الأوروبي من صور وأفكار تتناول مقدسات الخصم الذي يقف بقوة على أبواب أوروبا .

بهذا وبغير هذا كان سهلاً على دائتي أن يرسم هذه الصورة السلبية المحمدية الخرافية، ولم يكن بحاجة إلى أدلة وتحقيقات وبراهين ، هذه الصورة تكشف مضامينها وغايتها دون أي لتباس . لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الصورة مثقوباً من النفق حتى عمق الأحشاء ، وكانت أمعاؤه واقعة على ساقيه ، وقد رأينا نقبات قلبه ، والبطين حيث تحضر الطبيعة الإفرازات الكريهة ، وقد تأملته بانتباه نظر إليّ ، ومن خلال يديه التي تشق أيضاً الصورة ، يقول لي : أنظر كيف أنا مثقوب ! أنظر كيف هو محمد ممزق ، وأمامي كان عليّ منتحباً ، وهو يمشي مفتوح الرأس من النفق حتى الجبهة ...^٢ .

وتظهر أكثر ما تظهر الغاية الأساسية من هذا للجحيم الدائتي ، ومن خلاله فكر العصر الوسيط كتعبير عن رغبات مكبوتة لمحاكمة الاسلام ، ومعاقبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتظهر هذه الغاية عندما نلاحظ أن [الكوميديا الإلهية] قد كان لها من الطباعة أكثر من ست عشرة طبعة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي ، خمس عشرة طبعة باللغة اللاتينية ، وطبعة بالعبرية ، وأكثر من عشرين طبعة في القرن السادس

^١ - "لاذموبراب الأوربوية للإسلام في العصور الوسطى ، وتأثيرها في الكوميديا الإلهية ، مجلة عام الفكر ١١ ، العدد الثالث ، ص ١٠٠ .

١٩٨٠ ، الفكرت ، ص ٨٥ - ١٠٠ .

^٢ - "داني البيري : الكوميديا الإلهية ، منشورات مكتبة غارنيه إيجون ، باريس ١٩٣٠ ، ص ١٠٦-١٠٨ .

عشر ، وأعيدت طباعتها في القرن السابع عشر ، وما زالت طباعتها تتكرر وتكرر ، وترافقها ألوان وألوان من التعليقات والتشروحات والمقالات .
ولم يكد يعبر القرنان من الزمن بعد دانتي حتى اطل علينا الشاعر الانكليزي [جون لدجيت] بقصيدة عنوانها يعلن عن مضامينها وغاياتها :
' عن محمد النبي المزيّف وكيف أكلته الخنازير وهو سكران ' .

وماذا في القصيدة عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟
هذه للقصيدة يمكن اعتبارها أول أدب انكليزي يتناول حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن بصورة لا تحتاج إلى كثير من التعليقات ، لأنها لا تتطرق بأكثر من الرغبة في تصوير الاسلام بشكل يتبع عقلانية ما بعد الحروب الصليبية ، ورويتها المتحاملة بحق خشن على الاسلام والمسلمين ، بما يمثلانه من خطر على أوروبا الناهضة . وشرعت هذه القصيدة تتعت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالشنيع من التعوت ، فإذا به في معجمها الانسان المزيّف والماسح والازاني والوضع الأصل ، والمنتحل لشخصية المسيح ، والمصاب بالصرع ، والذي تأكل الحمامة الحب من أنفه والثور يحمل له على قرنيه جرار اللبن والعسل ... وتنتهي القصيدة بنهاية لحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأله وسلم أرادها الشاعر أن تكون على الشكل التالي :

" مات كأي إنسان نهم

لأنه افراط في شرب الخمرة

ووقع في بركة وأكلته الخنازير ... " ١ .

واستمرت الرؤية التي تتطلبها المرحلة للصليبية في الأدب الغربي بعد الكوميديا الدانتية وقصيدة لدجيت حتى القرن الثاني عشر الميلادي .
فالقصيدتان كانتا وصفيتين انفعاليتين . أما محاولات القرن الثاني عشر فقد كانت أكثر تسمّناً ولكن كان بينها وبين الموضوعية جفوة في المعلومات التي تنشرها حول القرآن والنبوة . يقول " سبوندرن " بأن الرسول ﷺ كان ينظر هذه المرحلة : " ماسحاً ، دمر الكنيسة في أفريقيا وفي الشرق بالمسح والخداع وبلياحته الاختلاط الجنسي العام . وكانت خرافات أتية

١ . مقالة " صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الغربي من القرن الخامس عشر " مجلة عالم الفكر ، العدد ٤ ، سنة ١٩٧٨ ص ١٤٢ .

من الفلكلور العام ، من الأدب الكلاسيكي ، من النصوص البيزنطية عن الاسلام ، من روايات اسلامية شوحتها مسيحيو الشرق بحقد ، كانت تزيّن هذه الصورة ^١ .
لكن الأهم من ذلك كله هو ذلك الالتحاح المفرط على أن النبوة المحمدية كانت تشويهاً للمسيحية ، وكانت انتقاماً من نبوة عيسى (ع) .

أليس في ذلك إدانة للإسلام وتزويراً لمصادره الإلهية ؟
أليس في ذلك ما يغذي الشعور العام بعظمة عقيدة الغرب المسيحية ؟
أليس في ذلك دعوة لضرورة الانتصار المسيحي على الاسلام ؟

هذه الصورة المزيفة والمصطنعة ما لبثت أن تحولت إلى اسطورة جرى تعميمها بانتقان ، وقد ورد ذكرها على ألسنة الكثيرين من الباحثين المتأخرين ، أمثال : "الساندور دي أنكونا" في كتابه "دراسة للنقد وتاريخ الأدب" ^٢ ، "نورمان دانيل" في كتابه "الاسلام والغرب" ^٣ ، و"ميشال راي بول" في كتابه "صورة محمد في الأدب الإنجليزي الوسيط" ^٤ ، وأخطر ما جاء فيه مؤلفاتهم من هذه الأسطورة بأن نبي الاسلام :

"لم يكن مؤسس ديانة جديدة ، وإنما هو مسيحي مرشد ، ها قد كون طائفة منشقة داخل المسيحية ، يحنده في ذلك طموح منحرف . فالخرافة التي تقول بأن محمداً كرديال روماني أسس مذهباً جديداً منشقاً ، كانت من عمل النحاة الفرنسيين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، وقد انتشرت هذه الخرافة على نحو خاص في شمال إيطاليا على عهد دانتي حيث رواها له معلمه "برنشولاتيني" وفي رواية أخرى لهذه الخرافة وجدت في شامبين ، أن محمداً هو أكثر للكرادلة حكمة وأعزهم علماً وقد وصلت شهرته إلى درجة حدث بمجلس الكرادلة المقدس لأن يحثه على دعوة السراسنة [العرب] في الشرق لاعتناق المسيحية لكنه رفض أول الأمر أن يأخذ هذه الرسالة على عاتقه ، لكنهم وعدوه بترقيته إلى وظيفة بابا وعلى هذا الشرط غادر محمد روما ، وقد اجتذب محمد جماهير غفيرة من السراسنة إلى اعتناق المسيحية حيثما حل فيهم واعضاً غير أن الكرادلة نقضوا العهد معه ، فعلى أثر وفاة البابا الحاكم اختاروا شخصاً آخر غير محمد ليحل محله ، عندئذٍ كان انتقام

^١ - نرى الرغبة للإسلام في شعور توسعي ، كمهدج ١٩١٢ ، وكذلك حادية الإسلام من ٢٠٢٠ - ٢١٠٢ .

^٢ - الساندور دي أنكونا : أسطورة محمد في الشرق في دراسة للنقد وتاريخ الأدب ، بولونيا ، رابنيلي ، ١٩١٢ من ٢٠٨-٢١٥ .

^٣ - نورمان دانيل : الإسلام والغرب ، تكوين صورة نشر جامعة أدنبرة ، ١٩٦٠ .

^٤ - ميشال بول : صورة محمد في الأدب الإنكليزي الوسيط . نشر جامعة روت كارولينا ، ١٩٧٠ .

محمد - كما نقول الأسطورة - بأن دفع من هدام إلى الارتداد عن المسيحية ، وأخذ يفسر فيهم ما يناقض العقيدة المسيحية . ومن هذه الخرافة وحدها نستطيع أن نبين مغزى الأسطورة التي ابتدعتها للغرب في العصور الوسطى على أن الإسلام كان أداة الانتقام من المسيحية ، ولم يكن في حد ذاته ، ومن هذا المنطلق كان من السهل إشاعة وتبرير الفكرة التي تزعم أن الإسلام كان نوعاً من الهرطقة والخروج على المسيحية^١ .

والذي يمكن ملاحظته أن النظرية للوسطية تعتمد إلى وضع مقاييس مسبقة كي " تناسب ظروف محمد " كما يقول نورمان دانيل ، كما أن هذه النظرية جعلت كل ما يبدو للغربي العادي " كريهاً في الإسلام " يظهر له أيضاً " لشد صفاته أهمية " ، وبرأي دانييل نفسه فقد " كان من السهل وضع معايير تقاس بها كل الذبوات وتقتل بها نبوة محمد " ^٢ وتعرض القرآن الكريم لهجمة شرسة ودراسة غير موضوعية في تلك الفترة . هذا هو الراهب في " دير كلوني " بيار الميجل ١٩٩٤-١١٥٦ يأخذ منه الاهتمام مأخذه باستخدام نصوص الإسلام لأغراض هجومية لادقة ولا موضوعية فيها . لا شك أن بيار الميجل كانت له معرفة واسعة وعلمية بالإسلام ، لكن الذي شوه هذه المعرفة هو غايته المشبوهة من هذه المعرفة وتحصيلها.

لقد كان الإسلام في عصر الميجل ذا خطرين : الأول : تهديده لتمامك الكنيسة والعقيدة المسيحية . والثاني : تهديده لمصالح الغرب التاريخية والإستراتيجية . بهذا يمكن فهم أبعاد المساهمة الإستشرافية التي شرع بها ، والتي كانت تتمحور حول هدف مزدوج : حماية المسيحية وتشويه الإسلام .

لقد كان لدى هذا الراهب وعي حاد بالأخطار التي تحقّق بالكنيسة الداخلية في عصر صخب فكري وانشقاقات في الألق وطعن معموم وبدافع من قناعاته الشخصية وبوصفه زعيماً لرهينة هذا هدفها ، كان يريد تصليح الكنيسة ضدّ هذه المخاطر^٣ .

^١ - رشاد حمود الصباح ، كتاب التصورات الأوروبية للإسلام في العصور الوسطى ، وتأثيرها في التكوين الديني ، مجلة عالم الفكر ، العدد ١١ ، العدد الثالث ، حريف ١٩٨٠ ، الكويت ص ٨٥ - ١٠٠ .

^٢ - نورمان دانيل : كتاب الإسلام والغرب ص ٧١ .

^٣ - نفس المصدر ص ٦٨ .

^٤ - حاديه : الآلام ص ٢٢-٢٣ .

وقد اعترف بيار المبجل بحقيقة الغاية التي شجعت على دراسة الإسلام والاهتمام بالقرآن بشكل خاص وذلك عندما يقول :

" اذا كان العمل يبدو ناقلاً لأن العدو لا يمكن أن يكون بمثابة أسلحة كهذه ، فإنني أجب أن : في جمهورية ملك كبير ، بعض الأشياء تعمل من أجل الحماية ، والبعض الآخر من أجل الزينة ، والبعض الآخر من أجلهما معاً ، سليمان المعالم صنع أسلحة للحماية لم تكن ضرورية لعصره . داود هياً زينة للهيكل رغم أنها بلا نفع ممكن لزمانه ... كذلك هذا العمل على ما يبدو لي ، لا يمكن وصفه بأنه غير نافع ، إذا كان لا يمكن أن يهتدي المسلمون به ، فعلى الأقل أن العلماء المحبين للعدالة لا يمكن أن يهملوا قضية تزويد للضعفاء في الكنيسة الذين بهذه السهولة ، وهذا اللاوعي تثير أسباباً صغيرة جداً انفعالهم واستكثارهم " .^١

في سبيل تحقيق رغبته هذه " بيار المبجل " في رحلة ثقافية لتأدية الكلوينية في أسبانيا بحثاً عن قسم لاتينيين ملمين باللغة العربية التي لا بد لقارئ القرآن ودارسه من الإلمام بأصولها وفهوها .

في سنة ١١٤١ ميلادية تعرّف على " روبرت أوف كيتون " الانكليزي ، و " هرمن التلمشي " السلافي . وكان كلاهما من دارسي التنجيم وخبيرين في اللغة العربية .

وحسب ما جاء على لسان " جايمن كرتيزيك " في كتابه " بيار المبجل والاسلام " فإن الأب بيار المذكور أغرى هذين الخبيرين " بالرجاء والمال الوفير بترك دراستهما في سبيل خير أجل ألا وهو للنضال ضد هرطقة محمد الوضيعة " ، إضافة إلى تزويد الثلاثين الجهلة بمعلومات وافية عن هذه " الهرطقة " كي يستخدموها في العمل التبشيري " ومن الجلي أن بيار المبجل قد شعر بأن هذا الموضوع ملح ، لذا فقد أقنع نفسه بأن معرفة للقرآن والإلمام بشيء من الفكر اللاهوتي الاسلامي قد أصبح أمراً ملزماً للمسيحيين حتى يهاجموا الاسلام على نحو فعال " .^٢ وقد تم ما أراد ، وما سعى لأجله بيار المبجل .

ففي الخامس عشر من تموز سنة ١١٤٣ م (٥٣٨) أنهى " روبرت أوف كيتون " ترجمة القرآن ، إضافة إلى ترجمات أخرى كان يتم إنجازها في الغالب :

" نحو من التهكم والتحريف والتشويه والمخرية من الاسلام ورسوله من جانب رجال الجدل المسيحي ، وقد كان بيار المبجل وكتابه " الرد على هرطقة السراسنة ومذهبهم

^١ - ورد نموذج . كتاب حجابية الاسلام ص ٢٣ .

^٢ - جيس كرتيزيك . كتاب : بيار المجل والإسلام ، نشر جامعة مونتريال ، ١٩٦٤ .

الشيطناني^١ ، هما اللذان يقودان ويوجهان حركة التأليف الجدلية التي قصد بها تفهيد الاسلام عن أسس من تعاليمه^٢ .

وكانت قراءة أوروبية للقرآن والاسلام لاحقة ، وكانت ترجمات وترجمات غربية للقرآن بعد هذه الفترة .

لكن من اللبادة أن يؤثر السابق باللاحق ، وأن يحمل اتلاحق تراكمات سابقة ، لذلك لم تكن ترجمة " الكسندروس " للقرآن أكثر موضوعية من ترجمة القرن الثاني عشر ، حيث إنه بعد أن انتهى نقل الترجمة من الفرنسية للقرآن التي قام بها " أندريه سوردوربيه إلى اللغة الانكليزية عام ١٦٤٩ ، جعل القرآن عنواناً : " قرآن محمد ، ترجمة من العربية للفرنسية سوردوربيه... وترجم للانكليزية حديثاً لارضاء كل من يود النظر في أباطيل الأتراك " .

وفي مقدمة هذه الترجمة ، يحذر " روس " للقارئ قائلاً :

" أيها القارئ الكريم ، ها قد وصل الدجال العربي الكبير بعد ألف سنة عبر فرنسا إلى انكلترا ، وقد تعلم قرآنه ، ذلك الخنيط من الأباطيل [ابن مشوه كلبيه ، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأس صاحبه الشائه من قشره] أن يتكلم اللغة الانكليزية " .^٣

رغم الاختلاف الذي لا يكاد يلح ، ورغم الموضوعية النسبية ، فإن ترجمة " جورج سيل " للقرآن ، لم تخرج عن دائرة القاعدة التي وضعها الرؤية الوسيطية . وعندما حاول " سيل " إخفاء نوع من الحياد والموضوعية على ترجمته ، اتهم باعتقافه السري للاسلام ، كما يقول كاتب مقدمة للترجمة المذكورة " رافنبورت " .

أمّا " جورج سيل " الذي كان أول من ترجم للقرآن إلى اللغة الانكليزية نقلاً عن العربية مباشرة ، وبدون واسطة لغة أخرى ، فإنه اعترف بعدم وجود أي تعاطف مسبق نحو الاسلام ، وإنه كان يعتقد أن القرآن " كتاب مزيف بشكل واضح " كما صرح بأنه كان وراء الفكرة التي طالما ترذنت بعده ، والتي كانت تعتبر القرآن بمثابة " كتاب بليد ، مليء بال تكرار " ورغم ذلك كله سعى " سيل " ما وسعه السعي إلى تقديم ومبلة حيوية للبروستانت تسماعدهم على كسب المسلمين إلى دينهم بعد أن يفهموا نقاط الضعف في الاسلام^٤ .

^١ - رشاد حرد الصاح : التصورات الأوروبية عن الإسلام في المصور الوسطى ص ٩١ .

^٢ - مسريل شو : افلال والفرقة ، لندن ص ٤٤٩ - ٤٥٠ وكذلك : صورة الإسلام والمسلمين ، ص ١٥١ .

^٣ - بنختر نمه . ص ١٥٢-١٥٣ . وكان جورج سيل قد ألف ترجمته للقرآن عام ١٧٣٤ .

وبعد هذه القراءة للعجلى للرؤية الوسيطية الغربية حول القرآن والاسلام ، وما أثارته هذه الرؤية لهما من شكوك وريب ، وما كان لها من انفعالية متشجعة إزاءهما ، وما أظهرته من حقد عليهما ، وحلع منهما ، بعد هذه القراءة يمكننا الاستخلاص بأن أوروبا بأكملها ووعيا كانت مستيقنة بأن القرآن وحي ، وأن محمداً نبي ، لقد كان الغرب يدرك قوة القرآن الذاتية ، وخطر الاسلام عليه ، كما كان للغرب الوسيطى صليبيته وكنيسته ودولته وحضارته التي يخشى عليها من هذا القرار وهذا الاسلام كما كانت له أطماعه الواسعة في بلادنا ، فلم يكن له إلا محاربة المسلمين من خلال القرآن والاسلام ، فإن بدارساته لهذا القرآن ، ولهذا الاسلام تشويهية ليفض من طرفهما ، ويثا من جوهرهما ، فيثير الحماس الشعبي الغربي عليهما من جانب ، ويثير للشبهات والشكوك حولهما في نفوسنا وفي مواقفنا ، كما نلاحظ عند المتغربين في ثقافتهم ممن يدعون الحداثة أو المعاصرة من باحثينا وأهل العلم والفكر عندنا .

بعد هذه القراءة المسرعة لا المتسعة نسرك جوهر الرؤية الغربية وخلفياتها المسمومة والخطيرة ، وكما قال القرآن : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ... ﴾^١ ق: الآية- ٢٢ .

إن من أخطر هموم هذه الرؤية الغربية علينا أن يكون لها أتباع وأتباع وطلاب من أبنائنا .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ القصص : الآية- ١٧ .
﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقْلِيدُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ عافر :
الآية- ٤ .

* إن الباطل مهما طغى فإلى الحق المصير *^١ .

العقل في القرآن

قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَعْجَرِ ﴾ الملك : الآية - ١٠ .
 ﴿ إِنْ شَرَّ الشَّرَّابِ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْكَبِيرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الأنفال : الآية - ٢٢ .
 ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا لَوْلَا كُنْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة : الآية - ١٠٤ .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمِيتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرَاهِنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة : الآية - ١١١ .
 ﴿ وَلَا تَقَفْ مَا تِلْكَ بِهِ عَيْنٌ إِنْ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْفُؤَادُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَ مُسْتَوْلا ﴾ الإسراء : الآية - ٣٦ .
 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الحج : الآية - ٤٦ .
 ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ العنكبوت : الآية - ٢٠ .

﴿ وَنَسَخَرُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل : الآية - ١٦ .
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ الحجرات : الآية - ٦ .

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ النجم : الآية - ٢٣ .
 ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِينُنَا قُلُوبُ الَّذِينَ قَاتَلُوا مَرَّةً ﴾ الإسراء : الآية - ٥١ .
 ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ النمل : الآية - ٦٩ .

أجزاء البحث :

١. مكانة العقل
٢. رفض التعصب والهوى
٣. لا نظيد
٤. التثبيت
٥. الدعوة إلى التفكير
٦. لا حدود للعلم

١. مكانة العقل :

العقل للإنسان شرفه وميزته وميزاته وبأسباب العقل فضل الله الإنسان على سائر خلقه، وسخر له ما في السماوات والأرض ، يقول أرسطو " الإنسان حيوان ناطق " . وقال تعالى " ولقد كرمنا بني آدم " ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض " .

العقل هو حجة في الأحكام ، وهو أحد مصادر الفقه الأربعة ، في نظرية الاسلام وفي مذاهب علمائه جميعاً ما عدا فلة من هؤلاء العلماء .
بينما كان العقل الانساني في الحياة الجاهلية في غيبوبة تطوقه أغلال الجهالة والاسطورة ، ويمتلك أمره السحر والخرافة .

أنيس العقل مشلولاً حين يأخذ بعبادة الشرك والوثنية فيكون لتقديس الحجر والشجر ، للنيران والحيوان للنبات والكوكب ؟
وهل للعقل من نشاط حين تكون الحياة الاجتماعية طبقية مستقطبة وامرأة منبوذة لو مؤودة أو ملهى للرجل ؟

ونحن يمكن أن نعرف الله بمقولنا كما نعرفه بقلوبنا ، فالعقل يحدث الوعي وينتج المعرفة ويمكن من الاقتناع والافئاع .
لقد أثبت سينما إبراهيم (ع) وجود ونفي الشرك بالدليل العقلي في محاورته مع قومه الذين كانوا من عبدة الكواكب .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴾ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنُنْزِلَنَّكَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ الأنعام : الآيات-٧٦-٧٩ .

وقصة المحاوره هي أن سيدنا ابراهيم (ع) حين غادر أرض العراق متوجها إلى سوريا حيث نزل في حرّاء التي كان أهلها من الصابئة الذين يعبدون الكواكب . لم يستطع سيدنا ابراهيم (ع) أن يسكت على عبائتهم الضالة ، رأى أن يخاطبهم بلغة العقل والبرهان وأن يحاورهم بالأسلوب الذي يفهمون .

في إحدى الليالي حين كان يجلس إلى جماعة منهم رأى كوكبا مما يعبدون ، فقال : هذا ربّي ! ولم يلبث الكوكب أن توارى فقال : " لا أحب الأفلين " ، ثم رأى القمر بازعاً وهو أشدّ ضياءً وأكبر حجماً فقال : هذا ربّي ! ولكنه تفقّد بعد قليل فلم يجده فقال : " لننّ لم يهدي ربّي لأكويّن من القوم الضالّين " .

وفي ضحوة نهار رأى الشمس تملأ الحياة دفناً وتغمر الكون بالضياء لقد وجدها كبيرة كبيرة ، فقال : " هذا ربّي " ، هذا أكبر ! " فلم يطل به الوقت حتّى رآها تغرب ، فقال قولته الفاصلة : " إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ " .

وهكذا استطاع سيدنا ابراهيم (ع) أن يستخدم العقل في مسألة الألوهة ، وأن يثبت بالدليل القاطع أن الكواكب المنتقلة من حال إلى حال أنّها ناقصة ، وأن الأشياء المتحولة من شأن إلى شأن لا بدّ لها من خالق يخلقها ويدير أمرها . بذلك استطاع أن يجهر بدعوته قائلاً : " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " .

نلك هي مكانة العقل في القرآن ، وإنها لمكانة سامية تشير إلى أن العقل موثوق وقادر ، وإلى أنّه يسمو بالانسان عن الحيوان ، وإلى أنّه سبيل إلى معرفة الله وطاعته ، وإلى أن له مقام القيادة والتوجيه في الشخصية الإسلامية فجعل سلوك المسلم الحق يتمحور حول مركز العقل ويتحرك على ضوء إشارته ، إن العقل هو مقياس التفاضل بينه وبين الآخرين . وهو الذي يملك قدرة الرفض أو القبول في إطار العقائد والسلوك والمواقف .

والعقل له في القرآن دوره الحاسم في سعادة الانسان وتقرير مصيره في الدنيا
والآخرة :

" وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير " وورد في الحديث الشريف:
" إن الله لما خلق العقل خاطبه قائلاً :
' وعزنى وجلالي ، ما خلقت خلقاً أحب إلي منك ، ولا أكملته إلا فبمن أحب ، أما بني
إيالك أمر ، وإيالك أنهى ، وإيالك أعاقب ، وإيالك أئيب " .

رفض التعصب والهوى :

الموقف العقلي موضوعي لا يتصل بعصية أيّاً كان لون العصية ولا علاقة
له بهوى من الأهواء ، لأن الأهواء فاسدة ومفسدة حيث هي تتوقع للشخص
في زاوية مصالحه وحدها ولا تخرج به إلى رعاية مصالح الآخرين .

يقول تعالى: " إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس " ويقول صلى الله عليه وآله وسلم : " لا
عصية في الإسلام " .

لا تقليد :

يأمر القرآن بأن لا يقبل الانسان أمراً من الأمور على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان
وخاصة في مسألة العقيدة والايمان حيث لا مفر من الاقتناع واليقين ولا تقليد .

لا يجوز أن يكون الميزان غير الحق ، والحق يعرف بالتفكر وحسن التمييز بقول
أمير المؤمنين :

" يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال " فالحق في الاسلام ينظر
إليه بذاته لا من خلال الأشخاص أيّاً كانوا أولئك الأشخاص . يقول الامام
الباقر (ع) :

" لا ننظر إلى من قال وانظر إلى ما قال " وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْتَهِجُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آثَارًا أَوَلَوْ كُنَّا
آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة : الآية - ١٧٠ .

إن الانغلاق والتعصب والانقياد الأعمى الذي لا شخصية فيه ، وإن التبعية التي لا تفكر ولا تحسن التقدير ، كل هذا مرفوض في نظرية الاسلام .

التثبت :

إن العمل بلا تثبت ويقين كالبناء ومن دون أساس ، ومتى استقام البناء بدون الأساس ليستقيم العمل بدون اليقين ؟ والخطر هو دوام الشك لا مجرد الشك .
فالإسلام لا يأخذ إلا باليقين الثابت والبرهان الواضح لكيلا تعمل الظنّون عملها لأن الظن يستدعي ظنونا ، والوهم يتبعه أوهام .

" قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " ، " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " .
إن الاسلام يرفض الاحكام القائمة على الظنة أو الشبهة لأنه لا عقوبة في الاسلام إلا بنص ، يقول :
" إدرأوا الحدود بالشبهات " .
" وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " .

لقد رسم لنا القرآن المنهج البرهاني والاستدلالي الذي ينبغي استخدامه حين تعترضنا مشكلة دينية أو معضلة فكرية ، أو مسألة اجتماعية حيث لا يحق لنا الأخذ بقول ، ولا التبنّي ل رأي ، ولا الاضمتان إلى فكر ، ولا الممارسة لعمل دون أن يكون مستنداً إلى دليل عقلي أو حجة قوية تثبت صدقه وصحته .

مرفوض في القرآن الإدلاء برأي عقائدي أو قبول أو إشاعة إذا لم يكن ذلك مدعماً ببرهان يدفع الشكوك والريب :
" ولا تقف ما ليس لك به علم " .

الدعوة إلى التفكير :

إن النشاط العقلي ينبغي أن يكون رفيق كل قول وكل عمل ، لذلك فالقرآن ألح في الدعوة إلى التفكير الباحث ، والتأمل المدقق ، والملاحظة الواعية لقضاياها منها :

١. خلق الله تعالى للعقل للاستدلال على وجود الله وعظمته وقدرته وحكمته :

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا...﴾ إل
عمران : الآية-١٩١ ، وإن كان البعض يقولون بأنه ليس عن طريق العقل
نعرف الله بل عن طريق القلب كما تقول الصوفية وكما يقول باسكال .

ب. الأسرار الكونية والانسائية لدراستها واكتشاف قواها ، ولإستخلاص خيراتها ،
وتسخيرها لمنافع الإنسان وسعادته :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُنْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل : الآية-١٢ .
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات :
الآية-٢٠-٢١ .

ج. المبدأ والمعاد :

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعْبُدُكَ يَا آدَمُ قَالَ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الاسراء : الآية-٥١ .

د. أحداث الماضي ومصائر الأمم : ليكون إستخلاص العبر ، والاستفادة من الماضي
وخبرته لأن أيام التاريخ موصولة ولا انفصال بينها ، إن القرآن يوجه للعقل ليتفكر
في الناس وينسحب قانوناً يكاد يكون حتمياً في صحته وصدقته .
ولو تعرفنا على ماضي أممتنا خاصة والأمم عامة لكان لنا منه ألف عظة
وآلف مدرسة ، فالقرآن يدعو إلى دراسة عوامل القناء والبقاء ، وأسباب النشوء
والارتقاء والانهيار في المجتمعات .

﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ الفجر : الآية- ٦ .

ويقول عليه السلام : " إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها " .

من البداية أنه لو كانت مصائر الأقوام والممال وأنظمتها قد سارت خطب
عشواء وعلى سبيل من المصادفة أو لو كانت تلك المصائر مفروضة من
فوق لما كان من حاجة للدرس أو عبرة ، بهذا التوكيد يريد القرآن أن
يشير إلى أن مصائر الأقوام تتحكم فيها أنظمة واحدة ويتعبير آخر لو

تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه مصيرهما ، وكما يقال: إن الاسباب المتشابهة تنتج أحداثاً متشابهة .

لعة والمعلول :

ومن الأدلة على قول القرآن بأصالة العقل وأهميته هو تبيان بعض المسائل باستخدام الأسباب والمسيبات .

فالسبب والمسيب وأصل السبب هم قواعد للتفكير ، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به . إن العالم في القرآن هو معلول لعة ، وإن الوقائع والأحداث والظواهر هي خاضعة لسيطرة هذا النظام أي الأسباب والمسيبات . ﴿لَإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد : الآية- ١١ .

هذه الآية الكريمة تشير إلى مسألة الأسباب ، وترك العقل يستفيد من هذه الظاهرة وهذا النظام لأنه بمعرفة الأسباب والمسيبات ، تكون الكشوف وتزول الشكوك والالتباسات ، وتتقوى الخرافات والأباطيل والجهات .

الأحكام :

إن العقل حجة في نظرية القرآن لذلك يطلب إليه أن ينظر إلى الأحكام والسماتير لأنها لم توضع إلا لمصلحة ، فعلى الرغم من أن هذه الأحكام سماوية ومن الله فإن القرآن يطلب ويلج على الانسان أن يتأملها ويتفكر فيها لكي يتبين له كنه الأمور ولئلا يحسبها مجرد سلملة من الرموز أسمى من فكر البشر .

شطحات العقل ومكافحتها :

إن العقل له أخطاؤه في افتراضاته واستنتاجاته واحكامه ويكفحها القرآن ، وإن الحواس والمشاعر لها أخطاؤها فهل تلغي عمل العقل بأسباب أخطائه أم نوجد وسائل وأسباباً تحول دون ارتكاب العقل الخطأ ، إن الحواس لتخطئ أكثر من العقل إلا أن أحداً لم يحكم بتعطيل الحواس وبدعم استعمالها ، ولما لم يكن بالامكان الاستغناء عن العقل اضطر صلى الله عليه وآله وسلم إلى الجئولة دون وقوعه في الخطأ.

وإذا نفّذ الإنسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن فلن يقع في الخطأ ، عليه أن يقبل بالظن على أنه ظن ، والاحتمال على أنه احتمال أن يأخذ الظن والاحتمال على أنهما يقين إذ أن هذا يقود إلى الخطأ ، وهذا ما يؤكد القرآن :

" ولا نقف ما لبيس لك به علم " .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام : الآية- ١١٦ .

ويقع العقل في شرك الأخطاء حين يأخذ بالتقليد ويثق بكل ما كان الأجساد يفعلون ، بينما القرآن يأمر بأن يكون ميزان كل شيء هو العقل :

﴿ أُولَئِكَ كَانُوا مِنْ آيَاتِهِمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَكُونَ ﴾ البقرة : الآية- ١٧٠ .

ومنشأ الخطأ -كما ورد في القرآن- قد يكون اتباع هوى النفس وميولها وأغراضها المريضة ، وما من إنسان يكون سليم التفكير إلا إذا ابتعد عن شمر التفرّض والتحيّز ليعمل العقل في محيط يخلو من أهواء النفس :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ النجم : الآية- ٢٣ .

لا حدود للعلم :

إن المسلم العاقل والعلم لا يملك أمره الغرور بعلمه ، ولا يظن أنه المحيط علماً بكل شيء لأن العلم لا تنتهي به حدود ، يقول أحدهم :

" كلما اكتشفت مجهولاً كلما أدركت أنني لا أزال جاهلاً " .

إن المسلم يعتقد يقيناً بأن الله يعلم ما في السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، والظاهر والباطن . يقول تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف : الآية- ٧٦ .

إن التواضع في العلم هو مؤشر الفنى النفسى والعلمى والفكرى ، وإن هذا التواضع هو ظاهرة إيجابية تدعو الإنسان للاتصال الدائم بالعلم والفكر ، وللعمل على كشف المجاهيل ، وللاستزادة من فنون المعرفة ، وعدم الرضى بالقليل منه .

يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه : الآية - ١١٤ .

* منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال * .

للتفكير في القرآن أخلاقيته وللمعرفة التزامها : فالعقل يفكر في الله ، ووجهته طاعته
وخدمة الايمان : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " . العلم ينبغي بذله وبنفاقه
لأنه يزكو بالاتفاق وينمو بالتبذل ولأن زكاة العلم هي تعليمه ، ولأن طالب العلم
لهم حق في علم العالم يتناولونه حقاً مفروضاً لهم على العلماء ، إن الإنسان
مسؤول عما يفكر به وعما يعرفه ويدركه . كما أنه مسؤول عما هو قادر أن
يعالجه فكره ، ويدركه عقله .

البراجعين على وجود الله

أولاً : هل يمكن البرهنة على وجود الله ؟

قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَوِيلَةٍ
وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ يونس : الآية- ٢٢ .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فصلت : الآية- ٥٣ .

أجزاء البحث :

المنكرون :

الحشوية .

الصوفية .

فلاسفة مؤمنون .

فلاسفة ملحدون .

إمكانية البرهنة .

هناك من الترقق والباحثين من يرفض إمكانية البرهنة العقلية ، والامستدلال الفلسفي
على وجود الله ، هؤلاء منهم المسلمون ومنهم غير المسلمين ، منهم التقدمات ومنهم
المعاصرون .

مسوية :

وهم ' الذين ذهبوا إلى أن معرفة وجود الله تثبت بالسمع لا بالعقل ، أي أن الإيمان به لا يكفي ، ولا شأن للعقل فيه ' .

فالحشوية أو الظاهرية مذهبها بالنقل لا بالعقل ، بالتقليد والتجسيم بالتجريد ، وتذهب هذه الفرقة إلى أن العقل عاجز عن البرهنة على وجود الله وحسبنا في ذلك ما جاء به الشرع والنوحى . ابن خلدون في الغيبيات يذهب هذا المذهب ، ويقول بأن هذه الغيبيات لا يمكن البرهنة عليها لأنها ليست مادة ، وكفى ما ليس مادياً محال البرهنة والاستدلال عليه بالعقل ، لذلك أرجح اثبات ما هو غيبي إلى الشرع .

والحق يقال : إن الذي انتهت إليه الحشوية فيه قصور وخطأ ولا يمكننا الركون إليه والاعتماد عليه .

- أ. ألم ينهم القرآن الكريم الجاحدين المنكرين بأنهم لا يعقلون ؟
- ب. ألم يطلب القرآن الكريم للبنا أن نتفكر في خلق السموات والأرض فنعرف الله لأن الشيء يعرف بآثاره ؟
- ج. ألم تنته المحاورة العلمية والعقلية بين إبراهيم (ع) وقومه إلى أن أقول للكواكب وظهورها هما دليلاً على التغير والتحول اللذين يفيدان النقص وكل ما هو ناقص ليس جديراً بالعبادة ، ولا حرياً بأن يكون إليها .
- د. إن القول بإمكانية إثبات وجود الله عن طريق القرآن الكريم والسنة الشريفة يستلزم الدور .
- هـ. فإذا أردنا أن نثبت للربوبية بالكتاب وغيره يلزم أن يكون نبوت كل منهما متوقفاً على الآخر ، فيكون من توقف الشيء على نفسه ، وهذا هو الدور " .

الصوفية :

تقد شكك أهل الصوفية بالحواس وقیمتها في المعرفة وقالوا بأنها كثيراً ما نخطئ وأن معرفتها قاصرة على مظاهر الأشياء ولا تنفذ إلى ما وراءها والله معاً لا تتركه

١ - الكشف عن مرامي الأئمة لابن رشد ص ٣١ .

٢ - د. صامت في العقيدة الإسلامية محمد حنظل خمس ملدين ص ٦٨ .

حاشية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : الآية - ١٠٣] .

والعقل في هذا المذهب تبقى له في معرفته ارتباطات بالمادة ولو احفها فلا يمكنه التجريد الكلي ، إن معرفته غير يقينية وتنتهي إلى التخمين والظن ، لذلك فهي غير موثوقة ولا مأمونة وهي موطن شك ولا يمكنها أن تصل بنا إلى اليقين في الماورائيات وفي فكرة الألوهة .

فالمتصوفة جماعة وجدوا الطهارة في الروح فكان لهم معها مناهج تطهير ، وبهذا المنهاج كان لهم الانكشاف ، وكانت لهم أنوار الحقيقة يغنفها الله في قلوبهم عن طريق الكشف الباطني أو العقلي أو الحسني الذي هو معرفة تملأ القلب وتظهر فجأة بدون مقدمات وبدون فروض وبراهين وترتيب . وفي هذا يقول ابن رشد : ' الصوفية ليست طرقاً نظرية [عقلية] وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية ، وإقبالها بالفكرة على المطلوب ' ١ مأخذنا على الصوفية :

١. حصر معرفة الله بطريق الكشف والحس .
٢. إهدار قيمة العقل وشل فاعليته وقدرته على الخلق والإبداع .
٣. التعارض مع ما حدث عليه القرآن الكريم من التفكير في خلق السموات والأرض ، والتدبر لشؤون الكون بمختلف الجوانب لمعرفة أسرار وقوانينه وانظمته وما فيها من دقة وحكمة تشير إلى وجود الخالق العظيم .
٤. بعث الشك بالمعارف والكشوف والقوانين العلمية ! وإلّا فما هو الميزان أو المقياس ؟
٥. إن الصوفية هي تجربة شخصية ، ولا يعرف كتبها إلا الذين جربوها ومارسوا منهاجها ولا دليل على صدق التجلي والكشف إلا شهادة العرف وادعاء الواصل .

١ - مناهج الأدلة ص ٤٤ .

ليس في ذلك أن طريقة الصوفية في المعرفة محصورة بأصحابها وأن هذه المعرفة ليست عامة للناس ؟

فلاسفة مؤمنون :

وما ذهب إليه للصوفية في نظرية المعرفة ذهب إليه بعض من الفلاسفة المؤمنين في القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثال كانت وبسكال وكسلك دولباك وجسمد روف ولترسيثس .

هؤلاء الفلاسفة كان من فلسفتهم أن التعرف على الله والتدليل على وجوده ممكن ، لكن بخير الطريق الفلسفي العقلي ، إنما عن طريق الحدس والقلب .

لقد كان يقول " كانت " من المؤمنين بالله إلا أنه يكل الإيمان إلى الضمير ولا يعتمد فيه على البراهين العقلية التي تستمد من ظواهر الطبيعة .

يقول بسكال :

" إن القلب هو الذي يستشعر الله ، لا العقل ، هذا هو الإيمان ، الله محسوس للقلب لا للعقل " ^١ .

ويقول ولترسيثس :

" لا بد من أن تكون هناك طريقة أخرى لمعرفة الله على سبيل آخر ، غير سبيل العقل للمنطقي ، وليس هذا سوى الحدس " ^٢ .

لقد حاول جسد روف تبرير هذا المذهب والبرهنة على سلامة هذا المنهج بقوله :

" إن القول الفلسفي عن الله مآله الإخفاق " :

أولاً : لأن المنهج التأملّي يسير بواسطة تحديد التصورات وتركيبها بعضها مع بعض ، والله ليس تصوراً ، ولا يوجد تصور يناسب مقام الله ، والماهية الإلهية لا يمكن دون الوقوع في تناقض حصرها ضمن حدود التعريفات الانسانية ، وكل فكرة عن الله لا يمكن إلا أن تكون فكرة ناقصة وأدنى مستوى في هذا المعنى من الأفكار الواضحة المتميزة لأشياء حقيقية مثل الدائرة أو المثلث .

^١ مدخل جسد إلى الفلسفة : [١١٤] .

^٢ في كتابه : الإيمان والأذن : [٢١٢] .

إن الرغبة في البرهنة على وجود الله أمر بالغ الهزل ، فبما أنه موجود ، وحينئذ لا يمكن البرهنة عليه (كما لا يستطيع أن أبهرن على وجود شخص ما ، وأقصى ما أستطيعه هو أن أجد عليه شواهد لكنني بهذا أفترض وجوده) أو الله غير موجود ، وهذا أيضاً لا يمكن البرهنة عليه ^١ .

من هذا القول يمكن ملاحظة الآتي :

١. إن جسد روف يحكم على الدليل الفلسفي بأنه يعتمد على التنازل ويسير بواسطة تحديد التصورات باستخدام قضايا العقل الأولية البديهية والاستنباط منها بواسطتها .

الله ليس تصوراً داخلياً إنما هو حقيقة موضوعية خارجية .
لا يمكننا أن نتصور الله لأن تصوراتنا عنه ناقصة ولا تحيط به .

٢. لقد أصاب جسد روف القول بأن الله ليس تصوراً ، وبأنه محال أن نملك التصور الكامل عن الله لأن جملة تصوراتنا عنه يعثرها النقص .

لكن الخلل الذي أتم بموقف جسد روف هو حكمه على تصوراتنا الناقصة عن الله بأنها مخالفة للواقع وسفيرة للحقيقة ، وأنها على خطأ كلياً !

والحقيقة أن تصوراتنا لله حين تكون ناقصة ليست إلى ذلك لا في قليل ولا في كثير إنما تكون عاجزة عن تصور كل حقيقة الله وإيضاح واقعه .

حينذاك نقول بأنه يمكن البرهنة العقلية على وجود الله حسب تصوراتنا وإن كان ذلك ناقصاً ، وإن كان لا يحيط بالله لأن الله لا يحيط به شيء ويحيط بكل شيء .

فلاسفة مانيون ملحدون :

يقول الفيلسوف الانجليزي بيكون منذ أكثر من ثلاثة قرون :

١ - مادل جديدي إلى الفلسفة : (٢١٤) .

٦ إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإحلال ، أما التعسق في
الفلسفة فيرده إلى الدين * .

ويقول أوليفر اندل العالم الطبيعي :

٧ كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالتفهم
الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله ٨ .

- لكن الدين شيء لا حقيقة له عند الملحدين من العلماء والفلاسفة من هؤلاء
العلماء والفلاسفة : أوجست كونت ، وكارل ماركس ، وهوبز وهيوم ،
وسيل ، وبرتر اندرسن ، ودوبارك .

- إن المذهب للوضعي الذي يعتبر كونت من مؤسسيه ، وأير الأنجليزي من
دعائه الكبار ، يقول بأن الحسن والتجربة هما المصدر الوحيد لكل معرفة ،
لا واقع ولا موجود إلا المحسوس الذي يخضع للتجربة ، فالله ، والروح ،
والجنة والنار ، وكل شيء ما ورائي هو لا معنى له ، وليس شيئاً أصلاً ،
وليس موجوداً ، ولا يمكن البرهنة على وجوده .

- فالتعريف على الله عند هؤلاء محتل ، ومن المذاجة محاولة البرهنة عليه .
يقول 'دولباك بأن الإنسان محدود ، بينما الله على ما هو المفروض غير
محدود ، وكيف يحيط المحدود بغير المحدود ، فالله لا يمكن إثباته ، كما
ولا يمكن إقامة الدليل العقلي على وجوده .

- إن موقف دولباك وأسأله من اللامنيين مرتبك ، وحسبنا من الرد عليهم ما يلي :

أ- ليس كل ما نهجه معدوماً ، ولا كل ما لا نحسه غير موجود .

ب- إن التعريف على الشيء لا يعني الإحاطة بذلك الشيء واحتواءه ، إنما
التعريف عليه هو أن تحمل في ذهنك صورة ذلك الشيء ثم تؤمن بأنها
صورة صحيحة ومطابقة للواقع الخارجي .

٦- الله يحيى و عمر بن عمر : [٥٢] .

جـ- المادّي بصورة مادية محسوسة ، فإنه يمكن أن يتجلى إلى قلب
الإنسان ووجدانه وضميره عن طريق الممارسة الداخلية والصوفية وذلك
الذي يقال له : " الدليل الباطني كما يمكن لله أن يتجلى إلى عقل الانسان
بأسباب التأمل والتفكير وذلك الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم الدليل
النفسي ، ولماذا لا يتجلى الله بأثره المادية الذالة عليه ؟

﴿ سَتَرِيهِمْ أَنبَتْنَا فِي الْأَقْصَىٰ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فصلت :
الآية- ٥٣ .

علوم القرآن

المجلد الأول

الفهرس	
المقدمة	١
العلم:	
ما هبة لفظة العلم والقرآن وأسمانه	١
منزلة القرآن وبعض قضاياه وفنونه	٨
الترغيب في قراءة القرآن	١٠٤
التنير في القرآن	١٠٨
علوم القرآن:	١١١
ظاهرة الوحي (١) تحديد الوحي وصوره	١٣٠
ظاهرة الوحي (٢) الوحي واحد في كل الرسالات	١٣٨
ظاهرة الوحي (٣) لماذا الوحي ؟ لماذا النبوة ؟ ما مدى الحاجة إليهما ؟	١٤٦
ظاهرة الوحي (٤) شخصية النبي كيف نعرفها ؟	١٦٠
ظاهرة الوحي (٥) الرسالة	١٧٥
ظاهرة الوحي (٦) الوحي بين المهيبط والكتاب	١٨٣
ظاهرة الوحي (٧) شبهات حول الوحي المحمدي	١٩٤
ظاهرة الوحي (٨) ملحق ونموذج من الشبهات	١٩٩
ظاهرة الوحي (٩) شبهات وردود	٢٠٨
شكل القرآن وإعجابه	٢٣٨
الوحي المحمدي في أوروبا الوسطى	٤١٧
العقل في القرآن	٤٢٨
البراهين على وجود الله	٤٣٧



الرويس - خلف

هاتف: ٢٨٧١٧٩ / ٠٣

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - lb

@daralmahaja.com

